# الهوسوعة الشامية ف ناريخ الخواليطليبية

تواريخ أسرة بلانتغنت

تأليف وَ تحقيق وَرْجِدَ الأسساد الدكنورية بالركار

دمشق ۱۹۹۸ / ۱۹۹۸

الجزء الثلاثون

# الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

تواريخ أسرة بلانتغنت

تأليف وتحقيق وترجمة الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق ۱۹۹۸/۱٤۱۸

الجزء الثلاثون

# بسم الله الرحمن الرحيم

## توطئة

شعرت أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أن الفرنسيين ساهموا فيها يعرف باسم الحملتين الأولى والثانية المساهمة الأوربية الأساسية، لكن منذ مقدمات حطين شهدت الساحات الأوربية تبدلات سياسية هامة، كان أبرزها بالنسبة لموضوعنا تعاظم دور انكلترا، واتساع رقعة مملكتها، فقد بات ملوك انكلترا سادة فعليين على جميع أجزاء بريطانيا بها في ذلك إيرلندا، وامتلكوا أجزاء واسعة من القارة الأوربية ،أو بالتحديد من فرنسا، جعلت حدودهم مجاورة لحدود اسبانيا، التي تحالفوا معها عن طريق الزواج الدبلوماسي وتبادل المصالح.

لذلك كان على البحث عن مزيد من المصادر لتغطية هذا، ولزيادة المعلومات عما يعرف باسم الحملة الثالثة ، حيث أنه باخفاقها، انتهى عصر صلاح الدين، وتمزق المشرق الاسلامي من جديد، وبالوقت نفسه عانت أوربا من الصراعات، لاسيما بين فرنسا وانكلترا، وهكذا عجزت أوربا عن توجيه حملة عملاقة جديدة نحو المشرق ، وكنا قد رأينا من قبل أخبار ومصير الحملة الرابعة، وسنرى ان شاء الله في مجلدات مقبلة أخبار ومصير الحملات الخامسة والسادسة والسابعة، التي كانت صغيرة نسبياً .

وقمت منذ عام ١٩٩٦ بعدة رحالات علمية أوصلتني الى أهم المكتبات من مكتبة الكونغرس والمكتبة البريطانية، ومكتبات القاهرة والى

غيرها كثير، وهكذا وفقت والحمد لله فحصلت على ماكنت بحاجة إليه وعلى أشياء جديدة، كان منها المجلد الذي أكتب له هذه التوطئة ،فهو قد نشر للمرة الأولى في لندن عام ١٩٩٥ ،وهو يحتوي زبدة تواريخ أسرة بلانتغت التي انحدر منها: فولك ملك القدس ، ووالد بلدوين الثالث وعموري الأول، ومنها جاء هنري الثاني ملك انكلترا ومن بعده ابنه رتشارد قلب الأسد.

وفي هذا المجلد من المواد مالانجده في غيره من المصادر، فمن خلاله نحصل على صورة مفصلة عن أوضاع كل من انكلترا وفرنسا قبل نشوب أحداث الحملة الثالثة وبعد ذلك، ونتعرف على العلاقات بين الأسر الحاكمة والاقطاعية ، وفوق هذا نشهد الفوارق بين المستوى الحضاري لعرب المشرق وبين مستويات أوربا، ونميز بين عقليات رجال الدين والكنيسة وايهانهم بالغيبيات، وعقليات رجال السلطة، وكيف تضاربت دوما المصالح بين الكنيسة والدولة، وكيف توفر الاجماع حين تعلق الأمر بالصليبيات، لابل كانت الصليبيات هي المخرج للأزمات الحادة .

وفي هذا المجلد مجموعة من الوثائق غير متوفرة في مصدر آخر، هذا وإذا ماجمعت مواد هذا المصدر مع مواد ذيل تاريخ وليم الصوري ، ومع المجلدين المقبلين، يمتلك حينها المؤرخ العربي والقاريء المهتم من المواد ماليس أغنى ولا أهم، فهنا نشهد عظمة صلاح الدين ورجال عصره من خلال ماقاله الأعداء ، ذلك أن ماذكره الأصدقاء لايكفي ، فابن شداد حين أرخ لحياة صلاح الدين كان شيخاً لم تسعفه ذاكرته بذكر التفاصيل، فضلاً عن أن منهجه ومقاصده وقتها لم تكن مع التفاصيل ، وأغرق العاد الكاتب كل مايحتاجه المؤرخ بالصنعة ، ثم إن المؤرخ العربي لم يهتم بكل مايهتم به المؤرخ المعاصر .

بوساطة المصادر الغربية تكتمل الصورة ، وتصبح أكثروضوحاً ونقاء، صورة عصر جاء تتويجاً لما تقدمه من عصور ، وصورة بطل وحدودي

مجاهد لانظير له يحاول بعض المرضى في أيامنا النيل منها، ونتلقن منها درساً خطيراً، أن اسرائيل قادرة الآن على العيش في الوسط العربي لأنها الكتلة السياسية الوحيدة الموحدة داخل طوق عسكري وأمني مرعب، وأن المشرق العربي إذا لم يوحد هو مهدد بالزوال، عن طريق الدمار أو الاحتواء أو الشرق أوسطية ،أوالعولمة، أوغير ذلك.

في الماضي رأى صلاح الدين هذه الصورة ، فنجح في تحقيق الوحدة، فحقق النصر في حطين وحرر القدس ، وصمد في ملحمة عكا، وطبعاً كان أساس الوحدة لديه وحدة الشام ومصر، ولابد اليوم من العمل في سبيل إعادة الوحدة بين هذين البلدين لينضم بقية العرب إليها، فالأمن، والبقاء والكرامة والتراث موجود في الوحدة ، والوحدة هي عمل في سبيل العروبة والاسلام، وفي سبيل الانسانية ، وفي سبيل النجاة من الاستعباد ومن الأتوقراطية الأمريكية، وكلي أمل أن يتحول التنسيق والتعاون بين دمشق والقاهرة الى مشروع وحدوي، والله المستعان، ومنه جل وعلا يأتي التوفيق، والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهداه الى يوم الدين.

دمشق: ۹ شوال۱۶۱۸ شباط ۱۹۹۸ سهیل زکار

#### مدخل

يعود فضل ارساء قواعد أسرة بالانتغنت إلى سلسلة غامضة من شحن القلاع في وادي اللوار، الذين ارتقوا في القرن العاشر ليصبحوا كونتات أنجو، ولقد كانـوا ذوي مزاج ناري، وأقوياء في القتال، يسرعـون للانتقام مما لحقهم من أخطاء، غير أنهم كانوا كرماء نحو الكنيسة، وبهذه الصفات كان هوولاء الرجال ذوي تأثير رفيع في شغل أدوارهم في النشاطات السياسية المعقدة، وبالتدريج تمكنوا من بناء قاعدة سلطوية قوية من خلال مزيج من النشاط الحربي، والدبلوماسي، والزيجاب السياسية الجيدة والتحالفات، ففي سنة ١١٢٨ غدا الكونت فولك الخامس، الذي كان محترماً وناجحاً، ملكاً للقدس، وكان حكم أنجو قد تركه لابنه غيوفري الأشقر (١١٢٨-١١٥١)، وتمكن غيوفري من الاستيلاء على نورماندي، وإدعى الحق بعرش انكلترا من خلال زوجته الامبراطورة ماتيلدا، وكانت هذه نقطة حاسمة في أهميتها بالنسبة لسعد الأسرة في أوروبا الغربية، وكان موائماً أن يحمل أبناء غيوفري لقبه «بلانتغنت» كاسم لأسرتهم، وصدر هذا الاسم من ارتدائه قبعة زينت بقشة مكنسة (غنت Genet ) وسار ابنه هنري الثاني على خطا الأنجيفيين التقليدية بالتحرك السياسي، فتـزوج زواجاً رائعاً، وكان مهاجماً كبيراً وفعالاً، ولذلك أقام مملكة واسعت، وحافظ على ممتلكاته التي امتدت من الحدود الاسكوتلندية إلى جبال البرانس، وحوت هذه الملكة أكثر من نصف فرنسا، وخلفه بعد موته اثنان من أولاده: أولهما رتشارد الأول (١١٨٩-١١٩٩)، وكان قائداً عسكرياً جذاباً وفعالاً وصليبياً، وثانيهما جون (١٩٩١-١٢١٦) الـذي فقد معظم ممتلكاته الفرنسية، بها في ذلك مسقط رأس أجداد الأسرة في أنجو، فقدها لصالح فيليب الثاني ملك

فرنسا، وكاد أن يخسر تاجه لصالح لويس بن فيليب، وكان سلوك جون سيئاً نحو باروناته، وكان قاسياً ومتقلباً تجاههم، فنجم عن هذا صدور مرسوم بالاصلاحات (ماغناكارتا) له ذكر دائم، ولم يتعلق الأمر بالحد من سوء تصرف الملوك وارغامهم على الاصلاح فحسب، بل أرسى القاعدة لحقوقنا العامة وحرياتنا.

وإلى القرن الثالث عشر، كانت المقدرة على القراءة والكتابة تقريباً حصراً بالناس العاملين في الأديرة والكنائس، من الكهنة العاديين، إلى العلماء ورؤساء الأساقفة الكبار ورعاة الديرة، واحتاج الملوك والنبلاء إلى كتّاب يديرون لهم حكوماتهم ويتدبرون شؤون محاكمهم القانونية، ويجمعون لهم الضرائب، ويحافظون على سجلات أموالهم، ويتولون صياغة وكتابة مراسيمهم التي حوت أوامرهم المتوجب تنفيذها، وصحيح أن الناس تحادثوا فيها بينهم وكتبوا الشعر والأغاني بلغاتهم المحلية، لقد كانت لغة الكنيسة والحكومة خلال العصور الوسطى في أوروبا هي اللاتينية، وشكلت هذه اللغة جسراً فيها بين رجال الدين مها كانت أصولهم والبلدان التي جاءوا منها، لكنها بالوقت نفسه عزلتهم عن بقية المجتمع، حتى أثناء شغلهم لواجباتهم الأساسية في الوساطة عن بقية المجتمع، حتى أثناء شغلهم لواجباتهم الأساسية في الوساطة لدى الرب من أجل السلامة الروحية لبنى البشر.

وجاءت غالبية المؤرخين في العصور الوسطى من الديرة أو من الكاتدرائيات الكنسية، وهي أماكن كانت في يوم من الأيام البيوت الراسخة للصلوات، وكانت بالعادة مؤسسات حسنة التنظيم، وعظيمة الفخار بتقاليدها الخاصة، وبالطبع مسؤولة عن سلامة ممتلكاتها والحفاظ على استقلالها، ولم ينشد المؤرخون إنتاج كتابات تاريخية عقلانية التحليل والصياغة مثلما يفعل مؤرخو هذه الأيام، بل استهدفوا أن يظهروا ماقضاه الرب فجاء على شكل أحداث، مبتدئين بأخبار الخليقة صعوداً مع الأحداث حتى أيامهم، وكان من الممكن للمؤرخ تنفيذ ذلك بالتأريخ

لبلده، وكذلك بالحديث عن انتصارات وآلام ديره، أو عن حياة قديس أو حاكم من الحكام.

وصحيح أن المؤرخين خضعوا لتصاريف أحداث أيامهم، غيرأنهم كتبوا لأسباب متنوعة، فبعضهم كتب لتمجيد ملك من الملوك، أو دير من الديرة، أو قديس من القديسيين، وكتب آخرون للتوجيه الذرائعي، أو للشرح أو للتسلية، لكنهم جميعاً أظهروا بوضوح الدروس الدينية والأخلاقية بشكل ما، وتطلعوا جميعاً نحو المستقبل، وتعايشوا مع الآمال الكبيرة في أن الأجيال المقبلة، ستعتمد على تواريخهم وتنقل عنها بكل حرية، ولقد حدث هذا بالفعل في كثير من الحالات، فعلى سبيل المثال كان كتاب «تاريخ الانكليز» لهنري أوف هنتنغدون ناجحاً جداً، وقد جرى نسخه مراراً كثيرة في القرن الثاني عشر، وتنقل بين أماكن كثيرة وظل المصدر الأساسي لعصره حتى القرن السابع عشر، ووصلتنا بعض وظل المصدر الأساسي لعصره حتى القرن السابع عشر، ووصلتنا بعض كتبه الأخرى من خلال نسخة واحدة أو نسختين قديمتين، ومن بينها حيراً القديس هيوج»، ونادراً مانسخ هذا الكتاب في انكلترا الوسيطة، غير أنه بات واسع الانتشار في القارة منذ القرن الخامس عشر فصاعداً.

وسلف أن طبع كتاب هنتنغدون في التاريخ، وكذلك كتابه عن حياة القديس هيوج، وكان ذلك في القرن التاسع عشر في انكلترا وبالانكليزية، ولم يطبع الكتاب الأول ثانية منذ القرن التاسع عشر، غير أن النصوص الأخرى في هذا الكتاب قد ترجمت للمرة الأولى، وبسبب المساحة، لم تتم طباعة نصوص الكتب كاملة، بل جرى اختيار نقول تولت وصف الوقائع الرئيسية في كل سنة من السنوات المتابعة، وايضاح مقاصد الكتاب واهتهاماتهم الخاصة، وجرى بالنسبة لبعض النقول الطويلة، والنصوص (وأحياناً الجمل والمقاطع) حذف متعمد بغية تجنب التكرار، أو لايضاح أسلوب الأصل.

واستفدنا فائدة كاملة من بعض اهتهامات مؤرخينا بالصدق والصحة، فكتاب ديسيتو "صورة التاريخ" قد كتب بشكل واضح ومحكم في داخل اطار موثق ومرتب، وهناك على كلّ حال بعض المصادر الأخرى بمثل تواريخ كونتات أنجو— زاخرة بأساطير لافائدة منها، وهي تتحدث عن حكايات درامية، وأعهال فروسية، أكثر من اعطائنا رواية تاريخية واضحة للأحداث، وحدث بالحقيقة في بعض المناسبات أن قام الكتّاب باختراع حوادث لم تقع قط، وهي تتعارض مع روايات أخرى الكتّاب باختراع حوادث لم تقع قط، وهي تتعارض مع روايات أخرى حيث المنطلق، قد لاتتفق دوماً مع بعضها بعضا، وتظل أقل قبولاً بالنسبة للتفسير الحديث للوقائع، أو في إعطاء تعريف وتحديد للأماكن وايضاح النص المحقق (وطبعت بعض الشروح بأحرف سوداء ماثلة وايضاح النص المحقق (وطبعت بعض الشروح بأحرف سوداء ماثلة قليلاً وبوساطة عبارات وردت بين حاصرتين مربعتين في ثنايا النص)، وفيا عدا تزويدنا للنص أحياناً بتواريخ وكنى وألقاب لتمييز بعض المشاركين الرئيسيين، تركنا المؤرخين يتولون بأنفسهم حكاية رواياتهم.

#### المؤرخون

انطلق في أوائل القرن الثالث عشر كلّ من جيرف اس الشالث كهنة المذي كان راهباً ثم غدا المحافظ على الآثار المقدسة في رئاسة كهنة كاتدرائية كانتربري، ورالف راعي دير كوغشال المحافظ المرح لكتابة تاريخ للشعب الانكليزي ولملوكه، وتولى كلّ واحد منها شرح هذا التاريخ بقدر ماهو مرتبط بتاريخ كنيسته، وزودانا بالصدفة بكثير من الحكايات المسلية والمواد المفيدة حول السياسات الانكليزية المتعلقة

بالسنوات: ١٢٠١ حتى ١٢٠٠، حيث هي قليلة جداً في مصادر الأخبار الأخرى، وهناك حوليات بارنول Barnwell التي كتبها راهب أو كاهن مجهول، وهي هامة جداً وفيها شواهد ثمينة عن السنوات الأخيرة لحكم جون (١٢١٠-١٢١)، وتظهر بالمقارنة القليل من الميول الاقليمية (جرى حفظ النص في دير بارنول لكنه ربها لم يكتب هناك)، وتقدم هذه الحوليات مقاربة متوازنة لمسألة الصراع فيا بين الملك جون وباروناته، وقد عبر عن شيء من التعاطف مع الثوار وكذلك مع جون، الذي هو شخصية مؤذية جداً لدى المؤرخين المتأخرين.

وأنتجت بعض الديرة تواريخ رسمية لحماتها من الملوك أو النبلاء، فعلى سبيل المثال قام الراهب جون فيها بين ١١٦٤ و١١٦٣، في دير مارموتير Marmoutier في وادي اللوار بكتابة نص جديد من كتاب «أعمال كونتات أنجو»، وكان أصل هذا الكتاب المثير والدرامي قد صنف وجمع في الدير في بلاط الكونتات أثناء القرن المنصرم من قبل عدد من المؤرخين، بها في ذلك الراعي أودو، وتوماس أوف لوشي Louches اللكونت فولك الخامس، وكثير من محتوياته، لاسيه المواد المتعلقة بالأنجيفيين الأوائل، لاتتعدى الأسطورة سوى قليلاً، وهي على كل حال كتبت وأهديت إلى هنري الثاني نفسه، وقد كان أعظم ملوك أسرته، فضلاً عن كونه أيضاً ملكاً لانكلترا ودوقاً لنورماندي وأكوتين، وبعدما كمل جاء الراهب جون فسار بالحكاية وذيل عليها وصفاً ملوناً وعظيم الإطراء جاء بمثابة ترجمة لغيوفري الجميل، والدهنري الثاني.

وتتعارض حكايات الراهب جون أوف مارموتير المتدفقة بالحياة والتي هي بالغالب غير شرعية مع مقاربات عدد كبير من مؤرخي الانكليز للقرن الثاني عشر التي هي أكثر توازناً، فقد قدم هنري رئيس شامسة هنتغدون Huntingdon في كتابه «تاريخ الانكليز» رواية شبه

معاصرة عن حكم ستيفن، وكانت هذه الرواية في يوم من الأيام مقروءة ومليئة بالدروس الأخلاقية، وتحتوي على مواد واقعية، لئن كانت قد اختيرت بعناية فهي قد عرضت بشكل دقيق، وحظي هذا الكتاب في البداية على موافقة روجر أسقف سالسبري، الذي كأن شخصية دينية قيادية وعاملاً في الادارة الملكية، ثم أعاد المؤلف كتابته وغير توزيع مواده بحكم ازدياد شعبيته، وأعظم تدقيقاً من هـذا الكتاب في صياغته كتاب «صورة التاريخ» لرالف أوف ديسيتو، وهو كاهن وموثق وفيها بعد عميد كاتدرائية القديس بولص في لندن، وقد ظل يكتب حتى سنة ١٢٠١، وهي كما يظن سنة وفاته، وكان ديسيتو مثله مثل معاصره روجر هاودن Howden (الذي من المؤكد أنه كتب تاريخاً، ولربها كتب أيضاً كتاب «أعمال الملك هنري الثاني والملك رتشارد الأول») قد انطلق لاخراج كتـاب في التـاريخ صحيح، وبما أنــه ركـز بشكل خـاص على الكنيســة الانكليزية نهل بشكل كبير من الوثائق الملكية ورسائل أيامه التي حكت الرواية التي أراد الانتفاع منها، وقد حلل الأحداث، مستخدماً اشارات هامشية لإظهار مواضيع مختلفة مثل الصراعات بين الكنيسة والدولة، والشجار بين هنـري الثاني وأولاده، وهي وقـائع شهدهـا وهي تقع. ولابد لكل كاتب ينشد تقديم رواية ايجابية عن أيامه من أن يواجه مشاكل مثل: اعجاب ديسيتو بهنري الثاني، واطرائه لاستشهاد توماس بكت، وهو حادث كان الملك مسؤولاً عنه بشكل غير مباشر، غير أن هذا العائق قد أنتج نتائج ثمينة، لأن روايته عن الشجار بين الملك ورئيس الأساقفة تحتوي على شعور رائع عن الفصل بينهما.

وقدم وليم فتنستيفن، الذي كان كاهناً عمل من قبل في حاشية بكت، في كتابه «حياة القديس توماس بكت»، الذي صنفه في سبعينات القرن الثاني عشر، بعد أمد وجيز من وقوع حادث الاستشهاد، رواية حية ودرامية عن حياة رئيس الأساقفة وعن موته، وهي رواية مليئة

بالملاحظات الاجتهاعية، كما وتحتوي على وصف هام لمدينة لندن، مسقط رأس بكت، وكان القصد الخاص من هذه الرواية هو تمجيد صاحب موضوعها ورفع شأنه، ومثل هذا فعل آدم أوف آينشام Eynsham في كتابه «حياة القديس هيوج أوف لنكولن»، الذي كان واحداً من أعظم شخصيات الكنيسة الانكليزية في القرن الثاني عشر، وكان هيوج مثله مثل بكت، قد اختلف مع هنري الثاني ومع أولاده حول الامتيازات اللاهوتية، غير أنه كان قادراً على استرداد الرضى الملكي بوساطة روح الدعابة الجريئة لديه، وهي سمة افتقدها —كما يبدو— بكت.

وكان كلّ واحد من المؤلفين حريص على عدم توجيه النقد للملك كثيراً، وذلك على النقيض من جيرالد أوف ويلز في سنواته الأخيرة، وكان جيرالد رئيس شهامسة بريكون Brecon خصب الإنتاج وكاتباً شعبياً حول موضوعات مثل عادات وسهات الويلزيين والايرلنديين، لكنه كان متألماً لاخفاقه الطويل في أن يصبح أسقف القديس داود، ودبج هجاء قاسياً وعدوانياً ضد القدر الذي قهر الحاكم المذنب، مع اشارة خاصة إلى هنري الثاني.

وبالاضافة للشروح والحواشي هناك تفاصيل كاملة حول المخطوطات التي اعتمدت مع أسماء المؤلفين في نهاية الكتاب.

# القسم الأول

#### أصول الأسرة الأنجيفية

تأسس سعد بيت أنجو على طاقات انغلر Ingelar وشجاعته، وهو عسكري شبه أسطوري، لكنه كان سعيد الحظ فاستطاع انتزاع دويلة لنفسه في وادي اللوار، وقام ابنه فولك الأحمر على مابناه وأسسه فاستطاع في ٩٤١ أن يصبح كونت أنجو، وتمتعت المنطقة في ظل حكم فولك الجيد (٩٤١-٩٢٠) بوقت من الازدهار والاستقرار، وحكمت أنجو خلال المائة والسبعين سنة التالية من قبل رجال متميزين وغير عاديين، وكانت بسالة غيوفري «الرمادي الثوب» (٩٦٠-٩٨٧) مزيجاً من الأساطير، وبحكايته يبدأ تاريخ أسرة بالانتغنت، وكان فولك نيرا Nerra (١٠٤٠-٩٨٧) عنيفاً وجلَّاباً، وقاسياً، ومعلماً في استراتيجية بناء القلاع، وجاء من بعده غيوفري مارتل (١٠٤٠ – ١٠٦٠) الذي كان أكثر براعة، ثم من بعد خسين سنة أو نحوها من سنين الفوضي كان فولك الخامس (١١٠٩-١١٢٩)، وهو الذي أصبح ملكاً على القدس، وورد وصف حياتهم وأعالهم بشكل براق، وغالباً فيه تزوير، في «تاريخ كونتات أنجو»، وكأن هـذا التاريخ الثمين نتاج عـد من الكتّاب، بمن فيهم توماس أوف لوشى Loches الذي كـان شهاس الكونت فولك الخامس، وقد أخذ هذا الكتاب شكله النهائي في ستينات القرن الثاني عشر، على يد جون الذي كان راهباً في دير مارموتير.

ولد لفولك الجيد ثلاثة أولاد، كان أكبرهم غيوفىري، وهو الذي أصبح كونتاً لأنجو، في حين غدا غي، وهو الثاني أسقفاً له «لى-بوي»، وكان دروغو Drogo وهو الأصغر، الأثير لدى فولك، ذلك أنه ولد، وفولك قد صار في منتصف العمر، وانصرف هذا الابن نحو الثقافة والآداب، والفنون الحرة، وتمكن بفضل مساعي هيوج كابيه ملك فرنسا، أن يخلف أخاه، أسقفاً له لل-بوي».

#### سنة ستين وتسعيائة

كان الكونت غيوفري عسكرياً بارعاً، وفق الطرائق الفرنسية، صامد القلب، وقوياً وناجحاً جداً في القتال.

وكان في تلك الآونة هوستن الداني Huasten يهاجم منذ ثلاث سنوات سواحل فرنسا، والتحق الآن بابني عمه (أو خاله) ادوارد وهلدوين Hilduin اللذان كانا كونتا فلاندرز، وكان معه قوة مكونة من خسة عشر ألفاً من الدانيين والسكسون، بينهم مقاتل متفوق جداً في بنيته وشجاعته، واسمه إيثولولف Ethelulf وكان الدانييسون والسويديون ينهبون معاً الأراضي الفرنسية ويعيثون فيها فساداً، ويحرقون البلدات والقرى حيثها استطاعوا، وتمكنوا بمساعدة من الفلمنكيين من اللستيلاء على معظم منطقة فلاندرز حيث جعلوها طعمة للنار وللسيف، وكانت هذه المنطقة مسكونة من قبل الفرنسيين، وقد فعلوا هذا كله قبل أن يقرروا الزحف نحو باريس واظهار الخوف والرعب هناك.

وارتعب الملك الفرنسي تجاه هذا، فوجه الدعوة إلى جميع نبلاء فرنسا للاجتماع جميعاً في باريس في يموم أحد الشعانين، واقترب إيشولولف الداني، الذي هو جالوت جديد، باستخفاف من المدينة، وطالب بمبارزة

فردية مع فارس فرنسي، وبعدما لاقى عدد من أشجع الفرسان الفرنسين وأكثرهم نبلاً الهزيمة والقتل في المبارزة أصيب الملك بالهلع، وحظر على أي واحد آخر الخروج ضد إيثولولف.

وكان عندما سمع غيوفري صاحب أنجو الرسالة الملكية، التي دعته إلى الاجتماع يوم أحد الشعانين أعد نفسه لمغادرة أراضيه من شاتو — لاندون Chateau-Landon لكن عندما سمع بقوة الدانيين ووحشيتهم، سافر سراً، ومعه فارس واحد مع اثنين من التابعين.

وأخذ معه حصاناً واحداً، وعبر نهر السين مع الفارس واثنين من الطحانين، وعندما رأى الكونت الداني وسمع صيحات حربه، زبجر، وبسرعة صبّ عليه سلاحه، وامتطى حصانه، وتبرك رفاقه في المركب، وانطلق وحيداً فوق السهل ليشتبك مع عدوه، وهمز كل واحد منها مطيته واقتربا من بعضها بعضاً، وطعن الكونت عدوه في صدره، وألقاه أرضاً، وقد خرج السنان من بين لوحي كتفه، وعندما نظر غيوفري نحو الخلف كان بإمكانه أن يرى الداني وهو يئن ويزجر ويحاول جاهداً الوقوف مع نظرات تهديد بعينيه الغاضبتين، ولذلك ترجل مسرعاً، ومثله مثل داود ثان، استل سيفه وقطع به رأسه، ثم عاد على الفور فامتطى فرسه وعاد مسرعاً نحو المركب ومعه رأس عدوه وفرسه، وأعطى الرأس فرسه وعاد مسرعاً نحو المركب ومعه رأس عدوه وفرسه، وأعطى الرأس السادون ليلتحق برجاله الله باريس، بينها عاد متستراً إلى المواحد من الطحانين ليأخذه إلى باريس، بينها عاد متستراً إلى

ووصل حامل الرأس إلى المدينة، وأعلن أمام الملك، أنه وإن كان لايعرف هوية الفارس، هو بلاشك سيتعرف عليه إذا مارآه ثانية.

ووصل إلى باريس في اليوم المحدد جميع الذين جرى استدعاؤهم: الدوقات والكونتات والنبلاء لجميع فرنسا، وهكذا اجتمع جميع رؤساء الرجال المتميزين بالبراعة والقدرة مع بعضهم في القصر الملكي، وجلس

غيوفري كونت أنجو بين البارونات مرتدياً مئزراً من القهاش الرمادي الخشن، مما اعتاد الفرنسيون على تسميته: «الرمادي الفاقع» والأنجيفيون: «الخشن».

ونظر الطحان، الذي استدعاه الملك للتعرف بهذه المناسبة، نحو الكونت وعرفه على الفور، وبعد نيله للإذن من الملك، اقترب منه وهو يبتسم، وبعدما ركع على ركبتيه أمسك بإزار الكونت وقال للملك وللذين كانوا حاضرين: «هذا هو الرجل، الذي يرتدي مئزراً رمادياً، إنه الذي أعاد لنا شرفنا عندما قتل الداني وألقى بالرعب في قلوب جيشهم»، وأمر الملك أن يدعى غيوفري من الآن فصاعداً باسم «الرمادي الثوب»، ووافق جميع الحضور على ذلك.

وجاء بعد غيوفري الرمادي الشوب ابنه الكونت موريس، الذي كان حكياً، وأخلاقياً ومحباً للسلام، وقد حكم بهدوء وسلام نتيجة لحكمته أكثر منه نتيجة لقتاله في المعارك، وآلت أراضيه بعد موته إلى ابنه فولك نيرا، الذي على الرغم من كونه ابن سبع عشرة سنة، برهن بنفسه على أنه جندي شجاع.

#### سنة سبع وثهانين وتسعمائة

كان فولك(٢) نيرا على الدوام صديقاً للنفوس التي تخشى الرب، كما وكان شاباً يافعاً، لكن ليس بروحه أبداً، وقد نهض بشجاعة واندفع للدفاع عن أراضيه ضد أعدائها الكثر، لأن العادة جرت أن الحرب كانت تثار دوماً بسرعة ضد الحاكم الجديد، فبناء على نصيحة من الوغد لاندري Landry صاحب شاتودون حاول أودو الثاني كونت بليوس وشامين، وغلدوين Saumur صاحب سامور Saumur طرد

فولك من تورين Touraine وقد خيّل إليها أن كلّ من كونتي أمبويز Amboise ولوشي سوف يساعدانها، وأوضح لاندري لهما أن الوقت كان مناسباً، لأن سولبايس Sulpice الخازن في دير القديس مارتن في توره قد فقد أخاه للتو، وأنه كان يحكم أمبويز نيابه عن الكونت، ولم يتأخر بطلنا صاحب القلب الشجاع عن الاستعداد لالحاق الهزيمة بالأعداء، ولم يتقاعس عن تعريض نفسه للخطر، فجمع أكبر جيش استطاع حشده، وهاجم بجرأة أراضي أعداءه، وتجاوز بزحفه بليوس ووصل إلى شاتودون.

وطوق سكان ذلك المكان مدينتهم بأطواق من الجند، وحافظوا عليها بأسلحتهم، وكانوا مستعدين للقتال وفق أسلوب المدافعين عن معسكر من المعسكرات، فقد احتشدوا بسرعة وتجمعوا معاً، وإثر ذلك هاجموا الكونت ورجاله، وصد الأنجيفيون حملاتهم المتوالية حتى المساء، لكن عندما حاولوا التراجع، كانوا غير قادرين على تجنب حشود المهاجمين لأنَّ رجال شاتودون كانوا يضغطون عليهم بشدة من الخلف، حتى عندما تراجعوا، وعندما لم يعد باستطاعة جيش الكونت الكفاح مدة أطول، ولاالانسحاب، ولاصد هجات خصومهم، غامر هؤلاء الرجال المطوقين بالتراجع خطوة خطوة وهم يقاتلون، ووقتها أخذ رجال أمبويز يشقون طريقهم بالقوة، وهنا هاجم الأنجيفيون الأعداء على كلّ جانب وطوقوهم وهزموهم، واستولى الرعب على رجال شاتودون، ودبت الفوضى في صفوفهم، فانعطفوا على أعقابهم، غير أن المعركة استمرت، وطاردهم الكونت إلى داخل معسكرهم، فأسر كثيراً من السكان، وجعل الآخرين طعمة للسيف، وكان بإمكان الأنجيفيون الاستراحة هناك تلك الليلة وهم يحرسون المائتي فارس اللذين أخذوهم أسرى، وربطوهم مع بقية الأسرى، ونهبوا وسلبوا الأراضي من حولهم في اليوم التالي، وألحقوا الدمار بالذين تولوا فلاحة الأرض، وعادوا بعد مضى ثلاثة أيام إلى أمبويز

وهم منتشين فرحاً بنصرهم.

وفي أمبويز حاصر الكونت حصن لاندري، وتجمع رجاله بحاس شديد بغية اقتحام بيت ذلك الرجل، فألقوا بذلك الرعب في قلوب المقاومين، وبات هؤلاء يدركون أنهم لن يتمكنوا من الاستمرار بالمقاومة، وإذا ماأسروا لن يكونوا قادرين على تجنب عقوبة الموت التي استحقوها، ولهذا بدأوا بحث مسألة تسليم الحصن إلى الكونت مقابل الابقاء على حياتهم، وكان ذلك بوساطة بعض السفراء، ولدى تفحص هذا الأمر، بدا من المفيد لكل واحد، إزالة هذا الرعب العظيم دون تعريض المهاجمين للمخاطر، وبناء عليه حوفظ على المحاصرين، وجرى هدم الحصن تماماً، ومن ثم طرد لاندري ورجاله من معسكرهم.

وعبر الكونت بعد هذا اللوار، واستقر في مكان قام بتحصينه، وكان هذا المكان يعرف بالسنين الخالية باسم كارامنتوم، مع أنه يعرف الآن باسم مورود Moraud ثم توجه إلى سمبلانسي Moraud عيث قام أيضاً بتقوية التحصينات، وعبر من خلال أراضي تابعه وصديقه هيوج أوف ألوي Alluyes الذي كان سيداً لشاتو—لى —فاليري Chateau -La- Valliere والقديس ستيفن، ودخل فالي Angers وانحدر بدون عوائق إلى أنغر Angers وذلك على الرغم من عدم رضى شعب تور، واستولى بالحقيقة على ميربو —Mi السوم وسامور، ومونتسوريو Ohinon (التي كانت بأيدي أودو)، وسامور، ومونتسوريو Montsoreau وذلك قبل أن يعود إلى لوشي عبر الل—بوشارد L'Il-Bouchard وذلك قبل أن يعود إلى لوشي عبر منطقة غينون Guennon صاحب نوتري Nouatre

ولكي يكمل خططه، انتخب فولك واحداً من خيرة رجاله المحاربين، لقد كان أفضلهم وأعظم الجنود خبرة، واسمه ليسوس أوف بازوغير -Li sois of Bazougers وهو حفيد (ابن أخ أو أخت) فيزكونت أوف سينت سوزان Suzanne وأوكل إليه المسؤولية عن لوشي وأمبويز، وأمره بفرض الطاعة على الفرسان هناك صغاراً وكباراً.

وولدت زوجة فولك غيوفري مارتل، وابنة اسمها أديلا، وبها أن فولك كان رجلاً يخشى الرب، فقد قام بالحج إلى روما لتقديم الشكر، وبعدما تسلم رسائل من البابا الروماني مع التبريكات، أخذ الطريق وشرع برحلته نحو القدس (٣)، التي كانت أنذاك بيد الكفار، وعندما وصل إلى القسطنطينية قابل الدوق روبرت صاحب نورماندي، الذي انطلق للقيام بالرحلة نفسها، (كان لرتشارد دوق نورماندي ولدين هما رتشارد وروبرت، وقد رزق بها من يودث ابنة الكونت كونان صاحب بريتاني، وكان رتشارد هو الأكبر، وقد تجرع السم على يد أخيه روبرت، ومن أجل أن ينال العفو من الرب والغفران قام روبرت بالسفر حافي القدمين [نحو نفسه ولداً اسمه وليم، وهو رجل مشهور، ذلك أنه هو الذي قهر انكلترا) وعندما وجد فولك روبرت وتعرف عليه، أراه رسائل البابا إلى الامبراطور، وبناء على أوامر الامبراطور اقتيد الرجال عبر أراضي المسلمين بوساطة رجال من أنطاكية، صدف أن كانوا في القسطنطينية، وقد توفي روبرت على الطريق إلى بيثينيا.

واقتيد فولك نيرا تحت الحراسة إلى القدس، ولم يسمح له بالبداية بالمضي خلال باب المدينة حيث كان الحجاج يرغمون على دفع بدل دخول، غير أنه بعدما دفع عن نفسه وعن المسيحيين الآخرين المعوقين عند باب المنع، كان قادراً على الدخول معهم جميعاً، لكن عندها منعتهم الأبواب من الدخول إلى قبر الرب.

وعندما عُرف أنه رجل منحدر من أصل رفيع، قال له الحراس: يمكنك الوصول إلى القبر، لكن —أضافوا بسخرية وخداع— إذا بولت عليه وعلى الصليب المقدس، وبها أن فولك كان رجلاً عاقلاً، فقد أبدى

موافقته، لكن رغماً عنه، فاشترى مثانة كبش، ونظفها من القذارة التي بها، ثم ملأها بأحسن نوع من الخمر الأبيض، ثم وضعها في مكان مستور بين طرفيه، ثم إنه بعدما خلع نعليه، اقترب من قبر الرب، وصب الخمر فوقه، وبذلك سمح له بالدخول بلا أجر مع جميع رفاقه، وصلى عند القبر، وسكب كثيراً من الدموع، ومالبث أن شعر بالقوة الإلهية عندما أصبح الحجر القاسي ناعماً، وانتزع بعد هذا نفسه وابتعد عن القبر الذي بلله بقبله، ولقد غادر وهو يشعر بالحنق بسبب سخرية وجهالة الكفار الذين رافقو، وقدم صدقات كثيرة للمحتاجين، وحصل على قطعة من الصليب المقدس من واحد من السوريين الذين كانوا يحرسون الضريح.

وعندما عاد الكونت فولك إلى لوشي، فيما وراء نهر الاندر Beaulieu بنى كنيسة على شرف الضريح المقددس في بيوليو يسوليو بالتحديد، وأسكن هناك بعض الرهبان مع راعي لهم، ووضع في كنيسة القديسة مريم العذراء في أمبويز قطعة من صليب المخلص وجذاذة من الحبل الذي ربطت به يدي المسيح، وإلى هذه الكنيسة نقل في أيام فولك جسد القديس فلورنتاين Florentine من بواتو إلى هناك، وأقام أيضاً مع سولبايس Sulpice خازن القديس مارتن كهنة هناك.

كان أودو كونت شامبين بالتحالف مع جدعون أوف سامور بهددان سلطة فولك في شرقي أنجو، وقاتل فولك مع حليفه كونت هربرت أوف مين ضده، وربحا اليوم، وقتلا وأسرا حوالي ستة آلاف من أعدائهما، وفي السنة التالية أسس فولك قلعة مونتبوي Montboyau ليهدد بها تور التي أمل بالاستيلاء عليها وانتزاعها من أودو، غير أن أودو تولى حصار مونتبوي.

حشد فولك أكبر عدد تحقق له في فالي Vallee ونفذ خطـــة ذكية، فلأنه لم يستطع لابل لم يتجرأ على القتال، عبر نهر اللوار، وسار مسرعاً طوال الليل، ودخل مع بزوغ نور الصباح إلى سامور التي كانت

بلا دفاعات، واستولى على الفور عليها كلها وصولاً حتى القلعة.

ولم يكن هناك أمل بالسلامة بالنسبة للرجال الذين كانوا في القلعة، ولامكان للالتجاء إليه، ولم يكن أمامهم سوى عار التسليم فقط، فقد كانوا يعرفون أن الأنجيفيين كانوا شجعاناً وعرق مقاتل، وأنهم لن يتخلوا عن خططهم حتى تستجاب مطالبهم، وكانوا أيضاً يعرفون أن مهاجميهم سيتخلون عن كل رحمة، لذلك توصلوا إلى اتفاق مع الكونت، وفقاً لقانون الاستسلام، وقالوا له: «أيها الانسان السعيد، لقد أمرت بوجوب التخلي عن القلعة وتسليمها إليك، احمنا من هولاء القتلة، واسمح لنا بالعيش لنخدمك»، وأصغى الكونت إلى هذا، وسمح لهم بالحرية مع الكرامة، وشرفهم بهدايا عظيمة، ولقد قيل بأنه فعل هذا من أجل أن يربط المحررين به شخصياً، وأن يحرّض الآخرين على الاستسلام، وبعدما جرى تسليم القلعة إلى أتباعه، أمرهم بحراستها بكل يقظة.

وبعدما سيطر فولك على سامور حسبها رغب، عبر نهر الفين Vienne قرب شينون Chinon بين نوتري Vienne وآيل—بوشارد Ile-Bouchard على جسر صنع من السفن، وحاصر مونتبازون Montbazon وتخلى أودو عن حصار مونتبوي ووجه رجالته ضد فولك، ووضع فولك العبقري حداً للحصار وتراجع إلى لوشي حيث نصب خيامه فوق المروج.

ومكث القائدان بلا حراك، وتفرق جيشاهما، وفيها أودو مقيم في بليوس أخبره رسول أن الألمان قد حاصروا بار—سور —أوبي - Bar عليوس أخبره رسول أن الألمان قد حاصروا بار—سور الوبي Sur- Aube قيادة دوق اللورين، فبادر مسرعاً بالعودة إلى هناك، ثم قام أودو بمطاردة الألمان الذين كانوا قد ارتحلوا إلى اللورين، ومع أنه أصيب بجراح بالغة وهو يقاتلهم، إلا أنه عاد منتصراً، ومها يكن الحال، لقد توفي بعد وقت قصير متأثراً بجراحه، وورث ابنه ثيوبولد الثالث أراضيه، وفي الوقت نفسه حاصر فولك مونتبازون مرة ثانية،

واستولى عليها هذه المرة، وعهد بحراستها إلى وليم أوف ميربو، وسلم أيرود برستولي Airaud Brustulii مع خونة آخرين سيدهم غيوفري، حاكم سينت ايغنان Aignan إلى فولك، وحدث فيها بعد أثناء غياب فولك أن تعرض هذا الرجل للشنق في سجنه في لوشي على أيدي الخونة أنفسهم.

وأعطى الكونت إلى حاجبه ليسوس حفيدة (ابنة الأخ أو الأخت) سولبايس الخازن، زوجة له، ومنحه قلعة أمبويز مع جميع ممتلكاتها، وبعدما أسس هذا الرجل على هذه الصورة، عهد الكونت بامرته إلى ابنه مارتل، وهكذا عاشت البلاد بهدوء وسلام حتى وفاة فولك التي حدثت بعد وقت قصير.

#### سنة أربعين وألف

استحوذ غيوفري مارتل، بعد وفاة أبيه على جميع اقطاعية الكونت، وكان مارتل جسوراً أكثر من بقية أفراد أسرته، ولقد اعتاد على انجاز مشاريعه بسرعة فعالة، وأثار شعب أنجو غضب سيدهم مارتل ضد كلّ من ثيوبولد الثالث، كونت بليوس ووليم كونت بواتو.

واعتاد مارتل على استخدام القوة ضد كثيرين، وعندما كان يقال له: «الناس يتكلمون بشكل سيء عنك»، كان يعقب قائلاً: «إنهم يفعلون مااعتادوا أن يفعلوه، لامااستحقه، وإنهم لايعرفون كيف يتحدثون بشكل جيد»، ولهذا مركز كثيراً من القوات في أمبوين تحت إمرة ليسوس، وقامت هذه القوات بإزالة جميع ماوقف معيقاً فيها بين مونتبازون وشينون.

وأخيراً حاصر مارتل بلدة تور، وبعث ليسوس عائداً إلى أمبويـز مع

مائتي فارس وألف وخمسائة جندي من الرجالة ليتولوا حراسة الطرق خشية أن ينقض رجال بليوس على جيشه دونها عائق.

وتخلى مارتل عن الحصار، وجاء للقاء أعدائه عند بزوغ الشمس في مونتلوي Montlouis وفي الصباح اندفع رجال بليوس من معسكراتهم على شكل جماعات، وزحف الأنجيفيون ضدهم من مونتلوي، وفي أثناء تفقد كل واحد منهم لسلاح الآخر بالدور، خاطب مارتل الذي حمل ستة سيوف رجال جيشه بالكلمات التالية:

«إلى الأمام أيها الجنود، لقد رأيتم ووجدتم ماجئتم من أجله، وحقاً أقول، إنكم أنتم المقبلون على القتال سوف تنالون الدعم من الرب وستحصلون على القوة من فضله، لأن السرب القادر قوي وقادر على الحاية، لايفكرن أحد مطلقاً بالفرار، لأن أنجو بعيدة جداً عنا»(٤).

وتشجع جنوده بالكلهات التي سمعوها من كونتهم، فزحف كل رجل منهم نحو القتال، ولم يرغبوا في تأجيل المواجهة أبداً، ولم يكن هناك تردد، وقد احتشدوا في مكان مشهور باسم نوي Nowy أمام سوق بلدة سينت مارتن —لى— بو Beau.

وزعقت الأبواق مع صرخات «إلى الأمام»، وتوغلوا بأنفسهم بكل سرعة ممكنة في قلب صفوف الأعداء على كلّ جبهة، وشتتوا الذين اعترضوا طريقهم، وقد وجدوا خصومهم غير ضعفاء، بل على العكس، يقاومون بكل قواهم، وكادت قوات مارتل أن تتدمر على أيدي الحشود التي تفوقت عليها بالعدد، والتهمت المعركة تماماً اثنين من صفوفها، وسقط عدد كبير من الرجال أرضاً، وجرح كثير منهم، ومع هذا استطاع الأنجيفيون صدّ حلة أعدائهم، ثم هاجموهم بدورهم وأرغموهم على التزحزح عن مواقعهم.

وكان مارتل الذي اتخذ موقفاً وبيده سيفه قريباً من مؤخرة قواته،

يسرع إلى حيث كان يرى أن الأعداء قد تفوقوا بأعدادهم، وكان قد غير مظهره، وتخلى عن ثيابه ككونت وبات شكله شكل فارس عادي، ولقد طعن عدداً من الخيالة وألقاهم عن ظهور خيولهم، وشطر آخرين بسيفه وهم على سروج مطاياهم، وأعاد تجميع رجاله، وشجع الذين تعرضوا للضغط الشديد، ورفع معنوياتهم، وإثر ذلك اندفع إلى الأمام ضد الأعداء.

أما ليسوس الذي توجب عليه جلب العون إلى مولاه مع فرسانه ومائة من حملة الأعلام من الجنود الرجالة، فقد جاء بأقصى سرعة من أمبويز، وعندما رأى الذين كانوا في ميمنته القتال عن بعد، رفعوا أسواطهم، وهمزوا خيولهم، ووضعوا ترستهم أمام صدورهم، وهكذا استطاعوا تشتيت الحشد الذي تجمع هناك، ومزقوا خصومهم، وتمكن كل واحد منهم أن يمدد واحداً من الأعداء على الأرض.

وجدد الأنجيفيون الحملة، ولم يعد بإمكان المتعاونين مع ثيوبولد مقاومة شدة القتال، لذلك أداروا ظهورهم وشرعوا بالفرار، واستبد الرعب بهم بشكل مفاجىء، وأصيب كثير منهم بنشاب مطارديهم، وشدد الأنجيفيون من الفرسان والرجالة الضغط عليهم، وردوهم مرغمين إلى الخلف، وقتلوا الخيول التي كانت حية إلا قليلاً منها، أما الذين كانوا مع مارتل فقد قتلوا كل من صدفوه، ذلك أنهم تجمعوا تحت لواء قائدهم، الذي كان أشجعهم جميعاً، وطاردوا الفارين ومددوهم فوق الأرض.

وسار رجال أمبويز خلف الفارين وتتبعوا آثارهم، وظلوا يقهرون خصومهم ويقتلونهم حتى التقوا بالكونت ثيوبولد داخل حرش اسمه بري Braye قرب قاعة هوستون Hastuin وأسروه مع خمسائة من فرسانه، ذلك أنه كان من غير الممكن الركوب في بري، وجروا الكونت خارج الحرش، ومن ثم عادوا إلى مارتل، وهكذا كان بعون الرب أن تم صد الأعداء الذين فروا مجللين بالعار إلى أجزاء مختلفة، في حين

عاد الأنجيفيون وأمضوا السنة بسلام، ولم ينزعجوا بمخاطر الحروب.

#### سنة اثنتين وأربعين وألف

وعندما كان التعيس ثيوبولد الثالث في الأغلال لم يقبل مارتل فدية له لابالذهب ولابالفضة، وبها أن السجين كان يخشى على حياته، ويهتم بسلامة شخصه أكثر من أي شيء آخر مما امتلكه، تخلى عن تورين Touraine إلى مارتل ليتملكها ملكية أبدية مقابل تسريحه، وكان هذا سنة اثنتين وأربعين وألف.

### وحسب تأكيد سينكا Seneca:

«لايمكن للناس أن يعيشوا حياة هادئة إذا ماأطاعوا قواعد النظام الطبيعي: لك ولي». لقد أراد الآن وليم أوف بواتو الاستيلاء على منطقة سينتأونغ Saintonge وفعلاً احتلها، وتمسك بها بالقوة على أساس أنها كانت ملكاً لأخي أبيه، وادعى مارتل ملكية المنطقة نفسها لأنها كانت ملكاً لعمه الكبير، الذي مات ورثته بدون أولاد، وأصر أنه لهذا السبب توجب عودتها إلى ورثة أخت عمه الكبير،

وكان وليم صاحب بواتو والحق يقال رجلاً محارباً، لانظير له بالجرأة، وامتلك البصيرة مع ثروة كبيرة، ولامتلاكه حشوداً من الجند كان متشوقاً للمديح والتفاخر والتبجح برعونة، وأكسبته سمعته العظيمة عدداً كبيراً جداً من الأتباع:

رجال بواتـو، وليمـوسين Limousin وأنغوليم Angouleme وبيرغو Pergueux وكليرمونــت —فيراند Clermont-Ferrand Tou- وغسكون Basques وباسكوي

lousains مع آخرين أعدادهم لاتحصى، قام بتوحيدهم لتشكيل جيش هائل.

وكان البواتيون يتجمعون ببطء من جميع أرجاء المنطقة، وكانوا مثل النجوم أعدادهم لاتعد ولاتحصى، وقد نشروا قواتهم التي لايمكن عدها على شكل صفوف من جانب إلى جانب، وكان الجميع يحملون السلاسل التي اعتقدوا أنهم سيربطون بها خصومهم، وكانت وحداتهم تحتل مواقع متفق عليها على مسافة ضئيلة من تشف بوتون -Chef وقد فعلوا ذلك حسبها صدرت التوجيهات إليهم، ولقد خيل إليهم أن الأنجيفيين سوف يفرون على الفور، ولم يقدروا أنهم أنفسهم قد يفعلون الشيء نفسه لأنهم اعتقدوا سلفاً أنهم ربحوا، وقد استمدوا ثقتهم من جموعهم التي فاقت العد والحصر، ومن روح التظاهر التي وجدت في صدور جمعهم، وكذلك من أمر قائدهم بعدم الفرار.

وكان الطرفان الآن على استعداد للقتال، وقد اصطفوا في مكان صغير جعل من الممكن مشاهدة بعضهم بعضاً عن قرب شديد، واصطدمت الصفوف بقوى متساوية، وكان المحرض الذي حرك البواتويين هو الغضب والخوف، لكن الذي حرك الأنجيفيين كان هو الأمل بربح منطقة سينتأونغ، وصرخ كل انسان بصوت مرتفع، ورددت السموات نفسها الأصداء بزمجرة متداخلة، وكان الضجيج لايمكن احتاله، وقد صدر عن قراع السلاح، وانشطار الخوذ، وتحطم السيوف، وعن أنين وصراخ الذين كانوا يموتون، وسمعت أصوات الجرحى على جميع الجوانب.

وحمل مارتل مع الأنجيفيين على العدو، وشقوا طريقهم بسيوفهم وهم يصرخون حتى وصلوا إلى وسط صفوفه، وتبع حشد من الفرسان من تورين مولاهم، وشتتوا عدداً كبيراً وقتلوا حامل راية وليم نفسه، ولحق الرجالة بكل شجاعة جماعات الفرسان، واستولوا على الراية واحتفظوا بها

لأنها كانت قد ألقت رعباً شديداً في قلوبهم، وهنا دار جميع رجال غسكوني وليموسين على الفور على أعقابهم وذهبت بقية الحشد معهم.

وتريث البواتيون، وحافظوا وهم مرعوبين على مواقفهم لبعض الوقت، وتحول مارتل ورجاله نحوهم وبأيديهم سيوفهم، فقطعوهم مثلما يقطع المنجل القمح، وذلك بضربات أفقية، وشطر أجساد الأعداء، ولم تتبلل أرض المعركة بل بالحري فاضت بالدماء، ولم يكن أمام البواتويين المزلزلين مكان يلجأون إليه، ثم إنهم لم يبحثوا عن شيء من هذا القبيل، وجرت مطاردة الفارين، أو لنقل مطاردة الذين تدبروا بطريقة ما الفرائ وفي الوقت الذي أخذ فيه رجال تورين كثيراً من الأسرى، لم يمنح وقطعوا أعناق آخرين، ولم يبقوا على أحد حيا، وبها أن تشف بوتون لم وهكذا كان ذلك اليوم رهيباً جداً بالنسبة للبواتويين، ولقد كان يوم الأم ويأس، يوم فوضى وقنوط، فقد ربطوا بالسلاسل نفسها التي جلبوها ليربطوا بها أعداءهم، ولقد كانت المذبحة كاملة، وأمضى مارتل ورجاله الليل بسلام في خيمهم فوق السهل، وصفوا رؤوس القتلى وأجسادهم في الليل بسلام في خيمهم فوق السهل، وصفوا رؤوس القتلى وأجسادهم في وجه الرياح الشهالية العاتية التي كانت تهب آنذاك.

وحمل بعد هذا مارتل على سينتأونغ بالسرعة التي أمكنته، وخرج الذين كانوا في المدينة لاستقباله وسلموا المكان إليه بأبواب مفتوحة، واستقر هناك رجاله وهم مسرورين، واستولوا على المنطقة المجاورة التي سيحكمها مارتل طوال بقية حياته، وذلك ما ان يقيم سلماً مع كونت بواتو، وما أن عوفي هذا الأخير من جراحه التي أصيب بها أثناء القتال حتى تقبل الولاء من مارتل وتخلى له عن المنطقة التي كانت الآن هادئة، وكان ذلك بناء على نصيحة من الرهبان والأساقفة، وكان هناك سرور عارم وفرح لايوصف في أنجو وتورين نتيجة لما حصل، وتمتع المنتصرون

بالسلام طويلاً في كل مكان، وقدموا الشكر للرب بكل قلوبهم.

وكان في هذه الأيام الدوق وليم صاحب نورماندي يضايق كثيراً هربرت كونت لامانس، وبها أن مارتل كان حليف هربرت وحاميه، فقد عانى الدوق وليم —الذي صار فيها بعد ملك الانكليز— كثيراً على يدي مارتل.

وبها أن غيوفري مارتل ابن فولك كان بلا أولاد، فقد ترك منطقة أنجو وتورين، التي استولى عليها كها وصفت، إلى ابني أخيه: غيوفري الملتحي وفولك ريشن Rechin وأعطى أنجو وسينتأونغ إلى غيوفري وتورين وشاتو —لاندن إلى فولك، وقد أصيب بمرض غير متوقع، وبعلة لايمكن مداواتها، وقد ازدادت علته سوءاً من يوم إلى يوم، وعانى منها حتى ساعة وفاته، فقد توفي وهو شديد الآلام وسط أسرته.

#### سنة ستين وألف

وفيها يتعلق بعدد الشرور وطبيعتها التي وقعت في البلاد بينها كان غيوفري الملتحي وفولك ريشن مستوليان على تراث مارتل: الكشف عنها يأمر به التاريخ الصحيح، لكن يحظر ذلك الرعب ودرجة التخريب، ولستُ أدري أيها أفضل بالنسبة لهذين المقترفين: تقديم وصف مفصل للشرور التي اقترفاها أم حذفها، أو بالحري هل يؤذيها القيام بكتهان بعض الأمثلة من شرورهما.

#### سنة ست وستين وألف

وكان غيوفري الملتحي عسكرياً نشطاً، وقد تحالف مع رجال مين، وقكن بمساعدة من الياس أوف لى —فلش Fleche من استرداد لامانس، التي تملكها وليم ملك انكلترا، وبدأ فولك المخادع يقاتل ضد أخيه غيوفري، وبذلك ألقى البلاد في لجة من الفوضى، وعندها بدأ البارونات يحاربون بعضهم بعضاً وعمّ ذلك جميع أرجاء المنطقة، وكانوا يقفون الآن إلى جانب غيوفري ثم بعد ذلك إلى جانب فولك، فالخيانة هي التي راجت.

وكان في سنة ست وستين وألف لتجسيد الرب ربنا، خيانة في أنغر، فبعدما اكتمل تقريباً خراب أنجو وتورين، مخادعة ألقى فولك ريشن القبض على أخيه، واستولى على المنطقة كلها وكأنها ملك له.

وكان كونت بواتو، الذي مثله مثل أبيه حمل اسم وليم، عسكرياً بارعاً جداً، في التخطيط والتصنيع، وفي الوقت الذي كان فيه أخواه يتصارعان حسبها تقدم الوصف، هاجم منطقة سينتأونغ واستولى عليها، وحارب الياس حاكم مين ومعه بارونات فولك لصالح غيوفري وطالبوا باطلاق سراحه، وبذلوا الجهد لاخراجه من السجن بالقوة بمساعدة من فيليب الأول، ملك الفرنسيين وستيفن كونت بليوس، غير أن فولك أقام حلفاً مع ستيفن وقدم الولاء له، ثم ذهب إلى الملك الفرنسي وعقد معاهدة معه، وتخلى له عن شاتو—لاندن.

كان فيليب الأول ملك فرنسا، ملكاً فعالاً في جزيرة فرنسا فقط، علماً بأن باريس، عاصمته قد غدت مركزاً هاماً للتعليم، وصار أبيلارد(٥) Abelard واحداً من أشهر أساتذة الجامعة، ولقد استخدم المؤرخ أحياناً كلمة «فرنسا» ليشير إلى هذه المنطقة.

وعندما عاد الكونت فولك من فرنسا ذهب إلى أمبوين، حيث حلّ ضيفاً على أرنول أوف منغ —سور— لـوار Meung-Sur-Loire الذي كان معهوداً إليه بقلعة الكونت في المدينة بلامقابل.

وانتزع فولك منه اقطاعه مع القلعة، ووضع حراساً حيث شاء، واحتفظ بها لنفسه، وعلى هذه الصورة طرد أرنول مع ابنه ليون من أمبويز.

وغالباً ماكان فولك وهو يتصرف بهذه الطريقة يسوق تهم الخيانة ضد أولاده، علماً أن ذلك كان بدون حق «لأن الشر اعتاد أن يمتلك هذه القوة الخاصة في تلويث البريء بين الأكثرية بجرائم الأقلية، حيث عصابة صغيرة من الرجال الجيدين غير قادرة على تلطيف جرائم الأكثرية بجعلها تشاركها في فضائلها، لكن من الذي لايغضب عندما يرى الخير الخالص قد طعن بتهم عدد قليل من الناس الأشرار»؟.

ولأن عــدداً كبيراً من النــاس «بطيئين في صنع الخير، سريعين في الحديث ضد الشر، منشغلين بالتامر، ضعفاء بالحب، أقوياء في الشقاق، متصلبين بالاحتفاظ بعداواتهم»، سأذكر هنا هؤلاء الرجال، لأن قصصهم جديرة بالحكاية، وهاكم هي:

اتخذ فولك لنفسه عدة زوجات: فقد كان هناك ابنة لانسلين أوف بيوغنسي Lancelin of Beaugency وهي التي غدت ابنتها كونتسة بريتاني، ثم انصرفت إلى حياة الرهبنة بعد وفاة زوجها في القدس، واتخذ فولك بعد وفاة ابنة لانسلين زوجة جديدة هي ارمنغاردين -er mengardine ابنة آرشنبود Archenbaud قوي بوربون Bourbon وهي التي أنجبت له غيوفري مارتل الثاني، الذي كان رجلاً جديراً بالاعجاب، مشهوراً بعدله، وبرعايته لكل شيء جيد، وبارعابه لجميع أعدائه.

ثم وقع الفاسق فولك في حب عميق مع أخت أموري أوف مونتفونت Montfont «التي لم يمدحها قط انسان جيد إلا لجالها»، ولأجلها طلق أم غيوفري مارتل الثاني، حيث أعلن أنها قريبته قرابة تحرم الزواج، وبعد ذلك تزوجها وليم أوف جالغني Jaligny.

وما أن أصبح غيوفري مارتل في سن الرجولة، وكان شاباً شجاعاً وحكيماً، حتى رأى أن البلاد مضطربة، والبارونات في جميع أرجاء البلاد يشورون ضد أبيه، فقاومهم بدون توقف، وبحث بكل اصرار عن كيف يمكنه أن ينتقم لأبيه ولرجال أبيه، وبها أنه كان أبعد بصيرة من الجميع فقد أعاد الرجال وأبعدهم عن الأعمال الشريرة، ووجه شؤونه بشكل عقلاني، ولم يحارب بشكل لطيف ولم يكن أحمقاً كثيراً في سلوكه.

وعندما سمع غيوفري الملتحي بالسهات الحسنة لابن أخيه مارتل وباستقامته كان مسروراً، واستدعاه إليه وقال له: «أنا مسرور جداً لأنك لم تبتعد عن السهات الخلقية الحسنة لأجدادك، ولهذا أمنحك الأرض التي أخذها أبوك ظلماً مني، وأريدك أن تخلفني عليها»، وأطلق مارتل الثاني عمه وحرره من الأغلال والسلاسل، وسمح له بالسفر إلى حيث أراد خللال البلدات والمدن، لكن دوماً تحت الحراسة، غير أن عقل غيوفري بات مشوشاً في السجن، وزالت قدرته على التفكير العقلاني إلى حد كبير، ولم يعش طويلاً بعد هذا.

عقد في سنة ١٠٩٥ مؤتمر كليرمونت بناء على دعوة من البابا أوربان الثاني، وهناك جرى التبشير بالحملة الصليبية الأولى.

وأعطى مارتل الثاني أخته اليزابث، التي ولدت من زواج أمه بوليم أوف جالغني، زوجة لهيوج أوف شومنت Chaumont وأعطى مع يدها جميع أمبويز، وخطب مارتل لنفسه الابنة الوحيدة للكونت الياس صاحب مين، مع أنها لم تكن في سن الزواج، وسلم لامانس مع كل

مايتعلق بها.

وكان مارتل قد دخل في صراع مع الملك وليم روفوس، ونهب وألقى النار في كثير من البلدات في نورماندي، وفي الوقت نفسه تلكأ الملك في انكلترا، وكان الكونت روبرت، أخو الملك، باقياً مع الجيش في القدس بصحبة كثير من الحجاج، ذلك أن الملك روفوس احتفظ بنورماندي وصاية.

#### سنة ست ومائة وألف

في سنة ست ومائة وألف لتجسيد ربنا، ظهر لمدة أربعين يوماً مذنباً كان يزداد حجماً كلّ مساء، وقد ملأ الدنيا بالدهشة، وكان يرسل بأشعته المضيئة والكبيرة ضد الشعاع الخافت لغياب الشمس، وبدا في أول ظهوره أكثر نارية، ثم أصبح أقل وضوحاً، وأخذ يحترق رويداً رويداً حتى أنه اختفى بعد يوم الأربعين كلية، أو هكذا قالوا.

وفي يـوم القديس ميكائيل، أي في ٢٩ أيلول، تم أسر روبرت من قبل أخيه الملك هنري الأول، وتـزوج وليم كليتو Clito من ابنة فولك كونت أنجو، غير أنها افترقا فيها بعد بسبب القرابة، وتـزوج من أخت زوجة الملك الفرنسي لويس السادس، وحصل بهذا الزواج على فـلاندرن غير أن يده خرقت بطعنة رمح، ولهذا لم يعش وليم إثر هذا وقتاً طويلاً.

## سنة سبع ومائة وألف

قتل في السنة التالية مارتل في كمين قرب قلعة كاندي قترض أنه نصب بتفاهم مع أبيه، وخالته زوجة أبيه، ويبدو لي أمراً لايصدق أن يقدم أب لمثل هذا الولد على الموافقة على قتله، خاصة عندما بات رجلاً مسناً، وعندما وضح أن ابنه —إذا مامنح عمراً أطول— سوف يسترد له كلّ الذي خسره، لأن مارتل كان ينازل كلّ من الملك الفرنسي من أجل شاتو—لاندن، ووليم أوف بواتو من أجل سينتأونغ، وكان مارتل قد بنى بدون خوف بلدتين قرب بواتو، واحدة عند مدخل البلدة، والثانية قرب القاعة.

وجاء الفاسق الملك فيليب إلى تور، وبعدما تحادث مع زوجة فولك قرر أن يجعلها ملكته، وهجرت هذه المرأة الشريرة زوجها في الليلة التالية وتبعت الملك، الذي مركز فرسانه عند مندري Mindray قرب جسر هناك فوق نهر البوفرون Beuvron واقتادها إلى أورلين -Or العمال وهكذا ملأ الملك الشبق بيته بجرائم زواج اقترفت تحت عقوبة الحرمان، وحصل على ولسدين من هذه المرأة هما: فيليب وفلوس Florus.

ومع أنني وجدتُ هذه الأشياء قد كتبت في مجلدات مخفية، لم أشعر بالانزعاج لاخفائها، لصالح سمعة موالينا كونتات أنجو، وصنفت كتابة ماتصورت أنه أفعالهم، مع هذه الأشياء التي صممت بمثابة تعليات لخلفائهم، داعياً الرب أن يكون عملنا معيناً للجيل الحالي عندما يقلدون أجدادهم العظام.

#### سنة تسع ومائة وألف

صحيح أن «الأب سوف لن يحمل آثام الابن ولا الابن إثم الأب»، هكذا كان بعد وفاة فولك ريشن، فقد تخلى ابنه فولك الخامس، كونت أنجوعن مسالك أمه وأبيه، واتبع حياة شريفة، حيث حكم بلاده بعقلانية، وتباحث مع الياس، كونت مين، بغية الزواج من ابنته الوحيدة، وقصد مارتل الزواج من الفتاة، وكان سيحصل مع يدها على بلاد مين، وبذه الطريقة جرى الاعتراف باتحاد مين وأنجو.

وكان فولك الخامس رجلاً مستقيهاً ونشيطاً، ومؤمناً محافظاً، وعطوفاً خيراً نحو رجال الرب، وبعدما تسلم الكونتتين رفع رفاقه إلى الأعلى، وحط من شأن الأشرار، وباختصار لقد حصل على سمعة مجيدة ورائعة، وأصبح الأول على الجميع، ومنح هيوج أوف شومونت Chaumont جميع أمبويز، وذلك بعدما قدم إليه الولاء، وقد قلد بذلك مافعله أخاه مارتل الثاني، وأعاد مونت رتشارد التي استولى عليها أجداده بشكل غير عادل.

وحاصر فولك برولي Preuilly لكنه لم يأخذها، ومع أنه استولى على ايشيفارد Eschivard وهي قلعة كانت تحت حكم اللورد نفسه، قام بعقد سلام معه فيها بعد، واشترى مونتبازون من جون الذي كان صاحب تلك البلدة، لكن عندما شق جون هذا طريقه بالقوة عائداً إلى ذلك المكان بعدما قبل قسماً من المال، أقدم فولك بكل شجاعة على حصارها، وأجبره على إعادتها له، وبتسليمه المتبقي من المال استولى فولك أيضاً على القلعة، وأغلق مونترول —بلي Montreuil-Bellay لكنه ما ان استولى عليها، ووضع حراسه في القلعة حتى تحرك رحمة فأعاد البقية إلى صاحب القلعة.

وحارب هنري الأول، ملك الانكليز، مراراً عديدة لأنه كره الرجل، ولأن هنري خلق باعطائه المال إلى بارونات أنجو ومين، مراراً ، كثيراً من الاضطراب بينهم، وسبب أذى عظيماً لفولك.

وكان الملك وليم الذي استولى على انكلترا قد وزع بلاده بين أولاده الشلاثة: فقد أعطى انكلترا إلى وليم روفوس، ونورماندي إلى روبرت، وميراث الأم إلى هنري، وعندما مات روفوس استحوذ هنري على تاج انكلترا، بينها كان أخوه روبرت معوقاً في القدس، وبعدما عاد روبرت من القدس رزق بولد من زوجته دعي وليم كليتو.

وكان لهنري الأول ولداً اسمه وليم، وهو الذي تنوج ابنة فولك الخامس، وتسلم معها كونتية مين، وبعدما قدم وليم الولاء لفولك، تسلم أيضاً نورماندي من لويس السادس ملك فرنسا، وفي صيف عامه السابع عشر، كان عائداً إلى انكلترا فغرق بالبحر ومعه كثير من النبلاء الذين لم تسترد أجسادهم أبداً.

كان لفقدان الملك هنسري لـولده وليم في ١١٢٠ نتـائج خطيرة، لأن وريثه الشرعي الذي بقي ليخلفه هو ابنته ماتيلدا.

## سنة عشر ومائة وألف

في سنة عشر ومائة وألف لتجسيد ربنا، رزق فولك الخامس ولداً من زوجته ابنة كونت الياس، وقد سهاه غيوفري، و نشأ الطفل وصار عسكرياً متميزاً، وقد تزوج ماتيلدا، ابنة هنري الأول ملك انكلترا، وأرملة هنري الخامس امبراطور ألمانيا، ورزق فولك من الزوجة نفسها بولد آخر دعاه الياس.

## سنة ثهان وعشرين ومائة وألف

وبينها كان فولك يحكم أنجو وتورين وكونتية مين بازدهار، أرسل الملك بلدوين الثاني، ملك القدس، رسلاً توجب عليهم التشاور مع رجال عقلاء، ثم اقناع رجل مناسب بالزواج من ابنته وقبول مملكة القدس، ووقع اختيار الأساقفة، مع عدد من أعيان الناس، على فولك الخامس صاحب أنجو، الذي كان قد فقد زوجته.

# سنة تسع وعشرين ومائة وألف

وعبر فولك البحر مع قوة كبيرة، واستكمل الزواج من ابنة الملك، وأصبح ملك القدس في ١١٢٩.

#### سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف

وبعد وفاة الملك بلدوين، حكم فولك المملكة برجولة (٦)، وجعل سكان دمشق وعسقلان يدفعون الجزية، وكان قبل وقت طويل قد تزوج ريموند أخو كونت بواتو من ابنة بوهيموند صاحب أنطاكية، ودعم فولك إمارة أنطاكية ضد الترك، بوساطة جهود كبيرة، ودون أن يخسر شيئاً، وأنجبت له زوجته ولدين هما: بلدوين وعموري، وعمّر هو إلى سن كبيرة، وتوفي وهو مايزال قادراً على القتال، واتخذ أهل القدس بعد وفاته

ابنه بلدوين ملكاً خليفة له.

وفيها كان غيوفري بن فولك الخامس ملك القدس، يحكم مناطقه الأنجيفية بهدوء، قام أخوه الياس بمهاجمته مراراً، وذلك بعد تحريضه من قبل بعض الرجال الأشرار، وطالب بكونتية مين، وأسره غيوفري، وأبقاه مسجوناً لوقت طويل في تور، ثم بعدما أطلق سراح هذا الرجل الشاب، توفي من مرض خطير أصابه عندما كان بالسجن.

دوماً يصبح الأخوة الأقوياء غير متحدين، بسبب كثير من الجشع، ويرفضون ادارة ممتلكاتهم بشكل جماعي، وعندما يختصمون بين بعضهم بعضاً، وعندما تصطدم قواتهم يهلكون، لكن غيوفري كان رجلاً جديراً بالاعجاب، كرّس نفسه للأعمال العسكرية، وكان بالوقت نفسه عالي الثقافة، فصيحاً جداً بين رجال الدين والعلمانيين، ومع أنه عانى كثيراً على أيدي رجاله، كان يتمتع بشعبية كبيرة لدى الجميع لأنه أنجز أعمال الحصول على نورماندي.

وأعتقد أنه يكفي الآن ماقيل عن أفاعيل وأعمال كونتات أنجو، وإذا بدا لكم أن هناك المزيد إلى جانب ماقلناه (وأعتقد أن هناك الكثير) عندها اسألوا من يعرفهم أحسن.

# القسم الثاني

# غيوفري بلانتغنت ١١٥٨-١١٢٨

تروج في سنة ١١٢٨ غيوفري الجميل من ماتيلك الامبراطورة المتكبرة، وكنان قد لُقب بالانتغنت لأنه وضع قشة مكنسة في قبعت (غنت=مكنسة)، وكان سيصبح بعد قليل كونت أنجو، أما ماتبااا فكانت ابنة هنري الأول ووريثته المسهاة، وكان هنرى الأول ملكا لانكلترا ودوقاً لنورماندي، وعندما توفي هنـري في سنة ١١٣٥، استولى ابن اخته ستيفن أوف بليوس على المملكة الانكليـزية، وتحارب بيتا أنجو وبليوس خلال التسع عشرة سنة المقبلة من أجل السيطرة على انكلةرا ونورماندي، وزكرت ماتيلدا جهودها على الملكة، وركز الكونت غيوفرى جهوده على الدوقية، وقد أصبح دوق نورماندي في سنة ١١٤٤، وفي سنة ١١٥٣ أجبر الملك ستيفن على القبول بالاعتراف بهنـرى ابن عيوفـرى وماتيلـدا، ولياً لعهـده ووريثاً لـه في حكـم انكلة ِ ا ويبدأ القسم الثاني بترجمة غيوفسري بالانتغنت، العالية الاطراء والتي كانت في يوم من الأيام منمقة جداً، وكتبت هذه الترجمة في حوالي سنة. ١١٧٠ من قبل جون أوف مارموتير، وهي مليئة بصور للفروسية، وبأفاعيل جريئة، وكانت الغاية منها ارضاء هنرى الثاني ابسن غيوفرى. وأظهر بالمقابل هنري رئيس شهامسة هنتنغدون بالمقارنة قليلا من التصورات والمواقف السياسية المسبقة، في كتابه «تاريخ الاتكليز»، وقاء اكتمل سنة ١١٥٤، ووصف في كتابه هذا بشكل حي سهات ستيفن

## الحسنة وكذلك السيئة، وبذلك أعاد حكمه إلى الحياة.

من المعروف بشكل جيد لكل انسان أن العرق الأنجيفي قد ازدهر في ظل حكام ذوي معنويات عالية ويجبون الحرب، وقد حكموا الشعب المحيط بهم بالرعب، ولاخلاف حول حقيقة أنهم تولوا جميع أعمال التدمير التي أمكنهم القيام بها والتي عانى منها جيرانهم، وبلذك أخضعوا البلدان التي من حولهم، وبالنسبة لحكام أنجو اللين رأوا أن حكم أنجو لا يكفيهم، اعتمدوا وسيلة الحرب للحصول على مناطق تور، وذلك عندما لحقت الهزيمة بأودو صاحب شامبين على يدي الناجح فولك، الذي لقبه «نيرا»، وفي معركة بري Braye هزم الكونت ثيوبولد بن أودو هزيمة ماحقة، وأخذ أسيراً بموجب شريعة الحرب، فمن لفولك، ملك الدائعة من الأمراء جاء غيوفري، الابن الواسع الشهرة لفولك، ملك القدس.

وفي الحقيقة امتلك غيوفري كلّ سمات الشهرة (٧)، وكان جديراً بالمدح والثناء، فكجندي حصل على أعظم الأمجاد، واستفاد مثل ذلك من حظه الحسن، ومما بذله من جهود، وقد أوقف نفسه على الدفاع عن الجماعة ومساعدة الفنون الحرة ورعابتها، وبذل جهوداً كبيرة لأن يجب عن جدارة، وكان شريفا مخلصا لجميع أصدقائه، ولم يكن فقط عظيما في أعين العالم على اتساعه، بل كان موضع ثقة أكثر من البقية، وكانت كلماته دوما جيدة ولطيفة وفيها مداعبة، وكانت مثله موضع اعجاب وقبول، وكان متفوقا في الجدل حول قضاياه، وامنلك معرفة جبدة حول العصور القديمة، وبها أنه كان مثقفا، كان بإمكانه أن يتذكر تماما ليس فقط ماحدت في موطنه بل أيضا الحروب والأفاعيل في جميع بلدان الخارج.

ولم يكن متميزاً بشكل استثنائي ببراعته في فنون الحرب فقط، بل أعاد بعد تحديات عظيمة إمارته إلى السلام، وشعبه إلى الحياة الهادئة، وكان هذا الرجل جندباً عملاقاً، وكان، كما قلت، الأكثر براعة وذكاء في معاملاته المباشرة، وكان متعلماً بشكل استثنائي، وكريماً نحو الجميع، وطويلا في بنيانه الجسدي، وجذاباً له شعر أحمر، فقد كان الأب لكونتيته وموضع فخارها.

وكان منحمساً حول البراعات العسكرية، شديد التدقيق في عدالته، كما أنه حبي بكل السمات الطيبة والعادات الحسنة، ولم يكن أقل شأناً في أي مجال من المجالات، من أي واحد من الأمراء العظام في أيامه، وكان محبوبا من قبل الجميع مع أنه تحمل كثيرا من المشاكل من رجاله، وحيث أنه كان ذكيا وقوى الأخلاق لم يسمح لنفسه بالفساد عن طريق الغلو أو التراخي في أيام مراهقته، بل أمضى وقته راكباً حول كونتينه، لينجز براعات رائعة، وتحدث عن نفسه قلبلاً، وكذلك عن أعاله، وكسب بهذه الأعال لنفسه مجبة الجميع، وقذف بالرعب في قلوب أعدائه، وكان لطيفاً وكريا، وامتلك نفسا رقيقة، ورحيمة نحو رعيته، وتحمل الإساءات والأذى برباطة جاش، وعندما كان يسمع بنفسه توجيه الاهانات إليه في كثير من المناطق، كان يخفي بصبر ماشعر به، وكان بشكل استثنائي أنيساً ومرحا نحو الجميع، ولاسيما نحو الجنود، هكذا كانت محاسنه وكرمه حتى أن المذين أخضعهم بالقوة، تغلب عليهم بالرحمة حسبها أنا مقبل على روايته في الحكايات التالية

### سنة ثمان وعشرين ومائة وألف

عندما أصبح غيوفري في الخامسة عشرة من عمره، أنهى بذلك

طفولته، وبات أشبه بوردة في أول تفتحها، وانتشرت أخبار واشاعات، تبرهن فيها بعد أنها صحيحة بوساطة وفرة من البراهين، تحدثت كلها عن طاقات الشاب في الطول والعرض، حتى وصلت أخبار اسمه وسمعته الشهيرة إلى مسامع الملك العظيم والممجد هنري الأول ملك انكلترا، وكان الملك على معرفة واضحة أن أجداد الشاب كانوا متميزين، وأنهم نبعوا من جبلة كريمة قديمة، وكانوا مستقيمين في عاداتهم وبارعين في فنون الحرب، وسمع أن الشاب لم يكن مستثنى من هذا، بقدر ماسمح العمر بالحديث، وقرر الملك أن يربط فيها بين ابنته الوحيدة ماتيلدا، أرملة الامبراطور هنري الخامس، وبين هذا الرجل الشاب بزواج شرعي.

وبناء عليه جرى ارسال سفراء فوق العادة ليتقدموا باسم الشاب غيوفري بطلب الموافقة من أبيه فولك الخامس، كونت أنجو، ولإخباره بإرادة الملك، وكان هذا الرجل حكيا ومتيقظا في كل المسائل، ولهذا عامل المندوبين بنشريف، وعن طواعية وعدهم بالموافقة المؤكدة على المطلب الملكي، وقدم العهد وعقد الميثاق وثبّت ذلك بالأيهان، مزيلا بذلك كل آثار للشك(٨)، ووافق الكونت، بناء على تعليات الملك، على ارسال ابنه، الذي لم يرسم فارساً بعد، أن يرسله بشكل رسمي إلى روان في أحد الشعانين المقبل، من أجل أن يرسم فارسا مع آخرين من العمر نفسه، وسط احتفال ملكي، ولم تكن هناك صعوبة في الترتيب لهذا، فالمطلب الحق حظى بالموافقة السهلة.

وهكذا، بناء على موافقة أبيه، انطلق الصهر المقبل لملك انكلترا، نحو روان مع خمسة بارونات هم: جاكولين أوف ميل، وروبرت أوف سيمبلانكي، وهارودين أوف سينت مارس، وروبرت أوف بلو، وباين أوف كليرفيل، وخمسة عشر من أبناء جيله، وذلك بصحبة كثير من الفرسان، والاشاعة دوماً سباقة، هكذا أعلنت عن وصول ابن الكونت إلى عند الملك، وفرح هنري الأول بها قيل عن وصول غيوفري، وبعث

بعضاً من أعلى النبلاء مكانة لديه بمثابة ممثلين له، وليصطحبوا الرجل الشاب إلى الحضرة الملكية بالحفاوة اللائقة والرعاية، ودخل غيوفري إلى القاعة الملكية محاطاً برجاله وبرجال الملك، مع حشد من الناس العاديين واقفين من حولهم، أما الملك الذي اعتاد آلا يقف لأحد، فقد نهض وذهب لاستقباله وأمسكه بحنان وعانقه بعاطفة، وأعطاه قبلة صغيرة، وكأنه كان ابنه، ثم أمسك غيوفري بيده وأصر عليه أن يجلس إلى جانبه، وتحدث الملك حول مختلف الموضوعات مع الرجل الشاب وطرح عليه عدداً من المشاكل، ليكتشف كم هي حكيمة ردات فعله أثناء الحديث عدداً من المشاكل، ليكتشف كم هي حكيمة ردات فعله أثناء الحديث بالخاص، وأجاب غيوفري بإحكام، لكن كما هي عادة العقلاء زين كلماته ببلاغة معروفة إلى قلة، أما الملك الذي ازداد عمق اعجابه به لحظة تلو الأخرى، فقد سر سروراً عظيماً بحكمة الشاب وبأجوبته، وهكذا مضى اليوم كله بسرور وانشراح.

ومع اقتراب حلول اليوم التالي، استعد غيوفري للحهام الطقوسي، حسبها تطلبت العادة من الرجل الشاب الذي كان على وشك أن يصبح فارسا، وعندما علم الملك من حجابه بأن الأنجيفي والذين جاءوا معه خرجوا من الاغتسال، استدعاهم إلى حضرته، وبعدما طهر الشاب جسده، جرى لف هذا النبيل المنحدر من كونت أنجو بفطع من الكتان الصفيق، ثم وضع عليه ثوباً طقوسياً حيك بالذهب، وارندى فوقه رداء صبغ باللون القرمزي المستخرج من محار المريق، وارتدى زوجاً من الأحذية طرزا بأشكال أشبال، أما رفاقه، الذين كان من المتوقع تلقيهم منحة الفروسية، فقد ارتدوا مثله الكتان والقرمز، وتزينوا بشكل بهي حسبها وصفت، وخرج الصهر المستقبلي لملك انكلترا من الغرفة السرية إلى أمام الناس، وكان محاطاً بجمع النبلاء من بلاده، مشرقاً مثل زهرة اللوتس، ومغطى بالأهر مثل وردة.

وأخرجت الخيول، وجلبت الأسلحة، ووزعت على كلّ واحد حسبها

هو لائق، وجلب إلى الأنجيفي حصان اسباني، رائع المنظر والزينة، ومشهوراً أنه يسبق كثيراً من الطيور عندما يعدو، ثم وضع عليه درعاً لانظير له، بطانته مزدوجة، لايمكن خرقه لابرمح ولابحربة، ولبس زوجاً من الأحذية الحديدية المدعمة بتسميكتين من الزرد المقوى، وربط على قدميه مهازين من الذهب، وحمل ترساً مغطى بصور أسود ذهبية، ودلاه من على رقبته، ووضع على رأسه خوذة مرصعة بكثير من الأحجار الكريمة، وكانت عالية الجودة بحيث لايمكن تحطيمها بحد السيف، وأحضر إليه رمح طويل من خشب الدردار وله سنان فولاذي، وآخر شيء حمل له سيف من الخزانة الملكية، وكان محفوظاً بها منذ زمن بعيد عندما صنع بعناية من قبل المعلم ويلاند Weyland.

وبعدما تسلح هكذا، انطلق إلى الأمام جندينا الشاب الذي كان زهرة الفروسية، واندفع مسرعاً بشكل متوازن، وبهي في عدوه، ثم ماذا يمكن أن يقال أكثر؟ وكرّس ذلك اليوم لمجد وشرف الحملة الأولى، وأوقف كلية على ممارسة الألعاب العسكرية، ولبلوغ المجد الجسدي، ولمدة لاتقل عن سبعة أيام استمرت احتفالات الحملة الأولى الرائعة للفروسية في البلاط.

ومرة أخرى، جرى ارسال الرسل إلى فولك الخامس أوف أنجو، لإعلامه هذه المرة بوجوب ذهابه إلى لامانس، وأن يكون هناك بعد مضي ثمانية أيام من أحد الشعانين، للاحتفال بزواج ابنه بشكل لائق، ولم يتأخر فولك، بل وافق مسروراً، ووصل حسبها أمر بأبهة عظيمة، وكان موجوداً باليوم المحدد والمكان المقرر.

وانطلق الملك هنري الأول، ملك انكلترا من روان ومعه ابن فولك وابنته الامبراطور) ووصل أيضاً إلى وابنته الامبراطور) ووصل أيضاً إلى لامانس في اليوم المحدد، وتقاطر الناس من جميع الجهات وتجمعوا لشهود قداس الزفاف، الذي سيتولى عقده رؤساء أساقفة، وأساقفة، ورعاة ديرة وكهنة من جميع المراتب.

وهكذا أعطيت ابنة الملك برباط الزواج إلى ابن كونت أنجو، وحصل الأساقفة على موافقة الزوجين المتبادلة على الزواج، لأن كل قوة الزواج وفعاليته موجودة في الموافقة، وفي الحقيقة الموافقة هي التي تصنع الزواج، ووافق الاثنان، ووعد كل منها بالاخلاص للآخر، الذي كانوا على وشك زفه، واحتفل بعد ذلك بقداسات مباركة لزواجها.

وكان هناك سرور وسط رجال الدين، ورقص من قبل الناس، وصرخات شكر من قبل الجميع بلا استثناء، سواء منهم: الأجانب أو المحليين، والأغنياء أو الوسط أو الفقراء، النبلاء أو العامة، والجنود أو الفلاحين، لقد انغمروا جميعاً في سرور عام، وكلّ من لم يهتم بالاحتفال ويشارك به، بلا شك نظر إليه على أنه خائن، وأمضى الرجال والنساء الاحتفال بالزواج في تناول مختلف أنواع الأطعمة، واستمر الاحتفال بالزواج لمدة ثلاثة أسابيع بلا انقطاع، وعندما انتهى لم يغادر أحد من الحضور بدون هدية.

ثم ترك هنري الأول صهره وابنته وودعها بقبلة سلام، وحول انتباهه نحو مسائل أخرى، وعاد الكونت فولك مع الزوجين إلى أنغر، وعندما كانوا مايزالون على بعض المسافة منها، سارعت المدينة بأسرها للاستعداد لاستقبالهم، وضدرت التعليات بالزينة، وزينت جدران الكنائس بالتعاليق والأغطية، وخرج رجال الدين في موكب ولاء لاستقبالهم، وهم يرتدون الألبسة الكهنوتية والشارات الطقوسية وبأيديهم الشموع، والكتب، والصلبان، ويغنون التراتيل وأناشيد الحمد، واستقبل السيد الجديد والسيدة من قبل الكهنة والشعب برقصات مهيبة، وعاشا بعد ذلك بهناء، وشرفا جزيرة بريطانيا العظمى والأجزاء البحرية الأخرى بإنتاج وريث رائع [هنري الثاني المستقبلي].

ومنذ أن ارتقى والد غيوفري إلى مملكة القدس حسبها وصفت من قبل، أوقف الكونت الشاب وقته على إجادة استخدام السلاح، والنضال

في سبيل المجد، وقبل مضي وقت طويل جرى تسمية أحد الأيام م أجل مباريات مبارزة بين النورمان والبريتانيين فوق ربوة رملية مناسبة، وجاء إلى مساعدة النورمان ووقف إلى جانبهم: وليم كليتو كونت فلاندرز، وثيوبولد كونت بليوس مع أحيه ستيفن لورد مورتين، الذي سيكون الملك المستقبلي لانكلترا، وكان هؤلاء الثلاثة أبناء أخت لهنري الأول ملك انكلترا، وقابلهم الكونت وزاد تعدادهم، واصطف الطرفان المتنازلان، ووقف هناك صف البريتانيين، خفيف التسليح، سريع الانتباه، لكن قليل بالعدد.

وعندما رأى غيوفري أن تعداد القوات البريتانية التي تجمعت كان قليلاً، انفصل عن الحشد الكبير وقدم خدماته للبريتانين، واحتشدت القوات واشتبكت الصفوف بالقتال، وكان هناك قراع كبيربالسلاح، وزعقت البوقات، وترددت أصوات النفير بنغات كثيرة في حين زجرت خيولهم بأصوات مختلفة.

ولمع مونت سينت مايكل نفسه بأشعة الشمس التي عكستها ترستهم الذهبية، وكان الرجال كأنهم رجل واحد في المبارزة، وتكسرت رماحهم وتحطمت سيوفهم، وانرضت الأقدام بالأقدام، وانكدمت الأكتاف بالأكتاف، وفرغت ظهور المطايا من شاغليها وألقى بالخيالة أرضاً، وأما الخيول التي رمت بركابها، وقطعت مقاودها، فقد جرت على غير هداية وهي تصهل، وسيطر الرعب على المتصارعين بشكل واضح، وطلب غيوفري خصومه وقاتلهم، وكان يركض إلى الأمام وإلى الخلف، يرمي بالحراب ويلوح بالسيف، وقد حرم أعداداً كبيرة من حياتهم، واستمر البريتانيون يضغطون وكلهم أمل بالنصر، وكان الكونت يشق لهم والطريق ويقودهم، وقد أوقعوا كثيراً من القتلى في صفوف عدوهم، وضغط الأنجيفيون بحدة أعظم من حدة الأسد، وتقدمت صفوف البريتانيون وهي تضغط نحو الأمام، وكانت واثقة من النصر، ولحق البريتانيون وهي تضغط نحو الأمام، وكانت واثقة من النصر، ولحق

الإعياء بالنورمان نتيجة للصراع الكبير، فأبدوا ظهورهم وأخذوا بالفرار، وهكذا هُزمت الأكثرية من قبل الأقلية، وأرغم النورمان على اللجوء إلى معسكرهم، وهنا عندما شعروا بالهلع نتيجة الفوضى غير المتوقعة اقترحوا على البريتانيين اللجوء إلى المبارزات الفردية.

وعندما وصلت أحاديث المبارزات إلى ماوراء البحر، وصل جندي سكسوني هائل البنية، وقد منحت قوته وجرأته النورمان الاطمئنان بنيل النصر، وتقدم هذا الجندي من المعسكر النورماني، وكان أطول من أي انسان آخر بشكل واضح جداً، واتخذ لنفسه موقفاً في مكان واضح، وتحدى صفوف البريطانيين في أن يتجرأوا على تسمية رجل يستطيع أن يلاقيه في مبارزة فردية، وامتقعت وجوه الذين أصغوا إليه وعلاها الاصفرار، وتلاشت القوة واختفت من صدور الرجال الشجعان، وخافوا على الانسان الذي سيخرج لمبارزة مثل هذا الوحش الهائل.

وراقب غيوفري هؤلاء الرجال الشجعان، وقد تحولوا إلى ضعفاء يصرخون بالويل والثبور عندما كانوا يدعون شخصياً إلى المبارزة، وهنا صرخ بشكل مخيف، ورفض تحمل مثل هذا العذاب والاهانة والتحديات التي كانت تأتي متوالية، فامتطى فرسه، وهمل سلاحه، ومضى نحو النزال أمام الحشد الذي وقف يراقب مايجري من جميع الجوانب، لقد توجه ليبارز ذلك الجندي العملاق، وكان القتال قاسياً، فقد حمل ذلك الانسان، الذي فاقت قواه قوى الانسان العادي، رمحاً اسطوانته مثل جذع شجرة، وعندما كان يقاتل الشاب الأنجيفي حرق ترس الكونت مع لأمته، لكن دون اراقة كثير من الدماء، غير أن بطلنا ظل ثابتاً لم يتزلزل، وكأنه متجذر على ظهر فرسه، وقام برمي خصمه بحربة فصرعه، ومن ثم وقف فوق جثة عدوه فقطع رأسه بسيفه، واقتاد فرس الرجل ومن ثم وقف فوق جثة عدوه فقطع رأسه بسيفه، واقتاد فرس الرجل المهزوم بيده المنتصرة، وباستحواذه لغنيمة حربه هذه، جلب العار إلى النورمان والفخار إلى رجاله، وطار خبر نصره وانتشر في كلّ مكان، ومن

عادة النبلاء الأشرار أن يغاروا من الرجال المستقيمين، ولهذا قالوا: صحيح أن غيوفري هو صهر الملك، غير أنه لايشعر بالأمان إلا بين رجاله حيث لايخشى من الوقوع بالأسر، ولهذا السبب نجد أن الفارس الأصيل والممثل الحقيقي للفروسية طلب الحصول على حلاوة الشهرة، وكان تواقاً للرياضة، لذلك نشد المبارزات في فلاندرز، وناضل في سبيل الحصول على فرص يحقق فيها أعهالاً عظيمة، فقد كان يرغب بالمديح وكان يستحق ذلك.

وكان غيوفري يتمتع بالصيد عندما كان الوقت يسمح له، وكانت هذه المهارسة مفيدة ومتوفرة للبعض وفيها خلاص من الاهتهامات الثقيلة، وتعيد الانسان متحرراً وكأنه ولد من جديد، وهيو —فضلاً عن ذلك— مستعد للقيام بالواجب، وكان الصيادون يدخلون إلى الأحراش، ويطلقون كلابهم الذكية حسبها جرت العادات، وكانت الكلاب تتبع أثر الحيوانات بشم بقايا روائحها، وهكذا كانت تعثر عليها بسرعة من الصعب تصديقها، كها كانت تقود الكونت بوساطة عوائها.

وأسرع الكونت هذه المرة ليجتاز الممرات الملتوية والدائرية وليبقى قريباً من كلابه الملاحقة للصيد، وقد تسلق أسرع الطرق، لكن بدون حظ، لأن الحيوان الذي أمل أنه اقترب منه بوساطة كلابه، أرغم على الفرار باتجاه ما، وفي هذا الوقت مع أنه اعتقد أنه مايزال قريباً من مرافقيه أكثر منه من كلابه، كان في الحقيقة بعيداً عنهم كثيراً، وكان تاه اليوم كلّه وأمضاه بحثاً، فلم يعثر لا على رفاقه ولا على كلابه، ولم يرهم في أيّ مكان، وأخيراً، والشمس قاربت على المغيب رأى عن بعد فلاحاً وسط بقعة غير مزروعة، وكان الرجل مغطى بالسخام، وارتدى ثياباً سوداء غطت جسده حتى حقويه، وكانت حرفته ظاهرة مما ارتداه، وكان يشقى في صنع الفحم للصناع، ولهذا السبب كان وجهه وكانت ثيابه كاسبة لهذا اللون.

وعندما رآه غيوفري لم يزدره بحكم كونه رجلاً ثرياً، وله مكانة عالية، بل تصرف تصرف رجل عارف، رجل يعاني من الوحدة، وهكذا ندب سوء الحظ، متذكراً ماقاله ذلك الرجل القديم: «بعرق جبينك تأكل خبزك».

وحياه غيوفري بكل لطف، وسأله: «هل يمكنك أيها الرجل الطيب اخباري عما إذا كنت تعرف الطريق الذي يقود إلى القلعة في لوشي»؟.

ورد عليه الرجل: «لو أنني لاأعرف، لما كان بإمكاني أخذ فحمي إلى هناك دوماً لبيعه».

وقال الكونت: «بناء عليه، خنف أيها الصديق العزيز معك في طريقك إلى الطريق الرئيسي، قبل أن أضيع تماماً في هذا المكان المنعزل وسط الأحراش».

وأجابه الفلاح بقوله: «أنت يامن تمتطي حصاناً لاتعاني من مشكلة اطعام نفسك، وكساء جسدك، لكن إذا توقفت أنا عن العمل سأموت وستموت أسرتي معي».

فأجابه قائلاً: «أرجوك تعال بدون تأخير، وخذني إلى حيث سألت، ذلك أنني سوف أدفع لك ثمن رحلتك».

ثم نظر الرجل إليه بشيء من الريبة، وتمتم قائلاً: «لاأدري أيّ قدر سياوي حلّ بي»، ثم انحنى وقال: «إنني لن أخاف مما سيحل بي، ولسوف أذهب معك، إلى حيث تأمر».

وعانقه الكونت بسرور، وطلب منه آن يركب خلفه فيكون رديفه على حصانه، وتولى الفلاح بكل سرور وضع الكونت على الطريق الذي كان يبحث عنه، ولم يستغرق ذلك وفتاً طويلاً، وكان طوال الطريق يتأمل تواضع هذا الرجل النبيل، ووداعته الرائعة.

لكن تبع ذلك أشياء أخرى:

فقد افتتح الكونت حواراً لطيفاً مع الفلاح، وكان بين ماسأله عنه: «ماالذي يقوله الناس عن كونتنا؟ أخبرني أيها الصديق الطيب، وكيف يرون النبلاء ويقوموهم، وماهى مواقف الرأي العام»؟.

وأجابه الرجل الآخر قائلاً: «فيها يتعلق بالكونت، والأشياء التي وقعت في حضوره، لانقول، ولانشعر بأي سوء نحوه، لكن ياسيدي مانعاني منه هو عدد من الأعداء الذين هو ليس على دراية بهم، والأشد سوءاً بينهم، هم الأكثر خفاء وسرية، لأنه ما من عدو من الصعب الاحتراز منه، وهو جاهز للايذاء، مثل العدو الداخلي، ومثل هؤلاء نحن لانتجراً على مقاومتهم».

وقال الكونت: «لكن هل من الممكن لمولانا الكونت التغلب على آرائهم، أو التخلص منهم»؟.

وأجابه الرجل: «يمكنه أن يفعل العملين، يمكنه فعل ذلك ياسيدي إذا لم تنفذ هذه الأفاعيل الشريرة تحت ستار تقديم الطاعة له».

فقال له الكونت: «أخبرني بعناية أكبر حول هؤلاء الأعداء، وأوضح لي أفاعيلهم الشريرة، فلعلي حينها يحين الوقت، لن أكون صامتاً أمام الكونت». فأجابه:

"ياسيدي إن الذين يتولون ظلمنا هم الكتاب والحجاب والعاملين الآخرين لدى مولانا الكونت، فكلما جاء إلى إحدى قلاعه، يستولي عماله على كثير من البضائع على أساس السلفة أو الدفع فيها بعد، ويأخذون كلّ مايجدونه بدون سؤال أو تسعير، ويظلّ الباعة صامتين، ويغادر الكونت، فيطالب أصحاب الديون بالدفع، وهنا ياسيدي من المؤلم أن أذكر، أنهم إما ينكرون كلية حصولهم على أيّ شيء أو يسوّفون ويؤجلون الدفع حتى يقبل أصحاب الديون بكلّ سرور بنصف مالهم من مال».

ثم قال بطلنا وهو يبتسم للفلاح، ولكن وهو أيضاً يخفي الغضب الذي كان لايمكنه منع نفسه من الشعور به وأنه غذي بشكل وحشي إلى هذه الدرجة: «لكنهم يمتلكون أراضي خصبة للاشيء هؤلاء الرجال الذين اغتصبوا ماهو حق للكونت، وجعلوه يعيش دون أن يدري على السحت، ثم أضاف يقول: سلام، سلام، لكن لاسلام حيث الأرض عيث بها إلى هذه الدرجة من السوء من قبل الأعداء الداخلين».

وأخبره الفلاح: «لكنك ياسيدي لم تسمع كلّ شيء بعد»!.

وقال غيوفري: «أنا سوف أستمع بسرور إلى كلّ شيء، اشرح كلّ شيء بعناية ولطف وعدل، لأنني أحب الكونت، ومن المفترض على أساس صداقتي له، سوف أخبره بكلّ تأكيد بها يفعلونه».

وتابع الفلاح يقول: «لعله بفضل ارادة الرب أن حدث ولقيتك لأسمعك اليوم مالايمكنني شخصياً أن أخبربه الكونت، وهذا لن يخفى عن الكونت بوساطتك، ولهذا استمع ياسيدي، لكن ليس لما هو أسوأ:

بعد جمع المحاصيل، ينطلق وكلاء الكونت إلى القرى، وبالنسبة للقانون الجديد نجدهم يفرضون على كلّ فلاح حصة يحصلونها من محصوله بكلّ عنف، ثم ومرعب أن نروي يطلب هؤلاء الرجال جزئاً من ستة عشر من المحصول، أو يطلبون من أحدهم جزئين من ستة عشر، أو من بعضهم أكثر إذا مااستطاعوا التحصيل، وإذا ماصدف واعترض أحد الناس على هذه الفريضة، يجر إلى المحاكمة، ويعذب من قبل أتباع الوكلاء ويحاكم، ويتهم بجرائم مزيفة، وهكذا مامن أحد ينجو من الأيدي الجشعة للقضاة الأشرار، حتى يفلس، ويأسف أن جهوده لم تصمد أمام هؤلاء الذين يحفظون القانون».

وفكر الكونت وردد في قرارة نفسه: «ليلحق الشربالذي أوجد مثل هذه القوانين»، ثم رفع صوته وهو يقول: «الانتقام هو عملي، وسأنزل

العقاب بهؤلاء قبل مضي وقت طويل»، ثم تابع يقول:

«أخبرني المزيد، ولاتبق شيئاً لديك، ماذا لديك أيضاً لتسمعني عن هؤلاء الرجال المشهورين؟، وهل يعلم الكونت بهذه الأعمال الشريرة»؟.

وأجابه الفلاح: "إنه لأمر مدهش كيف أنهم استطاعوا ياسيدي اخفاء هذه الأعمال عن مولانا الكونت، مع أنهم يفعلونها بحضور الجميع، مالم تكن العادة الرائجة أن يكون السادة آخر من يعلم بها يجري في بيوتهم، وسأضيف حدثاً آخر لما تحدثت عنه، ثم سأوقف حكايتي، مالم أكن أسبب أذى إلى مسامعك اللطيفة»؟.

وقد قال ذلك بنبرة اعتذار ريفية.

ورد عليه غيوفري قائلاً:

«قل ولاتخف أبداً، فها من أحد يتكلم ببيان أوضح ممن يتحدث بالصدق، ويروي الحقيقة».

وتابع الفلاح حديثه قائلاً:

"عندما تسمع بعض النذر باقتراب وقوع حرب، سواء أكان ذلك صحيحاً أو مخترعاً من قبلهم، يرسل هؤلاء الوكلاء وقتها رجاهم للقيام ببذل جهود عظيمة في نشر الاشاعة، ويقومون بوساطة الاعلانات والأوامر العامة التي يذيعها المنادون بحشد الفلاحين من جميع الأجزاء لملأ القلاع بهم، بحجة تأدية واجب الحراسة، وبذلك يتركون الأرياف مهجورة، ثم يقوم أتباعهم فيبعثون بشكل سري فيستدعون بعض الأفراد، ويظهرون لهم أسفهم لما لحقهم من خسارة، وكأنهم لايريدون سوى مواساتهم دوماً، ثم يشجعون الفلاح للقيام بشراء أذن بالعودة من الوكلاء عن طريق عرض بعض الهدايا وتقديمها بشكل سري، ويعرضون ذلك وكأنه نصيحة جيدة، وكان بالنسبة لكل رجل سمح له بالعودة عدد آخر، من

الف الحين التعساء، المثقلين بالديون ولايمتلكون سوى دريهات فيقرضونها لآخرين وبذلك يرغمون على البقاء بالقلاع، هؤلاء هم يا سيدي الذين تتأثر الأرياف بهم بكل مرارة ، والذي يشقى في السلم مثله في سوء الحظ مثل الذي يموت في الحرب» وأكمل الفلاح حديثه وقال كل هذا عندما أخذوا يدخلون إلى البلدة.

وينبغي عدم تجاوز الاشاعات التعيسة التي ازدادت أثناء غياب الكونت، ففي بلاطه سأل كلّ انسان الآخر عن غياب غيوفري، وأين يمكن أن يكون، ومامن واحد أجاب بأخبار طيبة، ومع حلول الظلام تعاظمت أحزانهم كثيراً، وتوقف الجميع عن الحركة بأعين مرعوبة محدقة بالطريق التي اعتاد أن يعود عبرها من الغابة، وفجأة وصل الشخص الذي طال انتظاره، وقام بسرور بتقديم التحية لأول رجل التقاه، حسبها كانت عادته، ولدى ملاحظة ذلك الرجل صوت الكونت لم يستطع اجابة تحيته لسروره، ولأنه ركض أمامه وهو يصرخ بكلّ ماأوتيه من قوة بأن الكونت قد عاد، وكان يشير إليه.

ثم لاحظ الفلاح وعرف الشخصية التي كان يقودها ويتحادث معها، فاقتنع أنه لم يعد بإمكانه البقاء رديفاً للكونت، وهكذا حاول فجأة أن يقفز نحو الأرض، وأدرك الكونت مايجري وتنبه له فأمسك به وهو يحاول النزول، وقال وهو يبتسم:

«هل يتوجب علي هكذا العمل للتخلص من الدليل الذي تمكنت بمساعدته من العودة إلى شعبي؟ إن هذا لن يكون»، والجماهير تتدفق حوله من كلّ جانب، حمل الفلاح ووضع عاليا على ظهر حصان الكونت سواء أراد ذلك أم لم يرده.

وجاء وقت المائدة، وكان الفلاح قد غير ملابسه وارتدى ثياباً فخمة زوده بها الكونت، وجلس الفلاح وسط الرجال القياديين لدى الكونت،

وجرى تكريم الفلاح وتبجيله بتقديم أفخر الصحون له، لقد تناول الفلاح طعامه بآنية ذهبية، أما المغامرة التي واجهها الكونت فقد تولى روايتها الفلاح وكذلك الكونت.

وعندما عاد الكونت من القداس في اليوم التالي، أمر باحضار دليله، وخاطبه قائلاً:

لقد حررتك وخررت ورثتك من جميع الضرائب والخدمات، وأمرت بأن تكون رجلاً حراً، حراً في كلّ مجال، وبناء عليه عد إلى أسرتك ومارس الحياة الهينة التي ترغب بها، وما ان أنهى خطابه حتى أمر بمرافقة الرجل إلى حيث كان يقيم.

وبات الكونت متفوقاً على الجميع لأنه جعل واجبه حماية الضعفاء، وسأعرض الآن أمامك مثلاً عن الطريقة التي عرف بها كيف يخضع الأقوياء.

وكان الكونت ثيوبولد الثاني صاحب بليوس وشامبين رجلاً مشهوراً، وكان من أغنى الفرنسيين في أيامه، وكان مستقياً تماماً وخالياً من اللوم، وفي داخل دويلته كان وليم كونت نافار وهيو صاحب كوسني Cosne الذي يعرف بلقب مانسيو Manceau في خصام دائم فيما بينهما، مع أن ثيوبولد كان يدعوهما دوماً، ويعرض خلافاتهما أمام محكمته، وأخيراً قام ذلك الشرير صاحب نافار، الذي فضل أن يهزم عدوه بالقوة وليس باللجوء إلى القانون، بالفرار من بلاط ثيوبولد.

كان في تلك الأثناء لويس السادس ملك فرنسا يسعى بهدوء نحو تمتين سلطانه بتوجيه من سوكر راعي دير سانت دينس(٩).

وفي خلال الصراع الطويل والمستمر الذي تالا ذلك طلب كونت نافار

مساعدة ملك فرنسا لويس السادس مع مساعدة أسقف أوتون وساق هذان الرجلان جيشين عظيمين وزحفا إلى جانبه، ذلك أنه أراد محق عدوه تماماً، وعلى هذا الأساس حشد الملك والأسقف والكونت جيوشهم الثلاثة وحاصروا هيو في القلعة التي اسمها كوسني، ولم يعد أمامه أدنى أمل بالنجاة، طالما أن القوات طوقته من كلّ جانب، ولم يعد أحد يتمكن من الدخول إلى القلعة أو مغادرتها، وفي حالة اليأس هذه بعث مانسيو برسل إلى الكونت ثيوبولد ليشرح له المأزق الصعب الذي هو فيه وليطلب المساعدة، وبدون تأخير، لوجود خطر كبير بالتأخير، أمر ذلك الانسان الجيد رجاله بالذهاب إلى هناك، وطلب من جيرانه وحلفائه المساعدة أيضاً، ونشد بين هؤلاء مساعدة غيوفري صاحب أنجو، وكان واثقاً من قدومها، لأنه اعتمد اعتماداً كلياً على مساعدة هذا الكونت، ولم يتقاعس بطلنا، فقد كان دوماً سريعاً جداً في تقديم العون الكونت، ولم يتقاعس بطلنا، فقد كان دوماً سريعاً جداً في تقديم العون عادة.

وحشد غيوفري كوكبة تألفت من مائة وأربعين فارساً من النخبة والمسلحين بشكل جيد، وأرفقهم بشلاثهائه من قوات الاحتياط وبادر مسرعاً بالتقدم، ووحد قواته مع قوات ثيوبولد، وزحف الرجلان معاً لانقاذ مانسيو المحاصر، لكن أخبار قرب وصولها طارت أمامها ووصلت إلى مسامع ملك فرنسا، الذي قام بعقلانية وحكمة بازالة معسكره والتخلى عن الحصار.

وجعلت كراهية الأعداء كونت نافاريتأخر ويتقاعس عن الفرار بعض البوقت، وتولى على كلّ حال الكونت غيوفري مطاردته، بينها تعامل الكونت ثيوبولد مع الذين بقوا، ثم ما كان عليك سوى أن ترى غيوفري النبيل ومعه رفاقه الشرفاء، وهو يحمل ترسه المزين بصورة أسد، مع أنه في الحقيقة لم يكن أقل شجاعة أو حدة من الأسد، وطارد الفارين وكأنه

صاعقة عسكرية، أو توجه لمساعدة رفاقه، فاستطاع أن يفتك بسيفه ببعض الفارين، أو يلقي ببعضهم الآخر أرضاً وهم مصابين، فما من واحد من الهاربين نجا دون اصابة بجراحة.

ثم ماهو المزيد؟ فعندما مات كثيرون، وفر أكثر، أخذ غيوفري كونت نافار نفسه أسيراً، وسلمه مكتوفاً إلى الكونت ثيوبولد.

تميز كونتناغيوفري آنشذ بهذه الفضائل السامية وبتهاسك الذات، فقد كان بإمكانه بلحظة واحدة أن يكون انسانياً ورحيهاً ولطيفاً ومستقيها، ثم قوياً شجاعاً متحمساً، فهكذا كان بإمكانه حقاً أن يجافظ على الضعفاء، ويخضع الأقوياء.

كان في الوقت نفسه فولك صاحب أنجو، وملك القدس يصطرع في الأراضي المقدسة ضد القوى المتنامية للمسلمين بقيادة زنكي، الذي حكم الموصل منذ سنة ١١٢٧، ولقد أوحت نجاحات زنكي المتوالية أن القدس ربا تسقط، لولا أن بادر في ثلاثينات القرن الثاني عشر كلّ من أمير دمشق وامبراطور القسطنطينية إلى مساعدة فولك. وفي سنة١١٣١، استدعى فولك ريموند أوف بواتيه، وهو الابن الوسيم والقادر للدوق وليم التاسع صاحب أكوتين، إلى فلسطين، وجعله خطيباً لأميرة أنطاكية وليم التاس التي كانت في التساسعة من عمرها، وكان هذا عملاً استراتيجياً هاماً اعتمدت عليه مملكة القدس، فقد توفرت الحاجة إلى ريموند لتقديم المساعدة لفولك في دفاعه عن الأراضي المقدسة.

بعد مرور عدة سنوات، وبينها كان الكونت غيوفري ينعم بالازدهار، شن روبرت أوف سابل Sable مع حلفائه الحرب ضد غيوفري.

يتولى الآن يوحنا أوف مارموتيير Marmoutier بالتفصيل وصف الحملات الكثيرة التي قام بها غيوفري ضد أصحاب قلاعه العصاة، الذين كان بينهم سادة سابل.

صار روبرت صاحب سابل باروناً لجميع المنطقة بوساطة أيهان فاسدة أداها له رفاقه، حتى إلياس، الذي كان آنذاك كونت مين Maine وهو أخو كونت أنجو، تأثر بنصائح الرجال الشريريين فقاتل أخاه، وعندما أسر غيوفري إلياس، أبقاه في السجن الأيام كثيرة في تور، لكن بعدما أطلق سراحه منه، توفي هذا الشاب، بسبب اصابته بمرض خطير وهو في السجن.

وأمسك في الوقت نفسه غيوفري بالفرصة التي توفرت له، فقام بعد استشارته لرجاله، بدخول أراضي أعدائه، مقدراً أنه من الحكمة أن يهاجم في أراضيهم، بدلاً من أن يدعهم يتولون مهاجمته، وبناء عليه قام الكونت نفسه وبصحبته نخبة من فرسانه مع أعداد كبيرة من الرجالة، بالزحف ضد أولئك الناس العصاة والمعادين له، وأرغمهم فوراً على الفرار، وكذلك أرغم مشاتهم على الهرب، وهنا خرج رجال روبرت ضد الكونت، وهنا تمنع عن القتال مواجهة، ذلك أن قوات سابل غيرت أوضاعها لدى اقترابه وأقامت عدداً من الكائن، وهنا رأى غيوفري أنه بات من الضروري بالنسبة له أن يعد قواته من أجل القتال، فاستطاع رد روبرت أوف سابل إلى داخل القلعة، وذلك بعدما عرض عدداً كبيراً من رجاله للموت أو الاصابة بجراح أو السقوط بالأسر، وإثر هذا قام رجاله للموت أو الاصابة بجراح أو السقوط بالأسر، وإثر هذا قام الكونت المنتصر بالعودة إلى مكانه.

#### سنة اثنتين وثلاثين ومائة وألف

بعد مضي أربع سنين على النواج السالف الذكر [بين غيوفري وماتيلدا] ولد هنري الابن الأول للكونت غيوفري، وهو سيكون هنري الشاني الملك المستقبلي لانكلترا، وفي السنة الخامسة ولد غيوفري، وفي السنة السادسة جاء وليم.

#### سنة خمس وثلاثين ومائة وألف

في سنة ألف ومائة وخمس وثلاثين، وفي اليوم الأول من كانون الأول توفي هنري الأول ملك انكلترا، وكان عمره سبع وسبعين سنة تماماً، وجاء موته بعدما أمضى بالحكم خمساً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وحدثت الوفاة في روان Rouen في مكان يحمل اسم ليون -لى فيورت الوفاة في روان Lyons-La-Foret واحتفظ النورمان بأحشائه، وحمل الانكليز بقية الجسد إلى قبر في دير في ردنغ.

و إثر وفاة الملك هنري اعتلى العرش بشكل غير شرعي ستيفن، كونت مورتين Mortain ، وكان أخاً لثيوبولد الثاني، كونت بليوس وشامبين، وابن أخت للملك المتوفى، وتتوج ملكاً في انكلترا.

ودخل في تلك السنة غيوفري صاحب أنجو، ومعه رجال منتخبين، إلى نورماندي، عازماً على الاستيلاء عليها، لأنها ميراث لابنه.

وفي الوقت نفسه عبرت الامبراطورة ماتيلدا البحر، وبصحبتها كوكبة من الفرسان، ومع أنها امرأة، هاجمت بكلّ قوة ورجولة الانكليز، مصرة على أن ميراثها الشرعي سوف تحصل عليه بقوة السلاح، وانتشرت الأخبار

بسرعة، ووصلت إلى مسامع الملك ستيفن، وأعلنت أن المملكة باتت في خطر، لأن الامبراطورة أخضعت بالقوة كثيراً من الانكليز، وأعداد كبيرة منهم استسلمت لها على الفور، وأنه مالم يبادر بالعودة مسرعاً إلى انكلترا سوف يفقد تاج المملكة، وقام الملك المرغم بالأخبار السيئة بالابحار مع أكبر عدد من الرجال الذين توفروا له من حشود عساكره.

ثم أعطانا يوحنا أوف مارموتير رواية مثالية عن احتلال غيوفري لنورماندي [١١٤٢-١١٤] تدلل -بشكل غير صحيح - أن تقدم الكونت قوبل بحماس أعظم من العدوانية في الدوقية.

ثم إن الكونت النشيط القوي، أدرك في حربه وصراعه ضد الجيش المحشود من قبل ستيفن وتأكد أن الرب سيقاتل إلى جانبه ضدّ قلاع الملك غير التقي، ولدى معرفته بأخبار تراجع الملك، لم يضع فرصة تقدمه في تلك الساعة، بل تابع زحفه نحو الأمام، فدخل إلى البلاد، وحاصر مورتين، وأخذ رهائن وتأمينات، واستقبل السكان بسلام، وحكمهم بشكل انساني، وحافظ على ممتلكاتهم دون أن تتعرض للأذى من الجيش.

ثم نقل الكونت جيشه، وجاء إلى كيرنتان Carentan ، وبعدما تسلم هذا الموقع بدون قتال، بادر مسرعاً إلى مدينة بيو Bayeu ولدى سياع السكان والأسقف باقترابه، خرجوا بسلام وهم يبدون سرورهم، وتقبلوه وتقبلو سلطته، وقدموا له الولاء وأقسموا متعهدين بمساعدته ضد جميع أعدائه.

وتحرك الكونت من بيو، وأخذ طريقه نحوسينت لو، حيث كان أسقف كاوتنس Cautances المسيطر على الموقع، قد تولى تحصين الموقع ضده، وكان عدد الجند في داخله حوالي المائتين، وقد خرجوا لانشاب القتال ضد الكونت، وقد أرغموا مع أول اصطدام على الفرار عائدين إلى البلدة، وصمدوا فقط في اليوم الأول والثاني، واستسلموا في

اليوم الثالث وفتح المدافعون الأبواب، وطلبوا السلام، وقدموا رهائن، وأقسموا على تأدية الولاء، وعلى الطاعة للكونت(١٠).

ثم قصد مدينة كاوتنس ووصلها، وهي مدينة واقعة في مقاطعة كوتنتن، ودخل الكونت إلى هذا الموقع، واستولى عليه بلا مقاومة (لأن الأسقف كان بعيداً)، وكان مشحوناً بالقوات والعتاد، ثم جمع بعد ذلك بارونات مقاطعة كوتنتن، وطلب تقديم الرهائن منهم، وجاءوا جميعاً، وأدوا الخدمات المطلوبة، باستثناء رالف مع أخيه رتشارد دي لى هي المعود أوقام الأول بتحصين قلاعه ضد الكونت، بينها تمركز الآخر مع قوة كبيرة من الجند فيها مائتين أو أكثر من العساكر، في شيربورغ قوة كبيرة من الجند فيها مائتين أو أكثر من العساكر، في شيربورغ الصمود في وجه الكونت، غير أن الكونت، صاحب القلب العظيم، تولى أولاً العيث فساداً في منطقة رالف، وحاصر قلاعه، ثم تمكن بوساطة قوة عسكرية من أسر رالف نفسه، ولقد تأخر رالف كثيراً في تقديم التوبة، وذلك بعدما تولى قتال الآخرين، لذلك تقبل بهدوء الوقوع بالأسر والخضوع.

وزحف غيوفري الآن إلى شيربورغ، وذلك بعدما قام بتنظيم الجنود اللذين رافقوه، وأعد بكل براعة وحرص آلات الحصار، وبذلك كان جاهزاً باستعداداته الحربية، وكان يوليوس قيصر قد شيد في شيربورغ حصناً، وذلك أثناء استعداده لغزو بريطانيا، وقد أحاط هذا الحصن أسوار على درجة عالية من القوة، وأقيمت أبراج كثيرة في اطار السور، حتى بات من المتعذر أن يستطيع جندي غرس رمحه بينهم، وأقام برجاً أعلى من الأبراج الباقية وسط التحصينات، وشيد قاعة ملكية، وإلى هذا الحصن فرّ بعد أول هجوم قام به ضد بريتاني، وأطلقت لذلك بعض الروايات العادية اسم قلعة قيصر على هذا الحصن.

وبعدما احتل رتشارد دي لي هي هـذا الموقع، شحنه بالفرسان

والجنود، والرجال المسلحين مع كمية كبيرة من المؤن والعتاد، ثم حرضهم على مقاومة غيوفري بكل ثبات [ذلك أن رتشارد قرر عبور البحر والذهاب إلى الملك ستيفن، على أمل أن يعود من عنده وهو يقود قوة من الجند، يرغم فيها الكونت غيوفري على الفرار وذلك بعد رفعه للحصار] وفي الوقت نفسه تابع الذين كانوا في الحصن مقاومة الكونت، معتمدين ليس فقط على شجاعتهم وعلى المخزون العظيم من المؤن الذي خزنه الطاغية رتشارد دي لى هي هناك، بل أيضاً على دفاعات الأبراج التي لاترام، وقد قذفوا المهاجمين بالحراب الحربية، وبالشتائم المقذعة، ورد عليهم المهاجمون كل رماية برمية، لكن ليس كل كلمة بكلمة، غير راغبين في أن تكون ردودهم فارغة، وقاتل الرب الذي بيده جميع القوى والمالك لصالح الكونت، فصد أعداءه، وأنجح مقاصده، ذلك أنه عندما أبحر رتشارد دي لى هي، وقع بأسر القرصان الذين حملوه إلى أراض أجنبية.

وهلت الأخبار غير المفرحة إلى الذين كانوا يقاومون الكونت، واربدت وجوه المحاصرين وعلاها الحزن، وتهاوى أملهم المهزوز، ولم يعد في مقدورهم سوى التفكير بالفرار، ولم يجدوا أمامهم منفذاً لفعل ذلك، ولهذا سلموا الحصن القوي المشحون بالمؤن، وأعلنوا عن رغبتهم بالاستسلام لسلطة الكونت ووضع أنفسهم تحت تصرفه، وتعهدوا بأيهان مغلظة بالبولاء له، وإثر تنفيذ هذه الأعهال، قدر الكونت أن حلول الشتاء قد اقترب، وبعدما أخذ ما أخذه من القلعة أذن لجنده بالانصراف.

واستمر الصراع طويلاً في ابين ستيفن، الملك المزيف، وغيوفري كونت أنجو، وكان شأن غيوفري يزداد علواً دوماً وهو يزداد نشاطاً في نفسه، بينها كان ستيفن يضعف يومياً.

واعتاد الملوك والأمراء التوجه إلى الحرب بعد انقضاء الشتاء القاسي والعاصف، وعندما تبدأ رائحة الربيع الدافئة تملأ الهواء، وتتحول البراعم إلى زهور، وعندما تغدو حدائق الورود تعج بالورود الجديدة بعدما كانت

قبل قليل جرداء، وعندما تأخذ أزهار الليلك البيضاء تتمايل أمام الأعن...

يرسم هنري أوف هنتنغدون Huntingdon صورة مختلفة تماماً حول الصراع بين أسري بليوس وأنجو في سبيل السيطرة على نورما ندي وانكلترا والتحكم بها، ولم يكتف المؤرخ في اظهار بعض التعاطف المحق— نحو ستيفن، بل نظر إلى حوادث حكمه وتفحصها في الاطار الانكليزي —والسكوتلندي— تماماً، وسيظهر هذا على الفور في وصفه لموت هنري الأول، ووصول ستيفن إلى العرش في سنة ١١٣٥.

إثر وفاة الملك هنري الكبير (١١٣٥) تناول الشعب البحث بحرية حول أخلاقه، وذلك حسب العادة ، بعد وفاة الناس، فقد أصر بعضهم واتفقوا على أنه كان متميزاً تماماً بثلاث مواهب، وكانت هذه:

حكمته العظيمة، لأن آراءه كانت عميقة، وكانت بصيرته نافذة، ولفصاحته الآسرة ولنجاحه بالحرب، فبالاضافة إلى كثير من النجاحات والانجازات، كان هو المنتصر على ملك فرنسا [لويس السادس]، ولثرائه، والذي فاق به جميع سلفه من الملوك، واتخذ آخرون على كل حال مواقف مخالفة، وعزوا إليه ثلاثة معائب: فبالنسبة لثرائه، صحيح أنه كان عظيم الثراء بالمقارنة مع أجداده، إنه أفقر الناس بالضرائب والمكوس، وأرهقهم بالمتاعب على اختلاف أنواعها، وكان بلا رحمة، وفي هذا المجال اقتلع عيني قريبه، كونت مورتين الذي كان لديه أسيراً، علماً بأن هذه الفعلة الشنيعة والمرعبة لم تكن معروفة، وكشفت بعد وفاته مع أسراره، وقد ورد ذكر أمور أخرى وحوادث، أنا لن أقول عنها شيئاً، وكان شبقاً، فذك أنه كان مثله مثل الملك سليان مستعبداً من قبل الأغراء الجنسي ذلك أنه كان مثله مثل الملك سليان مستعبداً من قبل الأغراء الجنسي النسائي، وكانت الأخبار منتشرة من حوله ومتداولة، لكن كل مافعله

الملك هنري سواء بالطغيان أو عدلاً كملك يبدو رائعاً بالمقارنة مع الأيام المقبلة بعده التي ألهبت الأمور بوساطة عنف النورمان.

فقد جاء ستيفن بكل سرعة، وهو الأخ الأصغر لثيوبولد كونت بليوس، وكان صاحب عزيمة، ورجلاً جريئاً، لم يقم اعتباراً ليمين ولائه لماتيلدا ابنة هنري، جاء متحدياً الرب بالاستيلاء على عرش انكلترا بجرأة ووقاحة، وكرس وليم رئيس أساقفة كانتربري الملك الجديد، مع أنه كان أول من أقسم يمين الولاء لماتيلدا، ولهذا ياللاسف زاره الرب ومعه الحكم نفسه الذي أوقع على الرجل الذي ضرب أرميا، الواهب الكبير، فهات خلال العام، وكذلك حدث لروجر الأسقف القوي لسالسبري، وكان قد أدى يمين الولاء نفسه، والآن أقنع الآخرين أن يفعلوا الشيء نفسه، وصرف جميع قواه في سبيل رفع ستيفن إلى العرش، وتعرض هو أيضاً لحكم الرب العادل، فألقي بعد أمد في السجن، وواجه نهاية مؤلة، أيضاً عليه الملك نفسه الذي ساعد على صنعه.

وباختصار حوّل جميع الايرلات والبارونات الذين قد أدوا يمين التبعية لماتيلدا، ولاءهم إلى ستيفن وقدموا له فروض الطاعة، ولقد كان فألاً سيئاً أن تقوم انكلترا كلها بسرعة، وبدون تردد أو صراع، وبلحظة مثل طرفة عين، فتخضع لستيفن، وبعدما جرى تتويجه عقد بلاطه في لندن.

#### سنة ست وثلاثين ومائة وألف

وجاء الملك ستيفن في السنة الأولى من حكمه إلى أكسفورد، فأخبر أن داود ملك السكوتلنديين، تظاهر بأنه قادم لزيارته زيارة صداقة، فزحف إلى كارت ايل ونيوكاسل، واستولى عليها مخادعة، ورد الملك على الرسول الذي حمل إليه الأخبار: إن ماحصل عليه بالمخادعة سأرغمه على التخلي

عنه، وبناء عليه حشد الملك ستيفن على الفور أعظم جيش حشد في انكلترا عرفه الناس حتى الآن، وقاده ضد الملك داود، ولقد التقيا في دور هام، وهناك تصالح ملك السكوتلنديين مع ستيفن وسلمه نيوكاسل غير أنه احتفظ بكارايل وذلك بموافقة من ستيفن، ولم يقدم الملك داود البولاء للملك ستيفن، لأنه كان أول الناس من غير رجال الدين، قد أقسم يمين الولاء لابنة الملك المتوفى، التي كانت ابنة أخته، وقد اعترف بها ملكة على انكلترا بعد وفاة أبيها، لكن الملك هنري ابن الملك داود، قدم الولاء لستيفن، وأعطاه ستيفن بالإضافة لما تقدم بلدة هنتنغدون.

وبعد عودة الملك ستيفن من الشيال، عقد بلاطه خلال عيد الفصح في لندن، بطريقة أروع مما عرف قط من قبل، ليس فقط بعدد الحضور بل بها جرى عرضه من روائع من ذهب وفضة وجواهر، وثياب ثمينة، وكل شيء كان فائقاً.

## سنة سبع وثلاثين ومائة وألف

في السنة الثانية من حكمه، أمضى الملك ستيفن عيد الميلاد في دنستيبل Dunstable ، وفي الصوم الكبير أبحر إلى نورماندي، وعبر معه الاسكندر أسقف لنكولن وعدد كبير آخر من النبلاء، ونجح الملك هناك بفضل خبرته بالحرب في جميع ماقام به، وأحبط خطط أعدائه، وهدم قلاعهم وحصل على أعلى المفاخر والأمجاد، وأقام سلماً مع الملك الفرنسي، الذي قدم ابنه يوستاس الولاء له من أجل نورماندي، التي هي اقطاع تابع للتاج الفرنسي.

وكان غيوفري كونت أنجو العدو اللدود للملك ستيفن، لأنه كان قد تزوج ماتيلدا ابنة الملك هنري، وهي التي كانت امبراطورة ألمانيا، وكانت

قد تلقت أيهان التبعية بالنسبة لمملكة انكلترا، وبناء عليه ادعى الزوج والزوجة بحقها بالعرش الانكليزي، لكنه وقد رأى أنه في الوقت الحاضر لايستطيع التقدم بنجاح ضد الملك ستيفن، بحكم امتلاكه لقوات لاتحصى مع كميات هائلة من المال وجدها في خزائن الملك المتوفى، ولهذا تصالح كونت أنجو مع الملك ستيفن، وبناء عليه وبعدما حقق النجاحات عاد الملك إلى انكلترا منتصراً، وكانت عودته عشية عيد الملاد.

وكانت السنتان الأوليتان من حكم الملك ستيفن سعيدتان، لأن السنة التالية التي أنا مقبل الآن للحديث عنها كانت عادية وموائمة، لكن السنتان الأخيرتان كانتا مدمرتان ويائستان.

#### سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف

ذهب الملك ستيفن (١١)، في السنة الثالثة من حكمه، بنشاطه المعتاد، مسرعاً نحو بدفورد Bedford ، وحاصرها عشية يوم الميلاد، وشدد الحصار خلال مدة العيد كلها، مما أغضب الرب بقدر ماجعل ذلك الموسم ضئيلاً أو بلا قيمة.

وبعد استسلام بدفورد، قاد قواته داخل اسكوتلندا، ذلك أن الملك داود، قام نتيجة لليمين الذي أداه لصالح ماتيلدا ابنة الملك هنري، وتحت غطاء ديني، فجعل أتباعه يتعاملون بشكل وحشي، فقد اغتصبوا بشكل مكشوف النساء الحبالى، وبقروا بطونهن لاخراج الأطفال الذين لم يلدوا بعد، ورموا بالأطفال وأرجحوهم على أسنة رماحهم، وذبحوا رجال السدين عند المذابح، وقطعوا رؤوس تماثيل الصلب، ووضعوهم على أجساد الذين ذبحوهم، وبالمقابل وضعوا رؤوس ضحاياهم فوق

التهاثيل، وحيثها حل السكوتلنديون أو جاءوا كانت هناك المناظر نفسها من الرعب والوحشية: نساء يولولن، شيوخ يندبون وسط الذين يموتون من الآلام واليائسين من الحياة، ولهذا غزا الملك ستيفن اسكوتلندا وسلط السيف والنار على الأجزاء الجنوبية من ممتلكات الملك داود، الذي لم يتجرأ على التصدي له.

اتخذ الكاتب المجهول، لكن المعاصر الـذي كتب أعمال ستيفن، موقفاً أقل حدة ونقداً تجاه السكوتلنديين.

كان ملك اسكوتلندا، الذي تحد بلاده انكلترا، حيث يفصل تهر بينها، عظيم المشاعر الانسانية، وقد ولد لأبوين متدينين، ولم يبتعد عن فضائلها وتقواهما، وكان مع مجموعة من الرجال العظاء، لابل في الحقيقة كان الأول بينهم، أدى يمين الولاء لماتيلدا، ابنة الملك هنري، في حضوره ولهذا غضب غضباً شديداً لأن ستيفن اغتصب تاج انكلترا، لكن بها أن ستيفن استقر بالملك بوساطة البارونات بدون حضوره وموافقته، فقد جلس بكل حكمة ينتظر النتيجة، ويراقب مجرى الأحداث.

وأخيراً استلم رسائل من ما تيلدا، تتشكى فيها بأنها حرمت من وصية أبيها، وسرق منها التاج الذي تحت ضهانته لها ولنوجها بأيهان مغلظة، فقد أزيجت الشريعة ورميت جانباً وديس على العدالة بالأقدام، وأيهان التبعية لها التي أقسمها البارونات الانكليز قد خرقت ولم يقم لها وزن، وباخلاص وأسف طلبت منه بحكم قرابته منها أن يعمل على ضهان حاجتها، وأيضاً بحكم كونه تابعاً شرعياً لها أن يقوم بمساعدتها في وقت ضيقها.

وشعر ملك اسكوتلندا بحزن عميق، وتعاظم غضبه من أجل المطلب الحق، وروابط الدم، وتقديراً ليمينه قرر القيام بغارة يخرق بها انكلترا،

اعتقاداً منه انه بقيامه بهذا يمكنه بمعونة الرب أن يرغم ستيفن على التخلي عن الحكم لصالح المالكة الشرعية للتاج، التاج الذي وضح له أنه تمّ الاستيلاء عليه بصورة غير عادلة، واعتنى ملك السكوتلنديين في بلاطه بالمنفيين الانكليز الذين حرضوه باستمرار لاتخاذ هذه الاجراءات، ولهذا قيام الملك داود — لأن هذا كان اسمه — فنشر مرسوماً في جميع أرجاء اسكوتلندا يدعو فيه شعبه إلى حمل السلاح، وتغيير مجرى حياته، ومن ثم المبادرة للاقلاع بهجوم عاصف ومدمر هائل ضد الشعب الانكليزي.

وتدعى اسكوتلندا أيضاً ألباني Albany ، وهي بسلاد مغطاة بمروج واسعة، وفيها غابات مزدهرة مع المراعي التي تطعم قطعان كبيرة من الأبقار والثيران، وفيها موانيء آمنة، وهي محاطة بجزر خصبة، والسكان المحليون متوحشون، وعاداتهم غير نظيفة، لكنهم غير معاقين بالبرد الشديد، ولايعانون من العوز الكبير، سرعتهم كبيرة على أقدامهم وأسلحتهم خفيفة، ويتخذ منهم جند شجعان ذوي فعالية، وهم بين أنفسهم لايعرفون الخوف ولايبالون بالموت، ووحشيتهم بين الغرباء عنيفة ويبيعون نفوسهم بأثمان عالية.

## ونعود الآن إلى حكاية هنرى أوف هننتغدون

ظهرت الخيانة الانكليزية وتجلت بشكل واضح بعد فصح ١١٣٨ فقد قيام تالبوت Talbot، الذي كان واحداً من الثوار بالاستيلاء على إحدى القالاع في ويلز، وأعلن العصيان بها ضد الملك ستيفن، غير أنه حاصرها واستولى عليها، وتحصن الايرل روبرت أوف غلوستر، وهو ابن طبيعي للملك هنري الأول في قلعة برستول المنيعة وفي قلعة ليدز، واستولى وليم فتز ألان Fitz Alan على قلعة شروبري، التي اقتحمها

الملك أخيراً، وشنق عدداً من الأسرى.

وفيا كان الملك مشغولاً على هذه الصورة في الجنوب، قاد داود صاحب اسكوتلندا ثانية جيشاً كبيراً إلى الشهال من انكلترا، وقد عارضه بشدة وقاومه نبلاء الشهال تحت قيادة ثيرستان Thurstan رئيس أساقفة يورك، ونصب العلم الملكي في نورثألرتون Northallerton ، وحيث أن رئيس الأساقفة منعه المرض من حضور المعركة، فقد فوض إلى رالف أسقف أوركني Orkney أن يشغل مكانه، ووقف رالف على ربوة صغيرة في وسط الجيش، ورفع من معنويات النبلاء الانكليز بخطاب ألقاه عليهم.

ثم صرخ الانكليز رادين عليه بصوت واحد رددت صداه الجبال والتسلال قسائلين «آمين»، وإثر هذا وفي الوقت نفسه ردد السكوتلنديون صيحات حربهم «ألبان، ألبان»، حتى وصلت إلى عنان السهاء، ثم اختفت الأصوات وسط قعقعة السلاح.

وفي الحملة الأولى نال رجال لوثيان Lothian شرف توجيسه الضربة الأولى، فوجهوا نحو الفرسان الانكليز الدارعين زخات من النشاب، وذلك دون أذن من ملك السكوتلنديين، غير أنهم وجدوا الصفوف الانكليزية منيعة لايمكن خرقها مثل جدار من الفولاذ، واختلط النبالة الانكليز بالفرسان وتوزعوا بينهم، وفيها هم كذلك أصابوا السكوتلنديين غير المسلحين برماياتهم المتوالية، ووقف الجيش الانكليزي بأجمعه مع النورمانديين متهاسكاً حول العلم في كتلة متراصة قوية.

ثم سقط مقدم رجال لوثيان نتيجة اصابتة بنشابة، وأدى هذا إلى فرار جميع أتباعه، لأن الرب القادر كان غاضباً عليهم، وهكذا تحولت قوتهم وغدت أشبه بنسيج عنكبوت، وعندما رأت الكتلة الرئيسية من السكوتلنديين هذا، وكانت تقاتل في قطاع آخر بشجاعة، فقدت

إقدامها، وتراجعت هي أيضاً، وعندما رأت فرقة الملك داود هذا، بدأت أيضاً بالفرار، أولاً على شكل أفراد ثم بشكل جماعي، مع أن عساكرها كانوا نخبة اختارهم الملك من مختلف القبائل، واستمر الحال هكذا حتى وقف الملك لوحده ولم يبق معه أحد تقريباً، وبناء عليه أرغمه رفاقه على امتطاء ظهر جواده والنجاة بنفسه، لكن ابنه هنري الشجاع لم يبال بها كان يفعله بني قومه، وظل متمسكاً بالرغبة في متابعة القتال ونيل الفخار، فترك الذين يفرون وشأنهم، وقام بحملة شديدة على صفوف الأعداء، وتألفت القوات التي كانت تحت امرته من انكليز ونورمانديين ارتبطوا ببيت أبيه، واحتفظوا بخيولهم، لكن هذه الفرقة من الخيالة لم التبطع أن تزلزل الرجال الذين غطتهم سوابغهم ودروعهم وقاتلوا على أقدامهم متراصين، وهكذا أرغم هـؤلاء على التراجع بخيول معقورة، ورماح محطمة، وذلك بعد حملة رائعة، لكن غير موفقة.

ويقال سقط على أرض المعركة أحد عشر ألفاً من السكوتلنديين، وذلك بالاضافة إلى الذين عثر عليهم في الأحراش وحقول القمح وقتلوا هناك، ونال جيشنا النصر بعد هدر قليل من الدماء، وكان قادته هم:

وليم كونت أوميل Aumale ، ووليم بيفيريل peverel ، وفليم بيفيريل Espec ، اوف نوتنغهام Nottingham ، وولتراسبك Espec ،وغلبرت دي لاسي Lacy ، الذي كان أخوه الفارس الوحيد الذي قتل، وعندما نقلت أخبار المعركة إلى الملك ستيفن، قدم هو وجميع الذين كانوا معه الشكر إلى الرب القدير، وقد وقعت هذه المعركة في شهر آب(١٢).

وخلال حلول الآحاد الأربعة التي تقدمت على عيد الميلاد، عقد المندوب البابوي وهو أسقف أوستيا ostia مجمعاً دينياً في لندن، تمّ خلاله رسم ثيوبولد راعي دير بك Bec رئيساً لأساقفية كانتربري، وذلك بموافقة من الملك ستيفن.

### سنة تسع وثلاثين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة من حكمه، وبعد مضي عيد الميلاد، حاصر الملك ستيفن قلعة ليدز واستولى عليها، وقصد بعد هذا اسكوتلندا، فدخلها، وبوساطة السيف والنار أرغم ملك السكوتلنديين على طلب الصلح، وجلب إلى انكلترا هنري ابن الملك داود، ثم حاصر ستيفن لودلو Lud- الصلح، التي كان هنري خطف إليها من على ظهر حصانه بوساطة كلاب حديدي، فكاد أن يقع أسيراً، لكنه أنقذ من أيدي الأعداء بشجاعة من قبل الملك ستيفن.

وترك الملك ستيفن لودلو Ludlow وذهب الاستيلاء عليها وذهب إلى أكسفورد حيث اقترف عملاً دنيئاً جداً، تخطى به كل ماتقدم، فبعدما استقبل بحفاوة وود روجر أسقف سالسبري مع ابن أخيه الاسكندر أسقف لنكولن Lincoln ، قام هذا الملك باعتقاله بكل عنف في قصره، مع أنهالم يرفضا شيئاً من مطالب العدالة، وطالبا بكل اخلاص بذلك، وألقى الملك بالأسقف الاسكندر بالسجن، وأخذ معه أسقف سالسبري إلى دفرس Bevizes التي كانت قلعة هلذا الأسقف، والتي كانت من أقوى القلاع في جميع أوروبا، وعذب هناك روجر والتي كانت من أقوى القلاع في جميع أوروبا، وعذب هناك روجر باجاعته، وأهان ابنه الذي كان حاجب الملك ومستشاره بربط حبل حول عنقه وجره إلى قفص جعله زنزانة له، وحصل منه بهذه الطريقة على الموافقة على تسليم القلعة، ناسياً جميع الخدمات التي قدمها له في بداية حكمه، الأسقف أكثر من سواه، ولاسيا الخدمات التي بذلها له في بداية حكمه، فعلى هذه الصورة جازى الأسقف على اخلاصه.

وبطريقة مشابهة استولى الملك على قلعة شيربورن وبعدما حصل على أموال التي كانت أدنى قليلاً من قلعة دفرس، وبعدما حصل على أموال الأسقف، استخدم هذه الأموال في سبيل تأمين زواج لابنه يوستاس من كونستانس أخت لويس الملك الفرنسي، ثم أعاد الملك ستيفن معه إلى نوارك Newark الاسكندر أسقف لنكولن الذي كان قد ألقاه من قبل في سجن في اكسفورد، وكان هذا الأسقف قد شيد في نيوارك قلعة حمراء كأنها وردة بطراز عهارتها وهندستها، وكان منظرها جذاباً وسط المروج، ويمر بقربها نهر ترنت Trent، وما ان شاهد الملك هذه القلعة ووقع نظره عليها حتى فرض على الأسقف صوماً لم ترخص به الكنيسة، وأقسم أنه سيظل محروماً من الطعام حتى يستجيب إلى تسليمه القلعة، وقد واجه الأسقف بعض المصاعب في اقناع حامية قلعته، وبالدموع والرجاء الحار استجابوا إلى التنازل عن القلعة إلى الغرباء، وكان هناك قلعة أخرى من قلاعه اسمها سلي فورد Sleaford ، لم تكن أقل جمالاً من القلعة المتقدمة، وقد تم التخلي عنها وتسليمها تكن أقل جمالاً من القلعة المتقدمة، وقد تم التخلي عنها وتسليمها بطريقة مشابهة.

ولم يمض وقت طويل على هذا حتى قام هنري أسقف ونشستر، وأخو الملك، ونائب البابا بعقد مجمع ديني في ونشستر، وقد شاركه ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري وجميع الأساقفة الحضور بالطلب من الملك، وهم جاثين على ركبهم في أن يقوم برد ممتلكات الأساقفة الذين ورد ذكرهم أعلاه، مع تفاهم ضمني أنهم سوف يتغاضون عن الاهانات التي تعرضوا لها، ومها يكن من أمر، لم يتحرك الملك ليتجاوب مع طلبات هذا الجمع المتميز، وأخذ برأي شرير واتبعه فرفض الاستجابة لهذا المطلب.

وهيأ هـذا السبيل إلى الـدمـار النهائي لبيت ستيفن، ذلك أن الامبراطورة، ابنة الملك هنري المتوفى، والتي كانت قد تلقت عهد تبعية

الولاء من الانكليز، جاءت على الفور إلى انكلترا، وجرى استقبالها في قلعة آروندل Arundel وحوصرت الامبراطورة هنداك من قبل الملك، الذي إما أنه أصغى إلى مشورة غير مخلصة، أو انه وجد أن القلعة قوية جداً وإنه لايستطيع الاستيلاء عليها، لذلك أعطاها الأمان في أن تذهب إلى برستول.

وتوفي في تلك السنة نفسها روجر، الأسقف الذي تحدثت عنه قبل قليل، وذلك بعدما أنهكته المشاكل مع ثقل السنين، وقد يدهش القارىء تجاه هذا التبدل المفاجىء بالحظ بالنسبة له، لأنه منذ شبابه والسعادة ترافقه، إلى حد يمكن للمرء أن يقول فيه، بأنها نسيت أن تقلب اتجاهها نحوه، فهو لم يواجه خلال حياته كلها أية حوادث معاكسة حتى تجمعت سحب التعاسة حوله، وتمكنت من قهره في آخر المطاف، لذا ينبغي على أي انسان ألا يعتمد على استمرار حسن الحظ، وألا يفترض أن السعادة دائمة، وألا يظن أن بإمكانه الاستقرار طويلاً فوق دولابها المتحرك.

## سنة أربعين ومائة وألف

وقام الملك ستيفن في السنة الخامسة من حكمه بطرد نيغل Nigel أسقف إيلاي Ely ، لأنه كان ابن أخ لأسقف سالسبري المتوفى، والذي كان الملك يبغضه إلى حد أن غضبه شمل جميع أقربائه.

ولم يعد هاماً المكان الذي أمضى فيه الملك عيد الميلاد والفصح، لأن هذا كله جعل البلاط رائعاً، واختفت الشعارات الملكية التي ورثها من الخط الطويل لأسلافه، والخزانة التي تسلمها مليئة، باتت الآن فارغة، وانعدم الأمن في المملكة، وانتشرت أعمال القتل، والاحسراق، والنهب والدماء خلال الديار، وارتفعت صرخات اليأس، والرعب، والأسى في

کلّ مکان.

# سنة إحدى وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السادسة من حكمه، قام الملك ستيفن بعد عيد الميلاد بإلقاء الحصار على قلعة لنكولن، وكان المدافع عنها رانولف Rannulf إيرل تشستر، الذي استولى عليها بالخدعة، وبقي الملك هناك حتى الثاني من شباط، ثم اجتمع الايرل مع روبرت صاحب غلوستر، وكان ختن الايرل وابن الملك الملك هنري، وانضم إليها عدد من النبلاء الأقوياء، وقرروا رفع الحصار، وعبر الايرل الجريء سبخة كانت صعبة جداً، وصف عساكره واستعد للاشتباك بالقتال في اليوم نفسه، وتشكل الصف الأول منه ومن رجاله، وكان قوام الصف الثاني الذين حرمهم الملك ستيفن من ميراثهم، وشكل روبرت ورجاله الصف الثالث، ووقف على الجناحين حشد من رجال ويلز الذين كانت شجاعتهم أعلى من تسليحهم.

وفي الوقت نفسه حضر الملك ستيفن وهو عظيم القلق، قداساً دينياً، وفي تلك الأثناء وبينها كان يضع الشمعة —وهي التقدمة الملكية المعتادة — في يدي الأسقف الاسكندر، انكسرت، وكانت هذه الحادثة علامة فأل سيء بالنسبة للملك، وانقطعت آنذاك السلاسل الحاملة للصندوق الحاوي لجسد الرب، وذلك أثناء قيام الأسقف بالقداس، ووقع الصندوق على المذبح، وعدّت هذه اشارة إلى أن ملك الملك سيلحقه الدمار، ومع ذلك انطلق بكل شجاعة، وصف قواته بعناية، ووقف شخصياً على قدميه، وترجل وقتها رجاله ورصوا صفوفهم من حوله، وصدرت الأوامر للأمراء بأن يشكلوا مع رجالهم صفين من

الخيالة، لكن قوات الخيالة كانت قليلة جداً، فقد جلب الأمراء المزيفون المرائون قوى قليلة معهم، لكن قوات الملك كانت كبيرة جداً، وقد رافق بعضها الراية الملكية، وبها أن الملك ستيفن لم يمتلك صوتاً موافقاً، فقد طلب من بلدوين فتزغلبرت، وكان رجلاً نبيلاً وفارساً شجاعاً، أن يخطب بالجيش، وقبل أن ينهي خطابه سمعت أصوات الأعداء، وصدحت الأبواق، وجعلت حوافر الخيول الأرض تهتز.

وبدأت المعركة، وانقض المحرومون من ميراثهم، والذين وقفوا في الساقة، على الفرقة الملكية التي كان فيها الايرل آلان كونت ميولان، وهيوج ايرل ايست أنغليا، والايرل سيمون، والايرل وارين Warenne ومع تلقى هؤلاء للصدمة تفرقوا في رمشة عين، فقتل بعضهم، ووقع بعضهم بالأسر، وفرّ بعضهم الآخر.

وهاجمت الفرقة التي كانت تحت إمرة الكونت صاحب أوميل -Ma ووليم صاحب يبرس Ypres ، الولزيين على الجناحين، وأرغمتهم على الفرار، لكن مالبثت هذه الفرقة أن هوجمت من قبل رجال ايرل تشستر، ومزقوا في لحظة مثل الآخرين، وهكذا فرّ جميع فرسان الملك وكذك وليم صاحب يبرس، وكان رجلاً من فلاندرز، من أصل أرستقراطي وصاحب مكانة عالية، وبها أنه كان رجلاً خبيراً بالحرب، ورأى من غير الممكن له أن يساعد الملك، وفرّ عونه إلى وقت أفضل، وهكذا ترك الملك ستيفن واقفاً وحده على قدميه وسط أعدائه، وأحاط هؤلاء بالقوات الملكية وهاجموها من جميع الجهات، وكان الشرر يتطاير من السيوف لدى وقوعها على الخوذ، وكانت أصوات الأسى وصرخات من السيوف لدى وقوعها على الخوذ، وكانت أصوات الأسى وصرخات الرعب يتردد صداها ويعود رجعها من التلال ومن أسوار المدينة، وهاجمت الخيالية الجيش الملكي فقتلت بعضه، وداست بعضه الآخر، ووقع بالأسر أعداد كبيرة.

ولم تكن هناك استراحة أو وقت لتنفس الصعداء، إلا حيث كان الملك

نفسه، الذي كان قبوياً جداً، وكان صامداً، لأن أعداءه كانوا يخافون من شدة ضرباته، وعندما رأى ايرل تشستر هذا حسد الملك على صموده، وحمل عليه حملة منكرة ومعه الدارعين من رجاله، ثم إن قبوة الملك أشعت بالفعل وهو يقاتل ببلطته حيث قتل بعض مهاجميه ومزق صفوف آخرين، ثم ارتفع صوت نادى: «على الجميع التوجه ضده، إنه ضد كل واحد»، وأخيراً تحطمت بلطة الملك من الضربات المتوالية، ثم سحب ستيفن سيفه، وكان سيفاً جديراً بذراع ملكي، وفعل أفاعيل مدهشة وكان فارساً شجاعاً، حمل على الملك وأمسكه بوساطة الخوذة، وصرخ: «إليّ كلّ واحد، إليّ هنا، لقد أمسكت بالملك»، واندفع الجميع نحوه، ووقع الملك بالأسر، كما جرى أسر بلدوين الذي تولى مخاطبة الجنود، ووقع الملك بالأسر، كما جرى أسر بلدوين الذي تولى مخاطبة الجنود، وكان قد أصيب بجراح كبيرة، وقد نال من مقاومته مجداً سرمدياً، ووقع رتشارد فتز أورس Fitz Urse أيضاً بالأسر، ونال هو فخاراً عظياً رئشارد فتز أورس Fitz Urse أيضاً بالأسر، ونال هو فخاراً عظياً

وتابع جيش الملك القتال حتى وقع بالأسر، وجرى تطويق هذا الجيش، وهكذا لم يستطع رجاله الفرار، فكان إما أن قتلوا أو أسروا، وأبيحت المدينة للناهبين، واقتيد الملك بشكل تعيس إليها.

وهكذا جرى حكم الرب على الملك ستيفن، وقد اقتيد أمام الامبراطورة ماتيلدا، وسجن في قلعة برستول، وعد الانكليز الامبراطورة سيدتهم باستثناء كنت، حيث قاتلت الملكة ضدها ومعها وليم أوف يبرس، وذلك بكل ماأوتيا من قوة، وقد اعترف بها في البداية أسقف ونشستر، ثم النائب البابوي، ثم مالبث أن اعترف بها اللندنيون، غير أنها امتلأت بغرور عظيم لأن أتباعها نجحوا نجاحاً عظيماً في حرب لم تكن نتائجها مؤكدة، ولهذا السبب جعلت كل واحد يبتعد عنها، وهكذا طردت من لندن إما بسبب خياني أو لحكمة ربانية (لأن كل مايفعله طردت من لندن إما بسبب خياني أو لحكمة ربانية (لأن كل مايفعله

الناس هو بإرادة الرب)، وبناء عليه قامت وهي تحمل حقد المرأة، فوضعت الملك ستيفن -وهو الملك المرسوم بإرادة الرب- بالأغلال.

وقامت ماتيلدا بعد وقت قصير ومعها خالها ملك السكوتلنديين وأخيها روبرت أوف غلوستر بحشد قواتها، وحاصرت قلعة أسقف ونشستر، وبعث الأسقف خلف الملكة ووليم أوف يبرس مع غالبية بارونات انكلترا، وحشد الطرفان جيشان كبيران، وكان هناك قتال في كل يوم، لكن لم تحدث معارك عظيمة واقتصر الأمر على المناوشات، وسجلت خلال هذه الاشتباكات أعمال شجاعة، ومع أنهم كانوا أشبه بالعميان في الحرب، كان من الممكن رؤية شجاعة كلّ واحد مع تقدير أعماله المجيدة، وهكذا كانت هذه الفرصة وقتاً ممتعاً لكل انسان بحكم انه كان من الممكن رؤية أفعالهم الرائعة.

وبعد انتظار طويل وصل جيش اللندنيين، ولأنه زاد من تعداد أعداء الامبراطورة، قضي عليها بالفرار، ووقع بالأسر عدد كبير أثناء الفرار، كان بينهم أخوها روبرت، الذي كان الملك مسجوناً في قلعته، والذي مكن أسره الملك من التبادل به، وهكذا حدث أن الملك الذي وقع بالأسر بحكم رباني، نال حريته برحمة من الرب، وقد استقبله بارونات انكلترا بفرح عظيم.

#### سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف

وفي السنة السابعة من حكمه، حاصر الملك الامبراطورة ماتيلدا في الكسفورد من عيد القديس ميكائيل [٢٩-أيلول] حتى حلول الميلاد، وقبيل حلول الميلاد بوقت وجيز هربت الامبراطورة عبرنهر التيميز المتجمد، وهي متدثرة بثياب بيضاء، فخدعت المحاضرين بظهورها

وكأنها شبح من الثلج، ولقد فرت إلى قلعة وولنغ فورد Wallingford واستسلمت أكسفورد إلى الملك.

## سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثامنة من حكمه، حضر الملك ستيفن المجمع الديني الذي عقد في لندن في منتصف الصيام وقد عقده نائب البابا، الأسقف هنري أوف ونشستر من أجل الأوضاع المتردية جداً التي وضع فيها رجال الدين، حيث أن الاحترام لم يقدم لهم ولا إلى كنيسة الرب المقدسة من قبل الغزاة، وأودع رجال الدين السجون، واتخذوا رهائن مثلهم في ذلك مثل المدنيين، وبناء عليه قرر المجمع أن كل من يتعرض بالأذى إلى رجال الدين يحرم ويطرد من الكنيسة ولايمكن تحليله إلا بوساطة البابا شخصياً، لكن هذا القرار لم يخفف الأذى عنهم بالفعل إلا قليلاً جداً.

واعتقل الملك في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل Mandeville ، في البلاط الملكي في سانت ألبان، بتهمة استحق بها الايرل الاعتقال، وكانت للمصلحة أكثر منها تطبيقاً للعدالة العامة، ولو الايرل الاعتقال، وكانت للمصلحة أكثر منها تطبيقاً للعدالة العامة، ولو لم يقدم الملك على هذه الخطوة لكان طرد من عرشه بوساطة مؤامرات الايرل ولكي يكسب الايرل غيوفري حريته تنازل عن قلعة لندن، وعن قلعة والدن Walden وقلعة بليشي Pleshey وهكذا حرم من جميع ممتلكاته، ولذلك استولى على دير رامسي Ramsey ، وطرد الرهبان منه، وحصنه بمجموعة من اللصوص وبذلك حوّل بيت الرب إلى وكر للصوص، ولقد كان في حقيقة الأمر رجلاً عظيم الشجاعة، لكنه ومهملاً للأعال الدنيوية، ومهملاً للأعال الروحانية.

# سنة أربع وأربعين ومائة وألف

ألقى الملك ستيفن الحصار في السنة التاسعة من حكمه على قلعة لنكولن، وبينها كان يعد أعهال الحصار من أجل الهجوم على القلعة، التي استولى عنوة عليها رانولف ايرل تشستر، اختنق حوالي الثهانين من رجاله في الأنفاق، لذلك رفع الملك الحصار وتخلى عنه في حالة من الفوضى.

وسبب في السنة نفسها الايرل غيوفري دي ماندفيل الكثير من المتاعب للملك، ومينز نفسه أكثر من الآخرين، وفي شهر آب أظهرت الحكمة الربانية عدالتها بشكل رائع، حيث واجه اثنان من النبلاء الذين حوّلوا الديرة إلى مواقع حصينة، وطردوا الرهبان، عقوبة مماثلة لأن ذنبهما كان نفسه، وكان روبرت مارميون Marmionأولها، فقد كـان قد اقترف هذا الجرم في كنيسة كوفنتري Coventry كيا أن غيوفري دي ماندفيل كان قد اقترف الشيء نفسه --كما قلت-- في دير رامسي، وفيها كان روبرت مامرميون متقدماً ضد أعدائه، قتل تحت أسوار الدير، وكان وحده الذي سقط، مع أنه كان محاطاً بقواته، وقد مات وهو محروم كنسياً، فخضع إلى الموت الأبدي، وبطريقة مماثلة جرى تمييز الايرل غيوفري بين أتباعه، وأطلق عليه سهم من قبل أحد الجنود الرجالة العاديين، ومع أنه جرح جراحة خفيفة فقد توفي خلال عدة أيام وهو محروم كنسياً، وكان هذا هو الحكم العادل للرب، دائم الذكري خلال الأجيال، وعندما كان هذا الدير محولاً إلى حصن رشح الدم من جدران الكنيسة والأماكين المجاورة، شاهداً بذلك على الغضب الرباني، ومبشراً بدمار غير الربانيين، وقد شوهد هذا من قبل الكثيرين، وقد شاهدت ذلك أنا نفسى بعيني.

## سنة خس وأربعين ومائة وألف

وفي السنة العاشرة من حكم الملك ستيفن، كان هيوج بيغود العداء أول من قام بالتحركات، وفي الصيف شرع الايرل روبرت مع كتلة أعداء الملك يعملون لبناء قلعة في فارنغدون Faringdon ، ولم يضع الملك الوقت، حيث جمع الجيوش وزحف إلى هناك على رأس حشد كبير ومرعب من اللندنيين، وبعد هجمات يومية على القلعة، وفيها كان الايرل روبرت مع حلفائه ينتظرون وصول قوات جديدة لم تكن بعيدة عن جيش الملك، جرى الاستيلاء على القلعة بعد سقوط كثير من القتلى.

## سنة ست وأربعين ومائة وألف

وحشد الملك ستيفن في السنة الحادية عشرة من حكمه جيشاً عظياً، وبنى وسائل حصار لاتقهر ضد قلعة والنغفورد، وكان رانولف ايرل تشستر، الذي انضم الآن إلى الجانب الملكي، حاضراً هناك مع قوة كبيرة، وحدث بعد هذا أنه عندما كان الايرل حاضراً بأمان في بلاط الملك في نورثأمبتون، ودون أن يخشى من أي سوء، اعتقل، وأودع في السجن حتى تنازل عن قلعة لنكولن الحصينة، الذي كان قد استولى عليها بطرق بارعة، كما تنازل عن القلاع الأخرى التي عادت بملكيتها له، وبعد هذا أطلق سراح هذا الايرل وسمح له بالذهاب إلى حيث أراد.

# سنة سبع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الثانية عشرة من حكمه، لبس الملك ستيفن التاج أثناء عيد الميلاد في لنكولن، الأمرالذي لم يقدم عليه ملك قبله لأسباب غيبية، وأظهر هذا مدى تصميمه، وكيف أنه أعار قليلاً من الأهمية لمثل هذه الغيبيات، وبعد مغادرة الملك جاء ايرل تشستر إلى لنكولن مع قوة مسلحة لمهاجمة القلعة، لكن قائد قواته، وكان رجلاً عظيم الشجاعة والحظ، لاقى مصرعه عند مدخل الباب الشهالي للبلدة، ثم تبع ذلك أن فقد الايرل نفسه عدداً كبيراً من أتباعه، ولذلك أرغم على التراجع، وبناء عليه قدم سكان البلدة أثناء احتفالهم بنجاحهم في الدفاع شكراً خاصاً إلى العذراء المباركة حاميتهم والمدافعة عنهم.

وقام في أحد العنصرة لويس ملك فرنسا، وتيرى كونت فلاندرز، وكونت سانت جايل (صنجيل) مع حشد كبير من كل جزء من فرنسا، وعدد عظيم من الانكليز، بحمل شارة الصليب، والسفر نحو القدس، عازمين على طرد الكفار الذين استولوا على مدينة الرها(١٣).

# سنة ثمان وأربعين ومائة وألف

محقت في هذه السنة جيوش امبراطور ألمانيا وملك فرنسا، مع أنها قيدت من قبل قادة لامعين، وبدأت زحفها بفخار وثقة، لكن الرب ازدراهم، وتضاعفت دعارتهم وفجورهم حتى عليين، ولأنهم تخلوا عن أنفسهم بشكل مكشوف لصالح الزنا والاتصالات الجنسية البغيضة إلى الرب، وإلى اللصوصية وكل نوع من أنواع الآثام، وعانوا في البداية من

المجاعة بسبب الارشاد الفاسد لامبراطور القسطنطينية، وتعرضوا بعد هذا للدمار بسيوف الأعداء، والتجأ الملك لويس والامبراطور إلى أنطاكية، ورغبوا بعد هذا وهم في القدس مع بقايا أتباعهم بالقيام بعمل مفيد، وأراد ملك فرنسا، في أن يفعل شيئاً ما يرد إليه احترامه، فألقى الحصار على دمشق وذلك بمساعدة من فرسان داوية القدس مع قوة حشدت من جميع الأرجاء، لكن كان يعوزه رضا الرب، ولهذا لم ينل النجاح، فعاد إلى فرنسا.

## سنة تسع وأربعين ومائة وألف

وفي السنة الرابعة عشرة من حكم الملك ستيفن رسم داود ملك السكوتلنديين هنري ابن بنت أخته فارساً، واجتمعت بهذه المناسبة قوة كبيرة، وامتلك داود حاشية واسعة، وكان لدى ابن أخته أتباعه من نبلاء غربي انكلترا، وشعر الملك ستيفن بالخوف، وخشي من أن يأخذوا طريقهم إلى مهاجمة يورك، ولهذا تمركز شخصياً في تلك المدينة ومعه جيش كبير، وبقي هناك جميع أيام شهر آب، وقام في تلك الأثناء يوستاس بن ستيفن، الذي رسم أيضاً فارساً في العام نفسه، بغزو بلدان البارونات الذين كانوا حضوراً مع هنري ابن الامبراطورة، وحيث لم يجد من يعترض سبيله عاث في البلاد بالسيف والنار، غير أن ملكي انكلترا و اسكوتلندا، وكان أولما في يورك وثانيها في كارل آيل، خشيا من بعضها بعضاً، فتجنبا المواجهة واللقاء، وهكذا انفصلا بسلام، وعاد كل منها إلى بلده.

#### سنة خمسين ومائة وألف

وفي السنة الخامسة عشرة من حكمه، هاجم الملك ستيفن مدينة وورستر الجميلة، وبعدما استولى عليها جعلها طعمة للنيران، غير أنه لم يستطع الاستيلاء على القلعة التي كانت داخل المدينة، وكانت ملكيتها عائدة إلى وولران Waleran كونت ميولان Meulan ، وكان الملك ستيفن قد منحه إياها، وكانت هذه المنحة لغير صالحه، وبعدما أكمل الجيش الملكي نهب المدينة، عاث فساداً بالمناطق العائدة للأمراء المعادين، وحيث لم يقاومهم أحد، حملوا كميات هائلة من الغنائم والأسلاب.

## سنة إحدى وخمسين ومائة وألف

وتوفي في هذه السنة غيوفري الجميل، كونت أنجو، صهر الملك هنري الأول، وابن فولك ملك القدس، وهو نفسه كان رجلاً عالى المكانة.

ونالت وفاة غيوفري عناية أكثر اشراقاً من قبل جون مارموتيير Marmoutier

وحدث أنه عندما كان في الحادية والأربعين من عمره، وفي اليوم السابع من أيلول لسنة إحدى وخمسين ومائة وألف، واجه الدوق المنتصر لكل من نورماندي، ولشعب أنجو، وتورين، ومين، وهو عائد من اجتماع ملكي، مرضاً شديداً، وأصيب بالحمى في شاتودولور، وسقط على فراشه، ثم نظر نحو مستقبل بلاده وشعبه بروح تتطلع إلى ماسيكون، فحظر على

ابنه هنري أن يدخل عادات نورماندي أو انكلترا إلى بلاده، أو أن يفعل العكس، حسبا يمكن أن يحدث تبعاً لتعاقب تبدلات الحظ.

ثم بعدما قام بإعطاء بعض المنح، والأعطيات والحسنات، ظهرت علامات موت هذا الأمير العظيم من خلال أحد المذنبات، فرد جسده روحه ورفعها من الأرض إلى السماء، فهل كان عجيباً لو أن الموت الذي يعارض الطبيعة ويجردها صارع من أجل غيوفري منذ شبابه، حيث أنه كما يقول شيشرون:

«غالباً مايبدو موت الشباب مثل إطفاء نار متقدة عظيمة بكثير من الماء، ومثل تفاحة غيرناضجة قطعت قسراً من الشجرة، ومع هذا إنها تسقط وكأنها ناضجة وجاهزة، وهكذا تنتزع القوة الحياة من الشباب، وبأخذها النضج من المسنين».

ودفن غيوفري في الكنيسة العظيمة القداسة المكرسة للقديس يوليان في لامانس، في ضريح عظيم جداً، بناه بشكل لائق الأسقف التقي وليم أوف بيوس فيم، وجرى صنع تابوت يشبه الكونت المحترم هناك، وقد تم ترصيعه بشكل مناسب بالذهب والأحجار الكريمة، وجاء هذا مذكراً بالموت للمتعجرف وبالنعمة للمتواضع، وجرى تعيين قسيس من قبل الأسقف، ليبقى دوماً إلى جانب مذبح الصلب حيث مدد جسد الرجل المتوفى، وفرض لهذا القسيس عطاء دائم، وكان عليه أن يقدم كلّ يوم أضحية إلى الرب من أجل الكونت، حتى يتفضل الرب المقدس والرحيم فينزل رحمة يزيل بها تعاسة الكونت، ذلك أنه الرب الذي يعيش أبدأ فيكم دوماً.

قام هنري أوف هنتنغدون بعقلانية بتمجيد اتخاذ ستيفن هنري أوف أنجو ودوق نورماندي خليفة له وذلك على الرغم من عدم محبته له — ستيفن— وميله إليه.

#### سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف

ترك غيوفري لابنه هنري أوف أنجو ونورماندي ادعاء الحق بوراثة عرش انكلترا، الأمر الذي لم يفلح به شخصياً، وحدث الآن أن انفصل لويس السابع ملك فرنسا عن زوجته، ابنة كونت بواتو على أساس القرابة المحرمة، وإثر هذا تزوجها الدوق الجديد هنري، ومن خلالها استولى على بلاد بواتو، وزاد من مكانته وعلوه كثيراً (١٤)، وكان هذا الزواج السبب في اثارة كراهية عظيمة وخلاف بين ملك فرنسا والدوق.

وقام الآن يوستاس ابن الملك ستيفن مع ملك فرنسا بحملات على نورماندي، وقاومها الدوق بكل شجاعة وردهما مع الجيش الفرنسي، ثم حشد الملك لويس جميع خصومه، وهاجم قلعة منيعة الجانب، كانت لاترام وكان اسمها نوف مارشي Neufmarche واستولى عليها، وأعطاها إلى يوستاس ابن ملك انكلترا، الذي زوجه من ابنته.

واقترح الملك ستيفن في السنة السابعة عشرة من حكمه تتويج ابنه يوستاس، وطلب من رئيس الأساقفة والأساقفة الآخرين الذين جمعهم القيام بسرسم —يوستاس— ومباركته، فقوبل طلبه بالرفض، لأن البابا حظر برسائله رئيس الأساقفه ومنعه من تتويج ابن الملك لأن الملك ستيفن كان بالنسبة له قد استولى على العرش بشكل غير شرعي، وانزعج كلّ من الأب والابن من هذا، وغضبا غضباً عظياً، فأمرا بسجن رجال الكنيسة في أحد البيوت وحاولا بالتهديد ارغامهم على أن يفعلوا ماطلباه منهم، وقد خاف هؤلاء وارتعبوا لأن الملك ستيفن لم يحب رجال الدين مطلقاً، وسلف له أن تولى سجن اثنين من الأساقفة، ومع هذا صمدوا على الرغم من أنهم خافوا على رؤوسهم، وبعد طويل وقت نجوا دونها على الرغم من أنهم خافوا على رؤوسهم، وبعد طويل وقت نجوا دونها

ايذاء، مع أنهم جردوا من مقتنياتهم، التي أعادها الملك إليهم فيها بعد، عندما تاب.

وحاصر الملك في السنة نفسها قلعة نيوبري Newbury ، التي لم تكن بعيدة عن ونشستر، واستولى عليها، ومن هناك تولى حصار وولنغفورد، وبنى قلعة حصار على مدخل الجسر، فحال بذلك دون الوصول إلى المحاصرين ودون ايصال المؤن إليهم، وعندما ضغط على هؤلاء بشدة، طلبوا من مولاهم، دوق نورماندي، إما أن يرسل المساعدات إليهم، أو منحهم الاذن بتسليم القلعة إلى الملك.

#### سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف

وفي السنة الشامنة عشرة من حكم الملك ستيفن، أرغمت الضرورة هنري صاحب أنجو ودوق نورماندي على القيام بزيارة غير متوقعة إلى انكلترا، وبوصوله بدت هذه البلاد التعيسة، والتي عانت من قبل من العيث والفساد، وكأنها تكسب حياة جديدة.

وعندما وطأ الدوق العظيم شواطىء انكلترا، امتلأت الأرض بالأخبار، مثل حقل قصب حركته الرياح، وانتشرت الأخبار بسرعة، وكما هي العادة جلبت الفرح والسعادة إلى بعض الناس والخوف والأسف إلى آخرين، لكن الذين اعتراهم السرور لدى سماعهم خبر وصوله، انزعجوا قليلاً لدى معرفتهم أنه جلب معه عدداً قليلاً من الرجال، وفي الوقت نفسه كان انزعاج أعدائه من أخبار وصوله ضعيفاً أيضاً، ورأى بعضهم أن عبوره للبحر الهائج في وسط الشتاء عمل شجاع، ووجد بعضهم أن ذلك كان حماقة، ولكن الشاب الشجاع حشد إليه جميع مؤيديه ومزجهم: هؤلاء الذين جلبهم مع الذين وجدهم، وبها أنه كان يكره

التأخير فوق كلّ شيء، ألقى الحصار على قلعة مالمزبري -Malmes bury.

وبها أن فضائل هذا الرجل كانت كثيرة وعظيمة، فإنني سأتولى معالجتها بسرعة حتى لاتطول حكاية أعهاله وتأخذ حيزاً كبيراً، وحوصرت القلعة (لأنه كان رجلاً لايحب تأجيل الأعهال) وهوجمت، ومالبث أن استولى عليها، وعندما سقطت البلدة، قاوم الحصن الكبير، لصالح الملك، وتولى الدفاع فيه جوردان، وبات من الممكن السيطرة عليه بوساطة التجويع فقط، وخرج جوردان وذهب مسرعاً نحو الملك ستيفن ليخبره بها حدث، ولقد انزعج الملك لدى سهاعه هذه الأخبار السيئة، واربد وجهه وعلاه الحزن بدلاً من مظهر الفخار والعظمة، وبادر بنشاط كبير فجمع قواته، وعسكر على مسافة لم تكن بعيدة عن مالمزبري.

واستعرض في اليوم التالي جيشه، الذي حوى عدداً كبيراً من الفرسان المتميزين الرائعين، وكان جيشاً لجبا فيه كثير من البارونات، وكانت راياتهم تلمع بالذهب، وكانت جميلة ومرعبة بالفعل، لكن الرب الذي عنده وحده ومعه الأمان والسلامة، لم يكن معهم، لأن بوابات الفيضان من الساء انفتحت، وجاء برد شديد وريح صرصر، وانهمرت الأمطار في وجوههم، حتى بدا كأن الرب نفسه كان يقاتل لصالح الدوق، غير أن الجيش زحف بانتظام، وكأنه يقاتل قدرات الرب وطاقاته، ولهذا عانى كثيراً.

واعتمد جيش الدوق الشاب على الشجاعة أكثر من اعتاده على الأعداد، خاصة وأن عدالة القضية التي كانوا يقاتلون من أجلها قد ضمنت لهم أنهم مدعومين بنعمة الرب، وقد اصطفوا ليس بعيداً عن أسوار بلدة ما لمزبري، على طرف نهر صغير، أعطته الأمطار الغزيرة والثلوج قوة أصبح بها مخيفاً إلى حد أنه ما إن يصبح الانسان هناك حتى يعجز عن الخروج.

وكان الشاب النبيل على رأس جيشه، وكان جماله الجسدي أخاذ للنفس، وقد تميز بسلاح جدير به، وكان مناسباً له إلى درجة يمكن القول فيها إن سلاحه لم يمنحه الشهرة بل هو منح السلاح شهرته، وجعل الكونت مع رجاله السبخة وراء ظهورهم، وكانت هذه السبخة في وجه جيش الملك، ولذلك كانوا لايستطيعون إلا بصعوبة حمل أسلحتهم فوق رماحهم المبللة.

وبها أن الرب عزم على أن ينال طفله البلاد من دون سفك للدماء، وألا يتمكن أياً من الفريقين من عبور النهر، ولأن الملك بات غير قادر على تحمل المطر المنهمر والفيضان الناتج عنه، عاد أدراجه نحو لندن، وبذلك باتت هزيمته كاملة، ولذلك استسلمت القلعة المحاصرة إلى الدوق، الذي بادر مسروراً وبكل سرعة نحو انجاز ماتوجب عليه وجاء من أجله، أي التفريج عن قلعة والنغفورد التي كانت على حافة المجاعة.

وقد حشد كتلة كبيرة من العساكر ليحمل المؤن إلى الحامية المحاصرة، وسهل الرب نواياه بشكل كبير، حيث حمل هذه المؤن ووصل بها دون أن يلقى معارضة، مع أنه كان هناك الكثير من القلاع في تلك المنطقة كانت في أيدي القوات الملكية، فمن خلال عون الرب وارادته لم يستطيعوا منعه من النهاب والإياب، وبعد مضي وقت قصير حشد الدوق المقدام جميع الفرسان النين وقفوا إلى جانبه وشرع في حصار قلعة كرومارش جميع الفرسان النين وقفوا إلى جانبه وشرع في حصار قلعة كرومارش حول كلّ من قلعة الملك وجيشه الخاص، وبذلك بات طريقه الوحيد حول كلّ من قلعة الملك وجيشه الخاص، وبذلك بات طريقه الوحيد للخروج يمر عبر قلعة والنغفورد، بينها لم يبق للمحاصرين طريق للخروج.

وعندما سمع الملك بهذا جمع جميع القوات التي توفرت له من المناطق الخاضعة له، وانحدر غاضباً نحو الدوق، الذي لم يكن خائفاً أبداً، مع أن قواته كانت أقل من قوات الملك، وقد أمر على الفور أن يطم الخندق الذي أمر بحفره لحماية جيشه، ورفع الحصار، وزحف بشكل رائع

لمواجهة الملك، وعندما رأى الجيش الملكي المشهد غير المتوقع، وهو جيش عدوه، وقد اصطف للقتال واقفاً أمامه، استولى عليه الرعب فجأة، ولكن الملك لم يكن خائفاً أبداً، وأمر رجاله بالنزحف إلى خارج المعسكر على شكل صفوف قتالية، لكن البارونات، أولئك الخونة لانكلترا، رفضوا هذا وعارضوه، ودعوا إلى التوصل إلى مصالحة، ومع أنهم لم يحبوا شيئاً أكثر من حبهم للتمزق، كانوا غير راغبين في انشاب القتال وحدوث معركة، لأنهم لم يرغبوا في أن يربح أياً من الطرفين، لأنه إذا ما انهزم أحد الطرفين سيكون من السهل وقوعهم تحت سيطرة الطرف الآخر، لكن إذا ظلّ كلّ طرف يخشى الآخر، فإنه من غير المكن عارسة السلطة الملكية عليهم.

ولم يرغب الملك ولا الدوق في أن يرغها على اقامة هدنة، وقد أدرك كلّ منهها خيانة مسانديه، لكن كها هي العادة، كان الرب واقفاً إلى جانب الدوق، غير أنهم وافقوا على أنه ينبغي هدم القلعة الملكية التي حاصرها الدوق، وعقد الملك والدوق مؤتمراً منفرداً، عير واحد من الأنهار الصغيرة، وتباحثا فيها بينهها حول السلام، واشتكى كل واحد منهها إلى الآخر من خيانة نبلائه، وهنا بدأت معاهدة السلام، ولكنها لم تكتمل حتى مناسبة أخرى.

ولم ينته صراعها عندما عاد كل واحد منها إلى مقره، لكن الضوء بدأ يبزغ حول حظ الدوق العظيم، حيث أن اثنين من أكبر أعدائه وأعظمهم قوة، وأعني بها: يوستاس ابن الملك، وسيمون ايرل نورثأمبتون تمزقا وغابا بحكمة من الرب، واختفيا في الوقت نفسه، ونتيجة لهذا فقد جميع خصومه بشكل مفاجىء الأمل والشجاعة.

لقد ماتا كلاهما بالمرض نفسه في أسبوع واحد نفسه، ودفن الايرل سيمون، الذي فعل كلّ شيء غير شرعي أو خلقي، في نورثأمبتون، ودفن ابن الملك في دير أسسته أمه في فيفرشام Faversham ، وكان

فارساً مجرباً، لكنه كان رجلاً غير رباني عنيف جداً مع قادة الكنيسة، وكان مضطهدهم الثابت المصمم، وبازالة الرب لأعظم أعداء محبوبه هنري، مهد له بلطف السبيل إلى حكمه السلمي.

وتناول الحصار الثالث قلعة ستام فورد، وسقطت البلدة دونها تأخير، لكن حامية القلعة راسلت الملك طالبة المساعدة، وكان الملك يحاصر ابسوتش Ipswich ، التي كان يدافع عنها، ويقف ضده فيها هيو بيغود، وبها أن الملك لم يكن يرغب في رفع هذا الحصار، وبالتالي لايمكنه المذهاب لنجدة تلك الخامية، فقد استسلمت القلعة إلى الأمير هنري، وكذلك استسلمت القلعة التي كان يحاصرها الملك، وترك الدوق النورماندي ستام فورد وذهب إلى نوتنغهام، واستولى على البلدة على الفور، وقد أحرقت هذه البلدة إثر هذا من قبل حامية القلعة، ولحزنه على ماحدث أخذ الدوق جيشه إلى مكان آخر.

وكان في الوقت نفسه رئيس الأساقفة ثيوبولد يبذل غاية جهده في سبيل إعداد اتفاق سلام، حيث ناقش هذا الأمر مراراً مع الملك، وعالجه مع الدوق عن طريق المبعوثين.

ورأى هنري أوف بليوس، رئيس أساقفة ونشستر، وهو الذي خبط المملكة بإعطاء أخيه ستيفن التاج، أن كلّ شيء قد دُمر بوساطة النار والقتل، وبعدما رأى هذا أسف لما حدث، وسعى نحو وضع نهاية لهذه الشرور بتمكين الأميرين من الاتفاق.

ووضعت حكمة الرب، التي خلقت كلاً من الخير والشر، نهاية لآلام انكلترا، وحققت الوصول إلى محصلة لما بدأ بجعل السلام مؤكداً على الطرفين، وأن ينتشر ذلك باخلاص.

ولكم كان السرور عظيماً، والبهجة كبيرة، أيها اليوم المبارك، الذي استقبل فيك الملك نفسه الأمير الشاب في ونشستر، في استعراض رائع

للأساقفة والنبلاء خلال أصوات تحيات الجماهير

واستقبله الملك وكأنه ابنه المتبنى، واعترف به وريشاً له، ومن هناك أخذ الملك الدوق إلى لندن، حيث جرى استقباله بفرح عظيم من قبل الجهاهير، وبمواكب رائعة لائقة برجل عظيم مثله، وهكذا بفضل من رحمة الرب بزغ فجر السلام على مملكة انكلترا المدمرة، ووضع نهاية لليلها المضطرب.

وبعدما انتهى هذا افترق الملك ستيفن عن ابنه الجديد بسرور ومحبة على أن يلتقيا ثانية في أقرب وقت، لأن السلام كان قد تأكد قبل عيد الميلاد.

# سنة أربع وخسين ومائة وألف

والتقيا ثانية في الثالث عشر من كانون الثاني في أكسفورد، وذلك بعد مضي سنة أمضاها الدوق في الاستيلاء على انكلترا، أو بالحري في إعادة توحيدها، وقدم هناك جميع عظاء انكلترا —بناء على طلب من الملك— الولاء مع يمين التبعية إلى مولاهم الدوق، ولم يستثنوا سوى التمجيد والاخلاص اللذين هما من حقوق الملك طوال حيلته، وتركوا جميعاً هذا الاجتماع الرائع وقد امتالأوا بالغبطة، وكانوا مسرورين بسبب السلام الجديد.

ولم يمض وقت طويل حتى التقيا ثانية في دنستيبل Dunstable ، حيث ظهرت بعض الغيوم المكدرة في الأفق، ولم يكن الدوق راضياً تجاه القلاع التي بنيت في كلّ مكان لأسباب شريرة بعد وفاة الملك هنري

الأول، والتي لم تهدم حسباتم الاتفاق عليه في السلام الذي عقد أخيراً بينه شخصياً وبين الملك ستيفن، وكان عدد كبير منها قد هدم، باستثناء بعضها من خلال الملك ستيفن، فهو قد وفرها لبعض رجاله إما بنية سيئة أو عطفاً عليهم، وبدا هذا التصرف وكأنه يلغم المعاهدة، وتشكى الدوق حول هذا الأمر إلى الملك، لكنه دوفع، فتغاضى مكرها عن هذه القضية، وتخلى عنها لوالده الجديد، ذلك أنه خشي أن تفسد اتفاقها، وقد افترقا متصادقين.

وبعد هذا بوقت قصير، عاد الدوق بإذن من الملك، منتصراً إلى نورماندي، فهذا ماكان هنري، أكثر الشباب شهرة، قد فعله في زيارته الثانية إلى انكلترا.

هذا وآمل ألا يصدر حكم ضدي لإقدامي على رواية أخبار العديد من أعاله الرائعة بشكل موجز ايجازاً شديداً، حيث يتوجب علي رواية أخبار العديد من الملوك مع أخبار أفعالهم عبر عدد كبير من القرون، ولاشك أن هذا عمل متعب سوف يحتاج إلى عدة مجلدات، وكانت فكرتي هي أن أقوم باختصار التاريخ في كتاب واحد، على أن لا أتجاهل تماماً ماسيكون في المستقبل.

ونعود الآن إلى العمل، فعندما عاد الدوق إلى فرنسا، استقبل استقبالاً كله سرور وتمجيد من قبل أمه ماتيلدا، مع اخوانه وجميع شعب نورماندي، وأنجو، ومين وبواتو، وكان الملك ستيفن الآن يحكم بسلام وذلك للمرة الأولى، وبفضل ابنه المتبنى نال التشريف اللائق بملك، لكن كم هم حمقى الناس الفانون، ولكم هي خطاياهم التي لاتنتهي! فقد حاول بعض الناس «الذين أسنانهم حراب ونشاب، وألسنتهم سيوف حادة» قدر استطاعتهم أن يروا عدم الوفاق بين الملك والدوق الغائب، ولم يكن باستطاعة الملك، أو لم يرغب في مقاومة ضغوطهم، وبعد وقت قصير اعتقد بعضهم انه توقف عن المقاومة، وصحيح انه

تظاهر بعدم الرضا، لقد كان بالواقع راغباً بالاصغاء إلى آرائهم الشريرة.

ومهما يكن من أمر، إن الرجال شيء، وحكم الرب شيء آخر، وهو المذي أنهى ماشرع به، بأن جعل نهاية مؤامرات ذوي الآراء الشريرة تصل إلى لاشيء، فقد حاصر الملك ستيفن قلعة دريك Drake قرب يورك، وبعدما هدمها واستولى على عدد آخر من القلاع ذهب إلى دوفر للتحادث مع كونت فلاندرز، ووقع أثناء المؤتمر مريضاً، وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول لعام ١١٥٤ فارق الحياة، ودفن في دير فيفرشام إلى جانب زوجته وولده، وقد حكم غير سعيد ومع متاعب شديدة لمدة تسع عشرة سنة.

وبسرعة أرسل رئيس الأساقفة ثيوبولد مع عدد كبير من النبلاء الانكليز رسائل لإخبار مولاهم دوق نورماندي حتى يحضر سريعاً ويتولى مقاليد المملكة، وقد تأخر بسبب الريح والبحر ولأسباب أخرى، غير أنه نزل إلى اليابسة قبيل حلول عيد الميلاد بعدة أيام في نيوفورست، ومعه زوجته واخوانه، والعديد من النبلاء وقوة كبيرة، ومكثت انكلترا بدون ملك لمدة ستة أسابيع، لكن بنعمة من الرب لم يضطرب الحال، إما بسبب حب ملك المستقبل أو خوفاً منه، وبعدما نزل هنري إلى اليابسة فهب إلى لندن، وهناك بورك بشكل لائق ورائع جدير برجل له مكانة عالية، وحين نال المباركة كملك، تم ذلك وسط غبطة عظيمة، وضيحات كلها فرح وسرور، وجرى تتويجه بشكل رائع ومهيب.

# القسم الثالث

هنري الثاني: ١١٨٩-١١٨٩

حكم في سنة ١١٢٤، فولك الخامس، كونت أنجو، إحدى أعظم اقطاعيات فرنسا فقط، وأصبح بعد ذلك بثلاثين سنة حفيده هنري بلانتغنت ملك انكلترا، ودوق نورماندي وأكوتين مع كونه كونت أنجو، وكان هنري حاكماً ناجحاً إلى أقصى الحدود، غير أن مجرد حجم الكه أوجد له مشاكل واسعة عملاقة، وأنجب هو وإليانور النارية، دوقة أكوتين أربعة أولاد، كانوا ياثلون ثلاثين في قوتهم مثل أبيهم، وكان لويس السابع ثم فيليب الثاني ملكي فرنسا، سادة قاريين للأراضي الأنجيفية، ولهذا كانا حليفين نافعين لهم، وذلك مثلها كانت إليانور، التي أصبحت أخطر خصوم هنري، وفيا بعد سجينته التي لاحول لها ولاطول، وكان توماس بكت Beckt في البداية المستشار المخلص ولاطول، وكان توماس بكت Beckt في البداية المستشار المخلص الملك، ثم رئيس أساقفة كانتربري المعادي له، ذلك أنه كان واحداً من الشخصيات الرئيسية.

ورسم «تاريخ الشؤون الانكليزية» الذي كتبه وليم كاهن نيوبيرغ المشهد أثناء بداية حكمه، ولكن المصدر الأساسي هو الجزء الثالث من كتاب «صورة التاريخ» تأليف رالف أوف ديسيتو Diceto عميد كاتدرائية القديس بولص من حوالي ١١٨٠ حتى وفاته في حوالي ١١٨٠.

في السنة ١١٥٤ لتجسيد ربنا، وبعد موت الملك ستيفن، جاء هنري حفيد الملك الأول، عن طريق ابنته الامبراطورة المتوفاة، من نورماندي، واستحوذ على مملكته الموروثة أمام الجميع، وقد جرى رسمه وتعميده ملكاً، بينما صرخ الشعب في أرجاء انكلترا «ليحيا الملك حياة طويلة»، وفي الحقيقة ظهرت شرور كبيرة أثناء الحكم المتقدم، وأمل الشعب، بعـ د معاناته الماضية، من أجل أشياء أفضل من الملك الجديد، خاصة عندما رأى هذا الشعب انه امتلك حكمة متميزة، ومثابرة، وغيرة من أجل العدل، وظهر في كلّ خطوة من خطواته انه أمير عظيم، ومنذ البداية أصدر مرسوماً ضد المرتزقة الذين تدفقوا في ظل حكم الملك ستيفن على انكلترا من جميع المناطق الأجنبية، من أجل الحصول على الغنائم وكذلك في سبيل حرفة القتال، لاسيها الفلمنكيين منهم، حيث عمل حشد كبير منهم في البلاد، وأمر هؤلاء بالعودة إلى بلادهم، وعين لهم يوماً إذا ماتأخر أحدهم عنه وبقى في انكلترا فإنه يتعرض لبعض المخاطر ويواجهها، واستولى عليهم الرعب بسبب هذا المرسوم، وتسللوا هاربين في وقت قصير، بدوا فيه وقد اختفوا مثل اختفاء الشبح، واندهش كثير من الناس أمام سرعة مغادرتهم، وأمر بعد هذا بهدم جميع القلاع التي لم تكن موجودة في أيام جده، وذلك باستثناء عدد قليل منها قامت في مواقع هامة ومفيدة، وقد رغب في ابقاء بعض هذه القلاع لنفسه، أو وضعها في أيدي رجال أمناء للدفاع عن المملكة.

وأولى هنري الثاني في هذه الأيام الأولى لحكمه عناية حقة لمسألة النظام العام، وعمل جاهداً في سبيل بعث النشاط القانوني في انكلترا، هذا النشاط الذي بدا وكأنه مات ودفن أيام الملك ستيفن، وعين القضاة في جميع أرجاء المملكة مع موظفين قانونيين لقطع دابر مساوىء الأشرار، ولإيصال العدالة إلى المظلومين تبعاً لأهمية قضاياهم، وكان سواء انشغل في مسائل فرح ومتعة أو في شؤون الدولة يراقب مراقبة حثيثة المصالح

الملكية، وغالباً إذا ما كان أي واحد من قضاته متراخياً أو خشناً جداً، كان يصغي هو إلى شكاوى أهل المنطقة، ويقدم علاجاً ملكياً، واصلاحاً فعالاً لإهمالهم أو تجاوزهم.

تلك كانت الأعمال الأولى للملك الجديد، وقد أكسبته الحمد والثناء من قبل محبي الأمن وألجمت الأشرار وقطعت أذاهم، وأرغم السذتاب المفترسون على الفرار أو على التحول إلى شياه، أو أنهم إذا لم يتغيروا حقيقة، فقد اضطروا خوفاً من القانون على السكون دونها إيذاء مع الشياه، وحل العمل بالمحراث محل العمل بالسيف، وأخذ مقص تقليم الأشجار مكان الرمح، ومامن أحد ربط نفسه الآن بأعمال القتال، بل متع بنعمة من الرب بمذاق السلم، الذي تطلعوا إليه وانتظروه طويلاً من قبل، وكان هذا شأن الناس سواء اهتموا بمباهجهم أو انصرفوا نحو أعمالهم.

مع بداية حكم هنري، ظهر توماس بكت وبرز في خدمة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري، ويقدم لنا وليم فتز ستيفن صورة لاهوتية، لكن فيها حياة، عن طفولة بكت وأعاله المبكرة.

علم الرب وقضى أن يكرس توماس المبارك [لخدمته] قبل أن يخرج من الرحم، وأظهر لأمه أي نوع من الرجال سيكون، ذلك أنها رأت في المنام أثناء حملها به أنها تحمل في رحمها جميع كنيسة كانتربري، وفي اللحظة التي رأى فيها الطفل ضوء النهار، حملته الوصيفة ورفعته بين يديها قائلة: «لقد رفعت من الأرض رئيس أساقفة مستقبلي»، وبينها كان رضيعاً في المهد، حلمت أمه في إحدى الليالي أنها كانت توبخ الممرضة لعدم وضعها غطاء عليه، وردت عليها الممرضة قائلة: «لاياسيدي، لديه أفضل أغطية» وقالت لها السيدة: «أرينيها»، وجلبت الممرضة الأغطية إليها وأرتها إياها، وعندما حاولت فتحها لم تستطع ذلك وقالت لأمها: «إنها واسعة جداً لاأستطيع مدها فوق الفراش»، وبناء عليه أجابتها

أمها: «تعالي إلى القاعة وافتحيها هناك»، وبذلت الممرضة جهدها لفعل ذلك، لكنها أخفقت، وقالت: «ببساطة إنني لاأستطيع مدها كلها هنا»، وقالت الأم المندهشة وقتها: «اذهبي إلى الشارع، إلى مكان السوق، الذي هو الآن فارغ، فلاشك أنك ستنجحي في مدها هناك»، لكنها لم تستطع أن تفعل ذلك لاهي ولا الممرضة، فقالت والدهشة تعلوها:

"إن الغطاء واسع إلى حد انني لاأستطيع ايجاد نهايت، وأعتقد أن انكلترا كلها ستكون صغيرة جداً ليغطيها"!.

لقد ولد توماس من زواج شرعي، ومن أبوين شريفين، وكان والده غلبرت في بعض الأحيان عمدة لندن، وكان اسم أمه ماتيلدا، وكانا معاً من أهل لندن، من الطبقة الوسطى، ولم يكونا ممن يربح المال عن طريق الرباء أو متورطاً بالأعمال، بل عاشا بشكل محترم على دخليهما.

ويمكن لنا أن نستنتج أن والده تلقى بعض الاشارات العلوية فيا يتعلق بمستقبله، ونعلم ذلك من أنه عندما كان طفلاً أمره أبوه أن ينعلق بمستقبله، ونعلم ذلك من أنه عندما كان طفلاً أمره أبوه أبعض يذهب إلى روبرت رئيس ميرتون Merton حتى يتعلم لبعض الوقت في ذلك البيت الديني، وجاء في أحد الأيام أبوه لرؤيته، وعندما جلب الطفل إلى حضرة راعي الدير مع والده، قام الأب بالسجود أمامه متعبداً إياه، وغضب الراهب وقال والدهشة تعلوه: «ماالذي تفعله أيها الرجل الأحمق، أتسجد أمام قدمي ابنك؟ إن التمجيد الذي تفعله له، ينبغي بالحري أن يفعله لك»، ورد عليه الأب بصوت منخفض: « إنني أعلم يامولاي الذي أفعله: إن هذا الطفل سيكون عظيماً في نظر الرب».

وهكذا أمضى توماس سنوات طفولته، ثم عندما صار صبياً، وبعد ذلك عندما وصل سن البلوغ ببساطة في بيت أبيه وفي مدرسة المدينة، وعندما كان شاباً درس في باريس، وشارك بعد عودته في بعض شؤون مدينة لندن، حيث صار كاتباً ومحاسباً لدى عمد المدينة، وخلال هذه

الوظائف وجه نفسه بطريقة جديرة بكل مديح، وحصل على معلومات عن العالم، لذلك لم يجد في مستقبل الأيام صعوبة في ادارة شؤون كنيسة انكلترا ورعاية مصالحها العامة مع شؤون المملكة ومشاكلها بحذر وحكمة، وبرهن على كفاءة وعظمة حقيقية.

وأظهر بكت امكانات واحدة في عمله لدى رئيس الأساقفة ثيوبولد، مما جعل الملك يتخذه مستشاراً لانكلترا في سنة ١١٥٥، وأعطاه هذا مسؤولية الاشراف على الأعهال الديوانية لهنري، وكذلك نال دوراً في الادارة الملكية.

## سنة خمس وخمسين مائة وألف

وبعد تتويج هنري الثاني ملكاً على انكلترا على يدي رئيس الأساقفة شيوبولد، وبناء على توصية من رئيس الأساقفة هذا، وبوساطته، وبتحريض أيضاً من هنري أوف بليوس، أسقف ونشستر، أخو الملك ستيفن، جعل توماس مستشار الملك، مؤثراً إياه على الآخرين، لكونه رجلاً يقظاً، وفاعلاً، وعى مسائل عظيمة في عقله، وكان مجرباً في عدد كبير من الأعهال، ولقد قام بأعباء واجباته العملاقة ومااقتضاه منه منصبه في سبيل شكر الرب ولصالح رخاء المملكة وتقدمها كلها، وكانت أن يسبل شكر الرب ولصالح رخاء المملكة وتقدمها كلها، وكانت بتميز عظيم وكفاءة أكثر، أم عمل في سبيل المنفعة العامة أكثر في السلم أو في الحرب.

وتمتعت انكلترا النبيلة بربيع ثان، جاء بالفعل من خلال نشاط وآراء المستشار، ومن خلال التعاون المخلص لرجال الدين والايرلات والبارونات، فقد جرى احترام الكنيسة المقدسة، وأضفيت المناصب

الشاغرة على الأساقفة ورعاة الديرة وعلى رجال الدين الأمناء من دون رشوة أو شراء، وحقق الملك بفضل من ملك الملوك في أعماله الازدهار، فازدادت عملكة انكلترا في غناها، وانهمرت عليها البركات، ونبعت من نبع الخصب والكثرة، فقد زرعت التلال، وبذرت الوديان بالقمح، وامتلأت، وعجت الحقول بالقطعان والحظائر بالأغنام.

وكانت لندن مسقط رأس بكت أوسع مدن البلاد وأكثرها ازدهاراً، وفي سبعينات القرن الثاني عشر عندما كتب فتزستيفن سيرة حياة بكت، غدت عاصمة انكلترا، فقد أعاد فتزستيفن إلى الحياة أبنيتها وشعبها من خلال وصفه المشرق.

يوجد في كنيسة القديس بولص المقر الأسقفي، وقد كانت في إحدى المرات رئاسة أساقفة، واعتقد بعضهم أنها ستكون كذلك مرة أخرى، لولا أن لقب رئاسة الأساقفة للشهيد المبارك توماس، ولولا أن وجود جسده قد حفظ ذلك الشرف والمكانة إلى الأبد لكنيسة كانتربري، حيث هو الآن، لكن بها أن القديس توماس جعل المدينتين ممجدتين: لندن بولادته، وكانتربري بموته، فإن كل واحدة منها يمكنها محقة ادعاء التقدم على الأخرى وذلك بالنسبة لاحترام ذلك القديس، وفيها يتعلق بمارسة العبادة المسيحية يوجد في لندن وفي ضواحيها ثلاث عشرة بمارسة دير عظيمة، وإلى جانبها هناك مائة وست وعشرين كنيسة أبرشية أصغر.

ويوجد إلى الشرق قلعة بالاتاين Palatine [قلعة لندن] وهي قلعة عظيمة جداً وحصينة: وقامت الأسوار على أساسات عميقة، وهي مثبتة بملاط مزج بدماء الحيوانات، ويوجد إلى الغرب قلعتان محصنتان تحصيناً عظيها، ويمتد من هناك منها سور عملاق وكبير جداً له سبع بوابات مزدوجة، وأبراج على طول الجانب الشهالي توزعت على مسافات منتظمة، وكانت لندن في إحدى المرات مسورة وقد استدار حولها السور

من جهة الجنوب، غير أن نهر التيمز العملاق، والمليء بالأسماك بكثافة مع مدّ البحر جرى ضد الفتحات التي وجدت في السور، ومع الأيام هدم هذه الأسوار، وفي أعلى المجرى النهري إلى الغرب هناك القصر الملكي له لا وستمنستر] وهو واضح تماماً مرئي فوق النهر، ذلك أنه بناء لامثيل له في شرافاته الدفاعية وحصانته، وهو يبتعد حوالي الميلين عن المدينة، ويتلاقى هناك مع ضاحية شعبية.

وهناك في كلّ مكان خارج هذه البيوت في الضواحي، وعلى مقربة منهم حدائق واسعة وجميلة عائدة إلى السكان، وقد زرعت هذه أيضاً بالأشجار، كما ويوجد على الجانب الشمالي مراعي وأراضي مرجية جميلة، يجري خلالها أنهار صغيرة، في نهاياتها طواحين تصدر أصواتاً مفرحة، ويقوم بالجوار القريب غابة عظيمة، فيها مراعي حيث هناك مساكن حيوانات متوحشة مثل: الوعول، والأيل، والخنزير الوحشي والجواميس، ولم تكن الأراضي المفلوحة التابعة للمدينة حقولاً جرداء، بل كانت سهولاً خصبة مليئة بالمزروعات، تنتج محاصيل ممتازة، وتملأ مخازن الفلاح بكميات الحبوب.

وكان هناك أيضاً خارج البلدة في الجانب الشهالي آباراً جوفية، مياهها حلوة نقية، تتدفق فوق الحجارة البراقة، وبين هذه الآبار آبار مقدسة منها بئر كليركن Clerken وبئر القديس كلمنت، وهي آبار مشهورة ويتردد على زيارة هذه الآبار كثير من الناس، ويؤمها عدد كبير من التلاميذ من المدارس، والشباب من المدينة وذلك عندما يذهبون في نزهات للاستمتاع بالهواء النقي في أمسيات الصيف، والحياة في الواقع في هذه المدينة طيبة عندما يكون لها حاكم طيب.

ويمضي الذين يشاركون في مختلف الأعمال، والذين يبيعون البضائع، أو يؤجرون أنفسهم للعمل، كل صباح إلى أماكن أعمالهم تبعاً لمصالحهم، وبالاضافة إلى هذا يوجِد في لندن على ضفاف النهر بين الخمور المعروضة

للبيع في السفن والحانات العائدة لباعة الخمور حوانيت تقدم الأطعمة المطبوخة للناس، وهكذا يمكنك أن تجد الطعام تبعاً للموسم: من اللحوم المشوية والمقلية والمغلية، والأسهاك الكبيرة والصغيرة، وهناك لحوم عادية للفقراء، وأنواع فاخرة للأغنياء، وتتوفر أيضاً أنواع الطيور من صغير وكبير، وإذا ماحدت بشكيل غير متوقع أن استقبل أحد السكان بعض الزوار المتعبين من سفرهم، والذين يمكن أن يفقدوا وعيهم إذا ماتوجب عليهم الانتظار حتى جلب بعض الطعام الجديد لطبخه، أو حتى يجلب الخدم الخبر، أو الماء للاغتسال، إنهم يسادرون مسرعين إلى ضفة النهس فيجدون هناك كلّ مايحتاجونه، ومها كانت عظيمة أعداد حشود الجند والرحالة الذين يدخلون إلى المدينة، أو يستعدون لمغادرتها، في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، إنهم لن يصبروا كثيراً عن الطعام، ومثلهم الذين يخرجـون من المدينة من دون عشـاء، فلقد كان بإمكـان كلّ انسان تجديد نشاطه وانعاش تفسه بالطريقة التي يرغب بها، والذين يرغبون بتسلية أنفسهم بشكل عيز، لايحت اجون للبحث حتى يجدوا سمك الحنش أو طيور افريقياً أو الكروان الاينــوني، ذلك أن هذا المطبخ العام كان مواثهاً جداً للمدينة، وجزء من أجزاء خدماتها اللطيفة، ذلك أن الحكمة الموروثة عمن أفلاطون قررت أن فن الطبخ هـو تقليد لصنع الـدواء، وهو يزين مناطق الحياة الحضارية.

ويوجد مباشرة خارج أحد الأبواب حقل منبسط ناعم [سمث فيلد] بالحقيقة والاسم، ويقام هناك خلال كلّ ستة أيام من أيام الاسبوع —مالم يعترض ذلك يوم عيد رئيسي — عرض شهير للخيول الجميلة للبيع، ويحضر هناك الايرلات والبارونات والفرسان الذين يكونون في المدينة، ويخرج عدد كبير من أهل المدينة إلى المعرض للمشاهدة أو للبيع، وإنه لمن الممتع أن ترى الخيول القصيرة والسريعة بألوانها اللامعة، وهي تجري في حلباتها في حركات رشيقة تضع خلالها حوافرها الأمامية على

جهة واحدة، ثم يمكن للمرء أن يشهد إثر هذا الخيول الصالحة للسادة، وهى تتحرك حركات أقل انسيابية لكن فيها رشاقة وقوة وذلك أثناء ركضها، وتجد هنا خيولاً أصيلة، لكن لم تتعود بعد على اللجام، وهي تقفز قفزات عالية أثناء سيرها، وكانت هناك أنواع أخرى من الخيول المعدة للنقل وهي قوية ونشيطة، وبعد هذا كله هناك خيول الحرب، وهي عالية الثمن ذات قوام جميل ومنظر بهي مع أذنين تتحركان بسرعة، ورقبة مرتفعة وأرداف كبيرة، وعندما تعرض هذه وتظهر طريقة سيرها، يجرب الباعة أولاً الخيول اللطيفة، ثم الخيول السريعة، حيث تتحرك الأطراف الأمامية معاً وكذلك الخلفية، وعندما يكون هناك سباق على وشك الشروع به، تدخل به الخيول القوية والسريعة وهنا تتعالى الأصوات، وتصدر الأوامر باستبعاد الحيوانات الضعيفة، ويحضر الفرسان الـذين سيمتطون هـذه الخيـول السريعة أنفسهم للسباق، وقـد يكونـون ثلاثة، وأحياناً اثنين على حسب الاتفاق، وينبغى أن يكون هؤلاء الفرسان بارعين في قيادة الخيول، ويضعون بالعادة اللجم في أفواه الخيول، ومن أجل أن يبدأ السباق بشكل جيد هناك رئيس مسؤول، وتحضر الخيول وتدخل في أجواء السباق حسب الامكان، وتتحرك أطراف الخيول، وهي عديمة الصبر أثناء الانتظار لـذلك لايمكنها الوقوف بثبات، وعندما تصدر شارة السباق يعدون بأقصى ما أمكنهم، ويندفعون في الحلبة بسرعة شجاعة، ولأن الفرسان حريصين على نيل النصر، فإنهم يستخدمون مهامزهم لحث الخيول المطلقة العنان، ويحثونها أيضاً بالصراخ وبالسوط، ولأبد أنك ستوافق هرقل على قوله: « كلّ شيء بالحركة»، وستعرف أن زينون قد أخطأ تماماً عندما قال: «الاتوجد حرّكة ولايوجد هدف للوصول إليه».

وإلى جانب هؤلاء تقف في طرف آخر من الميدان بضائع أهل المنطقة من أدوات الفلاحة إلى الخنازير بأطراف طويلة، والبقر بأثداء مليئة،

والثيران ذوات الحجم الهائل، والأغنام ذات الأصواف، وتقف أيضاً أكاديش صالحة للفلاحة، بعضها كبير مع فلوه، ويتبع بعضها الآخر عن قرب مهرها.

ويقدم إلى هذه المدينة كلّ أمة تحت قبة السهاء، ويجلب التجار بسرور بضائعهم بوساطة البحر، فالعرب يرسلون النهب، والتوابل السبأية والبخور، ويجلب السكيزيون الأسلحة، وتأتي زيوت التمور من بلاد بابل الغنية والكبيرة، وترسل بلاد النيل أحجاراً كريمة، ويجلب رجال النروج وروسيا الفراء وجلود السمور، ولم تكن الصين غائبة بحريرها الأرجواني، ويأتي الغاليون ومعهم خورهم.

وبالنسبة للتاريخ ظهر أن لندن أقدم بكثير من مدينة روما، ومع أنها تنحدران من الجدود التراجانين، لقد تأسست من قبل بروتوس قبل روما التي تأسست من قبل روميلوس وريموس، حيث مابرحوا يمتلكون الشرائع نفسها من أصلهم العام، وهذه المدينة مثل روما مقسمة إلى أقسام، ولها مجلس عمد سنوي بدلاً من المجالس، ولها تنظيم للسادة ومجالس ادارية أدنى، وتمتلك في شوارعها مجاري وقنوات مياه، وفيها أماكن محددة لسماع القضايا ولعرضها والحكم فيها، وفيها عدد من المحاكم، وهي تعقد اجتماعاتها المنفصلة في أيام محددة.

ولا أعتقد بوجود مدينة سجلها أفضل بالنسبة للكنيسة ولأعمالها، فهي تقدم الاحترام والتبجيل للأوامر الربانية، وتحافظ على أيام الأعياد، وتقدم المساعدة والضيافة للغرباء، وتؤكد أعمال الخطوبة، وتعقد الزيجات، وتحتفل بالأعراس، وتقيم الاحتفالات، وتحتفي بالضيوف، ويمكن أن نضيف أيضاً: تهتم بالجنائز وبدفن الموتى، ومصائب لندن هي السكارى الحمقى الذين يشربون بلا حدود، والحرائق المتوالية.

ونضيف إلى ماتقدم أن غالبية الأساقفة ورعاة الديرة في انكلترا هم

من أهل لندن ورجالها الأحرار، ويمتلك كل واحد منهم بيته الفخم في بلدته، ففيها يعيشون ويمضون معظم أوقاتهم، ويذهبون إلى لندن عندما يستدعون لحضور اجتماع مع الملك أو مع مطرانهم، أو ينحدرون إلى هناك لقضاء مشاغلهم الخاصة.

وينشغل الشباب في أيام الأعياد خلال الصيف في رياضات الرمي، والركض، والقفز، والمصارعة، ورمي الحجارة، وقذف الرماح إلى ماوراء اشارات محددة، وبالقتال بالسيف والترس.

وتقود أفروديت رقصات الفتيات، حتى تجد الأرض تهتز تحت الأقدام المتطايرة، حتى ظهور القمر.

وفي الشتاء هناك قبل كل يوم عيد تقريباً، وقبل الغداء، إما خنازير وحشية مسلحة بأنياب قاطعة تقاتل من أجل حياتها، أو من أجل لحمها، أو ثور قوي مع قرون متينة للنطح، أو دببة كبيرة تترك لانشاب قتال مع كلاب صيد تطلق عليها.

وعندما تثور الزوابع العظيمة في الشهال، ويتجلد السور الشهائي من المدينة، ينطلق إلى هناك جماعات من الشباب للعب فوق الجليد، فبعضهم يركض بسرعة فائقة فوق الجليد وهو مفتوح الساقين أو يتزلج فوق كتلة كبيرة من الجليد، ويصنع آخرون مقاعد من كتل ضخمة من الجليد، وفي الوقت الذي يجلس فيه أحدهم فوق المقعد، يركض الآخرون بأيدي متشابكة نحو الأمام ويجرون المقعد خلفهم، وغالباً مايندفعون بسرعة عظيمة إلى حد أنهم قد ينزلقون فينكبون جميعهم على وجوههم، ويضع آخرون أكثر براعة في رياضة الشتاء، على أقدامهم عظام الساق لبعض الحيوانات، ويربطوها بإحكام حول كعابهم، ويحملون في أيديهم أعمدة مغطاة بالحديد، يضربون فيها من وقت لوقت ضد الجليد، وتراهم مندفعين بسرعة فائقة فوق الجليد، حتى لكأن أحدهم طائر يطير، أو رمية

قدفت من آلة حرب، ويقوم في بعض الأحيان اثنان منهم، بناء على اتفاق ضد بعضها من مسافة بعيدة جداً، وعندما يقتربان من بعضها بعضاً، يرفعان الأعمدة ويسدد كل واحد منها على الآخر، والذي يحدث هو أن يسقط أحدهما أو كلاهما، لكن ليس بدون جراحة جسدية، لأنها عندما يسقطان تندفع أجسادهما إلى مسافة بعيدة عن بعضها بفعل قوة ركضها، وحيثها لامس الجليد رأسيها، يكشط الجلد تماماً، وغالباً مايحدث أن تنكسر ذراع أو ساق، إذا ماسقط الضحية مع عموده تحت خصمه، لكن أعارهم فيها جشع نحو الفخار، فالشباب يتشوقون إلى النصر، ويهارسون المباريات الخادعة من أجل تعويد أنفسهم على الشجاعة في معارك حقيقية.

ويجد كثير من الناس المتعة بالرياضة مع الطيور في الهواء، ومع الصخور والنسور والعقبان، ومع الكلاب التي تصطاد فريستها في الغابات، وامتلك السكان الحق بمطاردة الفرائس في مدل سكس وفي هارتفورشير، وفي جميع منطقة تشلتيرن Chiltern ، وفي كنت حتى نهر كري Cray.

وأنجبت هذه المدينة في العصور المسيحية الامبراطور قسطنطين الكبير ابن الامبراطورة هيلينا (حنه)، وهو الذي منح روما وجميع الشارات الامبراطورية للرب وللقديس بطرس، وللبابا سلفستر، البابا الروماني [منحة قسطنطين]، فله فوض منصب السياسة، فهو لم يعد يشعر بالسرور إذا مادعي باسم الامبراطور، بل بات يفضل لقب «المدافع عن الكنيسة الرومانية المقدسة»، وخشية منه أن ينزعج المولى البابا بضجيج الحياة المدنية وصراعاتها التي تحدث أثناء حضوره، آثر هو نفسه أن يترك المدينة التي منحها للمولى البابا، وبنى لنفسه مدينة بيزنطة، وفي العصور الحديثة أنجبت لندن أيضاً الملوك الرائعين المشهورين:

الامبراطورة ماتيلدا، والملك الشاب هنري بن هنري الثاني، ورئيس

الأساقفة توماس المبارك، ذلك الشهيد الرائع في سبيل المسيح، فهي لم تنجب قديساً طاهراً خيراً منه، ولا واحداً عزيزاً أكثر منه على قلوب الرجال الطيبين في جميع أرجاء العالم اللاتيني.

هناك تعارض معتبر بين رواية فتنزستيفن، وماكتبه بمهارة روائية جيرالند أوف ويلنز، وفي نظرة نحبو أخبار حوادث أيام هندي الثاني الأخيرة، نجد هذه الرواية القصيرة عنه وعن إليانور أوف أكوتين تظهره في ذروة حقده وضغينته.

عندما انقضت سنتا الحرب (١١٧٤) وتوقف القتال مع التعذيب، عزا الملك نجاحه — مثله في مثل فرعون آخر — لا إلى الرحمة الربانية بل إلى قوته، وجعل قلبه قاسياً، وعاد برعونته إلى بؤرة شروره المعتادة، أو بالحري، عاد إلى بؤرة أعظم شروراً، ومنذ أن انحدر أخذت الأشياء تزداد سوءاً، ولكي أتولى ذكر واحدة من هذه المساوىء، وأدع البقية: لقد تولى سجن زوجته الملكة إليانور عقوبة لها على تدمير زواجها، ذلك أن خيانته الزوجية التي كانت سرية من قبل، باتت الآن مكشوفة وواضحة، وهي الزوجية التي كانت سرية من قبل، باتت الآن مكشوفة وواضحة، وهي مع واحدة غير طاهرة أو نقية، وبها أن الناس يقلدون ملوكهم، هو لم يسىء فقط بسلوكه الشخصي، بل بالمثل السيء الذي ضربه (١٥).

هذا ومعروف عظيم المعرفة كيف تصرفت إليانور ملكة فرنسا عندما كانت في فلسطين فيها وراء البحار، وكيف تصرفت لدى عودتها نحو زوجها الثاني، وكيف أن أولادها بعشوا آمالاً عظيمة عندما كانوا شباباً، لكن هذه الآمال ذبلت وتلاشت.

فمن ابنتيها: الصقلية والسكسونية، تبوفيت الأولى دون أولاد، وتوفيت الشانية بدون سعادة، واحدة بدون نتاج، والثانية لم تكن خلوة من

التعاسة، أما فيها يتعلق بالآخرين: الفرع الاسباني والفرع الألماني، والفرع البريتاني، ستكون الأجيال المقبلة في وضع يمكنها من الحديث عن مصيرهم، دعونا لانمضي فيها بينهم، حيث أن بعضهم قد يجد هذا مضراً ومؤذياً، ومن المؤمل، بإرادة الرب أن يأتي بعض الخير من الزواج الاسباني السعيد.

ومن المعروف أيضاً بشكل واضح أن ابنتيها من الملك لويس ملك فرنسا: واحدة تزوجت من هنري كونت شامبين، وتزوجت الثانية من أخيه ثيوبولد كونت بليوس، وقد سقطتا مع ماأنجبتاه في فلسطين وفي بلاد الاغريق. .

ولكي نبين كيف كان نسل الملك هنري ممتحنين، علينا فقط أن نتذكر أن الامبراطور هنري الخامس الذي تزوجت إليه ماتيلدا، ابنة هنري الأول وأم هنري الثاني، قام من أجل مطامح دنيوية بأسر أبيه الطبيعي وتقييده بالأغلال، ثم كرر فعلته هذه مع أبيه الروحي —أعني بذلك البابا باسكال— وبعد ذلك تخلى عن حكم الامبراطورية، وذهب للترهبن في غربي بريطانيا، قرب تشستر، وعاش حياة قداسة وتوبة حتى موته، وعندما عادت الامبراطورة ماتيلدا إلى أبيها في بلدها، زوجها من غيوفري كونت أنجو، مع أن زوجها كان مايزال حيا، ورزق غيوفري منها بثلاثة أولاد، اثنان منهم توفيا بسرعة كبيرة وبترا وهما في ريعان الشباب على الرغم من الآمال العظيمة التي علقت عليها، وبدأ الثالث بشكل أفضل النعهى إليه.

ومجدداً، عندما كان غيوفري أوف أنجو كبير أمراء فرنسا، استفاد من الملكة إليانور، ولهذا السبب غالباً ماحذر ابنه هنري، وأنذره، وأخبره ألا يلامسها، وقد قيل إن سبب ذلك لكونها زوجة مولاه، ولكونه قد عرفها هو نفسه شخصياً، وآخر هذه الآثار المرعبة المغضبة، لقد روي أن الملك هنري قد نام زانياً مع ملكة فرنسا المذكورة، وانتزعها من مولاه وزوجها

من نفسه، وإنني أتساءل: كيف يمكن لأي شيء سعيد أن يأتي من هذه الزيجات؟.

وليس على غرار جيرالد أوف ويلز، قام المؤرخ رالف أوف ديسيتو Diceto بالكتابة حول الأحداث التاريخية بطريقة ايجابية، وقد بدأ حكايته عن حكم هنري الثاني مع حوادث سنة ١١٥.

ولد الولد هنري في لندن لهنري ملك انكلترا والملكة إليانور في ٢٨ شباط، وقد جرى تعميده من قبل رتشارد أسقف لندن.

وتم انتخاب روبـرت عميد سـالسبري أسقفاً لإكستر Exeter ، وجرت سيامته من قبل ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري.

وجرى تتويج فردريك ملك ألمانيا امبراطوراً من قبل هادريان في كنيسة القديس بطرس [روما]، وغادر هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، انكلترا دون الحصول على إذن الملك، ونتيجة لذلك أمر الملك بهدم ستة من قلاعه. وتم حرمان وليم بيفيريل Peverel أوف نوتنغهام من ميراثه لأنه أعطى السم إلى رانولف ايرل تشستر، واستولى الملك على حصن غلوستر وعلى قلعتي بردجنورث Bridgnorth وويغمور خصن مورتايمر Wigmore

#### سنة ست وخمسين ومائة وألف

عبر الملك هنري القناة من دوفر، ونزل خارج وزانت Wissant ، حيث قابل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سيبل، التي كانت عمته.

## سنة سبع وخمسين ومائة وألف

أنجبت الملكة إليانور ولداً ذكراً في اكسفورد، أطلق عليه اسم رتشارد، وعبر الملك هنري عائداً إلى انكلترا، وأعاد مالكولم ملك اسكوتلندا إليه مدينة كارل آيل، وبلدة بامبره، ونيوكاسل فوق التاين Tyne، ومنطقة لوثيان Lothian.

ووصل ثيري كونت فلاندرز والكونتسه سيبل إلى القدس.

### سنة ثمان وخمسين ومائة وألف

ذهب هنري ملك انكلترا ليلبس التساج في وورستر، غير أنه بعد القداس الديني وضع التاج على المذبح، غير راغب في أن يتوج ثانية [لأنه كان لديه اهتهام ضئيل بالرسوم].

وولدت الملكة إليانور ولداً سمي غيوفري.

وجرى صك نقد جديد في انكلترا.

وقدم تـوماس، مستشـار الملك إلى باريس، وسط احتفـال عظيم، بغية تلقي مرغريت ابنة ملك فرنسا، لتكون زوجة لهنري ابن ملك انكلترا.

وعبر هنـري ملك انكلترا القنـال فور سهاعـه نبأ وفـاة أخيـه غيوفـري، واستولى على ننتس Nantes.

ومضى لويس السابع ملك فرنسا متقدماً خلال نورماندي، عازماً على الوفاء بنذره في جبل القديس ميكائيل، وقد جرى استقباله في الكنائس

الكاتدرائية برسوم دينية، وجاء الناس واحداً واحداً للترحيب به، وقدموا له كثيراً من الهدايا.

وقدم ملك انكلترا إلى باريس بناء على دعوة الملك لويس السابع ملك فرنسا، وجرى استقباله بالقصر، وأعطي مكاناً للاقامة في رواق كهنة نوتردام.

# سنة تسع وخمسين ومائة وألف

قاد هنري الثاني ملك انكلترا جيشاً ضد طولوز، واستولى على عدد من القلاع الحصينة في تلك المنطقة، ولقد قيل:

لم يهاجم ملك انكلترا طولوز نفسها احتراماً لملك فرنسا الذي كان مقياً بها، أما بالنسبة لملك فرنسا، فقد رغب عن طواعية بالبقاء بها مساعدة لكونت سانت جايل (صنجيل) الذي تزوج من أخته وأنجب منها أولاداً، وهكذا غدا الملكان متعاديان.

#### سنة ستين ومائة وألف

كان هناك انشقاق كنسي بعد وفاة البابا هادريان، فقد جرى انتخاب اثنين من البابوات، مع أن الاسكندر كان هو البابا الحقيقي، وقبل ملك انكلترا وكذلك ملك فرنسا بالاسكندر واعترفا به كبابا، لكن امبراطور ألمانيا وجميع رجال الدين الألمان أيدوا أوكتافيان، وبعث الامبراطور إلى ملكي فرنسا وانكلترا يطلب منها أن يقدما مساندتها إلى هذا البابا

### نفسه، لكنه عبثاً فعل.

وتوفيت ملكة فرنسا، ابنة ألفونسو امبراطور اسبانيا أثناء الولادة، وقد ولدت ابنة، لحسن حظها بقيت حية، ولم يتقيد الملك لويس بوقت الحداد المعتاد، بل خلال أسبوعين تزوج من آدلا، ابنة الكونت ثيوبولد كونت بليوس، ورفض سمسون رئيس أساقفة رايمس تعميدها ملكة، لأن زواج أخت آديلا من فيليب أخي الملك قد فسخ بسبب القرابة الوشيجة بينها.

وخطب هنري ملك انكلترا مرغريت ابنة ملك فرنسا، التي كانت تحت حمايته لابنه هنري، وبهذا ربح السيطرة على قلعة غيسور Gisors وكانت لديه نوايا منذ زمن طويل تجاه هذا الحصن، الذي كان موكلاً إلى فرسان الداوية، حتى يحين الوقت، يوم العرس بين الولدين حيث يجري تثبيته، ومهما يكن من أمر لقد ادعى ملك فرنسا الآن مع اخوان الملكة أن تاريخ اليوم قد حدد أبكر مما توقعوه، وكانوا لهذا مزعوجين جداً، وانطلاقاً من شعور العداوة نحو ملك انكلترا، انطلق ملك فرنسا وكونت ثيوبولد مع حلفائهما نحو تحصين دفاعات شومونت mont ، أملين بذلك تسبيب الأذى وجلب العار لعدوهم، وجاء على كلّ حال ملك انكلترا مسرعاً مع رجاله وحاصر القلعة، وعندها انهزم الملك الفرنسي وكونت ثيوبولد، وبعد مضى عدة أيام أرغم القلعة على الم الاستسلام، واحتجز خمساً وخمسين من فرسان ثيوبولد أسرى في داخلها، وجرى الاحتفال بزواج ابن ملك انكلترا من ابنة ملك فرنسا بموجب السلطة المفوضة لهنري أوف بيزا، ووليم أوف بافيا، وهما كاردينالان كاهنان ومندوبان للكرسي المقدس، ومع هذا كله كان الطفل مايزال فقط في السابعة من عمره والطفلة في الشالثة، وحدث هذا في نوفبورغ يوم الخامس من تشرين الثاني. Neufbourg

#### سنة إحدى وستين ومائة وألف

جرت سيامة رتشارد رئيس شهامسة كوفنتري أسقفاً للكنيسة نفسها، وكان أبوه رتشارد أسقف تشستر، والذي تولى السيامة هو رئيس الأساقفة ثيوبولد، لأن القاعدة قضت أنه إذا كان أولاد الكهنة سلوكهم بالحياة جديراً بالتقدير، لايجري استبعادهم من المناصب المقدسة، ولامن الكاتدرائيات الكنسية، لابل حتى ولامن البابوية نفسها، فعلى سبيل المثال كان نيكولاس رجلاً من أصل انكليزي، وكان أبوه كاهناً، فغدا هو بابا باسم هادريان الرابع.

### سنة اثنتين وستين ومائة وألف

حشد لـويس ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا قـواتها من جميع الجهات، وبدا أن الصدام المسلح بينها أمر لايمكن تجنبه، وعلى كل حال لقد تصالحا مع بعضها بعضاً وجرى الصلح قـرب فرتفال .Freteval

وولدت ملكة انكلترا بنتاً في روان، وقد منحتها اسمها، أي إليانور، وتوفي رتشارد أسقف لندن في الخامس من أيار. وأقسم أساقفة انكلترا ورعاة ديرتها يمين التبعية لهنري الابن الأكبر للملك، وكان الملك هو النوي أصدر أوامره إليهم للقيام بذلك، وكان توماس، مستشار الملك الأول بينهم في تأدية يمين الولاء، واحتفظ باخلاصه للملك مادام حياً، وبقدر مارغب في أن يحكم.

والتقى فردريك امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة مع لويس

ملك فرنسا على مقربة من بيسانكون Besancon ، لاتخاذ قرار حول أي واحد من البابوين سيفضلان، وأعنى بذلك: أوكتافيان أو الاسكندر، وبذلك ينهيا الانشقاق الذي عانت منه الكنيسة.

وأوجدت وفاة ثيوبولد رئيس أساقفة كانتربري في ١١٦١ ضرورة اختيار خليفة له.

وجرى استدعاء جميع رجال الدين في منطقة كانتربري إلى لندن، وبحضور هنري ابن الملك والقضاة تم انتخاب توماس رئيس شامسة كانتربري بشكل مهيب وبالاجماع رئيساً للأساقفة، وحمل هنري أسقف ونشستر الأنباء في أن توماس قد انتخب بلا معارضة، إلى قاعة الرهبان في وستمنستر، يوم الأربعاء قبل أحد الشعانين.

وتمت سيامته في يوم الأحد التالي من قبل هنري أسقف ونشستر، الذي كان آنذاك نائب الكرسي المقدس في لندن .

وجرى أرسال الرسل إلى البابا الاسكندر بأن المقترعين من الأساقفة في كانتربري قد اختاروا رئيساً لهم، باجماع كلّ الأصوات، وقد سيم رئيساً للأساقفة من قبل مجمعهم، ولدى سياع البابا بهذا أعطى موافقته، وبناء عليه، عندما قرتت رسائل الأساقفة، ورسالة راعبي دير الثالوث [أي راعبي كاتدرائية كانتربري]، ورسالة الملك وضع الطلب بالموافقة أمام مجمع الكرادلة الكنسي، وقد وإفق الجميع بدون اعتراض أو تردد وإثر هذا جرت مناولة طيلسان رئيس الأساقفة إلى الرسل وسط احتفاء عظيم واحتفال، وتناول رئيس الأساقفة توماس —المقيد بالشروط المعتادة، وفي ظل قيود القداسة — الطيلسان من على المذبح العالي لكاتدرائية كانتربري.

وعندما ارتدى هذه الأثواب، التي حبست، بناء على أوامر الرب، على

أعلى رجال الدين، لم يغير فقط مظهره الخارجي، بل طرائق تفكيره وتوجهات عقله، حيث توقف عن الرغبة بالاهتام بمسؤوليات المستشارية، وأراد بالحري أن يعفى منها، وبذلك يمكنه أن يكرس المزيد من الوقت لمخاطبة رعيته، والاشراف على شؤون الكنيسة، ولهذا بعث توماس برسالة إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في نورماندي قدم بها استقالته من المستشارية وتخلى عن الختم، وكان السبب الوحيد لهذه الاستقالة المفاجئة هو تصوره لواجبات المنصب الجديد.

# يتعارض اطراء فتزستيفن حول تحول بكت مع معايير تحليل ديسيتو

في سيامته كان توماس بكت قد مسح بدهن الرحمة الربانية المرئية، حيث وضع جانباً الرجل الدنيوي، وتلبس يسوع المسيح، وتخلى عن الواجبات الدنيوية لأعمال المستشارية، وكان مهتماً بالقيام بواجبات رئيس أساقفة جيد، وفي سبيل هذه الغاية راقب عقله مراقبة دقيقة، وكانت خطاباته حزينة، ولمصلحة ونجاة المستمعين إليه، وكانت أعماله أعمال رحمة وشفقة، وكانت قراراته مقرونة بالعدل والمساواة.

وكان يرتدي قميصاً من الشعر من أكثر الأنواع خشونة، وكان هذا القميص يصل إلى ركبتيه، وهو مليء بالطفيليات والحشرات، وغذى نفسه بقليل من الطعام، وكان شرابه المعتاد هو الماء المعد لطبخ العلف، وكان على كلّ حال أول من يتذوق الخمرة قبل أن يقدمها إلى الذين يجلسون إلى المائدة معه، وكان يأكل بعض اللحم الموضوع أمامه، غيرأنه تغذى بشكل رئيسي على الخبز، علماً أن كلّ شيء كان نقياً للنقي، والمسألة هنا هي لوم الشهية وليس لوم الطعام، وعرض مراراً ظهره العاري لسوط النظام، ولبس فوق قميصه الشعري مباشرة رداء الرهبان، بحكم كونه راعي رهبان كانتربري، وارتدى فوق هذا ثوب شاس

ليهاشي عادات رجال الدين، وكانت ربطة العنق، وهي رمز النير الجميل للمسيح، حول رقبته ليل نهار، وكان مظهره الخارجي مظهر رجل عادي، لكنه في داخله كان مختلفاً، وفي هذا قلد القديس سيباستيان والقديسة سيشيليا، فالأول مارس تحت رداء جندي أعهال جندي المسيح، وبينها غطت القديسة جسدها بمسح خشن لايساوي شيئاً، تزينت خارجياً بثوب حيك من الذهب.

وكان يغسل في زنزانته الخاصة كلّ يوم أقدام ثلاثة عشر متسولاً، وهو راكع على ركبتيه، وذلك تخليداً لذكرى المسيح، ومن بعد تزويدهم بالطعام كان يعطي لكل واحد منهم أربعة شلنات، وإذا حدث في أية مناسبة وهذا أمر نادر— وحيل بينه وبين عمارسة هذا العمل شخصياً كان يحرص عظيم الحرص أن يوكل إلى أحدهم القيام بذلك، وعندما يكون وحيداً، إنه لمدهش حقاً كيف كان يستغرق بالبكاء، ويتمثل عندما يكون أمام المذبح آلام الرب وكأنها قائمة بالجسد أمامه، وكان يناول القربان المقدس بطريقته الخاصة التي كان يقوى بها إيان وسلوك الذين يشاهدون ذلك.

زد على هذا كان يرعى في بيته المعوزين والمحرومين، فيعطي الثياب لعدد كبير حتى يتمكنوا من مقاومة قساوة الشتاء، وكان في كانتربري يستقبل كثيراً منهم شخصياً، ويجلس ملاصقاً لهم كأنه واحد من رهبانه، فيدرس واحداً من أكبر المجلدات، ويذهب بعد هذا ليزور الرهبان المرضى، من أجل أن يعلم ما يحتاجون إليه وليلبي رغباتهم، ولقد كان المستشار للمظلوم، وللزوج الأرمل، والصديق لليتامى، يضاف إلى هذا كان متواضعاً مواسياً للطيف وقاسياً تجاه المتكبر.

وكان رئيس الأساقفة توماس الرائع، معارضاً لتوقعات الملك، وكذلك لتوقعات كلّ انسان آخر، لذلك هجر العالم بشكل كلّي، ولهذا عانى من تلك المحنة بشكل مفاجىء، التي هي من عمل يد الرب، وهي المحن

التي دهش الناس جميعاً تجاهها.

ثم نعود إلى ديسيتو ومعالجت للشقاق المتصاعد بين الملك ورئيس الأساقفة.

#### سنة ثلاث وستين ومائة وألف

عندما أعد الملك هنري ملك انكلترا أراضيه في نورماندي، وبريتاني، ومين، وأنجو، وتورين، وأكوتين، بها رآه مناسباً، عاد إلى انكلترا، ورسا في ثاوثاً مبتون في يوم ٢٥كانون الثاني، وجاء توماس رئيس أساقفة كانتربري لمقابلة الملك وعانقه، لكن بدون مشاعر طيبة، مشيحاً بوجهه بعيداً، الأمر الذي كان بإمكان كل واحد من الحضور أن يراه، ووضع توماس الذي ارتقى من رئيس لشهامسة كانتربري إلى رئيس للأساقفة، جانباً استقالته من رئاسة الشهامسة وأجلها لبعض الوقت، وذلك على الرغم من طلب الملك الملح جداً، وأخيراً استقال من هذا المنصب لأن الملك استجاب للذلك، ومع أنه بهذا استرد رعاية الملك التي حرم منها نتيجة لهذا الناخير، هو لم يعترف بهذا بشكل صريح (١٦).

جرى في ٢٧ تموز استدعاء روجر دى كلير، إيرل أوف هارتفورد إلى وستمنستر وذلك من قبل توماس رئيس أساقفة كانتربري ليقدم له الولاء من أجل قلعة تونبردج وأراضيها، لكن الإيرل رفض بتصميم طلب رئيس الأساقفة، مؤكداً أن الاقطاع المختلف عليه كان عائداً إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وحقوق الخدمات العسكرية المترتبة عليه والشؤون المالية العامة عائدة إلى الملك.

وقدم مالكولم ملك اسكوتلندا، وريس Rhys أمير جنوبي ويلز،

وأوون Owen أمير شهالي ويلز، وجميع نبلاء ويلز، السولاء إلى ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري، وجرى ذلك في وودستوك يوم الأول من تموز.

وجرى بحث عام وتقصي في جميع أرجاء انكلترا لإيجاد من يمتلك حق الخدمة المدنية تجاه كلّ واحد على حده، وفي أثناء البحث في كنت قرر القضاة أن وليم أوف روس Ros يجب عليه تقديم السولاء إلى الملك وليس إلى رئيس الأساقفة، وذلك في أي عمل من أعماله، وهكذا سببت الكراهية الشخصية الأذى للكنيسة بشكل عام.

وعندما نقل رئيس الأساقفة توماس منصب مسؤولية المعيشة في أينزفورد Eynesford الشاغر وسلمه إلى واحد اسمه لورانس، ادعى وليم صاحب آينزفورد أنه هو نفسه يمتلك الحق للتعيين في ذلك المنصب وطرد لورانس، ورد عليه رئيس الأساقفة فحرمه من الكنيسة، ولأن هذا حدث دون إخبار الملك، كان الأخير غاضباً، وأكد بالحقيقة أن كرامة الملك غير مفصولة عن كرامة مملكته، وأنه مامن قائد وجندي تابع للملك، ومامن واحد من وزرائه، ولاواحد من التابعين له (مها كانت مكانتهم) سواء احتفظوا بقلعة أو بلدة أو غابة، يجوز حرمانه من الكنيسة بقرار من أي واحد من دون علم الملك، وذلك خشية تدنيس الملك من قبل المحروم، لدى زيارة قائد محروم له وقيام الملك بمعانقته أو باستقباله في مجلسه.

وبعث الملك هنري أرنولف أسقف ليزوكس Lisieux ، ورتشارد رئيس شيامسة بواتيه بسفارة إلى البابا الاسكندر، الذي كان آنذاك في منطقة الشقاق في فرنسا، ولقد عانيا لمدة ثلاثة أشهر، وتعرضا للمخاطر من البحر الهائج والأمواج العاتية ست مرات، ومع أنها بذلا جهوداً عظيمة ليحصلا على التأييد بشأن قوانين المملكة في سلطات البابا، لقد كانا غير قادرين على تحقيق أي شيء، لذلك عندما عادا أخيراً لم يكن بإمكانها فعل أي شيء للتخفيف من غضب الملك الذي انفجر الآن

# ضد عدد كبير من الأشخاص.

# سنة أربع وستين ومائة وألف

وقيل رغب ملك انكلترا في انزال عقوبات قاسية على بعض أعضاء رجال الدين الذين كانوا مدانين بجرائم، مقدراً أن تسلم مثل هؤلاء الرجال عقوبات أدنى مما يستحقون يحط من النظام ككل، ولهذا رسم بتحويل رجال الدين الذين عدّوا مجرمين بشكل واضح من قبل قضاته، إلى أسقفهم، والدين يجدهم الأسقف مجرمين، عليه أن يجردهم من سلطاتهم بحضور واحد من قضاة الملك، ويتوجب عليه أيضاً بعد المحاكمة أن يسلمهم لتلقي العقوبة.

وإثر هذا وضع رئيس أساقفة كانتربري أمام المحاكمة بسبب أعماله كمستشار، وظهر أمام المحكمة في ١٦ تشرين الأول في نور ثأمبتون، واجتمع هناك الأساقفة والإيرلات والبارونات من جميع المملكة، وذلك بناء على الأمر المستعجل من الملك، وجرى استدعاء روجر رئيس أساقفة يورك، وظهر هناك، وكان قد جرى بأمر من مستشارية توماس تعيين مشرفين على ممتلكات الأسقفيات، وبها أن توماس تجاوز كمستشار حدود سلطاته في حاشية الملك (استحوذ لسنوات كثيرة على قلعتي بيركهامستد وآي، وكان يفعل بهها مايشاء) بدا ذلك لمعظم الناس متوائها مع القانون الذي ينبغي اتخاذه لحساب مبلغ المرابح، ومع هذا كله، كان قبل أن يرسم رئيساً للأساقفة قد نال من هنري ابن الملك وولي عهده حق الحرية والاعفاء من الواجبات القاضية بتقديم حساب، وعلى كلّ حال، الحرية والاعفاء من الواجبات القاضية بتقديم حساب، وعلى كلّ حال، المن من غير المكن بالنسبة لتوماس أن يوثق هذا الإعفاء ويبرهن أنه قد منح له، قام قادة الكنيسة بإصدار حكم ضده، ولم يستطع هو لا

الاعتراف بالتهمة ولا بالادانة، بل ادعى ان ذلك كان لصالح رجال الدين.

وعلى هذا كان رئيس الأساقفة في وضع صعب، متهم بعدد كبير من التهم، ومصاب بكثير من الاهانات، ومحروم من تأييد الأساقفة، فقام برفع الصليب الذي كان يحمله، وغادر قاعة المحكمة، وفي الليلة التالية ترك المدينة بشكل سري، وأخفى نفسه عن مشاهدة الناس خلال النهار، وارتحل أثناء الليل، وبعد سفر عدة أيام وصل إلى ميناء سندويش وارتحل أثناء الليل، ومن هناك عبر في قارب صغير إلى فلاندرز، وأرسل الملك بعد اختفاء رئيس الأساقفة رسلاً إلى البابا الاسكندر الثالث في سنس Sens.

وكان بين التعليمات التي حملها الرسل من الملك عرضاً إلى البابا أن بإمكانه أن يبعث بقاضيين إلى انكلترا، يتوليان بحضور من الملك ورئيس الأساقفة، الذي جرت الأساقفة حل الخلاف اللاديني بين الملك ورئيس الأساقفة، الذي جرت مناقشته في نورثأمبتون، وايجاد حل لأي قضية يمكن أن تظهر أثناء سير المناقشات، وذلك بعد سحب الاستئناف، وعلى كل حال عندما وصل رسل الملك إلى قصر رئيس أساقفة سنس، لم يكن رئيس الأساقفة موجوداً، لذلك لم يستطع بلاطه اعطاء جواب حاسم لمطالبهم، حيث أن ماطلب لايتهاشي مع القانون ولا مع العقل.

### سنة خس وستين ومائة وألف

وولدت آديلا ملكة فرنسا ولداً أطلق عليه اسم فيليب، وولدت إليانور ملكة انكلترا ابنة سميت جوانا، وعاد البابا الاسكندر إلى ايطاليا، ورحب به في روما.

وعندما كان الملك مقياً في وستمنستر [القصر الملكي قرب لندن] جاء رينالد رئيس أساقفة كولون إلى انكلترا ليتسلم ماتيلدا، كبرى بنات الملك هنري، لتكون زوجة لهنري، دوق ساكسوني(١٧)، وحدث أنه عندما جاء نبلاء المملكة في أبهة عظيمة لإستقباله واللقاء به، رفض روبرت إيرل أوف ليستر، ورئيس القضاء الملكي، أن يعانقه، على أساس أنه منشق عن الكنيسة، ثم قلبت جميع المذابح التي أقام عليها المنشق قداساً.

هرب بكت إلى البابا في سنس، وذهب من هناك إلى دير سسترشيان Cistercian في بونتغني Pontigny، وتبنى هناك طريقاً للحياة كرسه على العزلة والدراسة، وزار في أحد الشعانين ١١٦٦، عندما كان حاجاً، فيزلي، حيث تولى حرمان عدد من الأساقفة الانكليز كانوا يساندون الملك.

#### سنة ست وستين ومائة وألف

[بعث رئيس الأساقفة من منفاه رسالة إلى الملك جاء فيها:] «من توماس رئيس أساقفة كانتربري إلى ملك انكلترا:

إنني أرغب رغبة عظيمة في رؤية وجهك والحديث معك، وذلك لصالحي، ولكن أكثر لصالحك، ذلك أنك برؤيتك لوجهي ستعيد إلى ذاكرتك الحدمات التي قدمتها لك، عندما كنت تحت طاعتك، لقد خدمتك باخلاص مرضياً ضميري، حتى —لعل الرب يساعدني في يوم الحساب— عندما يقف الجميع أمام حكمه ليتسلموا الثواب أو العقاب تبعاً لما عملوه عندما كانوا أحياء، ولابد أنك ستتحرك شفقة علي، أنا

الذي توجب علي أن أعيش بمثابة متسول بين الأجانب، حتى في هذا الحال -شكراً للرب- لدينا كثيراً من الخيرات والنعم».

ووضعت الملكة إليانور ولداً ذكراً سمته جون(١٨).

ودعا الكاردينالان: وليم أوف بافيا، وجون أوف نابل —نائبا الملك— ملك انكلترا، ورئيس أساقفة كانتربري إلى الحضور معاً إلى مونت ميريل ملك انكلترا، ومع أن رئيس الأساقفة شعر أنها يميلان أكثر إلى جانب الملك، سمح بمعالجة القضية، وجلس الكاردينالان جلسة علنية، وبذلك كان من الممكن إعادة اعتبار كاملة له شخصياً ولأتباعه وذلك وفقاً للقانون اللاهوي، لكن رئيس الأساقفة المسلوب لم يرغب في أن يتعرض للمحاكمة، ولم يكن من الممكن ارغامه بأي شكل من الأشكال، عادا حيث أن النائبين اللذين لم يستطيعا ارغامه، ولم يرغبا بالقيام بذلك، عادا إلى البلاط البابوي مخفقين.

وجاء الملك لويس السابع، ملك فرنسا إلى بونتغني، حيث أظهر الرهبان كل لطف نحو رئيس الأساقفة توماس لمدة عامين، ومن أجل ألا تتعرض رهبانية سسترشيان في انكلترا إلى أي أذى أخذه معه إلى سنس، ودفع نفقاته لمدة أربع سنوات في دير القديس كولومب Colombe.

## سنة سبع وستين ومائة وألف

تزوجت ماتيلدا ابنة الملك هنري الثاني من هنري دوق ساكسوني، وقد رافقها إليه كلّ من إيرل آرندل وإيرل بمبروك وعدد كبير آخر.

وتخاصم ملكا فرنسا وانكلترا: وأحرق النورمان كومونت -Chau قرب غيسور Gisors وأسروا عدداً كبيراً من الفرسان

والمدنيين، وانتقاماً لما حدث أحرق الملك الفرنسي أندل Andelys وهمو بيت ريفي لرئيس أساقفة روان، وعاد إلى فرنسا في اليوم نفسه، بعدما خسر أكثر من ألف رجل أثناء السفر، ووقع بعد هذا عدد كبير من الفرسان الفرنسيين بأسر النورمان في بيرش Perche, ثم تصالح الملكان، وخطب رتشارد دوق أكوتين وابن الملك الانكليزي، إلى أليس الفرنسية، ابنة الملك.

## سنة تسع وستين ومائة وألف

تزوجت إليانور ابنة ملك انكلترا من ألفونسو الثامن ملك كاستيل.

وعقد يوم ١٨ تشرين الثاني مؤتمر فيها بين الملك لويس السابع ملك فرنسا، والملك هنري الثاني ملك انكلترا، قرب باريس، حيث كان رئيس أساقفة كانتربري مقيهاً، لكن توماس لم يقدم نفسه إلى ملك انكلترا، وكان هناك نقاش طويل حول إقامة سلام فيها بين الملك ورئيس الأساقفة، وبناء على نصيحة ملك فرنسا والأساقفة والنبلاء، زود ملك انكلترا بالتهاس منه على شكل رسالة جاء فيها مايلى:

«نلتمس من مولانا الملك، بناء على نصيحة من البابا ورعاية، ومن أجل محبة الرب والبابا، وتشريفاً للكنيسة المقدسة، وفي سبيل نجاته ونجاة ولي عهده أن يتقبلنا ويشملنا برعايته وأن يعفو عنا وعن الذين معنا، والذين غادروا انكلترا من أجلنا، وأن يمنحنا سلامه مع الأمان الكامل منه ومن رجاله، بدون مشاعر رديئة، وأن يعيد كنيسة كانتربري إلينا حرة، وكاملة حسبها كانت بأيدينا بعدما صرت رئيساً للأساقفة، وأن يعيد جميع الممتلكات والمقتنيات التي كانت لنا، لنتملكها بشكل حر، ومجيد وسلام، وذلك مثلها كانت الكنيسة وكنا أنفسنا وامتلكنا عندما

رقينا إلى رئاسة الأسقفية، وكذلك الأمر نفسه بالنسبة لأتباعنا، وعليه أيضاً أن يأذن لنا في استحواذ الكنائس العائدة لرئاسة الأساقفة، والتي غدت شاغرة بعدما تركنا البلاد، وبذلك يمكننا أن نفعل بها مانرغب به ويرضينا».

ولم يعط ملك انكلترا موافقة كاملة لسبين: بها أنه لم يطرد رئيس الأساقفة، هولم يكن ملزماً —تماشياً مع سمعة المملكة — بتغييرأي شيء باسم اعادة الاعتبار، كها أنه لم يكن ملزماً بأن يعلن إلغاء تمليك الممتلكات الشاغرة، التي جرى منحها لبعض الأشخاص، لكن حتى يعبّر عن نفسه بأنه حاكم ملتزم بالقانون، أعلن أمام ملك فرنسا، أنه جاهز لإرضاء رئيس الأساقفة من جميع الجوانب، أو أنه إذا ما قرر مناقشة القضية، وعرضها للمحاكمة في القصر في باريس، بوجود نبلاء فرنسا هناك، أو بوجود الكنيسة الفرنسية واستخدامها لنفوذها، أو بوجود علماء من مختلف المناطق، يتولون فحص الأعمال بشكل عادل.

وهكذا تمكن ملك انكلترا، الذي أثار من قبل كراهية عدد كبير من الناس ضده، بوساطة هذه الكلهات أن يكسب الكثيرين إلى جانبه، وبهذه الواسطة كان من الممكن لملك انكلترا ولرئيس الأساقفة الوصول إلى نوع من الاتفاق، وذلك إذا مارفض الملك رفضاً تاماً إعطاء رئيس الأساقفة قبلة السلام.

### سنة سبعين ومائة وألف

عقد الملك يوم عيد الميلاد بلاطه في بلدة نينس Nentes, بحضور الأساقفة والبارونات لجميع بلاد بريطانيا، وقد أقسم هؤلاء يمين الولاء له ولابنه غيوفري معاً، وعاد في أيام الصيام إلى انكلترا، وعندما

تعرض عدد كبير من حاشيته لمخاطر عاصفة بحرية هبت بشكل مفاجىء، نجا هو نفسه منها دون أن يصاب بأذى بفضل نعمة التقوى للرب.

وفي أثناء غياب بكت عن انكلترا، قرر هنري الشاني استخدام رئيس أساقفة يمورك لتتويج ابنه الملك الشاب، وبهذا أعاد الخلاف الطويل بين رئيسي الأساقفة الانكليزيين حول الريادة.

وجرى في ١٤ حزيران رسم هنري، أول أولاد الملك هنري، ملك انكلترا، ولادة، ملكا، وكان ذلك في وستمنستر، من قبل روجر رئيس أساقفة يورك.

وعبر الملك القناة، بعد تتويج ابنه، وعقد مؤتمراً في مونتميريل بينه وبين رئيس الأساقفة توماس، حيث كان ملك فرنسا حاضراً، لكن بعد جهود كبيرة، عندما جاءت ساعة العناق، ولأن رئيس الأساقفة قال: "إنني أقبلك تمجيداً للرب"، رفض الملك القبلة لأنها عرضت مشروطة، فلأن أجدادنا اعتادوا أن يولوا اهتماماً عظيماً للصيغ في القانون، هكذا اعتاد الملك على التمسك بنهايات بعض العبارات في كلمات رئيس الأساقفة، مع أنه تلفظها بضمير نقي، مثل أن تقول أحياناً: "حافظاً أيهان الرب".

والتقى ملك فرنسا ووليم رئيس أساقفة سنس، وأسقف نافار -Nev ثانية في فرتفال Freteval, وعندها —على كلّ حال— تفارق ملك انكلترا ورئيس الأساقفة مرتين، وترجلا مرتين، ومرتين امتطيا فرسيها، وأمسك الملك مرتين بالركاب لرئيس الأساقفة، ثم حدث لقاء آخر في أمبويز Amboise لليوصول بسرعة لتفاهم أسهل، وهنا توصل الملك ورئيس الأساقفة إلى اتفاق، وتدبر هذه المرة السلام بينها

روترو رئيس أساقفة روان [الذي كتب]:

«إلى هنري ملك انكلترا، وإلى ابنه هنري ملك انكلترا، التحيات.

هل لك أن تعلم أن توماس، رئيس أساقفة كانتربري، قد أقام سلاماً معي، وفقاً لرغباي، وبناء عليه إنني آمر أن يستطيع هو وأتباعه امتلاك سلام، وأن تنظر أنت إلى ذلك وترعاه، وفي أن يحصل هو وأتباعه الذين غادروا انكلترا من أجله، على مقتنياتهم بسلام وشرف، وأن يكون الحال مثلها كانوا عليه قبل ثلاثة أشهر من مغادرتهم انكلترا، واستدع إليك بعضاً من خيرة الفرسان ذوي الشرف في سولتود Saltwood, وعليك اعتباداً على أيهانهم أن تقوم بالبحث بشأن تقرير اقطاع رئيس أساقفة على اعتراف به كجزء من اقطاعه.

الشهود: رئيس الأساقفة روترو أوف روان، في شينون».

وبناء على هذه الضهانة عاد رئيس الأساقفة إلى انكلترا، ورسا في ميناء سندويش في الأول من كانون الأول .

وبعدما عاد توماس رئيس أساقفة كانتربري، وإثر دخوله إلى انكلترا، كتب رسالة إلى البابا، جاء في بعضها مايلي:

«....بعد وصولنا إلى كنيستنا، واستقبالنا بمحبة عظيمة من قبل رجال الدين والشعب، جاء إلينا عدد من الرسميين التابعين للملك وهم غاضبين، وقد طلبوا بناء على رغبة الملك ولصالحه أن نقوم بتحليل الأساقفة الذين كان قد جرى حرمانهم، أو جمدوا، لأن ماصنع ضدهم تنامى ليصل إلى العدالة على أنه ضد الملك، وقد أزاح جانباً عادات المملكة وقلبها... وقد أجبناهم: إذا مارغب أسقفا لندن وسالسبري أن يقسها أمامنا أنها سيطيعان أمرنا، إننا سنحللها من أجل سلام الكنيسة وصدوراً عن احترام الملك، وعندما حملت هذه الاجابة إلى الأسقفين،

أجابا أن قسماً من هذا النوع لاينبغي تأديته إلا إذا توافق مع رغبات الملك»!.

وبينها كان توماس، رئيس أساقفة كانتربري في طريقه لزيارة الملك الشاب هنري، الذي كان في ذلك الوقت مقيهاً في وودستوك، جرى استقباله بحفاوة كبيرة من قبل سكان لندن، وفي يوم ١٨كانون الأول، عندما كان ضيفاً في ساوثوورك Southwark, وصل رسل من عند الملك الشاب إليه، محظرين عليه، بناء على أوامر الملك، أن يذهب إلى رؤيته، وبناء عليه، وعوضاً عن الذهاب، عاد إلى كنيسته، وهكذا رجع إلى كانتربري، وأعد العدة للاحتفال بعيد الميلاد هناك، وذلك بوجود عدد كبير من رجال الدين جاءوا من مختلف المناطق، للاجتاع هناك في سبيل معالجة عدد من مختلف الأعمال.

وفي يوم الميلاد صعد توماس — رئيس أساقفة كانتربري المنبر — ليتولى أداء موعظة للشعب، وعندما انتهى، وقام بالصلوات المعتادة للرب، وللبابا، وللملك، ولخلاص الشعب، وفيها الشموع مضاءة، قام بكل وقار بحرمان نيغل دي ساكفيل Nigel de Sackville, وهو ظالم عنيف لكنيسة هاردرز Hardres وكاهن الكنيسة نفسها، وحرم أيضاً روبرت دي بروك الذي شوه فرساً من خيول رئيس الأساقفة نفسه كان يحمل طعاماً، وذلك بهدف الاهانة والحط من القدر.

وفي اليوم الخامس من أيام عيد الميلاد، عند حلول الظلام، وفيها رئيس الأساقفة مقيم في جناحه، ومعه أعوانه، حمل الغضب الشديد وليم دي تريسي Traci, ورينالد فتزأورسن Brito وكان هؤلاء فرسانا دي مورفيل Moreville, ورتشارد برتو Brito وكان هؤلاء فرسانا أربعة جاءوا من نورماندي، حملهم الغضب على اقتحام الجناح، وهددوا باسم الملك، الذي كان مقياً في نورماندي، وطالبوا بأن على رئيس الأساقفة أن يعيد الأساقفة الانكليز المجمدين إلى مراكزهم، وأن يحلل

المحرومين، فأجابهم: إنه ليس من صلاحية القاضي الأدنى إلغاء حكم الأعلى، ولايمكن لأي انسان أن يؤثر بها رسم به الكرسي المقدس، ومهما يكن الحال، إذا ما أقسم أسقفا لندن وسالسبري أنهما سوف يطيعان أوامره، سوف يحللهما من أجل سلام الكنيسة، ومن خلال الاحترام للملك، واستبد بهم الغضب الشديد، واربدت وجوههم، وبادروا نحو تنفيذ الجريمة النكراء التي دبروها، ومن أجل تنفيذها انسحبوا مسرعين.

ودخل رئيس الأساقفة إلى قلب الكنيسة، وذلك على الرغم من تحذير أعوانه، وكان الوقت قد قارب ساعة انشاد قداس العشاء، وهكذا تبع الرجال المتقدم ذكرهم، والعازمين على تنفيذ الجريمة خطوات رئيس الأساقفة، بعدما سلحوا أنفسهم، وعندما وصلوا إلى الكنيسة وجدوا أبوابها مفتوحة، تماشياً مع تعليات رئيس الأساقفة التي قال فيها:

«نحن سوف لن نحوّل كنيسة الرب إلى قلعة، إنها ينبغي أن تبقى ملاذاً عالمياً في الأيام التي أطيح بها بالنظام فحلت الفوضى»، وفيها الحركة تغطى كلّ الجوانب، دخل الأربعة بوقاحة إلى الكنيسة، وبدأوا يصرخون: «أين الخائن للملك؟ أين رئيس الأساقفة»؟ وعندما سمع رئيس الأساقفة ذكر اسمه، نزل من الدرجة الثالثة أو الرابعة للمنصة لمقابلتهم، وكان لتوه قد بدأ يصعد إلى المنصة، وقال: «إذا كنتم تطلبون رئيس الأساقفة، إنني هنا»، ورد على أجوبتهم الخشنة: «أنا مستعد للموت، إنني أفضل تأكيد العدالة، وحرية الكنيسة، على حياتي، وأعلن أن أتباعي ليسوا مسؤولين ليكونوا عرضة للعقوبة، ذلك أنهم لم يكونوا المثيرين للحالة» وعندما اندفع منفذوا الجريمة نحوه بسيوف مشهرة، قال: «إنني أعهد بنفسي وبشؤون الكنيسة إلى مريم المباركة، حامية قديسي هذه الكنيسة، وإلى دايونيسيوس المبارك» (١٩).

وفي أيام حياة بكت قدم وليم فترستيفن صورة رفيعة التلوين وصف بها مقتل رئيس الأساقفة من قبل الفرسان الأربعة.

وضربه أحد الفرسان بسطح سيفه بين كفيه، وهو يقول: «طر، إنك رجل ميت»، غير أن رئيس الأساقفة وقف دونها حراك وقدم رقبته [للقطع]، وأوقف نفسه وكرسها للرب، بينها كانت شفتاه ترددان أسهاء رؤساء الأساقفة المقدسين الذين استشهدوا قبله، وصرخ واحد من الأعداء قائلاً: «أنت أسيرنا، تعال معنا» ووضعوا أيديهم عليه وأرادوا جره إلى خارج الكنيسة، ولكنهم كانوا يخشون أن الناس قد يتولون انقاذه من بين أيديهم، وأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «لن أتحرك من هاهنا، عليكم هنا اتمام عملكم وتنفيذ رغباتكم واطاعة أوامركم»، واصطرع معهم بقوة وارادة، وذلك بينها أمسك به الرهبان وردوه أيضاً إلى الخلف، وكان معهم أيضاً السيد ادوارد غرم Grim, وقد صب عليه سلاحه وكان معهم أيضاً السيد ادوارد غرم Grim, وقد صب عليه سلاحه تريسي نحو رأس رئيس الأساقفة، وجرح بهذه الضربة جراحة كبيرة رئيس الأساقفة في رأسه أثناء انحنائه نحو الأمام، وكذلك أصيب غرم رئيس الأساقفة في رأسه أثناء انحنائه نحو الأمام، وكذلك أصيب غرم اصابة بالغة.

ومسح رئيس الأساقفة بذراعه الدم الذي تدفق من رأسه، وقدم الشكر للرب قائلاً: «بين يديك، أضع أيها الرب روحي»، ولقد قال ذلك بعدما ركع، وكان يصفق بيديه، ويمدهما نحو الرب، وتلقى ضربة ثانية على رأسه، سقط على إثرها منكباً على وجهه، إلى جانب المذبح الذي كان هناك، وكان مكرساً للقديس بندكت، ولقد اعتنى به ومنحه على كلّ حال— النعمة في أن سقط بشكل مجيد، مغطى حتى عقبيه بردائه، وكأنه كان يصلي ويتعبد، ولقد سقط على الجانب الأيمن، وكأنه يتقدم نحو اليد اليمنى للرب، وفيها هو ممدد من اثر الضربة، ضربه رتشارد بريتو ضربة شديدة إلى حد أن السيف تحطم أمام الرأس وبلاط الكنيسة، وكان يردد حين ضربه: «خذ هذه الضربة من أجل حبي لمولاي وليم،

أخوالملك البذي حرم توماس زواجه من الكونتسة وورين -Wa [renne] لقد أصيب رئيس الأساقفة المقدس بأربع اصابات، تلقاها جميعاً على رأسه، وكانت كلّ واحدة منها بميتة، فقد فصل غطاء الرأس عن الجمجمة، ثم تمت مشاهدة كيف أن أطرافه أطاعت حركات روحه، وظهر واضحاً أن ماكان يدور في عقله، اختلج في جسده، وأنه في تصديه للضربات وفي محاولة تجنبه لها لم يكن يصارع ضد الموت، بل تقبل الموت عن طواعية، ولرغبته في أن يكون مع الرب، وليس نتيجة ضربات قاتلة من سيوف الفرسان، ووضع واحد اسمه هيوج هورسي ضربات قاتلة من سيوف الفرسان، ووضع واحد اسمه هيوج هورسي الممدد، وأخرج برأس سيفه الدم والدماغ من قحف الرأس المقطوع، الممدد، وأخرج برأس سيفه الدم والدماغ من قحف الرأس المقطوع، وكان هذا مشهداً محزناً مرعباً، لم يسمع بمثله من حيث الوحشية، من جانب الذين يدعون المسيحين، وهبت عاصفة مخيفة تعلقت غيومها بقبة السياء، وهطل مطر سريع، وكانت هناك رعود تزنجر حول السموات، وتحول بعد هذا لون السهاء إلى أحمر قانيء تجاوباً مع الدم الذي سفك، وتعبيراً عن الرعب والخضب.

وتحدث ديسيتو عن الأحداث التي تلت مقتل بكت، وهو وإن كتب بطريقة أقل إثارة من طريقة فتزستيفن، كان الغضب الشديد تجاه مقتل رئيس الأساقفة مايزال واضحاً.

ونهب روبرت دي بروك مع أصحابه ممتلكات رئيس الأساقفة، واستولوا على ثياب رجال الدين والخدم، لابل حتى استولوا على الأدوات من أيدي العال، وهربوا بسرعة كبيرة ومعهم جميع الخيول التي وجدوها في الاسطبلات، وعدّوها بين الأسلاب.

وحمل جسد رئيس الأساقفة الغارق في البلاط على الجانب الأيمن من مذبح القديس بندكت، ووضع أمام المذبح الرئيسي، وكان ذلك عند الغسق، وهناك بات ماكان معروفاً فقط من قبل حاجبه واضحاً لجميع

الحضور، ذلك أنه صحيح أن رئيس الأساقفة أخفى بهدوء ثوبه الرهباني، الذي ارتداه لـزمن طويل، بتغطيته بردائه الـرسمي، اهتم أيضاً في تطويع جسده بارتداء ثياب داخلية مصنوعة من الشعر، وكان اليوم التالي هو يوم الأربعاء، وراجت في الصباح الباكر لهذا اليوم اشاعة شريرة، تأكدت فيما بعد، بأن المجرمين الأشرار الذين نفذوا جريمة القتل قد تـآمروا على أن يجروا جسد رئيس الأساقفة ويخرجوه من المكان المقدس، وأن يرموه خارج أسوار المدينة ليمزق من قبل الكلاب، أو من قبل الطيور، ولذلك قرر راعي دير بوكسلي ورئيس وأعضاء ديـر كنيسة كانتربـري قراراً حكيماً، في أن يقوموا بدفن الجثة وإن كان الوقت متأخراً، وبدا لهم أنه لاتوجد حاجة لغسله بالماء، خاصة وأنه كان نال النقاء بسبب التقشف الطويل لرئيس الأساقفة، لهذا مسح بقطعة من القياش الشعري، وقد تطهر بدمه نفسه

### سنة إحدى وسبعين ومائة وألف

كان الملك هنري ملك انكلترا في تلك الآونة مقياً في نورماندي، في أرغنتان Argentan, عندما حمل بعض الناس إلى مسامعه الاشاعات المؤسفة، انقلب فوراً إثر سهاعه للقصة الشريرة، إلى جميع أنواع البكاء وضروب التعاسة، وبدل ثيابه الملكية تبديلاً كاملاً ولبس الأثهال ووضع على رأسه الرماد، داعياً الرب القدير ليكون شاهداً لصالح نفسه، أن الفعلة الشريرة لم تنفذ بارادة منه، ولابعلم منه، كما أنها لم تكن واردة في غططاته، مالم يكن قد أذنب في اعطاء الشعور أنه حمل قليلاً من الحب لرئيس الأساقفة حتى ذلك الوقت، وعلى رأس هذا كله وضع نفسه مباشرة أمام عدالة الكنيسة، ووعد بكل تواضع في أن ينفذ كل ما سوف

تقرره.

وأرسل الملك رسلاً إلى البابا للبدفاع عنه، وليبرهنوا على براءته، ولم يرغب البابا في رؤيتهم، كما أنه لم يعانقهم، كما لم يسمح لهم بالركوع أمام قدميه، وحاول الرسل ثانية، فاستقبلهم بعض الكرادلة، لكن فقط للتحدث إليهم، ولهذا سقطوا في لجة من الفوضى لوقت طويل، وشعروا لذلك بالحزن وتدني المعنويات، لكنهم تابعوا تزويد الذين كانوا أكثر مواءمة بشكل مستمر، حتى يمكن بوساطة تدخلهم أن يقبل البابا بإعطاء بعضهم فرصة اللقاء به، غير أنهم لم يتقدموا في هذا المجال مطلقاً، واقترب حلول يوم الأربعاء المتقدم على عيد الفصح، الذي اعتاد فيه البابا، تبعاً لعادات الكنيسة الرومانية، إما أن يعلن عن حرمان عام أو تحليل من حرمان، ووصل إلى مسامعهم عن طريق بعض العاملين لدى البابا، أن البابا قرر بلا تراجع أن يفرض عقوبة الحرمان ضد ملك الذي المالاسم وضد جميع أراضيه على طرفي القنال.

وعندما حل ذلك اليوم حرم البابا بشكل عام القتلة الشريرين جداً الذين ذبحوا رئيس أساقفة كانتربري مع جميع الذين زودوهم بالمساعدة أو بالرضى، واللذين يمكن أن يقدموا المساعدة لإيوائهم، ومع هذا بقي القتلة في نيرسبرا Knaresborough في مقاطعة نورثأمبريا -North للدة سنة.

وبدأ في حوالي عيد الفصح المولى يسوع المسيح، الموجود دوماً في قديسيه وفي كلّ مكان، يشع بشكل اعجازي على الحياة الجديرة بالمدح لشهيده الأعظم روعة، وأعني به توماس رئيس أساقفة كانتربري، ويشع أيضاً على ثباته الذي لانظير له في وجه الموت، وتجلى هذا بوساطة معجزات متوالية، وبذلك نجد أن الذي أوقف نفسه ونفوس أتباعه، وعاش مع الحرمان في سبيل حماية حرية الكنيسة المهددة، ينبغي أن يُعترف أنه قد حاز على نصر جدير بالتقدير.

وفي ٦ آب وصل الملك الكبير إلى انكلترا، وكان أثناء سفره قد زار هنري أوف بليوس أسقف ونشستر، الذي كان على فراش الموت، ووجه هذا الأسقف النقد واللوم إلى الملك بشأن وفاة الشهيد الرائع، وتوقع له أن يعاني كثيراً بسبب ذلك الموت، ومات هذا الأسقف العجوز، بعد أن اكتملت أيامه، في يوم ٨ آب.

#### سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف

سمع في ليلة عيد الميلاد رعد في ايرلندا وانكلترا، وفي جميع أرجاء فرنسا، وكان مفاجئاً وشديداً، منذراً بوقوع شيء جديد وغير اعتيادي.

ومنذ أن وصل الملك إلى ايرلندا حيث نزل إليها مع جيش في تشرين الثاني ١٩٧١، ولمدة تقارب العشرين أسبوعاً، لم يصل إليه ولا تقرير من مملكته أو أي جزء من ممتلكاته التي كانت واسعة جداً وعريضة، والذي حال دون الوصول إليه وجود رياح مضادة مستمرة.

وبينها كان الملك متأخراً في ايرلندا، بدأ هيوج أوف سينت مور ورالف دي في جرف عقل الملك الشاب، وابعاده عن أبيه، وقد قيل كان هذا بناء على نصيحة من الملكة، وقالا له: إنه لمن الواضح أنه من غير اللائق أن تكون ملكاً ولاتمارس حكم المملكة.

وأصيب كثير من رجال جيش الملك هنري الثاني في ايرلندا بالاسهال في المعدة، بسبب أكلهم لحماً جديداً وشربهم الماء، وهو أمر لم يعتادوا عليه من قبل، ثم إنهم عانوا من نقص بالخبز.

وعندما فهم سكان ايرلندا تمام الفهم كيف أن نوايا ملك انكلترا

تتعلق بالكامل في تأسيس السلم والحفاظ عليه، وأنه لم يشجع على الجريمة بالتورط بها، كما أنه لم يسرع قط بإصدار الحكم على أحد بالاعدام، عند هذا وعندما جمعهم بمرسوم صادر عنه التقوا به للبحث حول السلم، لأنه لم يكن هناك مؤسسات شعبية بينهم ولاسلطات قائمة يمكنها أن تمنحهم الأمان، من خلال الخوف من العقوبة، ولأنهم عانوا مراراً من قتل آبائهم لبعضهم بعضاً في حروب أهلية، فقاموا بنقل شؤون العدالة والسلطة بينهم إليه وفيه، وهكذا حصلوا على السلم بسبب الملك.

ونظراً لأن العديد من القضايا المختلفة استدعت وجود الملك، ركب هنري ظهر سفينة عند حلول الظلام، ووصل في اليوم التالي إلى ويلز، ورسا على مقربة من سينت ديفد، وذهب من هناك مباشرة إلى بورتشستر دون أن يلتفت إلى اليمين أو إلى اليسار، وكأنه بريد مستعجل، وهنا صعد إلى أحد المراكب، وقال وداعاً لانكلترا، وبعد عبور لطيف وصل إلى نورماندي، وعندما وصلت أخبار قدومه إلى مسامع ملك فرنسا، قال مندهشاً:

«في ساعة ملك انكلترا موجود في ايرلندا وفي ساعة ثانية هو في انكلترا، وفي ساعة تالية هو في انكلترا، وفي ساعة تالية هو في نورماندي، لابد أنه طار ولم يسافر بواسطة فرس أو سفينة».

وعندما وصل هنري إلى نورماندي بادر على الفور إلى زيارة ألبرت وثيبودين، وهما كاردينالان وبمثلان للبابا، وبعد مناقشات ومباحثات طويلة، أولاً في سيفني Savigny ثم في أفرانشز Avranches, أقسم الملك بحضور المندوبين أن موت الشهيد الرائع توماس لم يتم الإعداد له بالتوافق مع رغباته، ولابمعرفته، ولم ينفذ بوساطة خططه، ولكن بها أن المجرمين اغتنموا فرصة قتل الرجل المقدس بسبب كلهات تلفظها بدون انتباه عندما كان غاضباً بشدة، فإنه طلب بكل تواضع

التحليل منها، وقد منح ماطلبه، وعلى هذا بات هو في نظر الكنيسة قد حظي بالتحليل الكامل، ووعد، بناء على رغبات الكاردينالين وأمرهما، أنه سيدفع ابتداء من حلول الصوم وكلّ سنة مبلغاً من المال يكفي بتقدير فرسان الداوية للدفع إلى مائتي فارس للدفاع عن أراضي القدس للدة سنة.

ووعد أن دعاوى الاستئنافات يمكن القيام بها بكل حرية، وأن المهارسات التي فرضها حكمه ضد حرية الكنيسة سوف تزال، وسيتم بالكامل رد جميع الممتلكات العائدة إلى كنيسة كانتربري، تلك الممتلكات التي نقلت بعد مغادرة رئيس الأساقفة صاحب الذكرى المقدسة، كما سيسمح لرجال الدين وسواهم من كلا الجنسين، الذين غادروا المملكة تعاضداً مع توماس بالعودة بسلام من الملك وأن يستلموا جميع مقتنياتهم، ولوعوده هذه ولتنفيذه إياها، منح البابا الملك غفراناً من ذنوبه، وقام الملك هنري الشاب ابن هنري الثاني بإقسام اليمين والوعد مثلما فعل أبوه.

ووصل في آب التالي الملك الشاب وزوجته مرغريت، ابنة لويس ملك فرنسا، إلى انكلترا، وتوج رئيس الأساقفة مرغريت ملكة على انكلترا في الآآب، في ونشستر، ووضع التاج الملكي على رأس الملك الشاب مع أسقف افروكس Evreux وكان يتلو معه القداس وكذلك فعل الأساقفة المساعدون العائدين لكنيسة كانتربري.

وبناء على طلب ملك فرنسا ورغباته، جرى منع حضور التتويج على رئيس أساقفة يورك، وأسقفي لندن وسالسبري [لأنهم تولوا تتويج الملك الشاب أثناء غياب بكت عام ١١٧٠]، كما حظر عليهم اعاقة التتويج بأية طريقة من الطرق.

## سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف

وخطب هنري الثاني، ملك انكلترا، لابنه جون المدعو الذي كان [لأنه لم يعط شيئاً عندما وزع هنري الثاني ممتلكاته في ١١٦٩] الذي كان في السابعة من عمره، الابنة الكبرى لـ «همبرت Humbert» كونت مورين، التي ولدتها له أرملة الدوق هنري صاحب سكسوني، وبها أن هذا الكونت لم يكن لديه أمل بالحصول على ولد ذكر جرى وضع أربعة من قلاعه، المشهورة بأنها أفضل القلاع التي حصنها البشر أو الطبيعة تحت وصاية الملك، وذلك بناء على رغبته.

وبناء على نصائح شريرة قام الملك هنري ابن الملك، بالتخلي عن أبيه فغادر أرغنتان Argentan ليلاً، ولم يعلم عبيد والده اللذين تـولوا خدمته شيئاً حول ماحدث، وهكذا ذهب في ٢٣ آذار عبر مورتان - Mor tagne —وهي قلعة عائدة إلى ثيوبولد كونت بورش- إلى ختنه الملك لويس ملَّك فرنسا، وكان والده في تلك الليلة نائماً في ألنكون Alencon وقد أوقظ وأخبر بفرار ابنه، فقام على الفور بامتطاء ظهر فرسه، وسار ومعه عدد قليل من أتباعه، على طول الحدود، حيث وضع قلاعه في حالة الدفاع، ومع تغييره لعدد من المطايا وصل عند الفجر إلى غيسور Gisors التي كان الملك لويس قد أعطاها إلى الملك الشاب بائنــة [دوطة] عن ابنته مـرغريت، واختــار رتشارد دوق أكوتين وغيــوفري دوق بريتاني، وهما الابنان الأصغر للملك، أن يلتحقا بأخيهما بدلاً من أبيهما، وقيل كان هـذا لاتباعهما نصيحة أمهما إليانور، وبات هناك في كلُّ مكان تآمر، ونهب، وحرق، وإذا ماأخذنا النذر من المواسم، نجد أن الابن حمل السلاح ضد أبيه في الوقت الذي كان فيه المسيحيون يلقون في كلُّ مكان أسلحتهم، احتراماً لعيد الفصح، وشقاقاً من هذا النوع لايمكن أن ينتهى بسعادة (٢٠)

وجاء مائة وأربعون فلمنكياً إلى قرب باسي Passy وأغاروا على نورماندي باستخدامهم لأحد الجسور، وامتلأ المكان على الفور بأصوات الأبواق، وبصراخ الناس، وبالرجال المسلحين يركضون هنا وهناك، وجعلت المقاومة النورماندية الشجاعة الفلمنكيين يفكرون بالانسحاب بأقصى سرعة ممكنة، لكن الجسر الذي عبروا عليه كان قد جرى تدميره من قبل إحدى النساء الصغيرات، وكان الماء عميقاً في طريق تراجعهم، وقد اندفعوا نحو الماء فغرقوا جميعاً، وعندما سمع ملك فرنسا بهذا قال:

«إن عناصر الطبيعة إلى جانب النورمان، فعندما غزوت أنا نورماندي آخر مرة مات جزء كبير من جيشي عطشاً، ويمكننا اليوم أن نشكو من كثرة الماء».

وأرسلت رسائل من الملك الكبير ومن الكردناليين إلى انكلترا في ٦ تموز تحث على العمل من أجل كنيسة كانتربري، وعندما اجتمع الأساقفة للتداول حول هذا، قام أودو رئيس كاتدرائية كانتربري مع الجزء الأكبر من الدير باصرار منذ البداية في طرح رأي لم يسمع به من قبل، في أنه يتوجب اختيار رئيس الأساقفة من قبل جماعتهم، وأن يعلن اسمه بشكل عام من قبلهم، وحيث أن هنري الثاني كان آنذاك مهتماً عظيم الاهتهام في أن يكون الانتخاب بدون اضطراب، جرى اختيار اثنين من بين العدد الكبير للرهبان وهما: أودو رئيس دير كانتربري ورتشارد رئيس دير دوفر، وعندما قدمها الرهبان إلى الأساقفة، كانت كل رهبانية تأمل في انتخاب رئيسها، وقام غلبرت أسقف لندن قبلهم جميعاً وصب كثيراً من المديح على الرئيس أودو، ثم نزل باتفاق مع الأساقفة ووقف في الجانب الآخر قائلاً: «لقد انتخبنا الرئيس رتشارد»، وحدث هذا كله في بيعة القديسة كاترين بحضور قاضي الملك وبموافقة منه، وجرى بشكل علني في اليوم نفسه الذي انعقد فيه المجلس لانتخاب رئيس أساقفة لكانتربري، تلاوة الرسالة التالية التي وصلت من البابا:

«من البابا الاسكندر، إلى اخوانه المحترمين رؤساء الأساقفة، والأساقفة، وإلى أبنائه مطارنة الكنائس الأخرى، وإلى جميع رجال الدين مع شعب انكلترا، تحيات ومباركات رسولية.

نشرت انكلترا شذى ومحاسن المعجزات التي عملها الرب القدير خلال فضائل توماس المقدس والمبجل، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، ولقد أشعت حياته بمجد عظيم جداً، وقد ختمت أخيراً بالمعركة الرائعة للشهادة، ومامن واحد يسمع عن حياته التي هي موضع الاعجاب، ويقدر آلامه الرائعة، يمكنه أن يمتلك أدنى شك حول قداسته، ولإخبارنا بشكل مستمر من قبل جميع المؤمنين بأخبار المعجزات العظيمة التي لاتعد، والتي جرت من خلال فضائله، وتماشياً مع شهادات التقدير لكثيرين، نقرر هنا بكل إجلال، أمام المجمع الديني العظيم الذي ضم رجال الدين وغير الدين «تطويب» رئيس الأساقفة السالف الذكر، ورسمنا بادراج اسمه في جدول أسهاء القديسين، وبناء السالف الذكر، ونامر من خلال سلطاتنا جميعكم أن تحتفلوا بوقار بعيد الشهيد الرائع السالف الذكر كل سنة في يوم الامه.

صدر في سغني Segni, ١٣ -آذار».

وما ان انتهت قراءة الرسالة حتى رفع الذين كانوا هناك أصواتهم بمديح الشهيد، والانتصار لصراعه الرائع، وأنشدوا: «الحمد للرب».

وبناء على تحريض من لويس ملك فرنسا ضم الملك الشاب إلى جانبه فيليب كونت فلاندرز وأخيه ماثيو كونت بولون، وقد كسبها بوساطة وعود سخية، وحشدوا عدداً كبيراً من الرجال المسلحين فور الدعوة إلى ذلك وبأقصى سرعة ممكنة، وذلك للوقوف في وجه المقاومة الصادرة عن النبلاء الفلمنكيين، وهاجموا نورماندي في أبهة عظيمة، وجرى الاستيلاء على قلعة أوميل Aumale بسرعة كبيرة، وكان ذلك على حساب

سوء سمعة عدد من الناس، ثم شرعوا بحصار درنكورت الفرسان، وجرى وهي قلعة جيدة التحصين، وكانت بأيدي نخبة من الفرسان، وجرى اقتحامها أيضاً، ثم وضعت تحت الحراسة، ثم تابعوا من هناك زحفهم نحو قلعة أركوي Arques وأصيب كونت بولون بجراحة قاتلة من قبل أحد المرتزقة، وحدث ذلك يوم عيد القديس جيمس ٢٥ تموز، وكان الكونت فيليب راغباً بالعودة السريعة، ولقد كان بإمكانه وقتذاك العودة إلى بلده وهو فرح بالنصر، لولا أن ذلك العمل الخياني عتم على نجاحه، ولولا حدوث وفاة أخيه، التي وقعت بعد وقت قصير، مما أكد عدم تأكده من نتائج الحرب، ولهذا عاد من خلال منطقة ايو Eu

وما أن سمع الملك هنري بأن فيليب كونت فلاندرز قد غادر نورماندي، حتى بادر على الفور إلى حشد جيش كبير قدر المستطاع، وقدّر انه إذا ماالتقى بملك فرنسا داخل حدود نورماندي يستطيع أن يشتبك معه في معركة.

ولدى سماع ملك فرنسا بهذا، ولمعرفته أن ملك انكلترا كان قوياً جداً، ويحمل مشاعر مريرة نحوه، مثله مثل دب سرقت جرائه، فأخذ يجول في الغابة وهو يـزمجر غضباً، قـرر أن أفضل طـريق عملي ينتهجه من أجل رجاله ومن أجل نفسه، هـو الفـرار، وبناء عليه امتطى فرساً سريعاً، وتراجع منسحباً بالسرعة القصـوى نحو فـرنسا، وتركت الأثقـال العائدة للفرنسيين لتنهب من قبل المحاصرين، والنورمان الآخرين الـذين وصلوا إلى هنـاك، ونهبت في يـوم ٩آب جميع المؤن والأطعمة التي جـرى جلبها للجيش الفرنسي على ظهـر الشاحنات والعربات وخيول التحميل من قبل المرتزقة البرابانكونيين Brabancon

وطالب وليم ملك اسكوتلندا بأنه يتوجب على هنري الثاني أن يعيد الممتلكات الموجودة في نورثأمبرلاند Northamberland التي

كانت أعطية إلى جده الملك داود، فهذامؤكد له بوثيقة رسمية، وهي الممتلكات التي بالواقع احتلها داود لعدة سنوات، لكن مطلبه رفض، ولذلك جمع جيشاً من الأعداد الكبيرة للغالويين Galwegians وجعله تحت تصرف، وكان سلاح هؤلاء خفيفاً، وكانوا رجالاً يتمتعون بالرشاقة، يمكن تمييزهم بسه وله برؤوسهم الصلعاء، وكانوا يحملون سكاكين على الجانب الأيسر، كافية لإخافة أي جندي، كما أنهم كانوا راغبين في رمي الرماح إلى مسافات طويلة، واعتادوا على أن يـرفعوا رمحاً طويلاً اشارة على أنهم زاحفين نحو المعركة، واستحوذ الملك وليم على جواز آمن خلال ممتلك ات هيوج أسقف درم Durham وبدأ يعيث فساداً في انكلترا، ملقياً النارفي المدن، ومستولياً على كميات هائلة من الأسلاب، وآحذاً النساء أسرى، وممزقاً الأطفال نصف أحياء بعد اخراجهم من بطون أمهاتهم، وبغية ايقاف هذه الفظائع ومنعها، حمل النبيلاء الانكليز السلاح بالسرعة القصوى، وأرغموا على الفور ملك السكوتلنديين على الفرآر، والانسحاب إلى اسكوتلندا، وساروا في إثره فدمروا بالنار جميع لوثيان Lothian وكل شيء وجد خارج أسوار المدينة وقع في أيدي الانكليز كأسلاب، وبناء على طلب ملك السكوتلنديين جرى عقد هدنة حتى ١٣كانون الثاني [١١٧٤]، وعاد النبلاء الانكليز منتصرين.

## سنة أربع وسبعين ومائة وألف

قام الملك الشاب وبصحبته ثيوبولد كونت بيرشي Perche وكونت ألنكون Alencon ومعهم حوالي الخمسين فارساً، بمهاجمة مدينة سيز Sees ولكن الذي حدث أنه مع أن سكان المدينة لم يكن لديهم أمير أو قائد، قاوموا بشجاعة، وهكذا لم يتم تحصيل شيء.

وخشية من هنري الثاني من أن يقوم الملك الشاب، أو واحد من الجيران على الحدود بمهاجمة بلاده والعيث فساداً في نورماندي، عهد بحماية نورماندي إلى أقرب الأصدقاء إليه وإلى الذين سلف لهم أن قدموا له تأييداً مخلصاً، وأخذ هو نفسه اثنين فقط من المرافقين هما:

أليورد دي فافاشي Alured de Vavaci وغيوفري استورمي Esturmi كإختبار لإخلاصها له، ودخل في ٣٠نيسان إلى مين، فتدفق السكان عليه من جميع الاتجاهات ومنحوه ولاءهم بكل شكل ممكن، سواء أكان ذلك خشية من الحرب، أو خوفاً من أي نوع آخر من الأزمات، لابل حتى من مخاطرة بالحياة.

وهكذا ارتحل خلال البلاد، وقد أحاطت به أعداد كبيرة من الجند، فتولى تمين ثقة الناس به، وحث النبلاء المحليين على الدفاع عن مناطقهم وهايتها، وعندما وصل إلى الحدود مع أنجو صرف كل واحد كان معه باستثناء الرجلين اللذين ذكرا أعلاه، ورحب الأنجيفيون بالملك بسرعة أكبر وبأعداد أعظم من سكان مين، لأنهم خضعوا لرغباته بحب أكبر وباستعداد أعظم.

والآن وقد ساركل شيء طبقاً للخطة، احتفل هنري بعيد الشعانين في بواتيه، وعندما سمع أن جيش ابنه رتشارد كان يحتل مدينة سينتس Saintes أخذ سكان بواتيه معه، وذهب مسرعاً ليفرج عن المدينة، ولم

يظهر جند رتشارد احتراماً للرب أو للكنيسة المقدسة، ودخلوا الكنيسة الكبرى وبأيديهم المشاعل ووسائل الإضاءة الأخرى، وحولوها على الفور إلى حصن، وملأوها بالسلاح وبمؤن الطعام، ووصل الملك إلى المدينة بسرعة أكبر مما توقع هؤلاء الجند، وأخبر أن المدينة مدافع عنها بوساطة تُلاثة حصون، وقد ركز أولاً القتال على المدينة، وتمكن في البداية من الاستيلاء على الحصن الذي بني منذ وقت بعيد عند مدخل المدينة، وتابع من هناك فهاجم القلعة بنجاح بماثل، وكانت قلعة أكبر من الحصن الأول، لكن أقدم بكثير منه، ووصل أخيراً إلى الكنيسة الكبيرة، التي اكتظت بجند مسلحين وامتلأت حتى حدود الانفجار بالرماة، وكانت مداسة من قبل حفظة بيوت المدعارة، ولاحظ وهو يقترب منها أنه إذا مااقترف شيء ضد الديانة المقدسة، سيعاني من ذلك كلّ انسان، ومع ذلك اقترب منها وهو لايريد أن يؤذي الكنيسة أو يقترف العنف ضدها أو الاستخفاف بها، بل أراد تنظيفها من الدنس، وسحب من الكنيسة الذين خرقوا حرمتها، لقد سحبهم جراً إلى خارجها، لأن كلّ من خرق حرمة القانون، عبثاً يثيره ضده، وألقى القبض على حوالي الستين من الفرسان مع نحو أربعهائة من الرماة من داخل هذا الحصن، وفي داخل الحصنين الآخرين.

ولمعرفة هنري ملك انكلترا بها كان يجري في فالاندرز قرر العودة، فأوكل أكوتين إلى ستة من النبلاء، وبنى على الحدود بين نانس Nantes وأنغر Angers قلعة أنفق عليها كثيراً، وسميت أنسينس Ancenis ظهرت فيها جميع معارف وبراعة النجارين من أنجو ومين، وأوكل شوون هذه القلعة بشكل خاص إلى موريس أوف كرون Craon وأسند إليه حمايتها، وأصدر عند وصوله إلى نورماندي مرسوماً في بونفيل سمى فيه جميع الذين عهد إليهم بأمور الحدود والذين جعلهم شحن لقلاعه.

وأقسم فيليب كونت أوف فلاندرز، أمام لويس ملك فرنسا ونبلاء المملكة، بوضع يده على بعض الآثار المقدسة، أنه سيقوم خلال خمسة عشر يوماً بعد مضي عيد القديس جون المقبل في ٢٤ حزيران، بغزو انكلترا بقوة كبيرة، وأن يخضعها ويضعها تحت ولاية الملك الشاب، وتأثر الملك الشاب بهذا العرض للولاء، فذهب إلى وزانت Wissant يوم ٢٤ تموز ليرسل رالف أوف لى هي Haie إلى انكلترا مع جيش كبير، وبعث كونت فلاندرز بثلاثهائة وثهانية عشر رجلاً أمامه من أجل العبور، والذين أرسلهم لم يكونوا ماحدث وتوفر من السكان المحلين، بل جنوداً ذوي خبرة اختير عدد كبير منهم من الفلمنكيين، وبعدما نزل هؤلاء في انكلترا في أورول Orwell يوم ١٥ أيار، في وقـت كان فيه حلفاؤهم في خطر، هاجموا من هناك نوروك Norwick يرافقهم إيرل هيوج، واستولوا عليها في ١٨ حزيران، ونهبوها، وحملوا مبالغ ضخمة من المال، كها حملوا معهم عدداً كبيراً من الأسرى وأرغم وهم على دفع فدية كبيرة.

وعندما رأى قضاة هنري الثاني سوء الأوضاع وترديها في انكلترا أرسلوا إليه عدداً كبيراً من الرسل عبر القنال، غير أنهم لم يتلقوا أية أجوبة مؤكدة بأن هنري قد خطط للعودة إلى انكلترا، وقاموا بمحاولة أخيرة بهذا الصدد فبعثوا رتشارد الأسقف المنتخب لونشستر ليتحدث إلى الملك، وكان رجلاً يعرفون بشكل مؤكد بأنه كان صديقاً حمياً للملك وقريباً منه أكثر من الآخرين، وكان بارعاً وعالي الحاسة، ويمكن الاعتماد عليه في أن يبين للملك جميع الخسائر، والمصاعب، والمخاطر التي تحملها شعبه، وأن يقدم له صورة صحيحة عن الصراعات التافهة للنبلاء، والحالة غير المستقرة في المدن، وتذمر الناس وضيقهم، الذي سيزداد سوءاً بحكم أنهم يتطلعون نحو التغيير، وقد يقومون بحركات سيكون من الصعب معالجتها.

وهكذا عبر الأسقف المنتخب القنال بسرعة، ووجد الملك في بونيفيل، عاقداً مؤتمراً عاماً مع النورمان في يوم ٢٤حزيران.

وعندما عرف النورمان أن الأسقف المنتخب لونشستر قد وصل، وعلم واسبب قدومه، قالوا: «بها أن الانكليز أرسلوا عدداً من الرسل، وأرسلوا الآن هذا الرجل، يبدو أن شيئاً ليس أقل من الهجوم على قلعة لندن قد استدعى الملك للعودة إلى انكلترا».

واستقبل الملك هذا الرسول الخاص بالحفاوة الجديرة به، وأظهرت الحوادث المدى الذي وثق به بكلماته، وناقش مع رفاقه في ذلك اليوم نفسه مسألة الدفاع عن حدود المنطقة وحماية القلاع، واستعد للعودة خلال أيام قليلة، ومعه جميع حاشيته وأهل بيته، ومصطحباً برفقته الملكة إليانور، والملكة مرغريت، وابنه جون وابنته جوانا وزوجات أولاده.

وأرسل أمامة إيرل تشستر، وكونتسة لستر مع عدد كبير آخر كان قد أخذهم أسرى إلى بارفلير Barfleur حيث توفسر عسدد كبير من السفن الراسية، وجهور كبيرينتظر وصول الملك، وعبر جيش كبير من المرتزقة البرابانكونيين مع أسلحته وعتاده، القنال عند كوسترهام واقتلع أسرع الملك إلى المرسى في المقوز، وتحركت السفن وأقلع في منتصف النهار، وما ان تحركوا داخل البحر، حتى أصبحت الأمواج تبدو قاسية، وهبت الرياح واستمرت كذلك، فجعلت البحارة مترددين بشأن العبور، وأظهروا أمام الملك مشاعر خوفهم، وعبرت وجوههم عن علامات الشك والدهشة.

وعندما علم الملك أن الرياح كانت تهب ضده مباشرة، وذلك عندما كانت السفن قد شرعت في أخذ طريقها المباشر إلى انكلترا، وأن عاصفة قوية تزداد سوءاً، عندها رفع عيناه نحو السماء وقال أمام كل واحد:

«إذا كان السلم بين رجال الدين والشعب هو غايتي، وإذا كان رب

السموات قد قضى باستعادة السلم عندما أصل، عندهايمكن برحمته أن يمنحني رسواً سالماً، لكن إذا كان معادياً، وإذا كان قد قرر زيارة المملكة بالعصا، ليكن حظي بعدم الوصول مطلقاً إلى سواحل بلادي».

ومن الممكن افتراض أن صلاته قد سمعت، ذلك أنه وصل في اليوم المذي أقلع فيه عند حلول الظلام إلى ساوتاً مبتون، مع كلّ شيء سليها، وتناول هناك وجبة بسيطة من الخبز والماء، ووضع جانباً أعمال استرداد النظام، وتجنب مقابلة الشعب حتى يفي بوعوده التي قطعها على نفسه أثناء صلاته، بالقيام بالصلاة في مشهد الشهيد الرائع توماس.

وقام بعد برهة قصيرة برحلة سريعة عبر انكلترا، وعندما وصل إلى كانتربري قفز من على ظهر حصانه، وخلع ثيابه الملكية، وارتدى ثياب حاج تائب متضرع، وذهب في يوم الجمعة ٢٥ تموز إلى الكاتدرائية، وهناك وسط الدموع المنهمرة والتنهدات والحزن الواضح شق طريقه إلى قبر الشهيد الرائع، وسجد أمامه ماداً ذراعيه نحو الأمام، وبقي هناك وقتاً طويلاً وهو يتضرع ويصلي، وخلال هذا الوقت، وأمام أسقف لندن الذي كان يعظ الناس، أعلن أمام الناس، وهو يدعو الرب ليكون شاهداً عليه، أنه لم يأمر، ولم يرغب، ولم يتآمر بشأن موت رئيس الأساقفة، ولكن بها أن القتلة قد أثيروا بكلهاته التي لم يقدرها تمام التقدير عندما تلفظ بها، فقد سأل التحليل من الأساقفة الحضور، ووضع جسده للقصاص الصارم بالضرب بالعصا، وقد تلقى ثلاث، لابل حتى خمس ضربات من كل واحد من الرهبان بدوره، وكان قد اجتمع منهم عدد كبير.

ونهض من صلواته، ووضع عليه ثيابه التي خلعها من قبل، وقدم التمجيد للشهيد السامي القدر بهدايا ثمينة، وعين مبلغاً قدره أربعين جنيهاً ليكون ايجاراً سنوياً لتزويد وسائل الاضاءة بشكل دائم حول قبر الشهيد احتراماً له. وأمضى بقية النهار وجمل الليلة التالية في تأنيب النفس وندامتها، منصرفاً إلى الصلاة وعدم النوم، وتابع صومه لمدة ثلاثة أيام، وحيث أن ندامة الروح، والأسف العميق، وتواضع الروح هي التضحيات التي ترضي الرب أكثر من أي شيء، في كلّ وقت، وذلك تقليداً للملك داود، كان يدعو بشكل متواصل قائلاً: «لقد أذنبت ضد الرب، لقد أذنبت ضد الرب، لقد أذنبت ضد الرب، لقد أذنبت الرب، لقد أذنبت الرب، لقد أذنبت الرب، لقد غفر لك الرب أيضاً ذنوبك».

ولاشك أنه الآن قد أرضى الشهيد، ويمكننا القول بأمان بأن ذنبه قد غفر وأزيح عنه، ففي ذلك السبت بالذات، عندما صلى من أجل أن يظهر تبوماس البرحمة نحوه، ألقى البرب بين يديه وليم [الأسد] ملك السكوتلنديين، فقد استسلم إليه ليكون معتقلاً لديه في رتشموند، وبذلك تحققت نبوءة [ميرلين Mirlin ] التي قال فيها: «سيعش بين فكيه على قطعة لفقت في خليج أرموريكا محاسم ولقد بين فكيه أرموريكا قلعة رتشموند، لأنها كانت قد احتلت من قبل أمراء بريتانيين بوساطة قانون الوراثة الآن والذي كما هو منذ قديم الزمان.

ووصف جوردان فانتوسمي Fantosme قبل ١١٨٣ في تاريخه المنظوم ردة الفعل البهيجة لهنري الثاني لدى اعتقال وليم الأسد:

وهكذا رافقوا الملك حتى

وستمنستر

وأبدى اللندنيون سروراً عظيهاً لدى وصول

مولاهم

وأعطوه الهدايا وقدموا له الاحترام العظيم غير أنه كان حزيناً ومهموماً إلى حدما

بسبب ملك اسكوتلندا الذي تصرف بشكل مجنون

وروجر دي ماوبري Mowbray وهو مقاتل نبيل الذي كان يعاث فساداً في أرضه ليلاً ونهاراً وقبل أن تحل ساعة ذهابه إلى الفراش وصلته قطعة من الأخبار كسب منها

شرفاً عظيماً

دخل الملك إلى حجرته الخاصة

عندما جاء الرسول، عاني من

كثير من المتاعب

هو لم يشرب ولم يأكل لمدة ثلاثة أيام

من الأسبوع

ولم ينم ولو للحظة واحدة بسبب بعض الأخبار بل أنهك نفسه في الليل والنهار

بالترحال.

لقد عمل بشكل حكيم جداً وسينال جائزة جيدة كان الملك متكئاً على مرفقه وقد نام قليلاً ووقف خادم عند قدميه وأخذ يمسحها بلطف لم يكن هناك صوت ولاصراخ، كها لم يكن من

بتكلم هناك

ولم يكن أبصا لاطبل ولامزمار ولاأي شيء يصدر عنه صوت في ملك الساعة.

عمدما وصل الرسول إلى الباب وبلطف

دعا

وفال الحاجب: من هناك؟

أنا رسول، صديق، حنب الآل مسرعا عبر هذا الطريق

لورد رابولف غلانفبل بعث بي إلى هنا

حتى أتكلم مع الملك، لحاجة ماسة

بعثني من أجلها

وقال الحاجب: دع العملُ الآن

حتى الصباح

وقال الرسول: بحق إيهاب، أنا سوف

أنكلم إليه الآن مباشرة

في علم مولاي حزن وأسى

لدلك دعي ادخل أبها الحاجب الجيد

ه فال الحاحب أنا لن أحرق

ال أفعل ذلك

الملك بامم، عليك الانسحاب

وفيها هما يتكلمان، أفاق الملك

وسمع صراحاً عند الباب: افتح.. افتح

وقال الملك: من هذا، هل يمكنك اخباري؟

وقال الحاجب: سيدي، ستعرف

مباشرة

إنه رسول من الشمال، حسناً

إنك تعرفه

رجل من عند غلانفيل، اسمه

هو برين Brien

وقال الملك: بإيهاني، أنا الآن مرتبك جدا

إنه يحتاج للعون، دعه يأتي إلى هاهنا

ودخل الرسول الذي كان من أصل طيب

وحيا الملك قائلاً كما ستسمع بعد قليل:

سيدي الملك، علّ الرب الذي بسكن

في التثليث يحفظك

يحفظ شخصك أولا، ثم جميع

أصدقاتك المقربين

وقال الملك: برين ماالذي تحمله من أخبار؟

هل دخل ملك اسكوتلىدا إلى رنشموند؟

هل جرى الاستيلاء على نيوكاسل الواقعة على التاين، وكذلك على الحصون؟

هل أودنيل أوف أمفــرافيل Odinel of Umfravile أسر وحمل بعيداً

وجميع باروناتي طردوا من ممتلكاتهم؟

بإيهانك أيها الرسول، أخبرني الصدق

لقد خدموني بسوء، لذا يمكن أن

يعاقبوا بسببها.

ثم قال الرسول: سيدي، اسمعنى قليلاً

باروناتك في الشمال أناس طيبون مستقيمون

باسم مولاي تلطف واصغ إلى

لقد بعث لك بوساطتي تحية وصداقة

وبعثت بتحيات أكبر مولاتي التي تعرفها

أنت معرفة جيدة

لقد أرسل معي يقول لك: إنك سوف تقترف

خطأ في تعذيب نفسك

لقد جرى أسر ملك اسكوتلندا وجميع باروناته

فقال الملك هنري: هل تقول الصدق؟

نعم ياسيدي، الصدق، وفي الصباح سوف تعلم بذلك:

رئيس أساقفة يورك، رجل حكيم ومتعلم سيبعث إليك باثنين من المبعوثين الخاصين لكن أنا بدأت أولاً، وأنا الذي أعرف الصدق لم أنم سوى قليلاً خلال الأيام الأربعة الأخيرة كما أنني لم آكل ولم أشرب، لذلك أنا جائع جداً لكن، من فضلك أعطني جائزة لإخباري إياك ورد عليه الملك: ستكون مخطئاً إذاً

شككت بذلك

إذا كنت قد أخبرتني الحق، ستكون غنياً بها فيه الكفاية هل جرى أسر ملك اسكوتلندا؟ أخبرني الحق نعم ياسيدي، بإيهاني، لأصلب

على الصليب

أو أشنق بحبل، أو أحرق على نار عظيمة إذا غداً، قبل الظهر، لم يتأكد هذا كله عندها قال الملك: الحمد للرب من أجل ذلك وللقديس توماس الشهيد ولجميع قديسي الرب

وبناء عليه ذهب الرسول إلى مضافته وكان لديه الكثير الوفير ليأكل وليشرب وكان الملك في نلك اللمله فرحا مسرورا إلى حد

أنه ذهب إلى الفرسان

وأيفظهم حميعا قائلا:

أيها البارونات، استيقظوا، إنها ليلة طيبة بالنسبة لكم

لفد سمعت شينا سيجعلكم جميعا مسرورين

وفع ملك اسكوتلندا بالأسر، هكذا

صدفا أخبرت

الأن للتو وصلت الأحبار إلي، عندما نوجب

أن أكول في العراس.

وفال الفرساد. الأن شكرا للمولى الرب

الار النهب الحرب، ومملكتك

في سازم

ويدب حده الليله حمله حدا للملك هنري

وفي النوم النالي. قبل الظهر، الاخبار نانية

وصلت إليه

مى رئىس أسافعه يورك، الدي

بلحوية روحر

الدي حبا مولاه واهنم بالاخلاص

عندما رأى الملك الرسل، لم يكن قط

أعظم سروراً
وخمن أنهم سيقولون الشيء نفسه، ولهذا
أجابهم:
سمعت الأخبار في الليلة الماضية عندما كنت
قلقاً جداً
للذي جلبها إليّ جائزة
سوف تعطى
وتناول عصاً صغيرة، وأعطاها لبرين
عشرة من أرضه سوف يعتقون للمتاعب
التي قاساها

# ونعود الآن إلى رواية ديسيتو عن حملات هنرى الثاني ضد أعدائه.

الآن وقد نفذ جميع الوعود التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، بكل تقوى، عاد الملك الكبير، ومكث قليلاً من الوقت في لندن، حيث اكتشف أن النبلاء الانكليز قد قدموا لمواجهته هناك، عندها انطلق على رأس قوة، ووصل إلى هنتنغدون Huntingdon فاستولى على القلعة التي كانت تحت الحصار منذ المأيار، وحدث ذلك في اليوم التالي لوصوله.

واستولى نبلاء نورثأمبرين Northumbrian ومعهم ابن الملك، والأسقف المنتخب للنكولن، الذي كان قائدهم، على كيركباي مالزيرد kirkby Malzeard وعلى قلعة روجر ماوبري wish مع حشد بالقوة، وعندما جمع الملك جيشاً كبيراً في بري سينت إدموند، مع حشد

من الجند كان يتدفق من جميع الاتجاهات، أمرهم، بناء على نصيحة عامة، القيام بحصار قلعتي هيوج بيغود Bigod إيرل نورفولك: فراملنغهام Framlingham وبنغي Bungay وكان لدى الإيرل خسين فارساً، وجيشاً جيد الحجم، لكنه بالواقع أدنى كثيراً بالقوة، ويائساً من قدوم أي انسان لمساعدته، ولهذا أرغم بسبب الضرورات على أن يقدم رهائن وأن يدفع مائة قطعة ذهبية حتى يحصل على السلام من الملك، وفي يوم ٢٥ تموز قدم الولاء للملك، وأقسم على الاخلاص له، وجدد تابعيته له.

وكان ماحدث لجيش الفلمنكيين، الذي أعده الكونت فيليب ليرسله أمامه إلى انكلترا قبل قدومه إليها، وذلك بعدما كان قد أعطى وعداً مؤكداً للملك الفرنسي بوضع يديه على بعض الآثار المقدسة: فقد أقسم يميناً بعدم غزو انكلترا بقوة معادية، وعاد أفراده إلى بلادهم بناء على إذن من هنري، وغادر أيضاً جيش الملك الشاب الذي كان تحت قيادة رالف أوف لى هي، بدون اعاقة ومعه أسلحته وعتاده، وهكذا حدث في الساعة الحرجة، من خلال تدخل القديس توماس الشهيد، أن بات الملك الكبير مسيطراً على جميع انكلترا، والآن وقد حاز ذلك فقد أقلع يوم الآب من بورشستر Porchester ومعه ملك السكوتلندين، ووصل في بورشستر بعد رحلة موفقة إلى روان، التي وجدها تحت الحصار.

وكان لويس ملك فرنسا، والملك الشاب، وفيليب كونت فلاندرز قد جمعوا القوات من جميع المناطق، فتوفر لديهم جيشاً كبيراً، وهكذا خلفوا السين على يسارهم، وحاصروا روان في ٢٢ تموز، آملين أنهم إذا استولوا على روان، يمكنهم إزالة ماتلطخوا به من عار سببه خرق اليمين أثناء الحصار الفرنسي لفيرنويل الاerneui والعمل الخياني السذي شغل الدور فيه وسببه الفلمنكيون أثناء حصار درنكورت Drincourt وقاوم النورمان الذين توفر منهم الآن قلة مقارنة بالحشد الكبير الذي

وصل، بشجاعة، واعتمدوا على دفاعات الأسوار، واستخدموا حجارة مربعة، وقطع طويلة من الخشب مدببة، فأرغموا الأعداء على فرار طويل، وذلك بعدما هاجم هؤلاء الأعداء الأسوار الخارجية بتشكيلات قتالية واستخدموا آلات الحصار، ولم يعرف الذين كانوا تحت الحصار الاستراحة، واستطاعوا أن يضعوا قوتهم تحت الاختبار بنشاط أكبر واصرار، وتبادل الفرنسيون والفلمنكيون حملات القتال، وعندما شرع الفرنسيون يضعفون شجع الفلمنكيون أنفسهم وانخرطوا بالعمل، واستخدموا كل يضعفون شجع الفلمنكيون أنفسهم وانخرطوا بالعمل، واستخدموا كل الأعداء وهجهاتهم، واثقين من توقعات النورمان غير هيابين لتهديدات الأعداء وهجهاتهم، واثقين من توقعات النصر، ونجوا من الهجهات المتوالية والاشتباكات الحادة بكل ثبات، وكان عددهم يزداد يوميا، وكانت المؤن والأطعمة لديهم وفيرة، وفي الجانب المقابل أخذ كثير من الناس بالفرار من الجيش كل يوم، لأنهم كانوا تحت خطر المجاعة.

واستمرت هذه الحالة الحرجة لأيام كثيرة، حتى تسلم الملك الفرنسي تقارير معتمدة أن ملك انكلترا قد اقترب من روان في قوة معتبرة، وهكذا آل إلى حالة رعب وحيرة، ذلك أنه بات خائفاً حسبها استخلص من الأقاويل، أن الملك سوف يهاجم فرنسا ويلقي الحصار على باريس، وبحث مع مستشاريه حول أفضل طريقة لايقاف الحصار، بدون أذى لأنفسهم، وبعد اتخاذ قرار عام، أقدم الفرنسيون مع الفلمنكيين على احراق آلات حصارهم، وعلى تمزيق خيمهم،، وعلى إلقاء النار في أكواخهم وفي أبنية الأسواق، وفي يوم ١٤آب تراجعوا وانسحبوا من قرب المدينة، وذلك على الرغم من موت الاشاعات والأقاويل، وبهذا أزاحوا جانباً جميع تهديداتهم، وتبجحاتهم، وقطعهم العهود على أنفسهم بهدم روان، العهود التي غالباً ماقطعوها بحاقة وعجلة، وهاجم أناس من منطقة الحدود الجزء الأقصى من التحصينات ونهبوا بسرعة أعداد كبيرة من السلاح وكذلك العتاد.

وكان الفرنسيون قلقين بشأن النفقات، كما كان الفلمنكيون خائفين على حياتهم، لذلك اجتمعوا معاً للبحث حول الأضرار التي لحقت بهم، وبها أن الفريقين رأيا أنها يبددان جهودهما قررا ايقاف الهجوم على النورمان والانسحاب من الحدود، ونظروا نحو سلمهم أنفسهم وهدوتهم، لذلك قرروا بذل أقصى مايستطيعون لردم الهوة بين ملك انكلترا وبين أولاده، ويمكنك القول: إن الأولاد قد أضروا قضية أبيهم، وجلبوا بغضاء رجال الدين ولعنة الناس، ومع هذا ينبغي العفو عنهم لأنهم كانوا شبابا.

وتوجه الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري إلى روما بغية تجنب كائن الانشقاق. وكان العالم بأسره مرعوباً في هذا الوقت من الاصابة بعدوى صادرة عن غيوم الهواء الفاسد، وكانت تسبب سعالاً عاماً واسهالاً بالمعدة، وكان هذا خطراً بالنسبة للجميع، وأدى إلى موت كثيرين، ووصل إلى روما، وبعدما اجتاز ماوراء حدودها، ذهب ليجد البابا الاسكندر —الذي كان آنذاك حياً في أناغني Anagni ووجد هناك في البلاط نواباً للملك الشاب مضادين له، ويفعلون كل مايستطيعون لتسويد صورة الأسقف المنتخب، وأخيراً طرحت مسألة: موافقة من على الانتخابات والاجراءات التي أعقبتها ستفضل؟ أهي موافقة الملك الكبير أم الملك الشاب؟ واستغرق النقاش حولها وقتا وبحث فيها باستمرار، وبدا أنه تم التوصل إلى حل عادل لها، ثم أثيرت شكوك كبيرة حول ولادته، وهنا أقسم عدد كبير من الرجال العقلاء، المذين توفر عدد كبير منهم إلى جانب رئيس الأساقفة، على الأناجيل، ولاخلاله أكثر من أنه تم الحمل به وولادته على فراش زواج شرعي، وبعد هذا جرى في ٢نيسان تأكيد الانتخاب.

وعاد رئيس الأساقفة إلى لندن، وجرى استقباله بحفاوة من قبل حشد

من بارونات انكلترا، احتشدوا هناك يوم ٣أيلول، لكن بسبب أن السعادة غالباً ما مزجت بالحزن، ما ان أكمل رحلته بسعادة حتى دمرت —ياللأسف— كاتدرائية كانتربري بالناريوم ٥أيلول.

وجرت دعوة أعيان الكنائس الشاغرة للاجتماع بغية انتخاب أساففة لأنفسهم، وبها أن مندوبي الملك الشاب قد أخبروا البابا بأشياء كثيرة حول الأسقف المنتخب لكنيسة إيلاي Elyوخشية من الاساءة إلى سمعته وتشويهها بين الناس الطيبين، أقسم في احتفال مهيب جرى في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر أنه بريء من موت رئيس الأساقفة توماس، وأنه لم يعرف شيئاً عن الموضوع ولم يشارك به لابقول أو عمل، وأنه لم ينم بعذ سيامته مع أية امرأة.

رفض هنري الملك الكبير الطغيان بقلبه وروحه، وعد من واجبات الجلالة الملكية ابعاد رعاياه عن الجولان حول البلاد، لسلب الفقير، وايداء الأرامل واليتامى، واغتصاب العذارى، واهتم بشكل خاص بمنعهم عن سفك الدماء، فضلا عن هذا لقد عرف أن التذلل غير الاعتيادي الذي أبداه الفرنسيون والفلمنكيون ورغبتهم في صنع سلام بينه شخصيا وبين أولاده صادر عن عجزهم عن مقاومته، وكان سيتجنب الفرنسيين حتى عندما يحملون الهدايا، مالم يكن قد أغري بأي نوع من الاذلال والتحالف مع أعداء من هذا النوع، من خلال رؤيته المستقبلية بإمكانية استدعاء أولاده —الذين كاد كل واحد منهم أن يظن أنهم ضلوا بالفعل — إلى ثار حياة أفضل، أولاده الذين أحبهم كثيراً، والذين جعل منهم سادة لكثير من الأمم، والذين لم يتوقف قط عن عاولة رفعهم إلى أعلى مراتب الشرف، حتى يكبحوا الناس، ويحكموهم بحكمة، ولإرعاب الطغاة، وعق أعدائه.

وبها أن لم عداءه كانوا يتفوهون كلام سلام، وأرادوا التباحث معه، ذهب لمقابلتهم في ١١ تشرين أول، بين تسور وأمبويز

## والذي ظهر قد نشر في الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى جميع رعاياه المخلصين، التحيات:

اعلموا انني بنعمة من الرب قد أقمت سلاماً مع الملك الفرنسي، ومع أولادي ورجالي، في سبيل تمجيد الرب ومجدي، وتم الاتفاق بأن أعطى ابني الأكبر هنري خسة عشر ألف قطعة ذهبية من الأموال الأنجيفية كلّ سنة مع قلعتين في نورماندي حسب رغبتي، ولسوف أعطى رتشارد نصف دخل بواتيه مع قلعتين لايستطيع منهما إلحاق الأذي بي، وإلى غيوفري نصف دخل بريتاني، ولقد عاد جميع رجالي الذين تركوني إلى طاعتي والولاء لي، وذلك بحضور أولادي وبأمر منهم، وقد أقسموا يمين التبعية لي ضد جميع الناس، وسيحتفظون بالأراضي التي كانت بأيديهم عندما تركوني، إنّ ملك اسكوتلندا مع ايرلي ليستر وتشستر مع آخرين عقدوا اتفاقات معي أو أعطوني رهائن قبل هذا السلام، هم تحت رحمتي، وخارج هذه الاتفاقية مع أولادي، أما الرجال الذين أسرتهم، والذين لم يقدموا رهائن ولم يعملوا اتفاقية، سوف يحررون، على أساس ضمانات أمنية جيدة وبناء على طلب أولادي، وعادت إلى جميع القلاع التي كانت بيدي أو بأيدي رجالي في بلادي عند بداية الحرب، وجميع القلاع التي حصنت ضدي سوف تعود إلى ماكانت عليه عندما بدأت الحرب».

ووضع الرب في أيدي الملك الكبير لدى هزيمته لأعدائه تسعائة وستة وتسعين فارساً، لم يرغمهم على دفع فدية أنفسهم بالمال، وفي الحقيقة فك أسار المهزومين من الأغلال إذا قدموا له رهائن، أو لمجرد اعطائهم كلمتهم، وكانت هناك قلة حفظت بالاعتقال الشديد، وهم اللذين تدفع جرائمهم الهائلة وماسببوه من كراهية كبيرة، تدفع أكثر

الأمراء رحمة إلى الغضب والتفكير بالعقوبة.

ومن جانب آخر أطلق الملك سراح الذين أسرهم هو أو حلفاؤه، أو الذين اعترض سبيلهم بموجب قانون الحرب أو الوسائل الأخرى، وجاء اطلاقهم مقابل المال، وقد تجاوز عددهم المائة قليلاً.

ولوحظ يوم ٤ تشرين ثاني، في حوالي منتصف الليل، ولمدة ساعة وأكثر أن لون السماء الشمالية كان أحمر بلون الدم.

ووضع وليم ملك السكوتلنديين بالأغلال واعتقل في نورماندي، وقد سمح له أن يزار من قبل حشد كبير من رعاياه، وأقام الأساقفة ورعاة الديرة والإيرلات والبارونات العائدين لمملكته سلماً مع الملك الانكليزي في فالونز Valognes يوم مكانون الأول.

وقدم ملك السكوتلنديون الولاء لهنري الثاني، وربط ورثته في أن يفعلوا الشيء نفسه، ووعد أن تكون الكنيسة السكوتلندية خاضعة للكنيسة الانكليزية، وأنها لن تؤوي لاجئين معادين لانكلترا، وكعلامة أخيرة على خضوعه سلم قلعتي روكسبرغ Roxburgh وبيروك أخيرة على رجال هنري الثاني.

وكان لغيوفيري، أبو هنري الشاني، وكونت أنجو، ابنة تدعى إمّا Emma ولدت له بشكل غير شرعي تماماً من اتصاله بسيدة من لامانس، وعرف داود أمير شهالي ويلز بأمرها وأنها أخت هنري، فطلب منها أن تكون زوجته، وقد حصل عليها بعد إلحاح شديد، وقد استهدف من وراء ذلك اعطاء الفخار إلى أولاده بالانحدار من بيت ملكي إذا مارزق أولاداً، وأن يدخل الرعب إلى قلوب الويلزيين بسبب أقربائه الجدد.

#### سنة خس وسبعين ومائة وألف

ترك وليم ملك اسكوتلندا رهائن في نورماندي، ورجع إلى انكلترا في ١ كانون الأول [١١٧٤]، وقد بقي حراً دون سجن حتى يتم تسليم القلعتين اللتين ورد ذكرهما في الاتفاقية إلى حفظة تابعين لملك انكلترا حسبها تم الاتفاق.

وجرت إزالة جميع القلاع في انكلترا ونورماندي التي اعتقد الملك أنها ظلمت الفقراء خلال الصراع الطويل مع أبنائه.

وهكذا أمكن لأبناء ملك انكلترا، النين أبعدتهم آراء الرجال الفاسدين عن أبيهم، أن يعودوا إلى الرعاية وإلى حياتهم القديمة والطبيعية، ولهذا قرروا ازالة جميع الشكوك بتقديم الولاء والطاعة لأبيهم، وقدم ذلك أولاً الولدان الأصغر: رتشارد وغيوفري في لاماناس، وبعد هذا فعل ذلك أيضاً الملك الشاب في بور Bur يوم انيسان.

وجاء ملكا انكلترا معاً، وهما اللذان في السنة الخالية لم تكن المملكة كبيرة بها فيه الكفاية لاستيعابها، وعبرا إلى انكلترا في مركب واحد يوم اليار، ولقد أكلا معاً في الأوقات المعتادة للطعام على المائدة نفسها، وأراحا أطرافها في غرفة النوم نفسها، وأكرم الشهيد الكاشف توماس وفادتها معاً بالتساوي أثناء حجها إلى كانتربري، يوم ٢٨أيار، ولقد اعتنى بها بالطريقة نفسها، باستثناء أن الملك الكبير مكث طوال الليل مستيقظاً، وهو يصلي، وظل صائماً يعذب نفسه حتى اليوم الثالث.

وقيل بأن فيليب كونت فلاندرز أمسك وولتر أوف فونتين -Fon في حالة زنا مع زوجته الكونتسة ايزابل، فعرضه للضرب حتى الموت في ٢آب، وبادر إلى تعليق جسده بشكل معكوس فوق مقعد مرحاض، رابطاً قدماه مع بعضها، وحضر بسرعة مشنقة، وهكذا لم يفقد

شيئاً من الوحشية، واكتمل غضبه ضد الرجل الميت، فأمر بعرضه بشكل عام لينظر الجميع إليه.

وكان جون عميد سالسبري قد دعي إلى تسلم الأسقفية في آينشام Eynsham يوم ٢٦تشرين الثاني، فاستلم حكم كنيسة شرق أنغليا Anglia بموافقة الشعب من نوروك Norwick وبرضا الملك، ومباركة رئيس الأساقفة، وبموجب سلطات الكاردينال، وتحت سيامته من قبل رئيس أساقفة كانتربري في لامبث Lambeth يوم ١٤كانون الأول.

وحول الملك الكبير نظراته نحو حاجيات أولاده، ودفع عن الملك الصغير ديوناً هائلة، فقد تم الاعتراف بكل ماأخذه وزراء الملك الكبير من أجل استخدامات الملك الصغير على الطعام والشراب في نورماندي، ومين، وأنجو، وذلك خلال السنوات الشلاث التي مضت، وعندما دفع خازن الملك تماماً لكل شيء، جرى صرف الدائنين.

#### سنة ست وسبعين ومائة وألف

عين الملك، بناء على نصيحة ابنه، وموافقة أساقفته، والإيرلات والبارونات، والفرسان والرجال الآخرين الذين كانوا حضوراً، قضاة، ثلاثة لكل واحدة من مناطق المملكة الستة، وقد أقسموا على توفير العدل لكل انسان، وقد تم هذا يوم ٢٦كانون الثاني في نورثأمبتون.

وبناء على أوامر صدرت عن الكاردينال هيوج بيرليوني Pierleoni وبناء على أوامر صدرت عن الكاردينال هيوج بيرليوني الحتمع رجال الدين لجميع انكلترا في لندن يوم ١٤ آذار، ووقف رئيس أساقفة كانتربري، مدعياً أن البابا غريغوري

الكبير قال: «ليكن هناك تمييزاً في المكانة بين أسقفي لندن ويورك تبعاً لدرجة قدم السيامة»، وطالب بتطبيق ذلك على كانتربري ويورك، واستمر يقول إنه بحكم سيامته ينبغي أن يجلس على يمين الكاردينال، ومن جانب آخر قال رئيس أساقفة كانتربري بأن كنيسته امتلكت الرتبة والتقدم والرفعة تماشياً مع أوضاع الآباء الكنسيين، ومع المراسم الملكية، والامتيازات البابوية، لذلك ادعت دوماً بحق أنها الأولى بين جميع كنائس انكلترا.

ومع استمرار الأسقفين في عملها الغبي هذا، جلس في يوم الشلاثاء التالي الكاردينال في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر، ووصل رئيس أساقفة كانتربري، يساعده أسقف إيلاي Ely وماكاد يجلس على يمين الكاردينال، حتى انفجر قتال في حول المكان، وازداد الاضطراب والشجار سوءاً، وارتفعت الأصوات، وتعاظم التهديد، وجرى ضرب بعض الناس، فغادر الكاردينال مسرعاً جداً، وجرت مهاجمة رئيس أساقفة يورك شخصياً، وقد قال بحضور الملك والكاردينال:

يقع اللوم على تسبيب الجراحة له، وتمزيق ثيابه، على أسقف إيلاي.

ولهذا السبب كانت هناك اتهامات ودعاوى من كلا الجانبين، وجرى اهمال المجلس والتخلي عن الاجتماع، وتكلم الكاردينال إلى رجال الدين والشعب في الساحة الداخلية لوستمنستر، وطالب بالسماح له بالانسحاب والمغادرة، لكن جرت تهدئته بعد ذلك برجاوات من الملك، وقد قبل تماشياً مع رغبات الأساقفة [ثم صدر عن البابا المرسوم التالي]:

«البايا الاسكندر

رغبة في حفظ التمجيد الكلي لكنيسة يرك، وسيراً على خطى أسلافنا، أصحاب الذكرى السعيدة الأحبار: كاليكستوس، وأونوريوس، وانوسنت ويوجينيوس، وبموجب السلطات الرسولية: نحظر على رئيس

أساقفة كانتربري انتزاع أي اختصاص من يورك، ونحظر أيضاً الشيء نفسه على رئيس أساقفة يسورك، كما لايجوز أن تكون يورك خاضعة لكانتربري، وذلك توافقاً مع الحظر الصادر عن القديس غريغوري، بل عوضاً عن ذلك إن التمييز بالمكانة ينبغي أن يحفظ بينها، على أساس ماشرعه ذلك الأب، أي إن الذي يحتل المكان هو الذي سيم أولاً.

وكانت مقاطعات الحدود العائدة لكل من آنجو ومين تعاني من نقص الخبز، وأمن هنري الثاني مايكفي لاطعام عشرة آلاف من الناس كلّ يوم اعتباراً من انيسان حتى بات هناك مايكفي من القمح الجديد، وبناء على الأمر الملكي جرى توزيع كلّ ماكان محفوظاً لاستخدامات الملك سواء في الاهراءات أو أقبية الخمور أو المخازن، على زملائنا الأتقياء وعلى جميع الفقراء.

وجمع فولغرين الأشرار، وتجرأ على الاغارة على بواتو، وحشد بالمقابل من البرابانكونيين الأشرار، وتجرأ على الاغارة على بواتو، وحشد بالمقابل جون أسقف بواتو العساكر من جميع الجهات، كما وجمع كثيراً من المرتزقة الذين توحدوا مع ثيوبولد شابوت Chabot قائد فرسان رتشارد دوق أكوتين —الذين كان آنذاك في انكلترا مع أبيه الملك— لانقاذ الشعب الذين أوكل إليه أمر حمايته، من أيدي أعدائه، وانقسموا إلى ثلاث فرق، والتقوا بهؤلاء الأشرار، الذين خربوا القلاع، وأفرغوا الحقول من سكانها، وأحرقوا الكنائس، ومارسو الطغيان على الراهبات في دير باربزيوكس Barbezieux وقد جرى قتل العديد منهم في المعارك، وأعداد ليست قليلة أغلقت عليها القلاع وأحرقوا فيها، وقرر البقية منهم الفرار، فتخلوا عن معداتهم وتركوها غنيمة، وعلى هذا تمت حماية أهل الوبانية، حيث خرقوا فرق تشكيلات أعدائهم بدون أذى، والذين فقدوه الربانية، حيث خرقوا فرق تشكيلات أعدائهم بدون أذى، والذين فقدوه كان أربعة من عددهم فقط، وهكذا جاءت السلامة على أيدي رجال

الدين الذين أظهروا أنهم لايفتقدون الروح، بل السلاح.

واستدعى الملك الملك الشاب الذي كان مشغولاً في الخارج، وجاء رجال الكنيسة وبارونات المملكة معاً إلى لندن، فقد جرى ارسال سفراء في قطار كبير من قبل وليم ملك صقلية ليطلبوا يد جوانا أصغر بنات الملك للزواج، وقد استجيب للطلب بعد مداولات، وكان ذلك يوم ٢ أيار، وتحول طلب الزواج والوعد بالاجابة بالأيهان من جانب الملك، إلى خطبة وزواج مؤكد، وأرسل ملك انكلترا رسلاً إلى صقلية بهدف اقامة حلف مع ملك صقلية فعال، وأن يزدادا تقارباً، وأن يوثقا التحالف، وبعدما اتفقوا على الهدايا التي ستمنح بسبب الزواج، عجلوا بالعودة، وتم هذا بحضور الكاردينال، وبموافقة رؤساء الأساقفة والأساقفة، وجرى تمتينه برضا النبلاء.

وفي يوم ٢٧آب، أبحرت جوانا ابنة الملك الصغرى للزواج من ملك صقلية، وتولى أسقف ونشستر تأمين النفقات والمؤن المحتاجة للرحلة، مع عدد كبير من الخدم، وبناء على أوامر الملك جرى تعيين رجال شرفاء كمرافقة، وقد توجب على بعضهم اللهاب حتى سانت جايل، وعلى آخرين تسلق جبال صقلية والذهاب إلى قصر بلرم، ولم يتوجب عليهم العودة حتى يشهدوا حفل الزواج، ويروا ملك صقلية وجوانا تتوجا برباط الزواج.

وما ان عبر سفراء ملك صقلية البحر الهائج، حتى جرى تعيين ابنة ملك انكلترا زوجة للملك أمام مجموعة من النبلاء في كنيسة سانت حايل، في يوم الشرين الثاني، وذلك على يد جون أسقف نوروك -Nor wick حسبا كان قد وعد في بلرم يوم الآب.

وكان جون أسقف نوروك قد أبحر نحو صقلية، بناء على أوامر الملك، وذلك في أحوال مناخية خطرة وقد تحمل العديد من المصاعب، وكان

من المتوجب عليه التوجه مباشرة إلى روما لولا أن اللومبارد كانوا مايزالون متورطين بالانشقاق، وكانت المنطقة الجنوبية التي كان بإمكانه العبور منها، متأثرة بشكل حاد بالمجاعة، وكان من الصعب جداً تأمين العلف للحيوانات، وتألم الأسقف أثناء سفره خلال أوفرن Auvergne من عويل الناس الذين كانوا مرميين في الشوارع، وقد تورموا من الجوع، وكان مايزال بحالة صحية جيدة عندما دخل إلى مدينة فالانس -٧٥ وكان مايزال بحالة صحية جيدة مضيفيه، فلقد امتلأت الفرش الحشرات، التي سببت عدم نومه لليال، واجتاز الأسقف بلاد امبرون بالحشرات، التي سببت عدم نومه لليال، واجتاز الأسقف بلاد امبرون وصل المحدود الايطالية، ثم أبحر فوق بحر تيرهنيان Genevre .

Tyrrhenian وكانت المنطقة عبول عنوري وحدول المناس المحدود الايطالية، ثم أبحر فوق بحر تيرهنيان Tyrrhenian .

ومن هناك، وبسبب وعورة المنطقة، اعتمد على عدد من السفن المتنوعة، والخفيفة والسريعة، وفضل مراكب التجديف واعتمد عليها أكثر من اعتهاده على السفن الشراعية، وقد عبر دوقية أبوليا، وإمارة كابوا Capua ورؤوس كالبيريا Calabria بعد المضيق، وإنني لم أحذف ذكر المخاطر المعروفة أيضاً للناس الذين أبحروا إلى ايطاليا بعد سقوط طوادة، وتجنب الأسقف رأس بالينوروس Palinurus وصخور سيلا وكانت لحظات رهيبة لدى التفكير أن أعهاق البحار الهائجة يمكن أن تبتلع الانسان بلحظة، وهكذا حكم على الرحلة بقلة الراحة، وبدوام تتبلع الانسان بلحظة، وهكذا حكم على الرحلة بقلة الراحة، وبدوام أكثر البحارة ثباتاً، ونشأت الاصابة بدوار البحر من الحالات الصعبة التي عاش فيها المجدفين، فقد تأثرت أجهزتهم الحيوية بالهواء غير الصحي، ويمكن للمرء أن يتخيل أنواع المخاطر التي يواجهها الناس في الخارج ويمكن للمرء أن يتخيل أنواع المخاطر التي يواجهها الناس في الخارج وذلك بين جميع مشاكلهم الأخرى] عندما كانت أوراق الأشجار في صقلية مع براعم الكرمة والقصب في المستنقعات كانت كلها قد ذبلت

بسبب الجفاف، فقد كان الوقت آنذاك هو منتصف آب، وعندما كانوا على وشك الإرساء، كان مركبهم صغيراً بالكاد يمكنه استيعاب ثهانية رجال، وقد غمرتهم مياه الأمواج، وكانوا يائسين وهم يحاولون استرداد قوتهم، ولقد ناموا مرغمين تحت السهاء المكشوفة لعدة أسابيع، واضطروا أثناء الليل للتعامل مع الحجارة الصهاء عوضاً عن الفراش الناعم الوثير، أو أن التيار منحهم استخدام السرمال، وعلمتهم الحياة أن يحشوا فرشهم بالحصباء.

وبعدما أمضى الأسقف عدداً كبيراً من الأيام في هنذا النوع من الشقاء، دخل إلى بلرم، وهناك التقى بثلاثة من أصحابه الرسل، وتسلم في خلال أيام قليلة اجابة مرضية من الملك الصقلي، ولو أنه امتلك الوقت لسأل فيها إذا كانت صقلية قد دعيت بالمثلثة بسبب قمم جبالها الشلاثة أو بسبب شكلها المثلثي، لكنه كان يمضي خريفاً غير منتظم، وفقد اثنان من المرافقين الذين ورد ذكرهم أعلاه حياتهم في حادث من الحوادث، وأصيب الثالث بحمى شديدة ألزمته الفراش، وهكذا عاد الأسقف لوحده إلى انكلترا، بعد بعثة ناجحة، انتهت بزواج الأميرة من الملك الصقلي، ووجد الملك في نوتنغهام ليلة عيد الميلاد.

# سنة سبع وسبعين ومائة وألف

وتألقت مدينة بلرم وقتذاك باحتفالات زواج ملك صقلية من ابنة ملك انكلترا، وتدفق رؤساء الأساقفة والأساقفة والكونتات والبارونات ورجال الدين والشعب في لحظة واحدة ليباركوا النزواج وليشهدوا تتويج الملكة الجديدة، وقام وولتر رئيس أساقفة بلرم باتمام مراسم النزواج في ١٣ شباط.

وتوجـه الملك هنري إلى فـرنسا يـوم ١٨آب، وذلك بعدمـا تولى تنظيم مملكته وفقاً لرغباته، [وهناك أبرم مع ملك فرنسا الاتفاق التالي]:

«أنا لويس ملك فرنسا، وأنا هنري ملك انكلترا، نرغب أن يعرف كلّ انسان أننا، وعدنا بكل وقار، بإلهام من الرب، أن نحمل الصليب ونذهب إلى القدس، ونرغب أيضاً أن يعرف كلّ انسان اننا منذ الآن ودوماً نريد أن نكون أصدقاء، وأن كلّ واحد منا على استعداد لحماية الحياة والأطراف والشرف الدنيوي للآخر ضد جميع الناس، وبقدر ما أوي من قوة، وإذا ماحاول انسان أن يؤذي أي واحد منا، فإنني أنا هنري سوف أقسم على حماية مولاي لويس ملك فرنسا ضد جميع الناس بقدر ماأوتيت من قوة، وأقسم أنا لويس على حماية هنري ملك انكلترا ضد جميع الناس بقدر ماأوتيت من قوة، ذلك أنه تابعي وحليفي، وأن نحفظ العهود التي ندين بها لرجالنا ماداموا مخلصين لنا. وأبرم هذا في نونانكورت يوم ٢٥ أيلول».

وأخضع صلاح الدين، وهو مُعذب بوحشية لاسم المسيحية، مصر وسورية، واستولى بالقوة على بابليون ودمشق، وعندما جمع كونت أوف فلاندرز ووليم إيرل دي ماندفيل قوة كبيرة من سكان القدس لمهاجمة حامر Agarenes على الحدود مع أنطاكية، حاصرا حماه Hareng يوم ٤ تشرين الثاني، وكان يـوم عيد، واعتقد صلاح الديـن، الذي حقق المكانة السامية بقوة السلاح لابقوة الأصل والنبالة، أن مدينة القدس المقدسة كانت شاغرة مـن المحاربين، على هذا حشد جيشاً كبيراً، وغزا أراضي عسقلان بالقـوة، وأقام معسكره في مكان اسمه الـرملة، وقام ملك القـدس والبطريـرك وجيش صغير من فـرسان الـداوية والاسبتارية بقي معها، مع عـدد قليل من المقـاتلين، بإعـداد أنفسهم بسرعة للحـرب، معمها، مع عـدد قليل من المقـاتلين، بإعـداد أنفسهم بسرعة للحـرب، معتمديـن لاعلى السيف والرمح، والقـوس والنشاب بل على عون الـدين معتمديـن لاعلى السيف والرمح، والقـوس والنشاب بل على عون الـدين معتمديـن لاعلى السيف والرمح، والقـوس والنشاب بل على عون الـدين معتمديـن لاعلى السيف والرمح، والقـوس والنشاب بل على عون الـدين معتمديـن لاعلى السيف والرمح، والقـوس والنشاب بل على عون الـدين معتمديـن لاعلى السيف والرمح، والقـوس والنشاب بل على عون الـدين فقط، ولقد سلحـوا أنفسهم بشارة صليب الرب واستلهموهـا على الفور، فقط، ولقد سلحـوا أنفسهم بشارة صليب الرب واستلهموهـا على الفور،

وساروا مسرعين خلال الليل لمقابلة المسلمين، متذكرين أن من السهل إلحاق الهزيمة بحشد كبير من قبل عدد صغير، وأنه لافرق في أعين الرب بين الربح بين كثير أو بين قليل، وعندما جاء الصباح انعكست أشعة الشمس على ترستهم المذهبة، وتسلق المسيحيون قمة جبل هناك، بينها اصطف المسلمون للقتال في سهل تحت الجبل، وبدا لمن يستطيع الرؤية بوضوح أن المسلمين تفوقوا بالعدد على المسيحيين بنسبة واحد لمائة، ولهذا تعلم المسيحيون من السيدة الحاجة ايجاد مخرج جديد، فحولوا صفوفهم الأربعة التي عباوها للقتال إلى صف واحد على شكل إسفين، وبذلك تمكنوا بثبات من تلقى الهجات القاسية التي شنها الناس المطوقين لهم من جميع الجهات، وبينها كان المسيحيون في هذا الوضع الخطر، وحينها باتت المسألة مسألة حياة أو موت، أخذ أودو مقدم فرسان الداوية - مثله مثل يهوذا المكابي - أربعة وثمانين من فرسانه معمه، والتحم بطرفهم مع فرسانه، مدافعاً عن شارة الصليب، وشرع الفرسان رماحهم، وحملوا كأنهم رجل واحد، غير ملتفتين إلى يمين أو يسار، وبعدما تعرفوا إلى الصف الذي تحت إمرة صلاح الدين والذي يضم عساكر كثيرة، هاجموه بشجاعة، وخرقوه ومروا فيه بدون تردد، وتابعواً الضرب بدون توقف، فمزقوهم، وسحقوهم وفرشوهم فوق التراب، وتملكت الدهشة صلاح الدين تجاه هذا النجاح، وعندما رأى رجاله قد تفرقوا في جميع الاتجاهات، وأرغموا على الهزيمة، وصاروا طعمة للسيف، قرر هـ و نفسه اللجـ وء إلى الفرار، فألقى بسرعة أثقـ اله، وتسلق ظهـ ر واحد من جمال السفر، ونجا بكل صعوبة من الموت مع عدد قليل من الرجال، ولم يعبأ بالعار الذي تركبه لأحفاده، وصح عليه القول: «يطارد واحد ألفاً، ويهزم اثنان ألفين، وهكذا ربح المسيحيون يـوم ٢٥ تشرين الثاني ونالوا النصر، وبفضل الأوامر الربانية تم تدمير قوة المسلمين وأشعلت النيران يوم ٢٩ تشرين الثاني في جميع أنحاء المملكة. وجاءت في يسوم اكانسون أول ريح عاليسة من الشرق، فحطمت الأشجار، ودمرت الأبنية.

### سنة ثهان وسبعين ومائة وألف

ثلج ثقيل.

وكان على الساحل أعهال ترابية كبيرة مشكلة من المروج، وقد جرى تدميرها بفيضان من البحر، لأسيها من الشهال، وفي ٨كانون الثاني جرفت السرياح العاتية من الشهال السكان، والمواشي، والقطعان في جميع الاتجاهات.

ومتن هنري ملك انكلترا سيطرته على جميع الدفاعات في المقاطعات الواقعة تحت سيطرته، والقائمة على مقربة من الحدود مع فرنسا والقنال الانكليزي، وبعدما رتب كلّ شيء حسبها رغب، عاد إلى انكلترا في يـوم ١٥ تموز، و إثر عودته زار قبر توماس الشهيد الرائع.

وذهب وليم رئيس أساقفة ريمز Reims إلى كانتربري يسوم ٢٧ تموز مع مرافقة كبيرة، وكان قصده الوفاء بالنذور التي قطعها على نفسه أثناء الصلاة، إلى توماس الشهيد الرائع، وجاء ملك انكلترا، مع عدد من الأساقفة والعديد من النبلاء لملاقاته، وتم استقباله بحفاوة عظيمة، وقد أمضى ثلاثة أيام في قصر الملك في لندن، على حساب المملكة، وعندما بعث الملك إليه هدايا ضيافة تألفت من عدد من آنية الزينة الثمينة، تمنع عن لمس أي منها، وذلك خلافاً لعادات الفرنسيين، وتقبل فقط بعض الأشياء التي لم تقدم على شكل هدية، بل كدليل محبة من الملك.

وأعطى الملك هنىري ملك انكلترا ابنه غيوفري حزام الفروسية في ودستوك Woodstock يوم ٩آب.

وفي يوم ١٣ أيلول كان هناك كسوف للشمس.

## سنة تسع وسبعين ومائة وألف

ترك الملك هنري الشاب ابن الملك، انكلترا، وأمضى ثلاث سنوات في المبارزات، وأنفق كثيراً من المال، وحينها كان مندفعاً يجول حول جميع أرجاء فرنسا، خلع الشارات الملكية، وحول نفسه من ملك إلى فارس، وقد حصل على النصر في كثير من المنازلات، وجعلته شعبيته مشهوراً، وكان الملك الكبير مسروراً تجاه ذلك وقد تولى تعداد انتصاراته وأعجب بها، ومع أن الملك الشاب كان مايزال دون السن القانونية، أعاد والده إليه جميع ممتلكاته التي سلف انتزاعها منه، وظل هكذا مشغولاً بأعمال الفروسية، حتى لم يعد ينقصه الفخار، عندها أبحر من وزانت -Wiss

وسمعنا أنه في عيد الفصح، وفي احتفال عظيم، تزوجت أغنس ابنة لويس السابع من ألكسيوس بن مانويل، امبراطور القسطنطينية، وأراد الرب هذا الزواج أكثر حظاً من الزواج فيها بين ابنة شارلمان والامبراطور قسطنطين، الذي انسحب من زواج بلا أولاد، وكان قسطنطين قد طرد أمه إيرين من حكم الامبراطورية، لكن عندما عادت إيرين إلى السلطة سملت عيناه.

وقرر الدوق رتشارد صاحب أكوتين قهر غيوفري دي رانكون المتبجح، فجمع قوة وحاصريوم ١ أيار قلعة تيلبيرغ، وكانت هذه العملية مغامرة

مرعبة جداً، وكانت شيئاً لم يتجرأ أي من أجداده على محاولته، فقد كانت القلعة المذكورة في تلك الأيام محاطة بثلاثة خنادق مع ثلاثة أسوار لمقاومة العصيان، ومشحونة بشكل جيد بالأسلحة والحواجز والموانع، ومحلاة بالأبرجة المقامة على مسافات معينة، وكانت محصنة بشرافات حجرية، وفيها وفرة بالمؤن، ومليئة بآلاف الرجال المدربين على القتال، لهذا لم تخش من وصول الدوق، وأغار الدوق نفسه بعنف على المنطقة، وحصل على كثير من الأسلاب، وقطع كروم العنب وأحرق القرى، وأزال البقية وعاث فساداً فيه.

ووصل إلى القلعة، فنصب خيامه وآلات قتاله إلى جانب السور، وأرعب بذلك ساكني القلعة تماماً، لكن مع ذلك بدا لهم أنه من العار البقاء داخل أسوار القلعة دونها هجوم، فاتفقوا على الاندفاع نحو الخارج من خلال الأبواب، والانقضاض بشكل مفاجىء على جيش الدوق، وعندما لاحظ الدوق هذا، استنفر رجاله، وأرغم العدو على التراجع، وكان هناك قتال عنيف عند الباب، واستخدم وقتذاك كلُّ شيء في القتال من : الخيول، والرماح، والسيوف، والخوذ، والأقواس، وألقسي العقارة، والترسة، والدروع والهراوات أو الحراب، وفي الأخير كسبت الخبرة الجولة، ولم يعد بإمكان أصحاب القلعة الصمود أمام الحملة العنيفة للكتيبة القيادية التي وجهها الدوق من الخارج، وانسحبوا بسرعة إلى خلف الأسوار، ولم يتوقف الدوق فدخل البلدة، وكان هناك اندفاع إلى هنا وهناك في أرجاء المكان، ثم تلا ذلك حرق ونهب، وفي يـوم ١٠ أيار استسلمت القلعة، وخلال أيام سويت الأسوار بالأرض، وخضعت بقية القلاع في المنطقة وهزمت حلال شهر واحد، والآن وقد تم وكمل كلُّ شيء كما رغب به، عبر الدوق رتشارد إلى انكلترا، واستقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده هنري الثاني.

وتفوق الملك لويس السابع ملك فرنسا على أجداده في أبهته مع

كرمه، وكان قد فرّج عن القديس توماس أثناء وجوده في المنفى، والقديس توماس هو رئيس أساقفة كانتربري السالف، وقد عاش لسنوات عديدة في فرنسا، وتلقى من الملك الفرنسي كثيراً من الألطاف بها توافق مع أخلاقه، وأمل في أن يظهر طاعته للرب بمعاملة رئيس الأساقفة بتقوى واحترام، ومع انتشار الحكايات عن معجزاته في الطول والعرض، قرر لويس أنه يرغب في تقديم تبجيله لجسده بكل تقوى، بغية أن تعبر صلواته واستغفاراته من المملكة الفائية إلى المملكة السرمدية، ولم يتقدم له أو لواحد من أجداده، في أي وقت من الأوقات سواء أكان ذلك في السلم أو في الحرب، زيارة انكلترا، واتخذ لويس لنفسه ثياب حاج واسمه، واصطحب معه مجموعة متواضعة من النبلاء، وقام بزيارته بكل تقوى واخلاص.

وما ان سمع هنري الثاني ملك الانكليز وأبوهم، بقرب وصوله حتى بادر إلى التوجه لاستقباله، وسار بسرعة مزدوجة والتقى بالملك الفرنسي في دوفر في ٢٧ آب، وقدم إليه كلّ حفاوة ممكنة التصور، وكانت هناك مسيرة وقورة في الكنيسة الكبيرة، حضرها رئيس الأساقفة، والأساقفة والإيرلات والبارونات، ورجال الدين والشعب، وتمت يوم ٣٧ آب، كما وكانت هناك تراتيل وأناشيد وسرور عظيم احتفالا بوصول شخص عظيم مثل هذا الأمير، وأنا لاأعرف كم من الفضة الفرنسية والذهب قد أعطى بمثابة هبات، ومنح ملك فرنسا منحة سنوية هي مائة وحدة قياس باريسية من الخمرة، لصالحه ولصالح ورثته، تقدم بشكل دائم احتراما للشهيد، ونحن وكانت هذه الخمرة مكرسة لتستخدم من قبل رهبان كانتربري، ونحن نحيي ذكراه، وخشية أن يظهر الفرنسيون أنهم يبتغون أي شيء سوى نحيي ذكراه، وخشية أن يظهر الفرنسيون أنهم يبتغون أي شيء سوى الشهيد، فقد منعوا أيديهم من الامتداد إلى خزانة أموال الشهيد، وهو شيء ربا كان في أذهانهم.

وهكذا أمضى ملك فرنسا ثلاثة أيام في كانتربري في صيام وصلاة،

وقيام، وتقبل من هنري بعض الهدايا الصغيرة، كعلامة على المحبة، وغادر لويس ثانية يوم ٢٦آب من دوفر.

ولندع الآن لبعض الوقت الحملات والسياسة، ونتوجه نحو كتاب آدم آينشام «حياة القديس هيوج أوف لنكولن»، وكانت شخصية محط اعجاب كبير ومحبة في دير لى غراند تشارتريوس -Grande Char قرب غرينوبل، وقد جرى اختيار هيوج من قبل هنري الثاني ليكون رئيساً لديره الجديد في ويتهام في سمرست، الذي تأسس عام١١٧٧، وكان مايزال يصارع من أجل وجوده منذ ثلاث سنوات عندما وصل هيوج إلى هناك.

أسس هيوج أخوانيته في دوثان Dothan التي ترادف اسمها مع الفقر المدقع، فقد كانوا يعيشون في غابة قرب الفيلا الملكية في ويتهام، وهو اسم تنبؤي معناه باللاتينية بيت، أو منزل العقل، وهو ماأصبحه المكان بعدما جاء إليه فيلسوف المسيح الحقيقي، وأوجد هيوج الاخوانية ليعيش أفرادها في خلوات مصنوعة من أعواد الخشب، ومحاطة بخندق ضيق وحاجز، وإلى أن وصل، ومن ثم حتى تمكن من إعادة تنظيم الاخوانية، نقول باختصار:

إنهم افتقدوا كلّ شيء، لابل كلّ شيء ضروري حتى لأبسط متطلبات الخوانيتهم، ولم يكن قد تقرر بعد أين ستبنى الكنيسة مع الخلوات ودير الرهبان أو الدير الصغير، مع الساحات وبيوت الضيوف واستراحة الانحوان، وكان السكان القدماء مايزالون يعيشون هناك في مكان توجب تسليمه إلى الرهبان، كما لم يكن قد تم تجهيز أي شيء ليمكن هؤلاء من التخلي عن بيوت أجدادهم وتسليمها لهؤلاء اللذين جاءوا ليخلفوهم، وما كان ذلك بالمكن دون أن يشعروا بالاهانة وبخسارة كبيرة لأنفسهم.

وبادىء ذي بدء عقد هيوج اجتهاعاً مع الذين لديهم ممتلكات أو أشياء أخرى سوف يتخلون عنها لأن الأصوات وججيء الزوار بشكل متواصل سوف يخرب، أو على الاقل سوف يسبب الاضطراب لخلوة الرهبان ولصمتهم الدائم، وبتفويض من الملك عرض عليهم واحداً من الحتياريين، إما: أن يعطوا حقولاً وأماكن للسكنى من النمط نفسه الموجود في ويتهام أو أي عزبة ملكية يختارونها، أو أن يتم تحريرهم من التبعية الاقطاعية وأن يذهبوا ليعيشوا حيث شاءوا، وعندما اختار بعضهم الأرض واختار آخرون الحرية، كان هيوج مقرراً مزج العدالة بالكرم، فقال هذا لهنري الثاني ملك انكلترا:

"والآن عليك يامولاي أيضاً أن تنظر أنهم نالوا تعويضات مالية من أجل بيوتهم، ومقابل كل نوع من أنواع الأتعاب التي أنفقوها على متلكاتهم وأبنيتهم من كل نوع، وإلا فإنني لاأستطيع قبول هذا المكان"، وهكذا أرغم الملك على أن يشتري بأثمان مرتفعة أشياء ظن أنها لاتساوي شيئاً تماماً، من مثل: أكواخ قديمة، ودعامات ملتوية، وجدران نصف مهدمة، وبذلك أنفق مبالغ كبيرة مقابل منافع قليلة، وعندما جرى الدفع للباعة، كانوا مسرورين تماماً تجاه هذا الأسلوب الجديد من الشراء، الذي أغناهم بشكل معتبر، وباركوا الراعي الجديد الذي جلب خبزه من مكان بعيد، وهو الخبز الذي منح القوة لكل انسان.

وعلى كلّ حال لم يكن رجل الأعمال راضياً بالصفقة، التي بدت له عادلة لكن غير كريمة، ولهذا تكلم ثانية إلى الملك وهو يبتسم: «انظر يامولاي الملك، كيف تمكنت أنا الفقير الغريب من اغنائك في أرضك بكثير من البيوت»، وضحك الملك لدى سماعه هذا وأجابه قائلاً: «إنني لاأرغب بتسلم هذا النوع من الغنى، الذي جعلني تقريباً معدماً، كما انني لاأعرف أي انسان يمكن أن تكون هذه الأشياء ذات نفع له»، فقال له: «عظيم جداً، أرى أنك غير مهتم كثيراً بصفقتك، ويمكنك فقال له: «عظيم جداً، أرى أنك غير مهتم كثيراً بصفقتك، ويمكنك

العمل على الاحتفاظ بكرمك باعطائي هذه الأبنية، فأنا ليس لدي مكان أريح فيه رأسي ووجد الملك نفسه غير قادر على الاجابة، وحدق مندهشا بالسائل، ثم قال مجيباً له: «إنك راع غير اعتيادي، هل تعتقد حقيقة انني غير قادر على أن أبني لك أبنية جديدة؟ أخبرني على الأقل ماأنت مقبل على عمله بهؤلاء "؟ فأجاب هيوج قائلاً: «إنه غير لائق بكرمك الملكي أن تسأل عن مثل هذه التوافه، إن هذا أول طلباتي منك، وبها أنها توافه لماذا لايجري منحها فوراً "؟.

وشعر الملك، الذي امتلك حسّ الدعابة، بالسرور الكامل تجاه سرعة بديهته، وعن عمد أطال المساجلة الكلامية قائلاً:

"هل يمكن أن يكون هناك انسان على أرض غريبة بمثل هذه الجرأة؟ ماالذي يمكن أن يحدث لو أنه استخدم قبضته، طالما لسانه بمثل هذا العنف، ومن أجل ألا نعاني من الأسوأ، دعوه يأخذ الذي أراده»، وعندها أعاد هيوج الأبنية التي كان قد تسلمها إلى أصحابها القدماء، مع أنهم كانوا قد تسلموا أثمانها، وقام الملآك إما ببيعها مرة ثانية، أو بنقلها ليعيشوا فيها في مكان آخر، وهكذا تبين أنه: موهوب بالبصيرة والتقوى مثل نحميا، وبفضائل سليان، وبغيرة داود، وبذلك أمكنه بناء قدس بلا دماء، وانطلق على الفور يعمل على انشاء المبنى الذي نراه اليوم.

وعندما اكتمل تشييد الأبنية التي تطلبتها عادات الاخوانية، وأصبح عدد الاخوان تاماً، ركز الراعي الجيد جهوده على تدريب النفوس التي أسند إليه أمر رعايتها في مجال الاحتراف المقدس، وصرف الكثير من اللوقت والجهد في سبيل تصنيع وشراء، والحصول على المخطوطات الدينية بكل وسيلة ممكنة، لأن هذه المخطوطات كانت عوناً كبيراً له في مهمته.

وفي إحدى المرات كان يتحدث مع الملك فورد ذكر قلة الكتب،

وعندما وجهت إليه النصيحة في أن يبذل جهده في الحصول على المطلوب ونسخها بـوسـاطة نسـاخ مخنصين، أجـاب أنه لايمتلك الـرق للكتابة، وهنا سأله الملك: «كم من المال تعتقد على أن أدفعه لك لتدارك هذا النقص؟ " فأجابه: «إن قطعة نقدية فضية واحدة ستكون كافية لوقت طويل»، وعندها ابتسم الملك وقال: «ما أثقل هذه المطالب التي طلبتها منا"، ثم أمر على الفور بإعطاته عشر قطع تسلم إلى الراهب الذي كان مرافقاً له، ووعده كذلك بأن يرسل إليه نسخة من الكتاب المقدس تحتوي على العهدين، وعاد الراعي إلى بيته، غير أن الملك لم ينس وعده، وحاول جاهداً أن يجد نسخة فخمة حقا من الكتاب المقدس، وبعد جهود حثيثة وبحث نشيط ، بلغه أن رهبان القديس سوزن Swithun [ونشستر] قد صنعوا حديثا نسخة ممتازة من التوراة نسخت بشكل جميل، استخدمت للقراءة في غرفة طعام الدير، وقد سركثيرا بهذا الاكتشاف، واستدعى على الفور راعي الديس، وسأله إعطاءه الهدية التي صنعها وتسليمها له، واعداً إياه بجائزة قيّمة، واستجيب لطلبه بكلّ سرعة، وعندما تسلم راعي دير ويتهام ورهبانه نسخة الكتاب المقدس وتفحصوها كانوا مسرورين بها كثيرا، وأعجبهم صحة النص كنيرا، وزاد هذا حتى على جمال النسخ والروعة الكاملة للنسخة المخطوطة.

وعندما أخبر راهب من ونشستر زار ويتهام هيوج بأن هنري الثاني قد أخذ نسخة الكتاب المقدس الجديدة والجميلة من ديره، أعاد هيوج على النور هذه النسخة الخطية الثمينة إلى ملاكها الأصليين، وذلك على الرغم من خوف رهبان ونشستر من غضب الملك، وكان هيوج على كلّ حال فادراً على التعامل مع الغضب الأنجيفي لهندي، وتظهر القصة التالية كيف أثار أسقف لنكولن حنق الملك بحرمانه رئيس الأحراج الملكية.

وعندما بات تصرف الأسقف الجديد لدير لنكولن معروفاً في البلاط،

بذل عدد من الناس جهدهم لزيادة تأجيج غضب الملك ضد هيوج بكلمات كلها سم مثل قولهم:

«إن النكران الأسود للرجل لاحسانك غير العادي نحوه واضح الآن قاماً، والجائزة التي تلقيتها مقابل مابذلنه من جهد في سبيل تقدمه ظاهرة تمام الظهور».

وتصرف الملك بصبر وأناة وذلك على الرغم من غضبه، وأرسل من استدعى الأسفف، وعندما عرف أنه قرب وصوله، ركب فرسه، وانسحب مع جميع نبلائه، الذين كانوا بعدد معتبر، إلى غابة مجاورة.

وجلس أرضاً في بقعة جميلة، وشكل الإيرلات والبارونات حلقة من حوله، وأمر هؤلاء بعدم الوقوف أو تحية الأسقف عندما يصل، ولكي نجعل القصة الطويلة قصيرة، جاء الأسقف وقدم التحية للملك وللجهاعة، لكن ما من واحد ردّ عليه تحيته، وعندما رآهم جالسين هناك صامتين وغير عابتين، جاء ووضع يده بلطف على كتف أحد الإبرلات اللذي كان يجلس إلى جانب الملك، وجعله يعطمه مكانه إلى حانب الملك، وتلا هذا صمت عميق، وانتظر كلّ واحد منهم وقتا طويلا.

وآخيراً رفع الملك رأسه وأمر واحدا من خدمه بإعطاته إبرة وخيطا، وبعدما تسلمها بدأ بنفسه يخيط رباطا وضعه حول اصبع مجروح في يده اليسرى، وساد الصمت، في حين عمل هذا لبعض الوقت لكي ينجنب الاحراج في صنع لاشيء، ولقد اعتاد الناس الغضابى على التصرف وفق هذه الطريقة، لأن غضبهم ألزمهم بالصمت، ولايمكنهم أن يجدوا متنفساً له.

ونظر الأسفف إلى مايجري، ولاحظ أن مظاهر عرض الغضب لصالحه، وتأمل هـذا الصراع للعواطف الانسانية وكأنه واقف من أعلى برج للمراقبة وللتحليل العقلي، والتفت أخيراً نحو الملك وقال: «كم تشبه

أبناء خالكم في فالاسي Falaise ، ونفذ هذا التعليق الذي قالمه بلطف وصوت منخفض إلى أعماق الملك، فضغط على أصابعه وأخذ يضحك دون أن يسيطر على نفسه، واستلقى على الأرض لوقت طويل دون أن يتمكن من كبح سروره، واندهش الناس الذين فهموا العبارة اللاذعة تمام الاندهاش واحتاروا كيف أمكن لرجل في وضع هيوج أن يتجرأ بالمزاح في حضرة ملك جبار في مثل تلك اللحظة، وعلى كل حال لم يستطيعوا منع أنفسهم من الابتسام، وانتظروا بعض الوقت ليسمعوا رد الملك، وكان معظمهم غير فاهم لمعاني ماقاله هيوج، وكانوا في ضياع تجاه التبدل المفاجىء لميول الملك وتصرفاته.

وأخيراً بات الملك مدركاً لحالة إلتباسهم فقال مايلي:

«لايمكنكم فهم الطريقة التي أهاننا بها هذا المتخلف، لذلك سوف أشرح: كان من المعروف أن أم جدنا العظيم وليم فاتح هذه الأرض، كانت من أصل وضيع، وأنها جاءت من فالاسي وهي بلدة نورمانية هامة، مشهورة بصناعة الجلديات، فلقد رآني هذا المزوح أخيط أصابعي ولهذا أطراني لمشابهتي أخوالي في فالاسي».

ثم قال مخاطباً الأسقف: « والآن أخبرني أيها الصديق الطيب ، لماذا رأيت من المناسب دون اخباري، القيام بحرمان رئيس أحراجي، ولماذا عاملت طلباتي التافهة منك بمثل هذا الاستخفاف، حيث لم تقدم شخصياً لتشرح لي لماذا رفضتها، كما أنك لم ترسل أي اعتذار مع رسلنا»؟ وعلى الفور أجاب الأسقف على هذه الاحتجاجات بهذه الكلمات:

"إنني أعلم أنك عملت بجد لتجعلني أسقفاً، ولهذا إنني مكرس لانقاذ روحك من المخاطر التي قد تلم بها، لولا أنني حريص على تأدية واجبي الصريح نحو الكنيسة التي عهد بها إليّ، وإنه لمن الضروري حرمان المعتدي على كنيستي والظالم لها، وأكثر من هذا القيام برفض كل

من يحاول أن يتملك بشكل غير شرعي شيئاً من أوقاف تلك الكنيسة، ولقد رأيت من غير الضروري الاتصال بسموك، لأنك عاقل تماماً وقادر على ملاحظة ماهو صحيح، ومن المؤكد أنك ترغب في اظهار موافقتك على ماتعرف أنه كذلك».

ولم يجد الملك أي اعتراض على هذا التوضيح، والآن وقد زالت آخر آثار غضبه المتسرع، عانق الأسقف بوجه مشرق، وعهد بنفسه لصلواته بشكل ملح، وترك له حرية القرار بشأن مسألة تحليل الرجل المحروم، الذي اعتذر وتذلل كثيراً، وأقسم يميناً حسب الصيغة التي وضعتها الكنيسة، وبعدما جلد مع شركائه، جرى تحليله، ومنحه الأسقف تبريكاته، وقد كرس حياته كلها له، وأصبح صديقه الخاص ومعاونه.

وقدم ديسيتو وصفاً لطريقة تفكير هنري الثناني الفجة العادلة في تغييراته القضائية في انكلترا(١١٧٩).

طلب الملك الكبير، هنري الثاني، ملك الانكليز في هذه الأيام صنع أشياء كثيرة كانت صعبة التحقيق، فقد وجد العمال لايرغبون في ممارسة الأعمال العامة، ولايهتمون بواجباتهم، ويصرفون اهتهاماتهم نحو شؤونهم الذاتية، وبات قلقاً أكثر فأكثر تجاه الصالح العام، وهكذا عهد بشؤون القضاء في بعض الأماكن لرجال آخرين أمناء، وعلى هذا توجب على السلطات العامة في الأقاليم قمع المجرمين والذين يستولون على الأموال ويسيئون إلى الجلالة الملكية، فهؤلاء يستحقون الغضب الملكي، وستنزل العقوبات بالذين يسارعون لاصطياد الحيوانات المتوحشة بالتغريم وبالسجن الطويل، ويتوجب أن تقمع عقوبات المجرمين، وينبغي أن ينال الذين يلقى القبض عليهم عقوبات ثقيلة، ويجب معاقبة القاتل بشنقه، والخائن بإدانته ونفيه، أما الذين ألقي القبض عليهم لإقترافهم بشنقه، والخائن بإدانته ونفيه، أما الذين ألقي القبض عليهم لإقترافهم

جرائم أصغر، فتقطع أصابعهم، وعلى رجال العدالة منع أعمال العدوان والتعويض عن الأضرار.

ومرة أخرى بعد مضي بعض الوقت، اهتم الملك اهتهاماً كبيراً باظهار العدالة لكل انسان، وأمر بتأمين المزيد من الحهاية لرعيته، وأراد امتحان اخلاص عدد كبير من الناس، وبحث بعناية عن محبي العدل بين مختلف طبقات الناس، وبسد الحصول على الرجال الذين يمكن ايجادهم بين الآلاف، الرجال الذين لاتفسدهم الأموال، لأن عرضاً مالياً يمكن أن يغير عقل انسان ما، ومع الناس المتغبرين يمكن تبديل الأحكام التي لابجوز تبديلها، وقام رجال الدين بالتفريج عن شكاوى الفقراء، كها قاوم الفرسان المخولين بالسلطة الناس الذين كانوا أكثر قوة وأجبروهم على التعايش مع القانون العام، وهكذا باتت مآسي المظلومين واضحة، ذلك التعايش مع القانون العام، وهكذا باتت مآسي المظلومين واضحة، ذلك أنه عير رعاة ديرة جدد، وإيرلات جدد، وقادة جدد، بعضهم من أفراد بيته وبعضهم من أقرب الناس إليه وكلفهم بالاستهاع لكل قضية واتخاذ القرار حولها.

وبعدما عين الملك عدداً كبيرا من رجاله المخلصين من جميع الطبقات ووجدهم يضرون بالرفاه العام، وبها أن أيا منهم لم يعد النظر في أي قرار، وعندما لم يجد أيه وسيله لمساعدة أفراد الشعب، قرر آنه يستطيع أن يفرز بعض الرجال عن المجموع العام، رجال مع أنهم كانوا يعيشون بين الناس، كانوا فوقهم، وكانوا ممن شعر وجرب أشياء أكثر من الناس، ولهذا حوّل كلّ شيء كان عرضه للتغيير ونقله إلى الكنيسة، وعيّن أساقفة: ونشستر، وإيلاي، ونوروك مشرفين رئيسيين على العدالة في المملكة، لكن لبعض المناطق فقط، معنقدا أن الذين سلف له تعيينهم منذ وقت طويل مضى كانوا أقل احتراما، فإن هولاء الأفراد من جهة أخرى كانوا أصلب عودا، ويخشون الرب عن إيهان، الرب ملك الملوك، وخالق الناس، وهم سوف يحكمون اعتهادا على ضها ترهم، فينتقمون للأفاعيل، ولا يلتفتون سوف يحكمون اعتهادا على ضها ترهم، فينتقمون للأفاعيل، ولا يلتفتون

يمنة ولايسرة، وهم لن يظلموا الفقير في محكمة ليست فاسدة بقبولها الرشوة، ووقتها إذا ماتورط رجال الدين في قضايا غير دينية مضادة للقانون، وبسبب هذا استدرجوا للمساءلة، يمكنهم الاحتجاج أنهم قاموا به بناء على طلب الملك، وأن مقاصد الملك كانت تقوية، وأنه رغب في إرضاء الرب عن أعماله، وأن ينال ثناء الناس، وتقرر جلوس هؤلاء الأساقفة وأتباعهم من القضاة لسماع القضايا، لكن جرى الاحتفاظ ببعض القضايا للملك، وقد تقرر عرضها في وستمنستريوم ٢٧آب.

وكانت هذه السنة سنة جيدة: بعد مرور شتاء جاف، وبعد هبوب رياح شهالية في الربيع وبعدما عبرت بلطف وسط البلاد من الغرب إلى الشرق، سقت أمطار خفيفة الحقول في ١٣حزيران، فأنعشت نفوس الفلاحين الذين اعتقدوا أن بذورهم قد ضاعت، وساعدت هذه الأمطار على نمو أشجار الفواكه وصغار الحيوانات التي كانت أشبه بالموتى، وكان المناخ لطيفاً نحو البذور، لامس فقط الجذور الصغبرة، وتتابع هطول المطر والرزاز فأعاد الخصب، وساعدت الحرارة الصادرة عن أشعة الشمس على زيادة خصوبة الفواكه، وبشكل غير متوقع أعطن الأرض التي كانت من قبل جافة، مواسم عظيمة، وعلى هذا كان بإمكانك أن ترى في بعض الأماكن سبع سنابل على ساق واحدة، وعليك آن تتذكر أن شيئاً ما أو شيئاً آخر يحدث فجأة، بدون أمل، وبشكل غير اعتيادي، وربها يحدث هذا لك في أيامك.

وثانية أنزلت الساء نعمها ورحمتها على رعاياها وكذلك فعلت الطاقات والقوى الأرضية، وهكذا نجد أن كلّ انسان كانت لديه قضبة في محكمة مدنية أو دينية بات لايشك أن المحصلة ستكون خيرة بالعون الرباني، لأن المراسيم صدرت —كما قلنا من قبل بتعيين أساقفة في المناطق بناء على أوامر من الملك، وأن يجلس هولاء للاستماع إلى

الخلافات ويبتون فيها، لكنهم كانوا لايملكون حق فرض عقوبة الاعدام، فإذا كنت أميناً يمكنك القدوم بسلام إلى المحكمة المشكلة برئاسة رئيس أساقفة كانتربري، وأنت مطمئن تماماً في نفسك حول المشكلة التي ستعرض، ومن أجل عدم انحراف مساعديه الذين يقدمون له المشورة وكذلك الطاقم الذي يتولى الأمور الإجرائية، وابتعادهم عن جادة الصواب، ولكي لايتم افسادهم بالمال لصالح الخصوم، أقسموا يميناً على الكتاب المقدس وفقاً للقانون المدني، وبها أن الجميع يتحملون مسؤولية عامة فقد أقسموا على الأناجيل أنهم لن يلوثوا مطلقاً أيديهم بالمال، وأنه ليس هناك استثناء لأحد، ووعد رئيس الأساقفة بهذا في خطبته التي ألقاها في باغهام Pagham.

وغالباً ماعبر كادوالون Cadwallon الذي امتلك إمارة في جنوبي ويلز، الحدود القديمة بين الانكليز والبريطانيين، وكان يدخل إلى التخوم فيقتل بعنف عدداً كبيراً من الناس، وقد أمضى حياته بالقيام بالغارات والهجهات السرية، وأخيراً جرّ إلى أمام الملك، بعدما جرى اتهامه من قبل كثيرين، وعندما كان مع الملك كان تحت حمايته، ولكن بسبب جرائمه الوحشية كان دوماً خائفاً جداً.

وفي طريق عودته إلى بلاده وقع في كمين وألقي القبض عليه وقتل يوم ٢٢ أيلول، وقد أضر هذا السلطات الملكية ضرراً كبيراً، وهتك القانون العام الذي توجب أن تحفظ به المملكة سليمة، لأن كادوالون، وإن استحق الشنق مرات كثيرة لجرائمه، توجب حفظه احتراماً للملك الذي كان عائداً من بلاطه، ولأنه كان قد حصل على أمان لمدة محددة من الزمن.

ومع أنه مامن أحد خاف من هذه الحادثة، ومامن شيء يشبهها قد حدث في أيامنا، لم يدعها الملك تذهب بدون عقوبة، فقد عاقب المعتدين بقسوة، فإذا مادعيت إلى البلاط الملكي لاتحتاج إلى الخوف،

وواسى الويلزيون بعضهم بعضاً، لأن موت واحد من رجالهم كان معناه جنائز حزينة وبغيضة لكثير من النورمان والانكليز من سكان التخوم، فقد اعتقل الملك الذين عرف أنهم القتلة مع الذين شكك فيهم، وبرهن على تجريمهم في محاكمة علنية، وأصدر أحكاماً قاسية قضت بشنق بعضهم على المشنقة، وبتدمير مقتنياتهم بعد مصادرتها، وأرغم آخرين على العيش حياة تعيسة بمثابة هائمين في الغابات.

وكان القدر لطيفاً تجاه لويس السابع ملك فرنسا في أيامه الأخيرة، فيما يتعلق بزواجه الثالث، فلقد تزوج ثلاث مرات بشكل قانوني، وفي الوقت الأعظم سعادة - كما كتب في الحوليات الفرنسية - نتج عن زواجه الثالث انجاب ولي للعهد ذكر، وكان الملك قد رزق من زواجيه الأولين بأربع بنات فقط، ورزق بعد طول انتظار، إنها بسعادة بولده فيليب، من زواجه الثالث، من أديلا ابنة ثيوبولد العظيم، كونت بليوس، وقد أحب الشعب هذا المولود، وكان رجال الدين على استعداد لتقبله، وذهب فيليب عندما كان في الرابعة عشرة من عمره إلى ريمس، وذلك بعدما التقى برؤساء أساقفة المملكة، وأساقفتها وبأمرائها، فقد كان بحاجة إلى موافقة هؤلاء تماشياً مع عادات المملكة، ورسم في الأول من تشرين الثاني ملكاً على فرنسا، وجاء هذا بموجب حق الوراثة، وبرضى والده الذي كان أباً وحاكماً لجميع رعاياه، وجرى الرسم في ظل وقار جميع القديسين حتى يتولوا حمايته ضد أعدائه، وكان الذي تولى رسامته وليم رئيس أساقفة رايمس، وهو خال الملك، وفي أثناء هذا التتويج كلف فيليب ملك فرنسا فيليب كونت فلاندرز أن يكون تابعه الشخصى الذي يحمل سيفه، ويعـدّ الاحتفالات الملكيـة، وامتلك كـونت فــلاندرز حقــاً مضاعفاً بهذا المنصب، وجاء ذلك من خلال والده ومن خلال زوجته.

وحضر الملك هنري، ابن هنري الثاني، ملك انكلترا، وزوج أخت ملك فرنسا، هذا التتويج للروابط الوشيجة التي تربطه بالمتوج، ولأنه

دعي لمساهدة الاحتفال، ومع أن بريطانيا تستحق إلى أبعد الحدود أن ندعى عالما آخر، وغالبا مانسمع أن البريطانيين منفسمين بين أنفسهم، ببقى من الواضح أن مامن واحد من ملوك بريطانيا أو انكلترا اعترف بأن ملك ورنسا متفوق علبه، وهم بالحري اعتادوا أن بكونوا في الغالب أصدقاء، وقد قرروا في الرسائل المنادلة فيها بينهم دعوة أحدهم الآخر بالأخ، وهذه عادة نحد حتى شارلمان قد راعاها بعدما جرى تتويجه امبراطورا للرومان، ولاحظ هنري الملك الشاب أنه حظي بتميز واهتهم أثناء الاحتفالات المهيبة، وقد مارس هذا الامتياز فتحدث مع جميع النبلاء أثناء وجوده، وهكذا تعلم من أفواه الشعب الفرنسي ماتعلق بالأحداث المستقبلية، واحتفظ الملك هنري الثاني بالتاج على رأس الملك الجديد، وذلك خشية من قول الذين قالوا إنه مازال شابا وأن التاج يجرحه، وآن هناك من هم أكثر لياقة بالقبام بهذا الواجب منه، فهو قد رفض دعوى هؤلاء، وكان من معاني هذا أن الفرنسيين إذا ما احتاجوا في أي وقت إلى مساعدة، يمكنهم بأمان طلبها من واحد ساعد آثناء تتويج ملكهم.

### سنة ثمانين ومائة وألف

وكان الملك هنري يعلم أنه غالبا ماتسود آراء المستشارين الأشرار، في ظل كل أمير جديد، لاسما إذا ما كان ملكا شابا، لهذا اتخذ الملك هنري ملك انكلترا الاحتياطات خشبة أن يتحول هذا لغير صالحه، لقد خشي من أن يقدم الذين يضمرون له السوء ويرغبون به إليه، فيقترحوا على ملك فرنسا بعض الخطط الضارة بالنسبة لأراضي نورماندي، لأن الذين عاشوا قرب حدودها حافوا من قوة النورمان ومما ينمتع به اسمهم من جبرون، فهذا كان معروفا في جميع أنحاء العالم، وجرى تكليف رتشارد

أسقف ونشستر من قبل الملك بالعناية بهذه المسألة، فعبر الفنال يوم الماره ونشستر من قبل الملك بالعناية بهذه المسألة، فعبر الفنال يوم الماره وأخذ معه سفيراً تابعاً وهو وولتر صاحب كاونتنس، وهو حافظ ختم الملك، وعندما وصلا إلى باريس وجدا الملك لويس طريح الفراش، قد حنته طول أيام عمره مع المرض.

وانتخب رجال الدين في ليموغز brand عميد كنيسة بواتو أسقفاً لهم، وجرى هذا دون الحصول على موافقة هنري الثاني ملك انكلترا، أو رتشارد دوق أكوتين، وكعقوبة لهذا السلوك المهين، تمت مصادرة ممتلكانهم، وهدمت بيوتهم، واقتلعت كرومهم، وعندما سمع البابا الاسكندر بهذا، أرسل تعلياته إلى وارين رئيس أساقفة بورغز، ليتولى البحث في المسألة، وليسعى لايجاد تسوية، ومها يكن الحال، عندما جاء رجال الدين من ليموغز إلى رئيس الأساقفة، وجدوه ميتاً، وهنا حتى لايبدو أن جهودهم قد ذهبت عبثاً، دس رئيس كهنة برايف Brive رسائل البابا، التي كانت ماتزال ختومة في أيدي الرجل الميت قائلاً: «إن مالم يمكنه انجازه أثناء حياته، دعوه ينجزه في موته»، وقالوا: إنه بهذه الوساطة البارعة توصل أسقف ليموغز إلى مصالحة مع الملك ومع الدوق.

وجاء الملك هنري الشاب، ابن الملك الكبير إلى انكلترا في الأول من نيسان، وقد استقبل بحفاوة عظيمة من قبل والده، وأقسم في ردنغ بحضور الآثار المقدسة، أنه سوف يتبع جميع توجيهات والده في جميع المسائل، لاسيما في توزيع البلدات، والقلاع والمنافع حسبها هو وارد في مرسوم كان موجوداً هناك، وبعد هذا عبر الملك الكبير القنال من بورتماوس، وعبر الملك الشاب من دوفر، واحتفل الملك الكبير لدى وصوله إلى فرنسا بعيد الفصح في لامانس، وتزوج فيليب ملك فرنسا من مرغريت ابنة بلدوين كونت هينولت، التي كانت أمها مرغريت أخت كونت فلاندرز، وجرى العرس في لى ترونشت Tronchet واحتفل

بالعرس في بابوم Bapaume وقد سمعنا الكثير عن روعة ذلك الزواج الذي لاينسى، وقد حدث في يوم ٢٩ أيار، وهو يوم عيد القديس دينس، وكان غي رئيس أساقفة سنس هو الذي تولى سيامة مرغريت زوجة فيليب، ملكة لفرنسا.

وبعدما كان لويس السابع، قد تخلى عن صلاحياته وسلطانه للملك فيليب، سلمه خاتمه أيضاً، وهكذا بات من غير الممكن اتخاذ أي قرار يتعلق بالمملكة بدون معرفة ابنه، وثار نزاع بين الملك فيليب وأمه أديلا، فقد جرى الاستيلاء على عدد من القلاع مما تسلمته الملكة هدية زواج، وقام وزراء الملك فيليب فطردوا بعنف شحن هذه القلاع، وذلك بناء على تعليات من الملك، وعلى كل حال تصالح الملك مع أمه عندما طالبا بتحكيم ملك انكلترا، وكان ذلك في مؤتمر الملكين الذي عقد في قصر غيسور Gisors يوم ٢٨ حنزيران، [وصدر عن هذا المؤتمر المتفاق التالى نصه]:

«أنا فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، وأنا هنري ملك انكلترا بالنعمة نفسها، نرغب في أن نضع أمام انتباه جميع الناس، أننا الآن وفي المستقبل جددنا بإيهان وأيهان المعاهدة والصداقة التي عقدها سيدي الوالد ملك فرنسا، وهي المعاهدة التي أكدتها أنا هنري الثاني ملك انكلترا في آيفري بحضور الكاردينال بيتر، ورتشارد أسقف ونشستر، وقد أزيل كل سبب للخلاف بيننا، ويتعهد كل واحد منا أنه لن يطلب من الآخر أية أراض أو بلدان، أو أية أشياء أحرى يمتلكها، والاستثناءات لهذا سوف تكون أفرين Auvergne التي سببت الخلاف بيننا، واقطاع شاترو وإذا منا أن يعري Berry وإذا على أي جزء منها، سواء ضدنا معاً، أو ضد واحد منا، أو على أي مااحتل أي جزء منها، سواء ضدنا معاً، أو ضد واحد منا، أو على أي مناقشاتنا، فيها يتعلق بهذه المناطق التي استثنيناها من مواد الاتفاق العام، مناقشاتنا، فيها يتعلق بهذه المناطق التي استثنيناها من مواد الاتفاق العام،

فإنني أنا فيليب ملك فرنسا قد اخترت ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات، واخترت أنا هنري ملك انكلترا، ثلاثة أساقفة وثلاثة بارونات للبحث في هذه المسألة، وسنعترف بصدق بها سيوصون به مهها كان، ونعد بإيهان وأيهان أننا سنلتزم بجميع الشروط المتقدمة، وأبرمت هذه الاتفاقية يوم ٢٨ حزيران فيها بين غيسور وتراي Trie».

واستلقى الآن لويس السابع مريضاً مرضاً شديداً في باريس، وقد أمر أن يجلب إلى أمامه جميع ذهبه، وكلّ فضته وجواهره وخواتمه، وثيابه الثمينة، وشارات زينته الملكية، ثم قام بناء على نصيحة أسقف باريس وراعي دير القديسة جينفف Genevieve بإصدار تعلياته بتوزيع ذلك كله بين الفقراء، وفي يوم ١٣ أيلول توفي، ودفن في دير تابع لرهبنة سسترشيان Gistercian يدعى باربو Barbeaux الذي كان قد بناه على نفقته الخاصة.

وجاء فيليب أيمري، وهو رجل من مواليد تور، إلى انكلترا، بناء على دعوة الملك له، وتولى مهمة اصلاح النقود، وهكذا جرى في ذلك الشتاء، في يوم ١١ تشرين الثاني سحب النقود القديمة، وحل محلها بالتداول في جميع أرجاء المملكة نقود جديدة شكلها دائري، وتقرر استخدامها في جميع مجالات الأعمال، وأسند إلى فيليب نفسه واجب مراقبة فوائد الخزينة، وهكذا بات عليه أن يكبح أساليب وخطط المزيفين، وعندما اكتشف أن الذين يتولون ضرب العملة يتلاعبون بالنقود، تعرض لنقد شديد، وعلى كل حال هو لم يتعرض لغضب الملك الذي حرره من خوف العقوبة، ومع هذا كله عزل من عمله وأعيد إلى فرنسا بدون وداع.

#### سنة إحدى وثمانين ومائة وألف

قيل اجتمع أربعة ملوك في معركة واحدة، وماهو أكثر إثارة وعجباً أن أربعة اجتمعوا بسلام في مؤتمر وغادروه متفقين وهؤلاء هم: فيليب ملك فرنسا، وهنري ملك انكلترا، وهنري ابن ملك انكلترا، ووليم ملك اسكوتلندا، لقد جاءوا واجتمعوا معاً، ثم افترقوا بسلام، وقرر فيليب ملك فرنسا، بناء على نصائح ملحة واقتراحات متتابعة أن يحذو حذو هنري ملك انكلترا، الذي تدبر ممارسة الحكم فوق مملكته الواسعة، مع أنها كانت مهددة بغارات السكوتلنديين والويلزيين المتوحشين، ومن أجل أن يتعلم بدقة أكثر مذاهب هذا الملك، قرر بناء على نصائح مستشاريه الداخليين، أن يخضع نفسه تماماً لتوجيه هنري وقيادته.

ووضع ملك انكلترا الكبير جميع نورماندي تحت اشراف ولده الملك الصغير، وأوعز إلى جميع وزراء تلك البلاد بطاعته، وتركه ليتولى المراقبة العامة مع الحماية لفيليب ملك فرنسا، إذا ما اقتضت الحاجة، والآن وجميع المقاطعات كانت تدار وفقاً لرغباته ولقوانينه السلمية، وكانت كلها تتمتع بفوائد السلم الذي جاء بوساطة حكمه، عاد إلى انكلترا يوم ٢ تموز، وقام بزيارة كانتربري وهناك صلى ووهب صلواته للقديس توماس.

وعندما سمع فيليب كونت فلاندرز كيف أن فيليب ملك فرنسا وهنري ملك انكلترا متعايشان بشكل حميم، جند أكبر عدد تهيأ له من الفلمنكيين حتى يتمكن من القتال ضد مولاه الاقطاعي، وأعلن أن الأمور قد وصلت إلى نقطة بات عليهم فيها إما تدمير حصون أعدائهم، أو أسرهم ومن ثم إرغام الملك على التسليم والتفاوض، وحاول الآن أكثر من هذا فبعث برسل إلى فردريك امبراطور الألمان، ثم ذهب إليه

شخصياً لاقناعه بالوقوف ضد ملك فرنسا، ومد حدود مملكته إلى القنال الانكليزي، وهكذا لم يقم الكونت فيليب رعاية إلى العمر الغض لمولاه الملك، وتناسى تماماً العهود التي أكدها للملك لويس في أنه سيراقب الأمور وسيتولى حماية ابنه وتوجيهه إلى ماهو صحيح، وهنا هاجم نويون Noyon مع أكبر قبوة استطاع حشدها وقد عاثوا فساداً في المنطقة الموجودة حول سنلس Senlis فهدموا البيوت واقتلعوا الكروم.

وكان هنري الملك الشاب ابن الملك الكبير، ورتشارد دوق أكوتين، وغيوفري دوق بريتاني — ثلاثة أولاد يحملون شهادة على انجاب أمهم متشوقين إلى شغل الفراغ الناجم عن غياب أبيهم، بتقديم البرهان على شجاعتهم، وقد خططوا للتصدي بكل ماأوتوه من قوة لخطط هؤلاء الرجال الأشرار، الذين يرغبون بالتسلط على الملك البريء، ملك فرنسا الشاب، وحشدوا ثلاث قوى من جميع أرجاء البلاد، وجاءوا بمثابة قوة وإحدة لمساعدته.

وقرروا أولاً أن يتخلصوا من كونت ستيفن، السيد الشرير لقلعة سانسير Sancerre وتمكنوا في أيام قليلة من نهب ممتلكاته وتدميرها، مع بلداته وقلاعه وأراضيه، وأعطوا بمثابة غنيمة نحو خسة آلاف آلة فلاحة مع ثيرانها إلى شعب برابانت، وبها أن قوات الكونت كان مُتفوق عليها وكانت غير قادرة على المقاومة، فقد انكب الكونت على قدمي ابن أخته الملك فيليب وسأله العفو والمغفرة ونال ذلك منه تجاه أعهاله العدواثية، وتحرك الملكان (فيليب وهنري الشاب) نحو الأمام ومعها قواتها، فألحقا خسائر فادحة بدوق بيرغندي، وبالكونتسة صاحبة شامبين التي كانت أختاً لكلا الملكين، وبأتباعها، اللذين —ثانية—فامبين التي كانت أختاً لكلا الملكين، وبأتباعها، اللذين —ثانية—فارغها قد تم التفوق العددي عليها، ثم تحركا نحو الخلف شهالأ، فأرغها كونت فلاندرز على التراجع، وخشي الكونت من مواجهة الملك هنري ابن ملك انكلترا وجهاً لوجه، فأغلق على نفسه أبواب قلعة كريبي

Orepy واتخذ موقف الدفاع، وقد قيل لولا المسورة الخادعة التي تلقاها ملك انكلترا من مستشاريه لم تعق خططه، لجرى ارغام الكونت اللذي اتخذ موقف الدفاع في قلعته، على الاستسلام، لأنه امتلك من الطعام ما يكفي لعدة أيام فقط.

### سنة اثنتين وثهانين ومائة وألف

التقى فيليب ملك فرنسا مع ملكي انكلترا: الأب والابن، وفيليب كونت فلاندرز، والكونتات الذين جاءوا من جميع مناطق فرنسا، وكانوا بناء على نصائحه قد حنشوا بعهودهم تجاه مولاهم، التقوا في سنليس Senlis بعد عيد الفصح، وكان هناك هنري أسقف ألبانو وممثل البابا، ووليم رئيس أساقفة ريمس مع كثير من الأساقفة، ومن المكن رؤية مااتفقوا عليه من الوثيقة التالية:

«من ملك الانكليز إلى رتشارد أسقف ونشستر.. التحيات:

أعاد فيليب كونت فلاندرز بيرفورد Pierrefords إلى ملك فرنسا، وأعادها الملك إلى أسقف سواسون، وأعادها الأسقف إلى أغاثا أرملة هيوج أوف أوسي Oisi التي تملكتها بحق الوراثة، باقرار صحيح منه في بلاطه أو في بلاط الملك، وبقي كونت كليرمونت ورالف دي كوسي Thuci تماماً في أيدي ملك فرنسا، محررين من كونت فلاندرز، وحلل فيليب كونت فلاندرز ابني هنري من جميع الاتفاقات المعقودة بينها، ووافق على وجوب قيام بارونات الفلمنكين بالخدمة لدي مقابل أجر أعطيهم إياه، وسيفقدون ايجاراتهم بدون تعويض إذا لم يقوموا بخدمتي، واتفقنا زيادة على هذا أن لايفقد أحد من رجاله أراضيه في فلاندرز بسبب خدمتهم لي،

وذلك إذا ماجاءوا لخدمتي في أراضي، ومادام قد عاد كل شيء إلى السلام، فالذين تخلوا عن الولاء والتبعية لملك فرنسا، سوف يعودون إلى الخضوع له، وذلك بناء على رأي وعمل ملك الانكليز، وتمت تسوية مسألة الأضرار على كلا الطرفين بتعويضات متبادلة».

وبينها كان روجر رئيس أساقفة يورك حياً، طلب من البابا الاسكندر الامتياز التالى:

إذا ماقام واحد من رجال الدين العاملين تحت ادارته بكتابة وصية وهو على فراش الموت، لكنه لم يوزع ممتلكاته بيديه، لرئيس الأساقفة الحق في أن يضع يديه على مقتنيات الرجل الميت، وبها أنه يتوجب على كلّ من يصدر قرارات قانونية حول انسان آخر، أن يتنبه لنفسه، هكذا نفذ حكم الله العادل، فبعد وفاة رئيس الأساقفة جرت مصادرة كلّ شيء وجد في خزانته، وبلغ هذا أحد عشر جنيها من فضة العملة القديمة، وثلاثهائة قطعة ذهبية، وطشت من الذهب، وسبعة طشوت من الفضة، وتسعة كؤوس من الفضة، وثلاثة طشوت من خشب القيقب، وثلاثة منالح من الفضة، وأربعين ملعقة من الفضة، وثهانية صحون من الفضة، ووعاء كبير من الفضة وقواعد فضية.

وثار هنري دوق السكسون، وزوج ماتيلدا كبرى بنات ملك انكلترا، ضد فيليب رئيس أساقفة كولون، وسبب له مضاراً كبيرة جداً، وحشد رئيس الأساقفة قوى من جميع المناطق من حوله، وقاوم الدوق برجولة، وتلقى العون والعناية من الامبراطور، وتطورت الأمور بشكل وصل إلى حد أنه عندما أعلن قرار جميع أمراء الامبراطورية، أرغم الدوق على الخضوع للنفي، فجاء إلى ختنه في نورماندي ومعه الدوقة مع اثنين من أولاده: هنري وأوتو، وابنة كانت في سن الزواج، أما الابن الثالث ويدعى لوثر فقد بقي في ألمانيا، وقد استقبل هناك بحفاوة، ومكث هناك أكثر من ثلاث سنوات وهو يلقى الرعاية والعناية والكرم الملكي.

#### سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٤٣ توفي جون بورفيروجنتوس ١١٤٣ توفي وقد المبراطور القسطنطينية، متسماً في أنطاكية، مخلفاً وراءه ولدين، وقد اختفى الابن الأكبر مخلفاً ولداً اسمه أندرونيكوس، وجرى تعيين الابن الأصغر، أي مانويل، امبراطوراً، ذلك أنه كان أكثر شعبية لدى الاغريق.

وتوفي الآن في حوالي هذا الوقت مانويل في القسطنطينية، بعدما حكم لحوالي أربعين سنة، تاركاً وريثاً له ابنه الأصغر ألكسيوس، الذي كان قد رزق به من ابنة الأمير ريموند، أمير أنطاكية، الذي كان عم إليانور صاحبة أكوتين، وتظاهر أندرونيكوس بالسلام، فجاء إلى القسطنطينية وأقسم يمين التبعية لألكسيوس في كنيسة أياصوفيا، ووضع التاج الملكي على رأس ألكسيوس، وركب وسار خلال المدينة وألكسيوس على كتفيه.

لكن مالبث أندرونيكوس أن غير سياسته: فذبح بشكل وحشي البروتوفستياروس Protovestiarus [المسوول عن القصر]، وقتل الامبراطورة، أم ألكسيوس، وكل واحد عرف أنه كان مخلصاً للامبراطور مانويل، واغتصب العرش لنفسه، وقد قيل إنه أغرق ألكسيوس ثم تزوج من أرملته، يعني أغنس ابنة الملك لويس السابع ملك فرنسا.

وفيها أجاب الموت البشري على كلّ إيهاءة عملها الملك الكبير حول كلّ شيء تقريباً، كان هذا الملك حريصاً على ممارسة توقعاته من أجل ازدهاره، خشية أن يتبدد كلّ شيء مفيد للسلام، وكان قلقاً حول إقامة سلام أكثر ثباتاً بين أولاده، وذلك حتى يتجنب الخصام بين الأخوة الذي هو أمر طبيعي في كثير من الأجيال، وهكذا سأل الملك الشاب أن يتلقى الولاء والتبعية من أحيه غيوفري من أجل دوقية بريتاني، التي تملكها غيوفري بمثابة بائنة حدوطة لزوجته كونستانس، وكانت الابنة غيوفري بمثابة بائنة

الوحيدة والوريشة لكونت كونان Conan وكان كونتات بريتاني مرتبطين منذ قديم الزمان برباط الخضوع هذا لدوقات نورماندي، من خلال منحة من ملوك فرنسا.

وجرى تنفيذ ماطلبه الأب في أنغر Angers وحتى يعقد الأب الأمور أكثر، طلب بعد ذلك من ابنه هنري أن يتخلى لأخيه رتشارد عن دوقية أكوتين حتى يتملكها رتشارد وورثته بشكل دائم، ثم أعلن الملك الشاب أخيراً لوالده أنه متحالف مع عدد كبير من بارونات أكوتين ضد أخيه رتشارد، وأنه التجأ إلى هذا في الوقت الذي قام فيه رتشارد، ضد رغباته ومصالحه، بتحصين قلعة كليرفو Clairvaux بشكل كبير، وهذه القلعة قد كانت من أقدم الأزمنة خاضعة لكونتات أنجو،

لكن حتى لايزعج والده، أقسم بكل تأكيد على كلّ ماسأله والده، وكان ذلك في ميربو Mirebeau والشرط أن يقوم رتشارد بعدما يقدم له الولاء والتبعية أن يقسم أيضاً على التبعية له على الآثار المقدسة، ولدى سماع هذا، انفجر رتشارد غاضباً، وقال كما يبدو: بما أنه انحدر من الأب نفسه ومن الأم نفسها مثله مثل أخيه، لايجوز بالنسبة له الاعتراف بأخيه الأكبر منه بالتقوق عليه مع نوع من الخضوع، لكن بحكم قانون المنفعة للأخ الأكبر الحق بالأشياء العائدة للأب، ثم ادعى حقاً مساوياً لأخيه في الأشياء العائدة للأم.

وعندماً سمع الملك الأب هذا انفجر غاضباً، وهدد بخلق المتاعب لرتشارد، وقال بصيغة توبيخ بأن الملك الشاب كان على وشك القيام بتأديب رتشارد وإزالة غطرسته، وطلب من غيوفري دوق بريتاني الوقوف باخلاص إلى جانب أخيه بحكم أنه مولاه الاقطاعي، وهكذا حمل الملك الشاب السلاح ليس ضد والده، كما فعل ذلك مراراً، بل ليقدم العون

إلى البوتيفيين Poitevins الذين كان رتشارد يتولى ظلمهم بعنف ويغير عليهم بشكل غير عادل، وهو لاء البوتيفيون كانوا يقاتلون ليكونوا خاضعين له بموجب القانون العام، دون أن يكون أي واحد من أخوته متسلطاً عليه.

ولقد تحدثوا فيها بينهم، لكن عندما لم تظهر بارقة أمل بالسلام، جمع الملك الشاب جيساً كبيراً، وترك والده الذي يعرف أن حكم أكوتين عائد إليه طوال حياته، وأمر جميع حلفائه حيثها كانوا وأينها كانوا وكان عددهم بالالتحاق به للقتال ضد رتشارد، لكن حدث أن حياته قطعت وهي قصيرة، وكأنها قطعت بيد حائك، وانقطعت معها آمال عدد كبير كانوا يقاتلون من أجله ويأملون بالحكم معه بعد وفاة والده.

فالذي حدث أنه في يوم ١١ حزيران، في منطقة تدعى تورين -Tu- في غسكوني، بين أناس متخلفين تماماً في قلعة مارتل، توفي هنري الملك الشاب، بعدما عاش ثهان وعشرين سنة، وأربعة عشر أسبوعاً وستة أيام، تاركاً للرأي الحكيم الموافقة على أن الأبناء الذين يثورون ضد آبائهم، الذين يدينون بكل شيء لهم: بوجودهم وبها يعيشون منه، وبمن من ثرواتهم يتوقع أن يصبحوا أغنياء، جديرون فقط بالحرمان من الميراث.

ودهن جسد الملك الشاب بكل عناية، ولف بالأردية الكتانية التي لبسها وقت تتويجه، وحمل على أكتاف رفاقه خلال القرى والقلاع والبلدات، والناس يهرعون من كل جانب للنظر، حتى وصلوا إلى لامانس، حيث وضع في شرفة جوقة المرتلين في كنيسة القديس جوليان، وهرع أعيان البلدة فجأة إلى الكنيسة، وبموافقة شعبية عامة جرى دفن جسد الملك هناك بسرعة، وذلك مثلها رقد جسد جده لأبيه في المكان نفسه، لكن نقل فيها بعد إلى روان بناء على طلب روبرت عميد روان، لأن الملك عندما كان حياً اختار ذلك المكان ليكون موضع دفنه، وأدخل

بالتوقير اللائق بأمير إلى كاتدرائية روان ووضع على الجانب الشمالي للمذبح المرتفع.

### سنة أربع وثهانين ومائة وألف

وبعدما رتب ملك الانكليز جميع المقاطعات التي تحت حكمه وفقاً لرغباته، وباتت جميع رعاياه تتمتع بمنح السلام، عبر إلى انكلترا في ١١ حزيران، وعبر خلال فلاندرز بأذن وترحاب من الملك الفرنسي وقدم في هذه الآونة دوق سكسوني مع بيته وحاشيته ومقتنياته إلى انكلترا، وبعد أيام قليلة ولدت الدوقة في ونشستر ولداً ذكراً أطلق عليه اسم وليم.

وجاء فيليب رئيس أساقفة كولون برفقة فيليب كونت فلاندرز في رحلته إلى انكلترا ليقدم الصلوات إلى القديس توماس في كانتربري، وقدم الملك لاستقبال رئيس الأساقفة والكونت، وطلب منها السفر حتى لندن، وعندما وصلا استقبالا استقبالاً لانظير له، وكانت المدينة مليئة بالنزينة، وكانت المسوارع مكتظة بحشود مسرورة، وجرى الترحيب بالنزائرين بحفاوة وسرور عظيمين، ورافق رئيس الأساقفة موكب رسمي، وتم الترحيب به في كاتدرائية القديس بولص، كما واستقبل في وستمنستر أيضاً، في اليوم نفسه، وكان هنالك موكب رسمي آخر مع تزيينات ملكية رائعة، وكان الانفاق كبيراً، وقدمت في الموائد العظيمة أطعمة أكثر مما يستطيع الضيوف تناوله، ومكث رئيس الأساقفة خسة أيام بمثابة ضيف يستطيع الضيوف تناوله، ومكث رئيس الأساقفة خسة أيام بمثابة ضيف في القصر الملكي في وستمنستر، وعندما غادر أتحف بكثير من الهدايا.

واعترف البابا برهبانية سانتياغو Santiago العسكرية، وتميز هــؤلاء الجنود عن الآخرين بالسيف الأحمر الذي كان شعارهم —رنكهم — وكانت قاعدتهم في اسبانيا، وكان المطلوب منهم استخدام

طاقاتهم في الصراع ضد المسلمين. ومات أرنولد مقدم فرسان الداوية في فيرونا Verona.

#### سنة خمس وثهانين ومائة وألف

قام هرقل بطريرك القدس مع روجر مقدم بيت الاسبتارية، برحلة إلى الغرب، وقد متافرا خلال ايطاليا إلى فرنسا يطلبان العون، لكن ليس من المولى البابا، ولا من امبراطور الرومان ولامن ملك فرنسا، وعوضاً عن ذلك أبحرا إلى انكلترا، وقدما إلى الملك في ردنغ وقد شرحا الأسباب التي حدت بها للقيام برحلتها الكبيرة (فهي رحلة لم يكن لها نظير) ورويا بالتفصيل المضار العظيمة التي لحقت بالمدينة المقدسة، وقد حركا عواطف الجهاعة كلها، ودفعا الملك وجميع الحضور إلى التنهد والدموع، ووضعا بين يدي الملك بعض الأشياء التذكارية المتعلقة بميلاد يسوع المسيح، وبالامه ثم بقيامته، ذلك أنهم أعطوه قطعة من صليب الصلبوت، ومفاتيح برج داود، ومفاتيح كنيسة القيامة، وعرض الملك هذه الأشياء كلها بتبجيل عظيم.

وجرى تنصيب رتشارد، الرئيس الجديد لأساقفة كانتربري يوم ١٩ أيار، وتم استقباله بموكب مهيب في دير القديس أوغستين، وأقام غداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦ أيار.

وعندما كان هربرت، وهو رجل انكليزي من مدلسكس، مسافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza خلال بموافقة من وليم ملك صقلية، ثم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف

١٩ أيار، وتم استقباله بموكب مهيب في دير القديس أوغستين، وأقام قداساً هناك، ترأسه روجر راعي الدير، وقد ارتدى قلنسوة الأسقفية في موكب يوم ٢٦ أيار.

وعندما كان هربرت، وهو رجل انكليزي من مدلسكس، مسافراً خلال جزيرة صقلية، جرى تعيينه رئيساً لأساقفة كوزنزا Cosenza بموافقة من وليم ملك صقلية، ثم كان هناك زلزال عظيم، وقد خسف برئيس الأساقفة، ورجال كنيسته وأهل بيته وحاشيته وجزء كبير من المدينة، وجرى تهديم عدد كبير من القلاع وتعرض كثير من الناس للقتل، واختفت مدينة وغرقت في البحر الأدرياتيكي بكاملها أثناء الليل عندما كان جميع الناس نيام، وكان هناك زلزال في انكلترا أيضاً، في الشهال، وتهدمت بعض الأبنية في بعض الأماكن.

وكان هناك خسوف للشمس في بعد ظهر يوم اأيار.

وزار ملك فرنسا ملك انكلترا الذي كان مريضاً في بيوفوير Beauvoir يوم ٩ تشرين الثاني ومكث لمدة ثلاثة أيام.

#### سنة ست وثبانين ومائة وألف

في ٢٧كانون الشاني توج رئيس أساقفة فينا فردريك امبراطوراً للامبراطورية الرومانية المقدسة، وكان ذلك في ميلان، وفي اليوم نفسه توج بطريرك أكويلا aquileia هنري ملكاً للألمان، وقد دعي منذ ذلك اليوم بلقب قيصر، وتولى أسقف ألماني تتويج كونستانس عمة وليم صاحب صقلية، وجرى هذا في دير القديس أمبروغيو Ambrogio.

واجتمع الملكان الفرنسي والانكليزي، وكونت فالاندرز، وكونتسة

شامبين، ومرغريت أرملة الملك هنري الشاب، في غيسور يوم ١٠ أيار، ونوقش الحلاف بين ملك انكلترا، ومرغريت حول بائنتها —دوطتها— وحول حصة الزواج، وجرى التوصل إلى تسوية مصالحة.

وكان هناك خسوف للقمر يوم ١٦ نيسان بعد غياب الشمس مباشرة، وكسوف للشمس يوم ٢١ نيسان، بعد الفجر مباشرة.

واستولى الملك هنري على قلاع أكوتين التي كانت على درجة عالية من الحصانة بفضل الطبيعة وبراعة الانسان، وأعطاهم للشحن التي أرادها، ومع أن رتشارد كونت بواتو كان مغضباً جداً لم يشتك لوالده، وهكذا مع تمتع انجو، وتورين، ومين، وبريتاني، ونورماندي، بالأمن والهدوء، عاد الملك إلى انكلترا، ونزل سعيداً في ثاوثاً مبتون يوم ٢٧نيسان، وعبرت الملكة مع الملك على المركب نفسه.

وبعد نــزول الملك إلى اليــابسة، زار أسقـف ونشستر في مـارول Marwell وأمضى الليـل في ونشستر، وكان رئيس أساقفة كـانتربري قادمـاً لرؤية الملك، وعندما سمع الملك بذلك بـادر مسرعاً للقاء به، وأظهر لـه كل ّاحترام يستحقه، وفي هذا المقـام تجاوز تواضعه ومـااعتاد عليـه أجداده، وجـرى استقبال رئيـس الأساقفة في مـوكب مهيب في ونشستر يوم اأيار.

وتوفي غيوفري دوق بريتاني، ابن ملك انكلترا يوم ١٨ آب، وكان في الثامنة والعشرين من عمره، ودفن في شرفة جوقة المرتلين في نـوتردام باريس، وخلف ابنتين من زوجته كونستانس ابنة كونت كونان صاحب بريتاني.

وعادت مرغريت أخت الملك فيليب، ملك فرنسا وأرملة هنري الملك الشاب، إلى باريس مع قطار كبير، وكان ذلك يوم ٢٤آب، ثم تزوجت بعد هذا من بيلا ملك هنغاريا، ودلماشيا، وكرواتيا، وراما.

وبناء على أوامر من الملك اجتمع رتشارد عميد لنكولن ومعظم رجاله في آينشام يوم ٢٤أيار، وبعد اجتماع طويل حول مشاكل كنيستهم، جرى انتخاب هيوج —وهو بيرغندي من غرونوبل، كان رئيساً لرهبانية كارثوشيان Carthusian في انكلترا—أسقفاً للنكولن، وكان ذلك بحضور عدة أساقفة، وتم ارسال عدة رسل إلى بيرغندي لإخبار رئيس رهبانية دير لى غراند تشارترو Chartreus بيرغندي لإخبار رئيس رهبانية دير لى غراند تشارترو واسعة، الذي أعطى موافقته، وهكذا رسم هيوج، الذي تمتع بشعبية واسعة، أسقفاً للنكولن يوم ٢١أيلول في بيعة القديسة كاترين في وستمنستر.

## بحث آدم أوف آينشام في مسألة انتخاب أسقف لنكولن، وتتبع بوصف حي سيامته وتعميده.

كان هذا الكرسي المقدس شاغراً منذ قرابة الثهانية عشرة سنة، وأدرك الملك ملامته تجاه أوضاعه المهملة، وأن شعوره المحزن يرجع بشكل واضح لعدم اهتهامه به، ولهذا قرر بذل مجهوده لتدارك واصلاح الفوضى التي نجمت عن طول الاهمال، وذلك من خلال العناية باختيار راع نشيط.

وبها أن رجال الدين كانوا منقسمين بشكل لا أمل بتداركه، فقد قيل:

إن كل واحد منهم رغب بانتخابه هو ولاأحد سواه، وحثهم عدد كبير من الناس ونصحوهم بمحاولة الحصول على هيوج راعي وايتهام ليكون أسقفاً لهم، ذلك أنه كان رجلاً متميزاً بمحاسنه، وقد أثنى كثير من القوم على قداسته وحكمته، ورفعوا جاذبيته وتقواه إلى السموات، واتفق الجميع على أنه كان هو الشخص الوحيد الذي حوى الفضائل كلها مع أصالة المولد، وكان هناك اتفاق عام أنه لايمكن ايجاد أسقف مناسب أكثر منه.

أما وقد وصف هذا من قبل جيرالد رئيس شهامسة القديس داود،

وذلك بين بعض الحوادث الأخرى الهامة المرتبطة بالقديس، يبدو من المفيد نقل كلهاته واقتباسها، فهاكم روايته:

"وفي العودة إلى أسقف لنكولن، أعتقد أن علي عدم حذف حادثة لاشك أنه أريد بها أن تكون شارة وبشارة حول معاني قدومه، ففي اليوم —أو قريباً منه— الذي توج فيه هيوج أسقفاً للنكولن، كان هناك قرب عزبته على مقربة من ستو Stow التي تقع على مسافة تقارب الثمانية أميال من لنكولن، بقعة جميلة محاطة بالأشجار والبحيرات، وصلت إليها فجأة بجعة لم تر هناك من قبل، وقد تمكنت خلال أيام من قتال وقتل البجعات الأخريات هناك، وذلك بفضل وزنها وحجمها، واستبقت ذكراً واحداً،أبقته للصحبة وليس بقصد الانجاب، وكانت هذه البجعة أكبر من بقية البجعات مثلما تكون البجعة عادية، باستثناء أنها لم تمتلك العرف الأسود والمنتفخ، ولين يوجد عادة فوق المنقار، وبدلاً من ذلك كان ذلك الجزء من المنقار عريضاً وبراقاً، ولونه أصفر، وكذلك كان رأسها والجزء الأعلى من وبتها.

وما ان وصل الأسقف إلى قصره للمرة الأولى، حتى تحول هذا الطائر الملكي في مظهره غير الاعتيادي وحجمه، بشكل مفاجىء إلى طائر مدجن تماماً، فقد ترك نفسه يُمسك بدون صعوبة، وقد حمل إلى الأسقف لينظر إليه، وقد سمح له على الفور باطعامه، وبقي معه بمثابة حيوان أليف، وبدا بعد وقت قصير أنه فقد توحشه، ولم ينأى عن ملاحظته، لابل بدا أنه لايعبا بالأصوات الصادرة عن الحشود في كل مكان، ولايهتم بسواد المشاهدين الذين يأتون ويذهبون بشكل متواصل، واعتاد هذا الطائر عندما كان الأسقف يتولى اطعامه أن يدس رقبته

الطويلة في الفتحة الواسعة لكم قميصه، وهكذا ارتباح رأسه على الطيات الداخلية، وكان يمكث هكذا لبعض الوقت يتنفس بلطف، وكأنه يتكلم بغرام وسعادة مع صاحبه، ويطلب شيئاً ما منه.

وزيادة على هذا ذكر الموظفون ومساعدوهم الذين كانوا مسؤولين عن العزبة، أن الطائر كان يظهر نشاطاً عظيماً ليس معتاداً قبيل عودة الأسقف من سفر كان بالعادة يغيب فيه ثلاثة أيام أو أربعة، فكان يطير على وجمه النهر، ويضرب الماء بجناحيه، ويصدر أثناء ذلك أصواتاً عالية، وكان يقوم من وقت إلى آخر بمغادرة الماء، ويسرع إلى الدخول إما إلى القاعة أو إلى البوابة، وكأنه ذاهب لمقابلة صاحب لدى وصوله، ومن المتصور أنه كان مثله مثل طيور السماء حساس جداً بسبب طبائعهم الاحترازية، وكذلك هم يتوقعون وقوع تغييرات في عناصر الهواء أو حدوث حوادث قبل وقوعها، ويبدو ذلك من تصرفاتهم، ولعل هذا الطائر كان يعرف قرب وصول مولاه بالغريزة من استعدادات ونشاط خدمه، ومثير للانتباه، أنــه كان على كلّ حال صديقاً وأليفاً مع واحد فقط هو الأسقف، وفي الحقيقة، أبقى كلّ انسان، كما رأيت بنفسي، بعيداً عن مولاه، عندما كان معه، بالتصويت عليهم، أو بتهديدهم بجناحيه ومنقاره، كما كان ينعق بصوت مرتفع كما كانت عادته مع البجعات، وبدا كلّ ذلك وكأنه قرر أن يوضح تماماً أنه يعود له فقط، وأنه كان رمزاً مكرساً فقط للقديس وحده.

وعندما زار الأسقف ذلك المكان في عيد الفصح الأخير الذي حل قبل رحيله من الأرض، لم يكتف الطائر بعدم القدوم لمقابلته كما هي العادة، بل إنه رفض أن يغادر البقعة التي كان يسبح فيها، حتى يجلب إليه، وكان مدهشاً لكل انسان، أنه مكث فوق الماء ينظر بحزن وكأنه مريض، وكانت حركاته واهنة، وأخيراً أمر الأسقف أن يجلب إليه، أرضي أم لم يرض، ولمدة ثلاثة أيام حاول عدد كبير من الناس بصعوبة

فعل ذلك، لكن جاءت جهودهم بالثيار، وأمسك في النهاية بين بعض النباتات النامية الكثيفة في منطقة نائية من البحيرة هناك حيث كان قد التجأ خوفاً من الامساك به، وعندما أحضر إلى الأسقف كان مدلى الرأس، وتنبعث منه رائحة التعاسة، وصورته صورة الحزن، وكانت واقعة غريبة أدهشت كلّ من رآها.

وكانت زيارة الأسقف قصيرة جداً، وبعد ستة أشهر سار على طريق جميع الأجساد، ولم ير ثانية من قبل صديقه الطائر، وعند ذلك لاحظ الذين تفكروا حول المسألة أن الأجواء الحزينة كان معناها أنه سيودع حزيناً قريباً مولاه لآخر مرة، ولقد عاش بعده، على كل حال، لمدة طويلة».

وعلى الرغم من أن هدفي العظيم تجنيب قرائي التعب بالدوران معهم طويلاً، أعتقد أن على أن أبين أنه كان أقل اعتدالاً في قضية الطعام بعد وصوله إلى مركز الأسقفية، مما اعتاد عليه من قبل، فهو لم يلمس اللحوم سواء في مرض أو في صحة، لكن كثيراً ماأكل السمك، ولم يتمنع عن الخمرة كلياً، بل شربها باعتدال لحاجات الجسد الضعيف وذلك حسبها نصح الرسول، وكذلك رغبة منه في أن يضرب مثلاً في أن كلّ شيء لكل الناس، وابتغى أيضاً أدباً وتيسيراً أن يجعل الذين كانوا يأكلون معه مرتاحين ولايشعرون بالحرج، فقد كان يجلس إلى المائدة مسروراً وفيه حيوية، ولكن بالوقت نفسه كان حزيناً متحرزاً، متذكراً على الدوام، لابل ناقلاً للذين حثوه على أن يكون مسروراً، النص الذي على الدوام، لابل ناقلاً للذين حثوه على أن يكون مسروراً، النص الذي ماحدث أحياناً في الحفلات الكبرى سواء في بيته أو عندما يكون ضيفاً ماحدث أحياناً في الحفلات الكبرى سواء في بيته أو عندما يكون ضيفاً في مكان آخر، وتكون هناك موسيقى أو تمثيل، كان يُظهر أعظم تمنع، فنادراً مارفع عينيه من على الأرض، وأظهرت كل كلمة أو حركة بدت فنادراً مارفع عينيه من على الأرض، وأظهرت كل كلمة أو حركة بدت منه للذين كانوا حضوراً المدى الذي انسحب فيه وانعزل به نهائياً بشكل منه للذين كانوا حضوراً المدى الذي انسحب فيه وانعزل به نهائياً بشكل منه للذين كانوا حضوراً المدى الذي انسحب فيه وانعزل به نهائياً بشكل

كامل، وكأن مشاعره الخارجية هي فقط التي جذبت بهذه المتع الحلوة.

وبسبب براءته النقية، التي جعلته مخزناً عظيماً للاخلاص والبساطة، امتلك القديس عواطف غير عادية نحو الأطفال، بسبب سذاجتهم الكاملة، وبهذا شابه كاتب الكمال الذي قال لمريديه:

«دعوا الأطفال الصغار يأتون إلى ولاتمنعونهم فبهم ومعهم مملكة السموات»، وكان حيثا وجدهم، لاطفهم بمحبة وبحنان ملائكي، لابل حتى عندما كانوا لايستطيعون الكلام، ويصدرون أصواتاً مؤثرة، واعتاد على أن يرسم علامة الصليب على جباههم وعلى أفواههم وعيونهم، ويباركهم مرات ومرات، ويصلي لسعادتهم وتقدمهم، وكانوا هم بدورهم يغدون أصدقاء له بسرعة مدهشة، حتى الذين بالعادة كانوا يخافون من كل انسان تقريباً، كانوا يقبلون عليه بجاهزية أكثر من إقبالهم على آبائهم.

ولقد رأيت طفلاً كان عمره حوالي الستة أشهر، عندما رسم على جبينه علامة الصليب بالزيت المقدس، عبر عن سرور عظيم بتحريك أطرافه، حيث ذكرنا هذا بسرور التعميد، والقفز داخل جرن المعمودية، واسترخى الفيم الصغير والوجه في حالة ابتسامة مستمرة، وبدا أمراً لايكاد يصدق أنه في السن الذي عادة يصرخ فيه الأطفال ويبكون أمكن لهذا الطفل أن يضحك بهذه الطريقة، ثم انحنى ومد نحو الخارج ذراعيه الصغيرين وكأنه يحاول الطيران، وحرك رأسه إلى الأمام والخلف، وكأنه أراد أن يظهر أن سروره كان أعظم مما يستطيع تحمله، ثم أخذ يده بيديه الصغيرتين، وبذل جهد طاقته ليرفعها نحو وجهه، ثم تابع لعقها عوضاً عن تقبيلها، وقد فعل ذلك لوقت طويل، وكان الخضور مندهشين برؤية المنظر غير الاعتيادي للأسقف والرضيع وهما أخرى يحبها الأطفال بالعادة، لكنه رفض ابداء السرور بها، وبدا أنه

مستغرق ومندهش بالأسقف، ودفع بشدة يدي الممرضة التي كانت تحسكه، وحدق بشدة نحو الأسقف وصفق بيديه وهو يبتسم طوال الوقت.

وعندما أبعد أخيراً، عبرت الجهاعة عن دهشتها تجاه هذا المشهد غير الاعتيادي، وأعلنت أنها لم تشهد قط مخلوقاً صغيراً بهذا الحجم يعبر عن مثل هذا السرور العظيم.

وعندما كان هيوج في دير فيكامب Fecamp. الواسع الشهرة حصل بالعض على قطعتين صغيرتين من عظم ذراع مريم المجدلية، الأعظم قداسة بين محبي المسيح، ولم ير أحد هذا العظم قط وهو معرى مما لف به، سواء في ذلك راعي الدير أو الرهبان الذين كانوا حضوراً في تلك المناسبة، لأنه كان محاطاً بإحكام بثلاث قطع أقمشة، اثنتان من الحرير وواحدة من الكتان العادي.

وهم لم يتجرأوا حتى على الموافقة على توسلات الأسقف لرؤيته، ومهما يكن الحال، أخذ الأسقف سكيناً من واحد من الموثقين، وقطع بها بسرعة الخيط وكشف اللفائف، وبعدما تفحص العظم بكل تبجيل وقبله بكل تقديس حاول بلا نجاح كسره بأصابعه، وعندها عضه أولا بقواطعه وأخيراً بأضراسه، وبهذه الطريقة اقتطع قطعتين صغيرتين منه، وناولهما على الفور إلى الموثق قائلاً له: «اعتن بهاتين القطعتين من أجلي عناية خاصة».

وعندما رأى راعي الدير والرهبان ماحدث، أصيبوا أولاً بالرعب، ثم استبد بهم غضب شديد، وصرخوا قائلين:

«ماهـذا الاثم العظيم، لقد اعتقدنا أن الأسقف طلب أن يرى هذا الأثر المقدس والمبجل لأسباب تعبدية، فغرس أسنانه به وقضمه كأنه كليب»! وسكّن غضبهم بكلمات ملطفة، وجزء من كلامه جدير

بالتسجيل، من ذلك قوله:

"إذا كنت قمت منذ وقت وجيز مضى بحمل الجسد الأعظم قداسة، جسد مولى جميع القديسين، بأصابعي، وذلك على الرغم من عدم جداري، وعندما تركته لمسته بشفتاي وأسناني، فلهاذا يتوجب علي ألا أغامر في أن أعامل بالطريقة نفسها عظام القديسين من أجل حمايتي، فبهذه الذكرى منهم تضاعف احترامي لهم وتبجيلي، وحصلت بدون تدنيس عليهم عندما توفرت الفرصة لي»؟.

## سنة سبع وثمانين ومائة وألف

في سنة ١١٨٧، كما أوضح ديسيتو كان الملكان الانكليزي والفرنسي يستعدان مرة جديدة للحرب.

وفيها مملكته تتمتع بمنح السلام، عبر الملك هنري القنال من دوفر يوم ١٧ شباط، ومضى من خلال فلاندرز، ومكث في قلعة اسمها هيسدن Hesdin ودخل بعد ثلاثة أيام إلى نورماندي إلى درينكورت Drincourt.

وولدت كونستانس كونتسة بريتاني، التي كانت حاملاً وقت موت زوجها غيوفري ابن ملك انكلترا، ولداً ذكراً سماه البريتانيون آرثر.

وبينها كان ملكا فرنسا وانكلترا يحشدان الجيوش في بورغز Bourges ويعبئان قواتهما ويسلحانها من أجل الحرب، عقدا هدنة في تشاتورو Chateauroux يوم ٢٣حزيران لمدة سنتين، وقد دفع كلّ منهما إلى الآخر تعويضات عن الأضرار، وذلك بدلاً من اخضاع

المسائل لحكم رب الحرب المشكوك به.

وولدت مرغريت ملكة فرنسا للملك فيليب ولدا ذكراً؟ أطلقت عليه اسم لويس.

وكتب فرسان الداوية الرسالة التالية إلى المسيحيين:

"ياللاسف، مامن رسائل أو صوت نائح يمكنه أن يصف، أو أن يعدد المصائب التي أنزلها علينا غضب الرب، نتيجة لإثارته بذنوبنا، فلقد حشد الأتراك جيشاً كبيراً من شعبهم وغزوا المملكة المسيحية، وحشدنا نحن قواتنا، وزحفنا في يومي ٣و٤ تموز وقاتلناهم، وتحركنا باتجاه طبرية التي استولوا عليها بالقوة، وذلك باستثناء القلعة فقط، ولقد ساقونا ناكثين نحو شعب جبلي مرعب جداً، وهزمنا هزيمة شنعاء حتى أن صليب الصلبوت تم الاستيلاء عليه، وقتل ملك القدس، وكذلك مقدمنا، ومعها جميع جيشنا تقريباً واخواننا، ونحن على هذا نعتقد أن مائتين وثلاثين رجلاً قطعت رقابهم في ذلك اليوم، وذلك دون أن نذكر الستين الذين قتلوا في الأول من أيار، وكان كونت طرابلس، واللورد أرناط صاحب صيدا، واللورد بالين (أوف ابلين) ونحن أنفسنا قد نجونا من ذلك المعترك الماساوي، بكل صعوبة، ووصلنا من هناك ونحن عرضون بالدم المسيحي.

وقد ذهبوا ومعهم جيشهم كله إلى عكا، ثم استولوا على مجمل المنطقة تقريباً، مبقين القدس وعسقلان وصور في أيدينا، وقد قتل جميع سكان هذه الأماكن في المعركة، ومالم تصلنا المساعدات الربانية وعون الناس الشرفاء بكل سرعة، لن نكون قادرين على الصمود في وجوههم، وصور محاصرة حصاراً شديداً في هذه اللحظة، وهم يقاتلونها باستمرار ليلاً ونهاراً، وهم في أعداد عظيمة إلى حد أن جميع المنطقة من صور إلى القدس نزولاً إلى غزة، تبدو وكأنها عش نمل».

وحمل رتشارد كونت بواتو، وابن هنري الثاني، والأول بين بارونات فرنسا، الصليب وتناوله من يد رئيس أساقفة تور، وذلك دون أن يسأل أباه، أو ينتظر حتى يسمع رغباته.

### سنة ثمان وثمانين ومائة وألف

التقى في ٢٦كانون الثاني ملكا الفرنسيين والانكليز للتداول، وبعد نقاش طويل، كان الملك الانكليزي الأول في تناول الصليب من رئيسي أساقفة صور وروان، وبعد ذلك تناول الملك الفرنسي الصليب من رئيسي أساقفة صور ورايمس، ثم أخذه فيليب أوف فلاندرز، والتحق به أيضاً عدد كبير، واتفقوا فيها بينهم على أن يرتدي الفرنسيون صلباناً محراء، والانكليز صلباناً بيضاء، والذين هم من فلاندرز صلباناً خضراء، وبعدما حمل الملك الانكليزي الصليب أرسل محاسب بلاطه، ورتشارد باري Barre رئيس شهامسة ليزو Lisieux إلى امبراطوري روما والقسطنطينية.

وفي هذه الآونة قتل غيوفري أوف لوزغنان Lusignan صديقاً لرتشارد كونت بواتو في كمين نصبه له، وحمل الكونت رتشارد السلاح لانزال العقوبة بمقترفي هذه الجريمة، وقام وهو يتذكر أنه قد حمل الصليب، بالساح لمن أراد من رجال غيوفري حمل الصليب، بفعل ذلك، وقتل عدداً كبيراً وجعلهم طعمة للسيف، واستولى على عدد كبير من القلاع، وثبت غيوفري لاعتماده على القوة والمال، الذي كما قيل جاءه من الملك الانكليزي، وقاوم الكونت وتقدم بعض الشيء، ولهذا السبب ابتعد رتشارد كونت أوف بواتو عن أبيه، ودخل الكونت رتشارد إلى بلاد غسكوني، وهاجم كونت طولوز، وتمكن خلال مدة

وجيزة من الاستيلاء على سبع عشرة قلعة في منطقة طولوز، لكن بعدما تلقى الدعم من البرابانكونيين، وغضب ملك فرنسا غضباً شديداً لإقدام رتشارد كونت بواتو على الهجوم على مملكته، وفاجأ قلعة تشاتورو Chateauroux في بيري يوم ١٦ حزيران وأرغم سكانها على تقديم ولاء التبعية له، وبدا هذا كله غير لائق تماماً بالملك، لاسيا بعدما حمل الصليب، لذلك عبر ملك انكلترا إلى انكلترا، بعدما أودع جميع أراضيه في حفظ ملك فرنسا، الذي تلقى الوصاية بإيان طيب.

ثم كسب ملك فرنسا إلى جانبه بالوعد والوعيد بعض حفظة القلاع الذين كانوا خاضعين للملك الانكليزي، وعندما سمع الملك هنري بهذا عبر إلى فرنسا في حوالي ٢٥ تموز، وحشد جيشاً كبيراً من الانكليز، ومن التخوم، ومن الويلزيين والبريتانيين، غير أنه أبقاهم متوقفين لأيام كثيرة يعيشون في الخيام في نورماندي حتى أصبحوا متشوقين للهجوم على فرنسا.

والتقى أخيراً الملكان، وعقدا مؤتمراً في يوم ١٦ آب بين غيسور وتراي، استمر ثلاثة أيام، وعندما انفصل الملكان من الجانبين من دون اتفاق، أمر ملك فرنسا بقطع شجرة قرب غيسور لكن جذرها كان داخل المملكة الفرنسية، وغادر الملك الانكليزي غيسور في اليوم التالي، وجاز خلال فيرنون Vernon وغزا فرنسا، وعاث بالبلد فساداً حتى مانتي Mantes.

و في يوم ١٨ تشرين الثاني عقد اجتماع فيها بين الملكين الانكليزي والفرنسي في بونزمولين Bonsmoulins كان رتشارد كونت بواتو قد أعده، وعندما وصلا إلى المؤتمر للتباحث اقترح الملك الفرنسي أن يرد إلى الملك الانكليزي كلّ شيء استحوذ عليه منذ حمله الصليب، وأن يبقى بعد هذا كلّ شيء على ماكان عليه قبل حمل الصليب، ورد عليه ملك الانكليز، بناء على نصيحة رجال الدين وكذلك البارونات أن من

الأفضل الدخول في سلام ثابت بدلاً من تطويل خصام الطلبات.

وعندما سمع رتشارد بن هنري وكونت بواتو، هذا، تكلم ضده، لأنه بدا له من غير المناسب اعادة كويرسي Quercy على أساس هذا الشرط، وأيضاً اعادة جميع المقاطعة وأشياء أخرى كثيرة في مملكته، تساوي ألف مارك أو أكثر كلّ سنة، من أجل ايجار تشاتورو، وقلعة ايسودون Issoudun وغراسي، وطلب كونت بواتو شيئاً آخر، فقد سأل والده أن يعطيه أخت الملك الفرنسي لتكون زوجة له، وطالب أن يقوم الملك هنري بتأكيد تملكه لأراضيه على أساس ولي عهد الملك ووريشه، وقد طالب بهذا كله من خلال الملك الفرنسي، ورد الملك وقام بعد هذا كونت بواتو، على مشهد من الجميع بتقديم الولاء للملك وقام بعد هذا كونت بواتو، على مشهد من الجميع بتقديم الولاء للملك الفرنسي عن كلّ مايمتلكه والده مما يعود إلى المملكة الفرنسية، وذلك باستثناء أراضي أبيه مادام حياً، والاحتفاظ بالاخلاص الذي يدين به لأبيه، وهكذا انتهى المؤتمر، وجرى تمديد الهدنة حتى ١٣ كانون الثاني.

## سنة تسع وثهانين ومائة وألف

# رسالة أخبار من الشرق:

«هُزم جيش صلاح الدين عند أنطاكية، وشرع أمير أنطاكية يركب يومياً ويسير بعيداً حتى حلب، واستولى أدميرال مرغريت على يافا، وقتل جميع الأتراك النين كانوا هناك، وقتل خمسة آلاف منهم وأسر ثهانية أمراء، واستولى أيضاً على جبيل وقتل كلّ واحد هناك، وهاجم صاحب مُلا Mulla وهو واحد من مقدمي صلاح الدين، صلاح الدين، وهذا مافعله أيضاً صاحب ماردين، وقاتل الخليفة، صاحب

بغداد، الذي هو رئيس جميع الأتراك، صلاح الدين بقدر ماكان باستطاعته، وإنكم لتعلموا أن سلطان قونية قد زوج ابنته إلى ابن صلاح الدين، وزوج صلاح الدين ابنته إلى ابن السلطان، ومعروف بشكل واسع كيف أن قطز (大) Kuteyez ابن صلاح الدين قتل زوجته، ابنة السلطان، ذلك أنه من المؤكد وبلا أدنى شك، كما يقول الجميع، تحققت نبوءة دانيال القسطنطيني التي قالت:

إنه مع اقتراب حلول يوم الفصح، سيسترد الفرنسيون أرض الميعاد، وسيربطون خياولم في حدائق نخيل بغداد، وسينصبون خيامهم خلف الشجرة الجافة، وسيفصلون البيقية عن القمح، وأنتم تعلمون بشكل مؤكد أنه قد توفر بمر في البوسفور.

وبات معروفاً بشكل واسع أن السلطان يكره امبراطور القسطنطينية، لأنه لم يدفع له الأربعائة دينار ذهبي التي توجب عليه دفعها كلّ سنة منذ أن أصبح امبراطوراً، كما أنه لم يدفع له الشلاثمائة دينار الأخرى، وانتبهوا أيها الأخوة لماقاله لنا الامبراطور في إحدى المرات، حتى لاتنخدع العين، وفيها عدا ذلك، يمكنني أن أخبركم أن كثيراً من الترك وقعوا بالأسر عند صور، إلى حد أن اثنين من الترك يمكن بيعها بقطعة نقدية بالأسر عند صور، ويقال وضع صلاح الدين في سجنه رسولاً من يوستاس باتريكوس وبالين، الذي اتخذ لنفسه زوجة، زوجة ملك يوستاس باتريكوس وبالين، الذي اتخذ لنفسه زوجة، زوجة ملك

<sup>★ —</sup> كذا، ولم يكن بين أولاد صلاح الدين من حمل هذا الاسم، ومن الممكن قراءة هذا الاسم «قطب» وبالفعل كان لصلاح الدين ولد اسمه موسى، ولقبه قطب الدين، ولد بمصر سنة ٥٧٣، أي كان عمره وقت هذه الحادثة حوالي اثنتي عشرة سنة. شفاء القلوب للحنبلي — ط. بغداد ١٩٧٨ ص١٩٦٨.

القدس، عندما سلمه كونت طرابلس أرض الميعاد، وأنتم تعرفون أن الامبراطور قد أبدى احتراماً نحو رسل صلاح الدين في قصره أعظم مما أبداه نحو أي واحد آخر كان هناك من ذوي المناصب، وبعدما سلم صلاح الدين جميع كنائس الأرض المقدسة إلى رسل الامبراطور، وبناء عليه من الممكن أن تدار وفقاً لعادات الاغريق، وعليكم ألا تثقوا باغريقي حتى لو عاهدكم بيده، وإنكم لتعلمون أن صلاح الدين أرسل، بناء على موافقة الامبراطور وثنه [كذا] إلى القسطنطينية ليعبد بشكل علني هناك، لكن بنعمة من الرب تم الاستيلاء عليه في البحر من قبل الجنويين، وقد أخذ مع السفينة إلى صور، وهناك الآن أنباء أن جيش صلاح الدين قد توقف عند أنطاكية.

ولقد قيل بأن النبوءة التي أخبر بها اغريقي مسن من أسترالكس Astralix اللورد وولتر مقدم الداوية، والتي أغضبت الاغريق سوف تتحقق الآن، وفيها أن اللاتين سوف يحكمون مدينة القسطنطينية وسيكونون سادتها، لأنه قد كتب على البوابة الذهبية التي لم تفتح منذ مائتي سنة انقضت، إنه: «عندما يأتي الملك صاحب الشعر الأحمر من الغرب، أنا سوف أفتح من قبل ذاتي»، وجرى تسميم آسان Asan ذلك الرجل الطيب، في ثيابه الامبراطورية، ووعد الامبراطور صلاح الدين بتقديم مائة شيني، وأعطاه صلاح الدين وعداً بجميع أرض الميعاد، إذا ماتولى الامبراطور منع وصول الملك الفرنسي، وأخبركم بصدق أنه إذا مالس أي انسان صليب القسطنطينية سوف يعتقل على الفور ويلقى به في السجن، وإليكم على كل حال نبوءة فلكي تركي قالت:

إنه في ثلاث سنوات، سوف يموت ثلث الأتراك بحد السيف، وسوف يفر الثلث الثاني إلى ماوراء الشجرة الجافة، أما الثلث المتبقي فسوف يعمد، ولهذا نحن نعرف أن صلاح الدين في الحقيقة لم يعد

بإمكانه ايجاد أي تركي يرغب في عمارة أرض الميعاد، أو يأخذوا أسرهم إلى هناك خوفاً من وصول الفرنسيين، وفي اليوم الذي غادر فيه حامل هذه الرسالة القسطنطينية، جاء بعض الرسل يقولون إن جيش صلاح الدين قد جرى تدميره عند أنطاكية، وأن أخاه وابنه قد وقعا بالأسر، وفي اليوم الذي غادرت أنا فيه أمر الامبراطور بمحق جميع اللاتين في امبراطوريته، وإنكم لتعلمون أنه بنعمة من الرب يوجد في مملكة قونية خسة آلاف من الأرمن الجيدين مع خمسة وعشرين أميراً جاهزين للذهاب مع الفرنسيين للدفاع عن المسيحية، ولتحرير الأرض التي ولد فيها مولانا يسوع المسيح، ومات».

وعقدت بعد عيد الفصح المقبل مباحثات بين ملكي فرنسا وانكلترا ورتشارد كونت بواتو، مرتين في لى فيرت برنارد -La Ferte Ber مرتين في لى فيرت برنارد مطولة بمثابة النهاية، انسحب الطرفان بعد محادثات مطولة بمثابة أعداء.

تمّ وصف الأيام المأساوية الأخيرة من حكم هنري الثاني، ثم موت الملك، بشكل جيد في كتاب «أعهال الملك هنري الثاني».

غادر فيليب ملك فرنسا واستولى على لى فيرت برنارد، وفي يوم الاثنين التالي، عندما بدا أن ملك انكلترا ورجاله قد غدوا على مسافة آمنة من النقطة القصوى لزحف الملك الفرنسي، أعد الملك الفرنسي جيشه وعبأ صفوفه للمعركة بهدف الهجوم على مدينة لامانس، وفعل هذا بعدما رأى مافعله ستيفن صاحب تور والمشرف على أنجو بإلقائه النار في الربض، لكن النار زاد التهابها وبات حجمها هائلاً، فقفزت عبر الأسوار وجعلت المدينة نفسها طعمة للهب، ووقع عدد كبير من رجال جبش الملك الانكليزي بالأسر، أما البقية فقد عجزوا عن الهرب،

وكانوا يرغبون بالتراجع إلى المدينة، وتمكن الفرنسيون من شق طريق معهم، ولدى رؤية ملك انكلترا مايحدث خاف كثيراً على جماعته، فحنث بوعوده، وهرب من المدينة مع سبعين فارساً، ذلك أنه كان قد وعد سكان المدينة أنه لن يتخلى عنهم في وقت المحنة، ومرد هذا بالدرجة الأولى إلى أن والده مدفون هناك، وفي الدرجة الثانية إلى أنه هو نفسه قد ولد هناك، كما أنه أحب تلك المدينة أكثر من حبه لغيرها، وطارده الملك الفرنسي لمسافة ثلاثة أميال، ولولا أن نهر سارث عظيم، لتولوا مطاردة الفارين الآخرين بسرعة كانت ستمكنهم، كما عظيم، لتولوا مطاردة الفارين الآخرين بسرعة كانت ستمكنهم، كما تأكد بشكل عام، من أسرهم جميعاً.

وعلى كلّ حال جاء الملك الانكليزي ومعه حاشية صغيرة إلى شينون Chinon ثم انسحب إلى داخل القلعة التي كانت هناك، لكن بقية آل بيت الملك تراجعت إلى حصن قلعة لامانس، وعلى الفور حاصرها ملك فرنسا وهاجمها بآلات حربه ورماياته، وبعد حصار دام ثلاثة أيام استسلمت القلعة أخيراً مع ثلاثين فارساً وستين رجلاً مسلحاً.

وقدم في يوم الأحد التالي فيليب كونت فلاندرز، ووليم رئيس أساقفة ريمس وهيوج دوق بيرغندي إلى ملك انكلترا، الذي كان آنذاك في سامور Saumur لقد قدموا بمباردة شخصية منهم بدون رضا الملك، للسعي لإقامة تسوية بينها، لكن ملك فرنسا كان قد آنذرهم قبل انطلاقهم في رحلتهم، أنه سيقوم رغها عنه، بالإعداد لهجوم على المدينة من قلعة سان مارتن، التي كان قد عاد إليها عبر نهر اللوار.

وتم يوم الاثنين التالي في الثالث من تموز، وعلى حوالي الساعة الثالثة الاستيلاء عنوة على مدينة تور، وكان الهجوم عليها قد أقلع به من على ضفاف نهر اللوار، وذلك نتيجة لانخفاض مستوى مياه النهر، —انخفض حجم الماء إلى أدنى المستويات فأسندت من هناك السلالم

على الأسوار، وكمان في داخل المدينة ثمانين فارساً ومائة رجمل مسلح، فأخذوا جميعهم أسرى، وبات ملك انكلترا الآن في وضع حرج، لذلك أقام سلاماً مع ملك فرنسا، وفق الصيغة التالية:

«يضع هنري ملك انكلترا نفسه في جميع الأشياء والامور تحت رأي وارادة فيليب ملك فرنسا، إلى حد أن كل ماأعده ملك فرنسا وأمر به سينفذه ملك انكلترا كلياً وبدون اعتراض.

أولاً: قدم ملك انكلترا مجدداً الولاء لملك فرنسا، بسبب أنه، كما ذكر أعلاه، قد سلم جميع ممالكه إلى ملك فرنسا، الذي كافأه في بداية هذه الهدنة.

ثانياً: قرر ملك فرنسا أن أخته أليس، التي يحتفظ بها ملك انكلترا تحت وصايته ستسلم وتوضع تحت وصاية واحد من خمسة [بارونات] سوف يختارهم رتشارد صاحب بواتو، زيادة على هذا تعهد ملك فرنسا أن تمنح أخته الأمان بيمين رجال هذه البلاد، لتكون زوجة للكونت رتشارد إثر عودته من القدس، ولسوف يحصل الكونت رتشارد على تبعية رجال أراضي أبيه في هذا الجانب من القنال، وفي الذي يليه، وكذلك مامن واحد من البارونات أو الفرسان الذي سحبوا ولاءهم من ملك انكلترا في الحرب الحالية، والتحقوا بجانب الكونت رتشارد، سوف يعود في المستقبل إلى ملك انكلترا، فيا عدا الشهر الأخير قبل انطلاقه نحو القدس.

والوقت المحدد لهذه الرحلة سيكون منتصف الصوم، ولسوف يلتقي الملكان المذكوران مع رتشارد كونت بواتو في ذلك التاريخ في فيزلي.

وكذلك سوف يحلل جميع سكان الممتلكات الملكية العائدة لملك انكلترا في جميع أراضي الملك الفرنسي بموجب عاداتهم القانونية ولسوف لن يقاضون في أية مسألة مالم تكن جناية اقترفوها.

وقد دفن في فونتيفرولت Fontevrault في دير الراهبات اللائي يعبدن الرب هناك.

ومدد في اليوم الذي تلا وفاته، عندما حمل إلى الدفن، في وضع ارتدى فيه ملابسه ببهاء ملكي، وقد وضع التاج الذهبي على رأسه، وفي يديه قفازين، وخاتم ذهبي على اصبعه، ممسكاً الصولجان بيده، مرتدياً حذاء مزركشاً بالذهب، وهناك مهازين على قدميه، متمنطقاً بسيفه، ووجهه غير مغطى، وعندما روي هذا لابنه الكونت رتشارد جاء مهرولاً بأقصى سرعة ليستقبل الموكب، ولدى وصوله أخذ الدم يتدفق من أنف الملك المتوفى، وكأن روحه تحركت سخطاً، وتبع الكونت المذكور موكب جسد والده وهو يبكي وينتحب، حتى وصل إلى فونتيفرولت، حيث دفن.

# القسم الرابع

رتشارد الأول

#### 1199-1149

شارك رتشارد قلب الأسد والده في بعض قدراته الادارية، لكن ماتميز به هو القتال، فلقد شن الحرب بشدة ووحشية وحماسة طوال معظم مدة حكمه، حيث حوّل بمالكه من خلال نشاطاته إلى حالة القرب من الافلاس، وحمله هوسه إلى الأراضي المقدسة في ١٩١١-١١١، في حملة صليبية كانت من بعض الجوانب ناجحة، غير أنها انتهت بشكل مأساوي، ووقع بالأسر وهو في طريق عودته إلى انكلترا، وبقي معتقلاً ينتظر الفدية، في سجن ألماني في ١١٩٢-١١١٤، وما أن عاد إلى موطنه، عتى رجع رتشارد إلى ساحة المعركة، وفي هذه المرة ضد زميله في الحملة الضليبية فيليب الثاني ملك فرنسا، وواجه رتشارد منيته المبكرة سنة المخليبية فيليب الثاني ملك فرنسا، وواجه رتشارد منيته المبكرة سنة المخليبية فيليب الثاني معتمارة مع حليف لفيليب كونت أكوتين.

ونبعت عداوة الملك الفرنسي نحو رتشارد من سبب رفض قلب الأسد الزواج من أخته أليس، وذلك على الرغم من خطبته لها منذ سن الطفولة، هذا من جانب، ومن جانب آخر لزواج رتشارد من بيرنغاريا النافارية، هذا ولم ينجب هذا الزواج لرتشارد ولياً للعهد، وأعطى هذا إلى أخيه جون مساحة واسعة لخطط تأمرية.

ونجد من جديد في الجزء الرابع أن كتاب "صورة التاريخ" لرالف

ديسيتو، هو المصدر الرئيسي لهذه المرحلة التي وصف بها حوادث حكم رتشارد.

بعدما رتب رتشارد كونت بواتو المسائل على أحسن مايرام لضان السلام والهدوء في أكوتين، وانجو، وتورين، ومين، وصل إلى نورماندي، وجاء وصوله بعد ثلاثة أسابيع من وفاة والده، في ٢ تموز ١١٨٩، والتقى بكل من رئيسي أساقفة كانتربري وروان في سيز Seez وسأل العفو، وتلقى الغفران لاقترافه جريمة حمل السلاح ضد والده، بعد حمله شارة الصليب للقيام بحملة صليبية، ومن هناك ذهب إلى روان حيث تسلم علم وسيف دوقية نورماندي من يدي رئيس أساقفة روان، وحدث ذلك أمام المذبح المرتفع في كنيسة العذراء المقدسة، وكان على مشهد من حشد من النبلاء.

ثم ذهب إلى انكلترا، واستقبل هناك استقبالاً عظياً في ونشستر يوم ١٥ آب، وأسند إلى الملكة إليانور التي كانت تحت حراسة مشددة، سلطة العمل كنائبة لابنها، وفي الحقيقة أصدر التعليات إلى أمراء المملكة، على شكل مرسوم عام، بأن كلمة الملكة ينبغي أن تكون قانوناً في جميع المسائل.

وبها أن رتشارد كان قد قاوم والده، وبذل كها يبدو الكثير من الجهد لإثارة القوى الفرنسية التي كانت معادية للنورمان، لهذا كسب عدم رضا الناس الطيبين والعاقلين، وقد أراد الآن —على كلّ حال— أن يغسل جميع تجاوزاته الماضية، باظهار التشريف لأمه، وكان يأمل أن طاعته لأمه سوف تسهم في تلطيف أعهاله العدوانية ضد أبيه.

وأظهرت هذه الحوادث صدق النبوءة التي حيرت الجميع بغموضها حيث قالت: «سوف يفرح النسر صاحب الرباط المقطوع بفرخه الثالث»،

فلقد دعوا الملكة النسر، لأنها مدت جناحيها - كها حدث - فوق مملكتين هما: فرنسا وانكلترا، فقد انفصلت عن الرباط الفرنسي من خلال الطلاق، بينها فصلها الانكليزي وأبعدها عن فراش الزوجية بحبسها بالسجن (لقد سجنت ست عشرة سنة تماماً)، وهكذا كانت بالنسبة للبلدين «النسر صاحب الرباط المقطوع»، ومن الممكن فهم الجزء الثاني من النبوءة قولها: «سوف يفرح بفرخه الثالث» كها يلي: لقد كان أول أولاد إليانور هو ابنها وليم، الذي توفي وهو مايزال طفلاً، وارتقى ابنها الثاني إلى مرتبة ملك، غير أنه حمل السلاح ضد والده، وسدد ديونه إلى الطبيعة، وكان رتشارد هو ولدها الثالث، وهو على هذا الفرخ الثالث، وهو أيضاً الذي سيتولى رفع اسم أمه إلى أعالي المجد.

وعندما علمت الملكة إليانور أن خيول الملك هنري الثاني محفوظة في اصطبلات الديرة، وزعتهم ومنحتهم على شكل أعمال كرم تقوية، واحتفظت بخدمات الرجال الذين عهد إليهم بأمر العناية بالغابات، وهددتهم بانزال عقوبات قاسية بهم.

وبناء على دعوة من رئيس أساقفة كانتربري اجتمع الأساقفة الآخرون في لندن يـوم ٣-أيلول من أجل تتويج الملك الجديد، وجاء أيضاً رعاة الحديرة ورؤساؤها، وحضرت الملكة إليانور بناء على طلب الإيرلات والبارونات، وكبار المسؤولين، هذا ومن غير الممكن تعداد أسماء جميع الأساقفة الذين حضروا، لكن رؤساء أساقفة كانتربري وتريف ودبلن كانوا هناك.

قدم كتباب «أعهال الملك رتشبارد» تفاصيبل حية ومشرقة وصف بها تتوييج رتشارد.

هنا بداية احتفال تتويج ملك انكلترا:

جاء أولاً الأساقفة ورعاة الديرة وعدد كبير من رجال الدين، كلهم قد

ارتدى ثياباً أرجوانية، تتقدمهم الصلبان، والشموع والمباخر حتى باب القاعة الداخلية، وهناك استقبلوا رتشارد المتقدم الذكر، وهو الذي كان سيتوج، وقادوه إلى داخل كنيسة وستمنستر على هذه الصورة حتى المذبح في موكب وقور تتخلله التراتيل.

وسار في المقدمة رجال الدين، في الملابس البيضاء، وهم يحملون الماء المقدس، والصليب والشموع والمباخر، ثم تلاهم رعاة الديرة، ومن بعدهم الأساقفة، وسار على أي حال وسط هؤلاء الناس أربعة من البارونات يحملون الشمعدان بالشموع.

وجاء بعدهم جون مارشال وهو يحمل في يديه مهازين واسعين وثقيلين أخرجا من خزانة الملك، ومضى بعده غودفري دي لوسي وهو يحمل الصدرية الملكية.

وجاء من بعدهم اثنان من الإيرلات هما: وليم مارشال، إيرل بامبروك، ووليم إيرل سالسبري، وكان وليم مارشال يحمل الصولجان الملكي، الذي كان على رأسه شكل صليب ذهبي، وكان وليم إيرل سالسبري يحمل العصا الملكية التي كان على رأسها حمامة.

وجاء من بعدهم ثلاثة من الإيرلات هم: داود أخو ملك اسكوتلندا، وإيرل هنتغدون، وروبرت إيرل ليستر، وبينها جون كونت مورتين وإيرل غلوستر، وهو أخو رتشارد، وكانوا يحملون ثلاثة سيوف مع أقربة ذهبية رائعة أخرجت من خزانة الملك.

وجاء بعدهم ستة إيرلات وبارونات يحملون لوحاً واحداً وضعت عليه الأردية الملكية والثياب. وقدم من بعدهم وليم دي ماندفيل كونت أوميل وإيرل ايسكس، وهو يحمل تاجاً ذهبياً بين يديه، وجاء بعده رتشارد دوق نورماندي وكونت بواتو، وسارعن يمينه هيوج أسقف درم، وعن يساره رينالد أسقف باث Bath وحمل من فوقهم غطاء ذهبي، وسار إثرهم

مهور الإيرلات والبارونات والفرسان مع الآخرين بأكملهم، من رجال دين وغير رجال دين، وتابعوا سيرهم في داخل الكنيسة ومن خلالها وصولاً حتى المذبح.

وبعدما وصل الدوق رتشارد إلى المذبح أدى ثلاثة أيمان لمن تقدم ذكره من رؤساء الأساقفة والأساقفة، والإيرلات، والبارونات ورجال الدين وسواهم من الشعب، لقد أقسم ووعد على الأناجيل الأعظم قداسة وعلى الأثار المقدسة لعدد كبير من القديسين أنه سيحمل في نفسه اسلام، والتشريف والاحترام نحو الرب والكنيسة المقدسة ورجال الدين لها جميع أيام حياته، ثم أقسم بعد هذا أنه سيطبق العدالة الطيبة نحو أشعب الموكل إليه حكمه، ثم أقسم أنه إذا كان في مملكته أية قوانين في سدة أو عادات سوف يدمرها، ويعلي شأن ماهو جيد مكانها.

ثم نزعوا عنه ثيابه التي كان يرتديها باستثناء قميصه، وسراويله، ولم يكن قميصه مخاطاً عند كتفيه.

ثم ألبسوه نعلين حيكا من الذهب.

ثم وضع رئيس الأساقفة الصولجان في يده اليمنى والعصا الملكية في بده اليسرى.

ثم صب بلدوين رئيس أساقفة كانتربري الزيت المقدس فوقه على تلاثة أجزاء من جسده، هي: على رأسه، وعلى كتفيه، وعلى ذراعه الأيمن، وذلك مع الصلاة المحددة لهذا العمل، وهكذا عمده ملكاً.

ثم وضع على رأسه غطاء مقدساً من الكتان وقلنسوة فوقه، ثم ألبسوه الثياب الملكية، أولاً المئزر ثم القميص.

ثم أسند إليه رئيس الأساقفة السيف ليردع به الذين يقترفون إثماً ضد الكنيسة.

ثم ألبسه الإيرلان مهمازين ذهبيين من خزانة الملك.

ثم لبس الرداء، وبعدها اقتيد إلى المذبح، وهنا حذره رئيس الأساقفة ومنعه بوساطة سلطات الرب، أنه كرجل لايجوز له استخدام مكانته لنفسه، مالم يكن قد دار في خلده عدم الاحتفاظ بأيهانه ووعوده التي اتخذها قبل قليل، وقد أجاب أنه بعون الرب، سيراعي كل شيء قاله من قبل ويعلي شأنه باخلاص وإيهان.

ثم أخذ التاج من على المذبح، وأعطاه إلى رئيس الأساقفة، ووضعه رئيس الأساقفة على رأس الملك.

واقتيد إثر هذا الملك إلى عرشه، وعلى يمينه هيوج أسقف درم، وعلى يساره رينالد أسقف باث وهما يقودانه، وكانت الشموع والسيوف الثلاثة المذكورة من قبل تسير أمامه.

ثم بدأ القداس الرباني، وعندما وصل إلى التقدمة، قاده الأسقفان المتقدم ذكرهما نحو مذبح التقدمة ثم أعاداه إلى العرش.

وبعد انتهاء القداس، وبعدما جرى تنفيذ كل شيء طبقاً للطقوس، قاد الأسقفان المتقدم ذكرهما، الملك المتوج عائدين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وهو يحمل الصولجان في يده اليمنى والعصا الملكية في اليسرى، وساروا بشكل منتظم من الكنيسة إلى منزله في موكب، ثم عاد الموكب إلى جوقة المرتلين.

ثم وضع الملك جانباً تاجه، وثيابه الملكية، وارتدى تاجاً ألطف وثياباً أخف، وبهذه الصورة جاء الرجل المتوج إلى الوليمة، وجلس رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة وبقية رجال الدين معه إلى مائدته الخاصة، وجلس الإيرلات والبارونات والفرسان إلى موائد أخرى واحتفلوا بشكل رائع.

وبعد الفراغ من الوليمة، وصل قادة اليهود، معاندين لمرسوم كان قد صدر عن الملك، ففي اليوم المتقدم كان الملك قد منع بوساطة إعلان عام قدوم أي يهودي أو يهودية لحضور تتويجه، وألقى رجال البلاط القبض على اليهود، ونزعوا عنهم ملابسهم وتولوا ضربهم، وبعدما أنزلوا أقسى الضربات بهم رموهم خارج البلاط الملكي، فقتل بعضهم، وترك بعضهم الآخر يذهبون وهم نصف موتى، وكان أحد هؤلاء اليهود قد جرح جراحة شديدة مما تعرض له من ضرب وجلد، وجعلته جراحه يائساً من حياته، ولرعبه وخوفه من الموت تقبل التعميد على يدي وليم رئيس كنيسة القديسة ماري في يورك، وأعطي اسماً مسيحياً هو وليم، وبهذه الطريقة تجنب خطر الموت وأيدى معذبيه.

وعلى كل حال سمع شعب مدينة لندن بأن رجال البلاط قد تصرفوا بقسوة ضد اليهود، فانعطفوا بدورهم ضد يهود المدينة فسلبوهم وقتلوا كثيراً منهم من كلا الجنسين، وألقوا النيران في بيوتهم وحولوها إلى رماد وجمر يحترق، ومع هذا نجا عدد قليل من اليهود من هذه المذبحة، حيث اختبأوا خلف أسوار قلعة لندن، أو تخفوا في بيوت أصدقائهم.

وسمع الملك في اليوم التالي بأخبار الحادثة، فأمر باعتقال بعض هؤلاء المجرمين، وأحضرهم إلى أمامه، ثم صدر بحقهم حكم المحكمة، الذي قضى بشنق ثلاثة منهم على المشنقة: واحد منهم لأنه استولى على أشياء من واحد من المسيحيين، والاثنين الآخرين بسبب أنها أشعلا النيران في المدينة، التي تسببت في إحراق عدد من بيوت المسيحيين، ثم بعث الملك وراء ذلك الرجل الذي جرى تحويله من اليهودية إلى المسيحية، وجلب معه الذين حضروا وشاهدوا تعميده، وسأله الملك فيها إذا كان الآن قد أصبح مسيحياً، وأجابه الرجل بأنه لم يصبح مسيحياً، ولكن بها أنه رغب في تجنب الموت سمح للمسيحيين أن يفعلوا به مارغبوه، ثم سأل الملك رئيس أساقفة كانتربري والعدد الكبير الآخر من رؤساء الأساقفة

والأساقفة الذين كانوا حضوراً، ماالذي سيفعل معه، ورد عليه رئيس الأساقفة بشكل غير واضح وأدنى مما توجب عليه أن يظهر قائلاً: «إذا كان هو نفسه لايرغب أن يكون من رجال الرب، دعه فليكن رجلاً من رجال الشيطان»، وهكذا عاد الرجل الذي جعل مسيحياً إلى شريعة اليهود (٢١).

وتلقى الملك في اليوم التالي ولاء تبعية رؤساء الأساقفة، والأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة والإيرلات والبارونات من جميع أرجاء بلاده.

وأوضح ديسيتو الترتيبات التي نفذها رتشارد في مملكته الانكليزية.

ورغب رتشارد ملك انكلترا في أن يبدأ حكمه بتقديم منحة إلى الرب، تعطى إلى رهبان السسترشيان كلّ سنة، وقدرها مائة مارك تؤخذ من ختلف ممتلكاته وتوزع على دخولهم، وكان أول عمل قام به كملك هو ارساله رسالة تحمل خاتمه لإيصال قراره هذا.

وبناء على تعليهات الملك ورئيس الأساقفة، جرى عقد مجلس في بايبول Pipewell يوم ١٥ أيلول، للنظر في مسألة التعيينات للكراسي المقدسة الشاغرة، وهكذا جرى تعيين رتشارد أسقف أوف. إيلاي Ely خازن الملك، أسقفاً للندن، وصار وليم لونغ شامب. مستشار الملك، أسقفاً لإيلاي.

وكان عميد وكهنة لندن قد عبروا القنال، بناء على تعليهات من هنري الثاني، وذلك بهدف مشاركتهم في انتخاب الأساقفة، وتسلموا لدى عودتهم إلى انكلترا أربعين ماركاً من الخزانة لتغطية نفقاتهم.

وكمحاولة يائسة أخيرة للصمود في وجه تـوغل جيش صلاح الدين، ألقى غى لـوزغنان، ملك القدس، الحصار على عكا، التـي استولى عليها

المسلمون وكانت بحوزتهم منذ ١١٨٧، ونقل ديسيتو رسالة الأخبار هذه التي أرسلت إلى البابا والتي أوضحت كيف نجحت أخيراً حركة الملك الجريئة هذه:

«شرع ملك القدس، وفرسان الداوية وفرسان الاسبتارية، ورئيس أساقفة بيزا، وعدد كبير من رجال بيزا في حصار عكا في يـوم ٢٨ آب، وذلك على الرغم من عدم رضا كونراد مركيز مونتفرات ورئيس أساقفة رافينا وعدد كبير أخر من المسيحيين الذين عارضوا بآرائهم هذه الخطة، ولدى وصولهم إلى هناك حاصروا المدينة بقوة جبارة إلى حد أن أياً من المسلمين لم يعد بإمكانه الدخول إلى المدينة أو الخروج منها، وفي اليوم الثالث وصل صلاح الدين على رأس جيش عظيم، وهاجم غيوفري لوزغنان أخي الملك ومعه فرسان الاسبتارية، وأرغمهم على الانسحاب مع صفوف قتالهم، وهكذا فتح الطريق للذين رغبوا في دخول البلدة، أو مَعَادرتها، وأصيب المسيحيون منا برعب شديد، ولذلك تراجعوا نحو الخلف على الفور، وانسحبوا إلى إحدى الروابي المرتفعة التي وجدت هناك، غير أنهم لم يستطيعوا النجاة من صلاح الدين، الذي حاصرهم ومعه مائة ألف فارس، وعسكر قرب سفح ذلك الجبل، ولدى رؤية ملك القدس نفسه أنه بات محاصراً، بعث برسل إلى صور إلى المركيز ورئيس الأساقفة والفرسان الآخرين الذين كانوا مضادين لخطته، ورجاهم عدم توجيه اللوم إليه، لقلة خبرته، كما كان، بل طلب منهم القدوم لتقديم العون إليه في وضعه المحرج، وانزعج مركيز مونتفرات انزعاجاً كبيراً لرؤيته المسيحيين في مآزقهم الصعبة، فاجتاز بحراً من صور وقدم إلى مساعدتهم مع رئيس الأساقفة وألف من الفرسان وعشرين ألفاً من الجنود الرجالة، وفي يوم ٢٤ أيلول، امتالاً صلاح الدين بالخوف أمام التطورات التي تلت وصولهم وتراجع قدر ميل واحد بصعوده الجبل.

وفي يوم ٤ تشرين أول اشتبكنا بمعركة مع المسلمين، فقد قاد الملك فرسان الاسبتارية مع الفرسان الفرنسيين في صف قتال واحد، وقاد المركيـز الصف القتـالي الثاني مـع رئيس أسـاقفة روان، ونحـن أيضاً كنـا معهم، وقاد اللاندغريف مع البيزيين Landgrave الصف الثالث مع البيزيين والألمان، وكان في الصف الرابع أخو الملك، ومكث جيمس أوف أفسن Avesnes في المعسكر، وكنا جميعاً أربعة آلاف فارس وماثة ألف من الجنود الرجالة، هذا وامتلك عدونا صلاح الدين مائة ألف فارس، ومع هذا لقد كنا مسلحين بشارة الصليب المقدس، وعندما اشتبكنا بالقتال في الساعة الثالثة من النهار، آثر الرب جانبنا، فهربوا أمام سيوفنا وطاردناهم نحن حتى خيمهم نفسها، وتعرض الصف السابع من صفوف المسلمين إلى خسائر كبيرة على أيدي مهاجمينا النشطاء، ولقد قتلنا بلـدوين [كذا] ابن صـلاح الدين مع أخيـه[ابن] تقي الديـن الذي أصيب بجراحة قاتلة ومن المؤكد موته الآن أيضاً، ولقد تدبرنا قتل خمسهائة من فرسان صلاح الدين، وكان هذا أكثر بكثير مما تأملناه، وفيها نحن مشتبكين مع صلاح الدين في القتال، غادر خمسة آلاف فارس المدينة وقاموا بهجوم مفاجىء علينا، وعندما رأى صلاح الدين أحلافه تقاتلنا، استخدم طاقاته وقواه ضدنا، ومع هذا ظلَّنا قادرين على الوقوف ضد صلاح الدين من أحد الجوانب وقاومناه مقاومة شجاعة من الجانب الآخر، وذلَّك قبل أن نتراجع إلى معسكرنا، ومهما كان الحال لقد قتل في ذلك اليوم مقدم فرسان الداوية مع عدد كبير جداً من رجالنا».

[وبعث ملك فرنسا إلى ملك انكلترا بالرسالة التالية]:

«من فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، تحيات وحب مخلص إلى أخيه الملك، والرجل المخلص، رتشارد ملك انكلترا.

ستعلم بسرور أن جهودنا في سبيل تقديم العون إلى مدينة القدس تتقدم تقدماً جيداً، ونطلب من الرب بصلوات متتابعة أن يظهر مثوبته

لأعالنا الإيانية في أرض القدس، ولقد فهمنا من كلماتك، ومن المعلومات التي جلبها للتو رسلك في أنك ترغب وتنوي السفر إلى القدس، وبعثنا إليكم بوساطة هؤلاء الرسل بموافقتنا على رغباتك وعلى خططك نحو هذه القضية، ولسوف نؤكد هذا من خلال رسائلنا بشكل رسمي واضح، ولسوف يهتم رسلنا بقضية سلامتك في هذه المسألة وسيسلمون إليك رسائل موافقتنا الرسمية.

وجرى تنفيذ هذه الأعمال في شهر تشرين الأول من سنة ألف ومائة وتسع وثمانين من سني ربنا ٢٢١٠.

وجاء جون أوف آناغني Anagni كاردينال القديس مرقص إلى انكلترا كنائب للكرسي المقدس، وقد رسا في دوفر في ٢٠ تشريس الثاني، وأصدرت الملكة إليانور في اليوم التالي تعليات بوجوب عدم سفره أية مسافة أخرى بعد وصوله إلى انكلترا من دون معرفة الملك، وهكذا أمضى ثلاثة عشر يوماً مملة في دوفر على حساب رئيس الأساقفة.

وجاء الملك وليم ملك اسكوتلندا إلى كانتربري، يرافقه في رحلته رئيس أساقفة يورك وأسقف لنكولن، وقدم الولاء إلى الملك، ولاقى رعاية منه، ودفع له عشرة آلاف مارك لتحرير جميع ممتلكاته الاقطاعية، وثمن ولاء رجاله الذين ربطوا أنفسهم بملكنا وأعادوا هذا الولاء الآن إلى الملك وليم.

وقدم الكونت جون كونت مورتين وأخو الملك التهاساً هاماً بحضور الملك، ونائب البابا والأساقفة، وتشكى أنه بعدما تقدم بطلب استئناف إلى البابا، قام الأسقف بوضع الحرمان على جميع أراضيه لأنه تزوج من ابنة وليم ايرل غلوستر، وعندما سمع النائب البابوي جون أوف أناغني هذا، استجاب للاستئناف وحرر أراضيه من الحرمان.

وكان رتشارد ملك انكلترا سيتفوق على جميع أسلافه بحكم امتلاكه

لثروة هائلة، لو أن المبالغ الموعودة دفعت خلال الأشهر الأربعة الأولى للحكم الجديد، وتأكدت بضهانات مساوية لدخله حتى في السنة التالية.

وبعدما ناقش عدداً من المسائل المتعلقة بأوضاع المملكة مع بعض المسؤولين في دوفر(٢٣)، عبر القنال في ١٤كانون الأول، ونزل في اليوم نفسه على مقربة من غريفلاينز Gravelines.

وفي هذه الآونة، توفي وليم ملك صقلية، وصهر ملك انكلترا، دون أن يخلف وريثاً مباشراً، وخلفه تانكرد قريبه القريب.

عندما جرى الاقلاع بالحملة الصليبية، جرى فرض ضريبة عشور على جميع البضائع المنقولة في أرجاء انكلترا كلها، وذلك بهدف ارسال المساعدات إلى القدس، وجرى تحصيل الضريبة بعنف بلغ حداً أن رجال الدين والعلمانيين أصيبوا بالرعب أن المساعدة تستخدم كمجرد حجاب للسلب.

#### [وصدر عن الملكين الإعلان التالي]:

«يبعث فيليب ملك فرنسا بنعمة الرب، ورتشارد ملك انكلترا بالنعمة نفسها، ودوق نورماندي وأكوتين وكونت انجو، بتحياتها الرقيقة باسم الرب إلى جميع من سيقرأ هذه الرسالة.

ليكن معلوماً بينكم أننا وضعنا بكل تأكيد خطة، صغناها بناء على نصيحة رجال الكنيسة والنبلاء في بلادنا، في أننا سوف نسافر إلى القدس معاً، متخذين الرب دليلاً لنا، وقد وعد كلّ واحد منا أن يخدم الآخر باخلاص جيد وحب، ولسوف أنظر أنا فيليب ملك فرنسا إلى رتشارد ملك انكلترا على أنه صديقي ورجل مخلص، وأنا رتشارد ملك انكلترا سوف أنظر إلى فيليب ملك فرنسا، على أنه صديقي ومولاي، وبناء عليه قررنا أنه يجب على كلّ الموجودين في بلادنا والذين حملوا شارة الصليب المقدس، إما ان يتقدموا بالسفر قبلنا بأسبوع قبل حلول عيد الفصح، أو

أن يسيروا وسط جماعتنا، مالم يحصلوا على إذننا بالبقاء، وكلّ من أراد البقاء وراءنا من دون علمنا وإذننا، سوف نحرمه، وسوف يفرض رجال الدين لدينا الحرمان على أراضيه، إن خطتنا، ورغبتنا ومانوصي به، هو أن يقوم جميع النبلاء في بلادنا —إذا ماامتلكوا الوسائل— بدعم بعضهم بعضاً بثرواتهم، وعلى كلّ حال إن ممتلكات الذين سيرتحلون إلى القدس سواء معنا أو قبل اقلاعنا بحملتنا، سوف تبقى سليمة دونها أذى كها لو أنها ممتلكاتنا، وإذا ما آذى أحد من الناس منافع هؤلاء الأشخاص سوف يقوم قضاتنا مع مأموري التنفيذ باتخاذ مايلزم من إجراءات ضده، وذلك في حدود مايسمح به القانون، وتماشياً مع عادات بلادنا، وإذا ماحاول أي انسان إثارة حرب ضد بلادنا أو أي جزء منها أثناء غيابنا، وخرق العدالة، سينال الحرمان، وإذا لم يقم خلال أربعين يوماً بتدارك ماقترفه من أضرار، نعلن أنه وورثته سوف يحرمون من ميراثهم بشكل أبدي.

جرى إعداد هذه الترتيبات يوم ٣٠كانون الأول في نونانكورت».

وعلى كلّ حال لم يكن من الممكن تأكيد هذه المعاهدة بين الملكين على الفور، لهذا قالوا:

بها أن اليوم الذي كتبت فيه كان يوم سبت، لذلك أجلت حتى العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان، يوم الأحد ٢٤ حزيران، عندما شرعا بالحملة الصليبية، وفي ذلك اليوم نفسه توفيت مرغريت ملكة فرنسا أثناء الولادة في باريس، ودفنت في كنيسة نوتردام العظيمة، وكانت أول ملكة من ملكات فرنسا تدفن هناك.

#### سنة تسعين ومائة وألف

وقرر عدد كبير ممن كانوا يستعدون للالتحاق بالحملة الصليبية إلى القدس في جميع أرجاء انكلترا أن عليهم أولاً النهوض ضد اليهود قبل محاربة المسلمين، وهكذا حدث في نوروك يوم ٦ شباط قتل جميع اليهود الذين وجدوا في بيوتهم، وفي ٧آذار قتل عدد كبير منهم في ستامفورد في أحد الأسواق، وقيل تم في يورك يوم ١٦ آذار قتل حوالي الخمسين، وتولى كثير منهم جراحة بعضهم بعضاً، ذلك أنهم فضلوا لقاء الموت على أيدي أناس من شعبهم على الموت على أيدي غير المختونين، وقيل في أيدي أناس من شعبهم على الموت على أيدي غير المختونين، وقيل في أيدي أناس من شعبهم على الموت على أيدي غير المختونين، وقيل في أدموند، ولقد ذبح اليهود من قبل الصليبين أينها وجدوا، مالم يتدبر انقاذهم بعض المواطنين —البرجاسية Burgesses — البرجاسية العض المواطنين عالم أو الاعتقاد أحد أن أي رجل عالى قد فرح بالعمل الجريء والمخيف بقتل اليهود، لأنه كتب في مزامير عاقل قد فرح بالعمل الجريء والمخيف بقتل اليهود، لأنه كتب في مزامير عاود ماسمعناه يردد أمامنا مراراً: «لاتقتلوهم».

وفي هذه الآونة، عندما حوصرت عكا للمرة الأولى، نذر رجل انكليزي اسمه وليم، وكان شياس رالف أوف ديسيتو عميد كنيسة القديس بولص، وهو ذاهب إلى القدس: أنه إذا ماوصل سالماً إلى ميناء عكا، سوف يتولى تأسيس بيعة هناك بقدر ماتسمح له موارده، وأن يكرسها على اسم الشهيد المقدس توماس بكت، ولسوف يتخذ هناك مقبرة تشريفاً له، وقد تحقق له ماأراد، وجاء عدد كبير من الناس من جميع الجهات إلى تلك البيعة، وجرى باتفاق عام تسمية وليم رئيساً لها، وبها أنه كان فارساً مكرساً للمسيح فقد اعتنى عناية خاصة بالفقراء، وعمل جاهداً جداً لدفن أجساد الموتى، من النين قتلوا بالسيف أو الذين ماتوا على فراشهم، وكان هناك مقبرة أخرى دعيت باسم المشفى الألماني، وثالثة

أقدم من البقية حملت اسمها من القديس نيكولاس، وفيها جرى دفن مائة ألف وأربعة وثلاثين ألفاً من الرجال في سنة واحدة.

وفي رحلتها إلى روما، آثـرت الملكـة إليانـور، أم الملـك رتشارد، عـدم ركوب البحر، خشية من مخاطـرة، وسافرت عبر جبل جنيفر Genevre وسهول ايطاليا.

وكتب «البابا كليمنت إلى وليم أسقف إيلاي: تحيات.

طبقاً للرغبات المعلنة والطلب المفيد لولدنا العزيز في الرب، رتشارد، الملك اللامع للانكليز، نسند إليك، بموجب السلطات الرسولية، أيها الأخ، مركز القاصد الرسولي في انكلترا وويلز، وفي كلّ من مقاطعتي كانتربري ويورك، وفي مناطق ايرلندا، حيث جون كونت أوف مورتين، أخو الملك، يارس حكمه وسلطانه.

صدر في اللاتيران في ٧ تموز، في السنة الثالثة لحبريتنا».

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى جميع رجاله المخلصين. تحيات:

نحن نقضي ونأمر، إنه بقدر ماأنتم مخلصون لنا وتحبون أنفسكم وممتلكاتكم، عليكم إطاعة مستشارنا العزيز والمخلص أسقف إيلاي في جميع أعالنا، وأن تعملوا له مثلما تعملون لنا أنفسنا في جميع المسائل الذي يصدر إليكم تعلميات حولها. شهدت أنا نفسي في بيوني -Bay حزيران».

واتفق ملكا انكلترا وفرنسا على الالتقاء في فيزلي في حوالي ٢٤ حزيران، ليذهب إلى القدس، وانطلق ملك فرنسا نحو جنوى وملك انكلترا نحو مرسيليا.

وأقلع الملك رتشارد من مرسيليا يوم ٩آب ١١٩٠، وبعد مرورهم بين أمواج البحر المالح وصلوا إلى ميناء روما، وجرى استقبالهم من قبل

أسقف أوستيا مع رسل كثيرين من عند البابا، ورفض الملك دعوة البابا لزيارته، وذهب إلى الجنوب عبر كابوا Capua.

ووصل رتشارد الأول وفيليب الثاني صاحب فرنسا إلى صقلية في أيلول ١١٩٠، وقررا إمضاء الشتاء هناك، وسمع رتشارد في أثناء إقامته شيئاً حول نبوءة ورؤيا جوشيم أوف فيور Joochim of Fiore وطلب أن يسمع النبوءة بنفسه، ويصف صاحب كتاب «أعهال الملك رتشارد» الذي قاله جوشيم للملك كها يلي:

كان في تلك الآونة راعي دير سسترشياني في كالبريا محمد جوشيم راعي دير كورازو corazzo امتلأ بروح التنبؤ، وكان يعظ الناس حول المستقبل، وأصغى الملك الانكليزي بانشراح إلى هذه النبوءات، وإلى حكمته وعقيدته، وكان جوشيم واسع المعرفة بالكتب المقدسة، وتولى تفسير رؤيا يوحنا اللاهوتي المبارك التي وردت في سفر الرؤيا، وكأنه كتب هذا السفر بيده، وكان الملك مسروراً ومعه كثير من الناس لدى سماعهم إياه وهو يفسر النص التالي:

"وظهرت آية عظيمة في الساء، امرأة متسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها، وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً. وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد. وظهرت آية أخرى في الساء، هوذا تنين عظيم أهر له سبعة رؤوس وعشرة قرون، وعلى رؤوسه سبعة تيجان، وذبه يجر ثلث نجوم الساء فطرحها إلى الأرض، والتنين وقف أمام المرأة العتيدة أن تلد حتى يبتلع ولدها متى ولدت. فولدت ابناً ذكراً عتيداً أن يرعى جميع الأمم بعصا من حديد، واختطف ولدها إلى الله وإلى عرشه. والمرأة هربت إلى البرية حيث لها موضع معد من الله لكي يعولوها هناك ألفاً ومئتين وستين يوماً [الرؤيا: ١/١/١-٢].

وجرى تفسير الرؤيا من قبل جوشيم راعي دير كورازو حسب الطريقة التالبة:

«المرأة المتسربلة بالشمس والقمر تحت رجليها»: في هذا اشارة إلى الكنيسة المقدسة، وهي متسربلة بشمس العدالة، التي مولاها المسيح، وهي التي تحت رجليها العالم، وكلّ خرق ورغبات شهوانية، تقمع دوماً. «وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً»: رأس الكنيسة هو المسيح، والإكليل هم المخلصون للكنيسة. «وهي حبلى تصرخ متمخضة ومتوجعة لتلد». في هذا اشارة إلى أن الكنيسة المقدسة دوماً مسرورة نحو ميلاد جديد، فمن خلال الصلب أنقذت النفوس بوساطة عمل الرب. «وظهرت آية أخرى في السهاء، هوذا تنين عظيم أحمر له سبعة رؤوس وعشرة قرون»: في هذا اشارة إلى الشيطان، الذي يمكن أن يقال حقاً عنه أن لديه سبعة رؤوس، ورأس الشيطان كله إثم، ويعادل سبعة، وكأن أن لديه سبعة رؤوس، ورأس الشيطان كله إثم، ويعادل سبعة، وكأن الماية عمدودة يمكن وضعها على اللامحدود، لأن رأس الشيطان هو اللامحدود، ذلك أن المعادين للكنيسة والآثمين محدودين بالعدد.

وعدد جوشيم سبعة من الأعداء الرئيسيين للكنيسة، هم حسب عرضه: هيرود، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيم وتوس، وصلاح الدين، والمسيح الدجال. وعن هؤلاء قال اللاهوي المبارك في الأبوغرافيا: «إنهم سبعة ملوك، خمسة منهم ماتوا، وواحد مازال موجودا، والآخر سياتي»، وفسر جوشيم هذا وأوضح أن الملوك السبعة هم أصحاب الأسماء السبعة المسماة أعلاه، الذين خمسة منهم أموات وهم: هيرود، ونيرون، وقسطنطينوس، ومحمد (صلى الله عليه وسلم)، وملسيموتوس، والحي من السبعة هو صلاح الدين، الذي هو في هذه الآونة عدو كنيسة الرب، فهو الذي وضع مدينة القدس تحت نير العبودية، مع مكان دفن الرب، والأرض التي وقفت عليها قدما الرب، ولقد قال: إنه بالقريب العاجل سيفقد عملكة القدس، ولسوف يقتل،

وينمحق من خلال نزعاته الجشعة، وستكون هناك مذبحة هائلة لم ير مثلها منذ بداية الخليقة، ولسوف يتشتت السكان المسلمون، وستفرغ مدنهم منهم، وسيعود المسيحيون وقتها إلى رعاية الرب وسيسكنون في هذه المدن».

#### وتوجه الراعي نحو رتشارد فقال:

" «لقد أباح الرب هـذا كله، ومن خلالك سيحدث أنه سوف يمنحك النصر على أعدائك، وسيمجد اسمك في الأبدية، وأنت سوف تمجده، وفيك سوف يمجد إذا ماحفظت العمل الذي بدأ، وسيظهر قريباً الواحد الذي هو المسيح الدجال»، وقال الراعي: «إنه قد اكتشف أن المسيح الدجال قد ولد، وأن خمس عشرة سنة قد مضت على ولادته، لكن لم يكتمل بلوغه وقوته بعد».

وبعدما أبدى عدد كبير دهشتهم تجاه الأشياء التي سمعوها، قال الملك للراعي: «أين ولد المسيح الدجال، وأين سيحكم؟» وأجابه جوشيم أنه يعتقد «أن المسيح الدجال قد ولد في مدينة روما، وسيستحوذ على الكرسي الرسولي هناك».

وأجابه الملك قائلاً: "إذا كان المسيح الدجال قد ولد في روما وسيستحوذ على الكرسي الرسولي، أعتقد أنه لابد وأن يكون هو كلمنت الذي هو الآن البابا»، وقد قال هذا لأنه كان يكره البابا، وقال الملك أكثر من هذا، لقد زاد قائلاً: "لقد اعتقدت أن المسيح الدجال كان سيلد في بابل أو في أنطاكية من أصول من دان، وأنه سوف يحكم في هيكل الرب». وعندما قدم راعي دير كورازو الشرح المتقدم بشأن قدوم المسيح الدجال، بذل عدد كبير من الناس، بها فيهم جميع رجال الدين الذين الذين أجادوا معرفة الكتب المقدسة، غاية جهدهم للبرهنة على أنه كان مخطئاً.

#### سنة إحدى وتسعين ومائة وألف

وفي تلك الآونة كان رتشارد وفيليب يتشاجران فيها بينهها ويعورطان نفسيهها في السياسات المحلية.

في يوم الجمعة الأول من آذار سنة ١١٩١ ذهب رتشارد، الملك الانكليزي، إلى مدينة مسينا ليتحدث مع تانكرد ملك صقلية، وكان هذا بناء على نصيحة من فيليب ملك فرنسا، وفي اليوم الثالث التالي قدم الملك الانكليزي إلى مدينة كاتانيا Catania حيث الجسد المقدس الملك الانكليزي إلى مدينة كاتانيا Agatha حيث الجسد المقدسة الأغاثا Agatha المقدسة، التي هي عذراء وقديسة.

وعندما سمع تانكرد ملك صقلية أنباء قدوم رتشارد، خرج إلى استقباله وسار نحواً من خمسة أميال خارج المدينة لتلقيه، وعندما رأه عن بعد، وقبل أن يجتمعا بالفعل، ترجلا وركض كل واحد منها نحو الآخر، وبادرا إلى التعانق بين بعضها مع التحيات والقبلات، ثم امتطيا فرسيها ودخلا إلى المدينة، ورحب بها رجال الدين والشعب بالتراتيل والأغاني التي أنشدت في مديح الرب، وقد صليا أمام قبر أغاثا المباركة، ثم دخل الملك رتشارد إلى قصر الملك تانكرد ومكث معه ثلاثة أيام في وضع موائم.

وفي اليوم الرابع منح ملك صقلية ملك انكلترا عدداً كبيراً من الأواني المصنوعة من الله والفضة، وأهداه خيولاً وملابس ثمينة، لكن ملك انكلترا لم يرغب في قبول أي شيء، فيها عدا خاتم صغير، اختاره ليكون دليلاً على عواطفهها المتبادلة بود، وعلى كلّ حال أعطى الملك الانكليزي تانكرد سيف آرثر المشهور، الذي كان فيها تقدم ملك البريطانيين، والذي دعاه البريطانيون إكسكاليبور Excalibur وأعطاه تانكرد أيضاً أربع

سفن كبيرة وخمس عشرة شيني.

وعندما عاد رتشارد، شيعه تانكرد شخصياً لمسافة يومين خلال تورمينا Taormina ، ثم عندما كان مستعداً للمغادرة قال له الملك تانكرد: «أستطيع الآن أن أعتقد وأبرهن أن ما أخبرنيه الملك الفرنسي عنك في رسائله، صدر بالحري عن غيرة وليس عن حب لي، ذلك أنه أخبرني أنك لن تتعاون معي لابصدق ولابسلام، وأن الاتفاق الذي عقد فيما بيننا سيخرق، وأنك لن تقدم إلى هذه المملكة إلا مع العنف ضدي».

ورد ملك انكلترا على هذا بحزم، ولم يفصح في كلماته عما أضمره في قلبه قائلاً: «السوء لمقترفي الشرور، أنا لايمكنني أن أصدق أن هذا يصدر عنه، لأنه مولاي ورفيقي المربوط بالقسم خلال هذا الحج».

ورد الملك تانكرد على هذا قائلاً: «إنك لابد وستصدق أنني ماقلت إلا صدقاً، لأنني سأريك الرسائل التي بعثها الملك الفرنسي إليّ».

وعندما استلم الملك الانكليزي الرسائل من يد الملك تانكرد، جاء الملك الفرنسي إلى تورمينا ليتحدث مع الملك تانكرد.

هذا من جهة ومن جهة ثانية عاد الملك الانكليزي إلى مسينا، ومكث الملك الفرنسي ليلة واحدة في تورمينا، ثم عاد في اليوم التالي إلى مسينا، وغضب الملك الانكليزي غضباً عظياً منه، وبات لايرغب في مصاهرته أو إقامة سلام معه، بل استهدف الحصول على فرصة ليبتعد من هناك مع رجاله، ثم بحث الملك الفرنسي عندها بحثاً حثيثاً ليعلم ماالقضية، وأخبر الملك الانكليزي الملك الفرنسي بالذي قاله له ملك صقلية، وجاء ذلك من خلال وساطة فيليب كونت فلاندرز وآخرين من أصدقائه ومعارفه، وأطلع الملك الفرنسي على الرسائل التي تسلمها من الملك تانكرد كبرهان، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا التزم الصمت، عارفاً نفسه أنه كان مجرماً، ولم يعرف كيف يجيب، لكن بعدما استرد وعيه نفسه أنه كان مجرماً، ولم يعرف كيف يجيب، لكن بعدما استرد وعيه

وثاب إلى رشده أعلن قائلاً:

«إن هذه الكلمات زائفة وقد اخترعت حديثاً، ذلك أنني أعتقد، وأنا متأكد من ذلك، أنه يبحث عن مسوغ يمكنه من اتهامي، فمن الممكن من خلال هذا الزيف أن يرفض الزواج من أختي، التي أقسم على الزواج منها».

وعلى هذا رد الملك الانكليزي قائلاً: «إنني لاأمقت أختك، لكنني لن أتخذها زوجة لي لأن أبي قد عرفها، وله ولد منها»، ووقف الملك رتشارد متصلباً ضد الملك الفرنسي، وبعد كثير من الأخذ والرد، حلل الملك الانكليزي من خطوبته لأخته أليس، وتسلم كجزء من الاتفاقية عشرة آلاف مارك من ملك انكلترا لصالحها، وعند عودة الملك الفرنسي إلى فرنسا ستعيد إليه أخته غيسور كلها، وجميع الأشياء الأخرى التي قررها لها كحصة زواج.

وعندها أعطى الملك الفرنسي إلى الملك الانكليزي بسراءة وترخيصاً في أن يتزوج من رغب بالزواج منها، وقدم تنازلاً آخر في أن يكون دوق بريتاني تابعاً مع وريثه لبريتاني، للملك الانكليزي بشكل أبدي، وهكذا ينبغي أن يغدو ملك انكلترا مع ورثائه المسؤولين عن هذه الاقطاعية أمام الملك الفرنسي وورثته.

وغدا في ذلك اليوم كل من ملك انكلترا وملك فرنسا أصدقاء، وأكدا باخلاص وأيهان اتفاقيتهما، ولقد أكداها أيضاً كتابة تحت ختميهما.

أما وقد تحلل رتشارد من يمينه نحو أليس بات الآن حراً ليتزوج من بيرنغاريا النافارية، وروى لنا ديسيتو أن إليانور الأكوتانية قد جلبتها إلى صقلية.

بعدما أمضت الملكة إليانور مع ابنها أربعة أيام في مسينا، عادت إلى انكلترا، وخلفت وراءها بيرنغاريا ابنة ملك نافار، التي كان رتشارد

سيتزوج منها (٢٤)، وفي يوم ١٠ نيسان أبحر الملك رتشارد مع جيشه على ظهر أسطول تألف من مائة وست وخمسين سفينة، وأربع وعشرين بارجة نقل، وتسع وثلاثين شيني، وأخذ معه أخته جوانا وكذلك بيرنغاريا، وأبحر ملك فرنسا من مسينا يوم ٢٩ آذار.

وبعد رحلة دامت حوالي العشرين يوماً وصل الملك رتشارد إلى جزيرة رودس، ومكث خسة أيام في البلدة، ثم بعد رحلة خسة أيام أخرى رسا في جزيرة قبرص في مكان يدعى لياسول، وذهب كورساك [اسحق دوكاس كومينوس] سيد تلك البلاد، الذي دعا نفسه بـ«الامبراطور» على رأس قوة كبيرة ليحول بها دون نزول ملك انكلترا، وسبب الكثير من الأضرار إلى رجال الملك، فنهب الذين كانت سفنهم قد تحطمت، وألقى بهم في السجن ليموتوا من الجوع، وغضب الملك رتشارد وسخط لهذا، وبادر لينتقم لهذه الأضرار، وحارب الأعداء وربح منهم نصراً سريعاً، واستبقى الرجل المهزوم في الأغلال، وأسر ابنته الوحيدة، وأخضع جميع واستبقى الرجل المهزوم في الأغلال، وأسر ابنته الوحيدة، وأخضع جميع الملك بالأصفاد الحديدية، وجرى تنفيذ ذلك، فاستبدل الأغلال المغلل من فضة ووضع في سجن في قلعة قرب طرابلس تدعى المرقب، وجرى الاحتفاظ بابنة كورساك في سجن لائق مع الملكتين في المرقب، وجرى الاحتفاظ بابنة كورساك في سجن لائق مع الملكتين في المرقب، وجرى الملكية.

وكان في الوقت نفسه غي أوف لوزغنان ملك القدس وجيشه ينتظر خارج عكا وصول المساعدة، كها شرح لنا ديسيتو فيها يلي:

"إلى المولى المبجل والأب في المسيح رتشارد أسقف لندن، وإلى هيوبرت بالنعمة نفسها أسقف سالسبري، التحيات باستمرار والصداقة الخالصة.

تقاوم مدينة عكا بشدة هجهاتنا، ولانستطيع الاستيلاء عليها لأنها

مزودة بشكل جيد بالرجال، ومدافع عنها بآلات الحرب، وصلاح الدين على الجانب الآخر منا قد طوقنا، ويأمل المسيحيون أن يكونوا قادرين على تحمل الأعباء والمصاعب والآلام الناتجة عن الحصار حتى وصول ملوكنا، أي أن يكونوا في حوالي عيد الفصح المقبل، لكن إذا تأخروا أكثر لن نكون قادرين على تحمل الاستمرار، ووقتها سوف يتلاشى أملنا في الدعم. هكذا تسير الأمور بالنسبة لحصار عكا».

ونزل الملك الفرنسي في عكا في عيد الفصح، يوم السبت ٢٠نيسان ١٩١، والذي حققه الجيش المسيحي وحصل عليه من الهجوم على المدينة لمدة سبعة أسابيع، هو ماسيتم عرضه الآن وهو ماعرفناه وتذكرناه.

أقلع الملك رتشارد من قبرص ومعه ثلاث عشرة سفينة كبيرة تدعى بوكاس buccas في كل واحدة منها ثلاثة أشرعة، ومائة سفينة نقل وخسين شيني كلّ منها ذات ثلاثة صفوف من المجدفين، وفيها هو مبحر فوق البحر العميق الواسع لمح أشرعة سفينة كبيرة جهزها سيف المدين صاحب مصر وهو أخو صلاح الدين، وأنفق عليها كثيراً، فهي قد جاءت لمساعدة المسلمين المحاصريين في عكا، وكانت مشحونة بالأطعمة والأسلحة الصالحة لكل نوع من أنواع القتال، والنفوط (النار الإغريقية) وحاويات فيها مواد متفجرة، وقد قيل بلغ عدد البحارة في هذه السفينة ألفاً وخمسائة.

وتم بسرعة تناول كل شيء كان ضرورياً لمعركة بحرية، وطوقت الشواني السفينة الكبيرة التي تضاءلت سرعتها، وبدأ هجوم حاد عليها، ثم قام واحد من المجدفين، مقلداً أحد الطيور الصغيرة الذي يسمى النشال (الغواض) وسبح تحت الأمواج حتى صار تحت السفينة، فخرقها بوساطة مثقب، ولعله في عمله هذا كان قد سمع كيف قام اليعازر في أيام المكابيين فزحف تحت الفيل الذي كانت تدور حوله أعمال القتال العنيفة، وقتله بطعنه في معدته، وقد سحق اليعازر وهو ينفذ عمليته في العنيفة، وقتله بطعنه في معدته، وقد سحق اليعازر وهو ينفذ عمليته في

سبيل اليهود، ولكن مجدفنا، والمسيح في قلبه، عاد سالماً إلى مركبه، وجلس مجدداً على مقعده، وبعد مضي وقت قصير، أخذت المياه المتسربة إلى السفينة ترتفع فوق ألواحها، وقطعت آمال النجاة بالنسبة للبحارة، الذين كانوا من قبل واثقين من دفاعاتهم، وأمر الملك رتشارد باغراق ألف وثلاثائة منهم، واحتفظ بها تتين فقط من بينهم، وقد حدث هذا يوم ٢ تموز [اقرأ: حزيران].

وتابع الملك سيره، ومالبث أن وصل إلى الميناء الذي كان قاصداً له، وردد الشاطىء أصوات النفير ودعواته، وزعيق الأبواق، وأنين الشبور المرعب، وقد أثار هذا المسيحيين وحثهم على القتال، وصك بالرعب قلوب المسلمين المحاصرين، وأعلن عن وصول حاكم كبير، فقد دخل الملك رتشارد إلى ميناء عكا يوم ٨حزيران.

ونصب فيليب ملك فرنسا ورتشارد ملك انكلترا آلات حصارهم حول عكا، وسددا رماياتها نحو الأسوار، وعندما بدأت الرمايات تضعف الدفاعات، بدأ المسلمون يشعرون بالخوف ويفقدون الأمل بالقدرة على الاستمرار بالصمود، وبعدما تشاوروا مع المسلمين الآخرين أخذوا يسعون في سبيل السلام، ووافقوا على أن يقوم صلاح الدين بإعادة صليب الصلبوت في يوم حدد ميعاده، وأن يطلق ألفاً وخسائة من المسيحيين الأسرى لديه، وبناء عليه استسلمت المدينة إلى الملكين يوم ١٢ تموز بكل ماكان فيها من سلاح، وعتاد ومؤن تعود إلى المسلمين، الذين استسلموا حفاظاً على حيواتهم فقط.

لكن عندما جاء اليوم الموعود، ولم يحافظ صلاح الدين على قسمه من الصفقة، فقد حوالي الألفين وستهائة من المسلمين رؤوسهم انتقاماً لهذا، واستثني من القتل عدد صغير من الأعيان، وضعوا تحت رحمة الملك، وأثقلوا بالأغلال.

وما ان استسلمت المدينة حتى اقترح الملك الفرنسي العودة إلى بلاده، وذلك لانتهاء كلّ شيء الآن، وعندما سمع الملك رتشارد بهذا، عرض على الملك الفرنسي، بحكم كونه مولاه، النصف من كلّ شيء قد جلبه، سواء من ذهب وفضة، ومؤن، وأسلحة، وخيول وسفن، ووعده بتسليم ذلك كله إليه مقابل أية ضهانة يريدها، إنها مقابل أن يبقى، لكن فيليب كان مصراً تمام الاصرار على المغادرة، وعلى الرغم من معارضة رجاله، ومن غضب جميع الجيش المسيحي، صعد ظهر سفينة مع عدد ضئيل من مرافقيه للابحار نحو الوطن.

وبعدما غادر جرى ترميم الثلم الموجودة في سور عكا، وتم تحصين المدينة بالخنادق، ومن أجل أن يعلي شأن القضية المسيحية، وفي سبيل الوفاء بنذره، انطلق الملك رتشارد نحو يافا، وكان معه دوق بيرغندي وبرفقته الفرنسيين الذين كانوا تحت امرته، وكذلك الكونت هنري ورجاله، وعدد كبير آخر من الكونتات والبارونات ومالا يحصى عدده من الناس العاديين، وكانت المسافة طويلة من عكا إلى يافا، وبعد جهود كبيرة، وخسائر عظيمة وصل الملك حتى قيسارية غير هياب، وعانى أيضاً صلاح الدين من الخسائر على الطريق نفسه، وتوقف الجيش هناك بعض الوقت حتى يسترد أنفاسه، ثم استأنف بشجاعة زحفه نحو يافا.

وعندما وصلت المقدمة إلى أرسوف، قام صلاح الدين بهجوم مفاجىء على الساقة، لكن برحمة ربانية هزم بوساطة هجوم معاكس قامت به أربع فرق مسيحية، وانهزم هو نفسه لمسافة مرحلة وهو يطارد من قبل الصليبين الذين أنزلوا بأعيان المسلمين في يوم واحد مذبحة لم يعان صلاح الدين من مثلها في أربعين يوماً.

وفيها يلي رواية شاهد عيان عن معركة أرسوف، كتبها رتشارد كاهن الثالوث المقدس في أولدغيت Aldgate في لندن.

عند بزوغ أول ضوء يوم اايلول سلح كلّ واحد نفسه بعناية بكامل سلاحه، وكأن الترك سيتم التصدي لهم الآن.

لقد كان بإمكانك أن ترى أكثر الرفاق قدرة، والأعلام من مختلف الأنواع، وكثيراً من الرنوك، وكذلك أكثر الناس قسوة، وهم متشوقين، مستنفرين ومستعدين تمام الاستعداد للحرب.

وكان الملك رتشارد ودوق بيرغندي، مع كوكبة مختارة من الفرسان، وهم يطوفون هنا وهناك، يراقبون كل شيء من اليمين إلى اليسار، ويلاحظون تعبئة الأتراك وأوضاعهم حتى يستطيعوا تغيير تعبئة جيشهم بها يجدونه مفيداً، ولاشك أن يقظتهم كانت ضرورية جداً.

والآن، في منتصف الصباح انقض علينا حشد هائل من الأتراك، يقارب العشرة آلاف، بشكل مفاجىء وهجوم مباغت، وأطلقوا نحونا النشاب ورمونا بالحراب، وكانوا يصرخون بأصوات عالية مرعبة قاسية، واندفع إثر هؤلاء نحو الأمام شعب متوحش، ألوانهم سوداء جداً، وقد علوا اسمهم وأخذوه بشكل صحيح من اللون، وبها أنهم كانوا سوداً، فقد عرفوا باسم السودان، وجاء أيضاً المسلمون الذين يعيشون في الصحراء، ويعرفون بشكل عام باسم البداة، وكانوا مرعبين سوداً قاتمين مثل السخام، وكانوا رجالة لايمكن السيطرة عليهم، سرعتهم عظيمة وهم شعب سلاحهم خفيف يستخدمون النشاب مع الجعب والترسة، وكانوا رجالاً ذوي تصميم وشجاعة لايعرفون الانحراف ويخيفون جيشنا.

ومضى أمام الأمراء نحو الأمام رجال ينفخون بالأبواق والصور، وكان بعضهم يحملون النفر، وآخرون الزمور والطبول والدفوف والصنوج، وكان آخرون يحركون آلاتاً أخرى متنوعة، وكان كلّ واحد منصرف إلى عمله في اصدار جعجعة عالية مرعبة متنافرة النغات، وكان صراخهم الحاد وزعقاتهم الشديدة قد بلغت حداً رددته الأرض حتى بات من غير

الممكن تمييز صفقات الرعد عن صوت البرق، وكان الهدف من هذه الأصوات اثارة الحمية والشجاعة، وكان كلما ارتفعت الأصوات، كلما تصلبت الروح من أجل القتال.

وهاجم الأتراك البغضاء جيشنا، وكانت ساحة المعترك قرابة الميلين، وكنت لاترى في إطارها سوى الترك المعتدين، ثم قام رجالنا الشجعان ذوي الاقدام، الذين حرمت عليهم سمعتهم الفرار، والذين استهدفت أرواحهم الجريئة أن تتوج [بالشهادة]، بالصمود أثناء القتال، وواجهوا العدو وقاتلوه باصرار عظيم وثبات، وناضلوا بشجاعة لاتعرف التقهقر.

وعندما رأى الملك رتشارد الجيش قد وقف هذه الوقفة واشتبك بالعدو، غمز حصانه، وبسرعة طار الى هناك، ولم يتوقف عن الركض، ولم يشد عنان فرسه حتى التحق بصفوف الاسبتارية المقاتلة ليقدم لها العون ومعه أتباعه، واندفع من اليمين حتى واجه أكثر الفرق التركية ارعاباً، وكانت عناصرها من الجنود الرجالة، الذين رغبوا بالموت، وقد أدهشتهم حملته، فسقطوا على مقربة منه من على اليمين والشهال، وهناك كان الملك رتشارد وحده هائجاً منقضاً على الأتراك، يقاتلهم ويصرعهم في كل مكان، ولم يكن هناك رجل واحد كان بإمكانه أن ينجو من ضربات سيفه، لأنه حيثها ذهب الملك عمل عمراً طويلاً وعريضاً، بفضل استخدامه لسيفه، وتقدم الملك بدون مقاومة، وسيفه يشق له الطريق وسط الشعب الشرير، وكأنه يزيل الأعشاب بمنجله، وخشية أن يلاقي وسط الشعب الشرير، وكأنه يزيل الأعشاب بمنجله، وخشية أن يلاقي ميل تمددت أجساد القتلى الأتراك على وجوهها فوق التراب.

بهذه الدرجة من القسوة كان الغضب الذي ثار ضد الأتراك في ذلك اليوم، وازدادت الضربات المميتة وتضاعفت إلى حد أن الأعداء تخلوا عن مقاومتهم وصراعهم، وأخلوا الطريق أمام جيشنا الزاحف، وهكذا تمكن أخراً جرحانا من الالتفاف حول العلم، وتجمعوا ثانية وانتظموا داخل

صفوف القتال، وزحفوا بين الصفوف إلى أرسوف، وهناك نصبوا خيامهم خارج البلدة.

وكان بإمكانك أن ترى في ذلك اليوم، تبعاً لتقارير الذين رأوا الأتراك الفارين، آثار فرارهم خلال الجبال بوساطة الأسلاب التي ألقوا بها، والجهال والخيول وهي ملقاة مبعثرة هناك وهي ميتة، ذلك أن آلافاً منها ومئات سقطت على طول الطريق، وهي محملة بالأثقال.

وعندما كان رتشارد في صقلية أرسل وولتر أوف كاوتنس -Cou وعندما كان رتشارد في صقلية أرسل وولتر أوف كاوتنس tances رئيس أساقفة روان عائداً إلى انكلترا ليراقب الأحداث هناك، ولإعطاء رسالة إلى المستشار لونغ شامب، ولقد تتبع ديسيتو العداء المتزايد بين جون كونت مورتين ووليم لونغ شامب.

وعاد وولتر رئيس أساقفة روان من صقلية إلى انكلترا، ونزل في شورهأم Shoreham يوم ٢٧ حزيران، وهو يحمل الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك الانكليز إلى مستشاره وليم، وإلى غيوفري فتزبيتر، ووليم مارشال، وهيوج باردولف، ووليم برور، تحيات:

بحكم أننا نحمل حباً عظيماً إلى الأب المبجل وولتررئيس أساقفة روان، ونشق به ثقة عظيمة، بعثنا به إليكم من أجل سلامة مملكتنا والدفاع عنها، وقد حررناه من حجه بموافقة البابا، لأننا نعرفه حكيماً، ومستقيماً وقادراً، ومخلصاً جداً لأنفسنا، وبناء عليه نأمركم، ونؤكد أمرنا لكم بأن تعملوا وفقاً لآرائه في جميع المسائل المتعلقة بنا، وأن تتبادلوا أنتم وهو الآراء حول جميع المسائل مادام موجوداً في انكلترا ونحن غياب في حجنا، ونأمركم أن تفعلوا مانخبره أن يخبركم إياه حول رئاسة أساقفة كانتربري. شهدت بنفسي. مسينا، ٢٣ شباط١٩١١».

وكتب «رتشارد ملك الانكليز إلى وليم مارشال، وغيوفري فتربيتر، وهيوج باردولف ووليم برور:

إذا لم يعمل مستشارنا باخلاص وفقاً لآرائكم أنفسكم وآراء الآخرين الناين عهدنا إليهم بشؤون العناية بمملكتنا، نأمركم بتنفيذ كل مايرضيكم في جميع شؤون مملكتنا، وقلاعنا وممتلكاتنا، بدون نقاش».

وكتب «وليم لونغ شامب، أسقف إيلاي بنعمة الرب، إلى عمدة سسكس:

نأمركم إذا ماوصل أي رئيس أساقفة منتخب ليورك، أو وصل إلى أي ميناء من موانىء مقاطعتكم، أو وصل أي واحد من مبعوثيه، أن تحتفظوا به حتى تتسلموا أمراً منا، ومثل هذا نأمركم بالتحفظ على أي رسالة جاءت من البابا أو من أي شخص مهم».

وافق غيوفري، وهو ابن غير شرعي لهنري الشاني، ورئيس أساقفة يورك المنتخب، على البقاء خارج انكلترا لمدة ثلاث سنوات، أثناء غياب رتشارد الأول في حملته الصليبية، غير أنه خرق هذا الوعد.

بينها كان رئيس أساقفة يورك مسافراً إلى انكلترا، نزل في ميناء يحمل اسم دوفر، يوم ١٤ أيلول. وعند نزوله هناك، قامت أخت وليم لونغ شامب، أسقف إيلاي، التي كانت تحرس القلعة هناك، بناء على أمر أخيها —حسبها قيل واعتقد— بعمل شرير وهو حصار رئيس الأساقفة وكهنته بوساطة حشد من الرجال من المسلحين، لمدة ستة أيام في رئاسة دير القديس مارتين، وقد ضيقوا عليه إلى حد توجب عليه الاستجداء لإعطائه الطعام بينها كان هناك، وعندما تطورت المضايقة والخيانة نحو الأسوأ، جاء فارسان من فرسان أسقف إيلاي، وهما: أوبري أوف مارني مسلحان، واقتحها الكنيسة السالفة الذكر بسيوف مشهورة في أيديها، واندفعا نحو رئيس الأساقفة، وأمراه بحزم أن يغادر المملكة دونها تأخير أو

تردد، وأن يذهب إلى فلاندرز مع رجاله، وعندما رفض جروه بقدميه، وبرجليه وبذراعيه من المذبح على طول الطريق الطينية وخلال الأماكن القذرة، وهو لابس لقلنسوته وحامل تصليبه، ولقد قرع رأسه بعنف فوق الرصيف، ومعه كهنته ورجال دين تقاطروا وتجمعوا لرؤيته، وجاءوا من أجزاء كثيرة، وفي يوم ١٨ ايلول اقتيد إلى القلعة، وألقي بالسجن لمدة ثمانية أيام.

وعندما سمع بهذا رتشارد أسقف لندن، عمل وسيطاً بين الفرقاء، وبادر مسرعاً بقدر ماأوي من قوة إلى المستشار وليم لونغ شامب، وحصل منه بعد كثير من المناقشات على أمر باطلاق سراح رئيس الأساقفة فقط، والاحتفاظ بجميع كهنته رهينة، وغادر رئيس أساقفة يورك السجن في ٢٦ايلول، فبادر مسرعاً يسير عبر الطريق الطيني وخلال الأماكن القذرة، حيث كان قد جرّ، وهو لابس لثيابه الكهنوتيه، وواضع قلنسوته على رأسه وبيده الصليب، حتى وصل إلى دير القديس مارتن، وهناك قدم الشكر للرب وإلى القديس مارتن، وقد استقبل بترحاب عظيم من قبل الناس الذين تقاطروا من جميع الاتجاهات، وعندما وصل إلى لندن استقبل رئيس الأساقفة بموكب مهيب عند كاتدرائية القديس بولص، استقبل رئيس الأساقفة بموكب مهيب عند كاتدرائية القديس بولص، أوكان ذلك يوم ٢ تشرين أول، وأظهر رتشارد أسقف لندن نحوه جميع أنواع اللطف الذي كان بإمكانه أن يبديه مع الرعاية والانفاق عليه وعلى أتباعه.

هزت معاملة وليم لونغ شامب لغيوفري رئيس أساقفة يورك، الكنيسة الانكليزية، وبهذا هيأت مسرحاً خصباً لتامر الكونت جون ضد المستشار، حيث كتب إليه يقول:

«من جون كونت مورتين إلى رتشارد أسقف لندن. تحيات.

بها أنك تحب مجد السرب ومجد الكنيسة، ومجد الملك ومجد المملكة ومجدي، كن موجوداً على الجسر عبر لندن يوم ٥ تشرين أول، بين ردنغ ووندسور، لأنني —بإرادة السرب— سوف ألقاك هناك، لنتباحث حول بعض القضايا الهامة والجادة التي تتعلق بالملك وبالمملكة».

في الحقيقة أعطى تحديد يوم الأحد موعداً للمناقشة إلى عدد كبير من الناس الشعور أن شيئاً تعيساً سيصدر عنه، وذلك لاعتقاد كثير من الناس، أن اليمين الذي يؤدى يوم السبت نادراً مايكون فعالاً.

وهكذا أعطى المستشار الذي كانت قلعة وندسور تحت حكمه، عذراً بعدم القدوم هو: أن كثافة الغابة، وضيق الممرات، والأعداد الكبيرة من الفرسان والرجالة والخيالة الذين اجتمعوا للكونت جون —أخو الملك—من جميع المناطق، والذين هم جاهزون للقتال، وكذلك الخطط التآمرية لهنري دي فير Vere الذي أسهم هو نفسه بحرمانه من ميراثه، وأيضاً المسافة المعتبرة التي تفصل الجسر المذكور عن القلعة، ولهذا جرى تأجيل الاجتماع حتى يوم الاثنين.

وفي منتصف يوم الأحد، صعد رئيسا أساقفة روان ويورك المنبرمع عدد من الأساقفة كانوا قد التقوا في ردنغ حتى يكونوا حضوراً في المؤتمر، وما ان أشعلت الشموع حتى قاموا بتأثيم جميع الذين أشاروا بالرأي، أو ساعدوا، أو أمروا بأن يجر رئيس أساقفة يورك من الكنيسة ويتعرض للاذلال ويلقى به في السجن، وقرروا حرمانهم، وذكروا بالاسم: أوبري أوف مارني والاسكندر بيونتل. وفي يوم الاثنين، اقترح الكونت جون، بغية إزالة جميع الشبهات الخيانية، أن يذهب إلى مكان آمن قرب وندسور، وذلك استجابة لما طلبه المستشار، مقترحاً بالمقابل كل نوع من أنواع الضهانات من خلال أسقف لندن، وفي اليوم نفسه، وبها أنه قرر البقاء في ستين Staines بدورون حول المنطقة، متوقعين هجوماً في كلّ شيء وحركة.

وعندما سمع المستشار بهذا، فرّ من أمام وجه الكونت، الذي اعتقد أنه يتبع أثره بحنق عظيم، وتصرف تصرف انسان مرعوب، فابتعد بنفسه ونأى بها —ولاأريد أن أقول هرب— حتى وصل إلى قلعة لندن، ومعه سلاحه وأثقاله وحاشيته وأهل بيته، ووضع خيوله في الطابق الأرضي من القلعة، وفي قاعة الطعام القديمة، وأعدّ نفسه للحصار، الذي كان وشيكاً، حسبها اعتقد.

وبعدما سمع الكونت بالذي فعله المستشار، جاء أيضاً وأقام في لندن، ومعه رتشارد فتزرينر، وروجر دي بلين Planes رئيس هية قضاء جميع أراضي الكونت جون، وكان مصاباً بجراحة بالغة من قبل واحد اسمه رالف بوتشامب Beauchamp كان المستشار قد جعله فارساً، وقد توفي يوم لاتشرين الأول، وفي اليوم التالي، وحتى يبدد العداوة بينه شخصياً وبين المستشار، اجتمع الكونت جون مع رؤساء الأساقفة، والأساقفة والإيرلات في دير القديس بولص في لندن، وقرعت النواقيس التي استخدمت بالعادة لجمع الناس معاً، وبعدما عقد الجميع نقاشاً طويلاً معاً، أقسم الكونت جون يمين الولاء للملك رتشارد.

وعقد يوم الخميس ١٠ تشرين أول مؤتمر في الجزء الشرقي من قلعة لندن، وكان الحضور:

رتشارد كونت مورتين، والمستشار ورؤسار الأساقفة، والأساقفة والإيرلات والبارونات، وتقرر بالاجماع وجوب إعادة جميع القلاع التي منحها المستشار برغبة منه إلى أقربائه وأسند حكمها إليهم، وعلى الأخص قلعة لندن، ووعد المستشار بأيان مقدسة أنه سيفعل ذلك، وستبقى القلاع الثلاثة التي تسلمها من يد الملك رتشارد، وهي: دوفر، وكمبردج، وهيرفورد في ويلز في يد المستشار وتحت حكمه، ما ان يتم تسليم الرهائن التي أعطاها الشحن، الذين عينهم المستشار هناك، ويتم تقديم هنري وأوسبرت أخوي المستشار وماثيو الحاجب كرهائن حتى يتم تسليم وأوسبرت أخوي المستشار وماثيو الحاجب كرهائن حتى يتم تسليم

القلاع، وكان المستشار أقسم أنه لن يغادر المملكة حتى تكون القلاع قد أعيدت، وفي يـوم السبت ١٢ تشرين أول ذهـب المستشار إلى دوفـر، يقوده غلبرت أسقـف روشستر، وهنري أوف كـورنهل Cornhill عمدة كنت.

وفي يوم الخميس التالي وضع المستشار وليم لونغ شامب عليه ثياب امرأة، لكن بها أنه لم يكبن قادراً على تغيير طريقة مشيه، أخفق في عدم اظهار ذاته أنه رجل وليس امرأة، ولهذا عرفه البحارة النين تأملوا في وجهه، واعتقل وحمل بعيداً، وتخلص بصعوبة من وضعه كامرأة، وبقي في السجن، حتى جرى اتخاذ قرار عام من قبل هيئة قضاء المملكة المقيمة في لندن، وأعطي بموجب ذلك حريته بالذهاب إلى حيث أراد، وتلقى على كل حال انذاراً وأوامر بأن ينفذ ماكان أقسم أن يفعله في الاجتماع الذي عقد قرب قلعة لندن، وأقلع المستشاريوم ٢٩ تشرين أول نحو نورماندي، ونزل في ميناء لى تربورت Le Treport.

واعتاد طفل من أطفال حاشية أسقف لندن التمتع باللعب بالطيور، وكان يدرب صقره، لكنه وجد أن تدريب بطة صغيرة (حذف) أسهل، وكان عندما ينقر على آلة موسيقية يدعوها البازيارية باسم الدف، تندفع البطة نحوه وهي تصدر أصواتاً عالية بجناحيها، وما أن تعلم صقره هذا وفهمة حتى طار وغطس وأمسك بواحدة من سمك الكراكي، كانت تسبح تحت سطح ماء النهر، وحملها حوالي الأربعين قدماً فوق الأرض الجافة، وأرسل الأسقف كلّ من سمكة الكراكي والصقر إلى الكونت جون في ٢٢ تشرين أول، كتذكار لواقعة غير اعتيادية.

وجرى في اليوم نفسه نقاش حول انتخاب رئيس أساقفة لكانتربري، حسبها أمر الملك رتشارد، ولكن القضية أجلت بعد نقاش طويل.

ورجع ملك فرنسا من القدس، واستقبل في باريس استقبالاً مهيباً يوم

٢٧كانون الأول، ولكن هل ستعد بعثته بعثة مجيدة، أو انتهت بسرعة بسبب المرض، أو بعثة شائنة مخزية بالنسبة للذين كانوا في المعسكرات؟ الذين يعرفون هم الذين سيقولون.

## سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف

اتخذ هنري كونت شامبين، ابن أخت الملك رتشارد زوجة له، ابنة الملك عموري]، وهي التي الملك عموري]، وهي التي كان المركيز قد تزوجها بطريقة أو أخرى، وهكذا كسب هنري السيطرة على جميع البلاد، مثله مثلها فعل أي ملك من ملوك القدس، وكذلك بقدر ما سيسترد المسيحيون مما فقدوه.

وكانت هناك قافلة اسلامية قادمة من القاهرة إلى القدس، حاملة جميع أنواع المؤن والعتاد والسلاح، وقد اعترض المسيحيون سبيلها ونهبوها، وكان ما أخذه الفرنسيون منها قد احتفظوا به، أما الذي أخذه الداوية والاسبتارية مع الآخرين فقد جرى توزيعه وفقاً لحكم ملك انكلترا وقراره.

وفي ١٤ أيار جاء ملك انكلترا إلى الداروم، التي كان الملك عموري قد حصنها لإيذاء المسلمين وإلحاق الضرر بهم، والتي كان صلاح الدين قد استولى عليها مراراً، وحاصرها الملك رتشارد، واستولى عليها بعد أربعة أيام، وأخذ من الأسرى مايزيد على خمسة آلاف.

وفي ٣١ تموز استولى المسلمون على يافا، وطار في اليوم التالي رتشارد إلى حمل السلاح، ومضى إلى مساعدة المسيحيين، ومعه ثلاثة مراكب وعشرة فرسان فقط، ورسا أمام يافا، فهزم المسلمين واستولى على البلدة، واسترد

العدو شجاعته عندما سمع أنه قدم مع عدد قليل من الرجال، وحمل عليه محاولاً أسره حياً، وقد قاوم برجولة وقتل عدداً كبيراً منهم.

وفي يوم ٩آب عقدت هدنة سمح بموجبها للمسيحيين بدخول القدس غير مسلحين، لكن رئيس أساقفة صور قرر حرمان كل واحد سيذهب إلى القدس للوفاء بنذر صليبيته بصلاة موجهة من قبل المسلمين، وتقرر أن تدوم الهدنة اعتباراً من عيد الفصح المقبل: ثلاث سنوات، وثلاثة أشهر، وثلاثة أسابيع وثلاث ساعات، ومامن انسان شكك بالحكمة القائلة: «من الصعب قطع حبل جُدل ثلاث مرات»، ولكي لايدع المسلمون مجالاً للشك، في عزمهم على الحفاظ على كلمتهم، بعثوا بسهم، ليكون شارة على السلام، أي لن يكون هناك خوف من تطاير النشاب أثناء النهار.

وفي يوم ٢٩ أيلول صعدت الملكتان ظهر سفينة، وأعني هذا: بيرنغاريا ملكة انكلترا، وجوانا ملكة صقلية، وغادرتا من عكا، وفعل الملك رتشارد الشيء نفسه يوم ٩ تشرين أول، ونزل في حوالي ١١ تشرين ثاني في مكان اسمه كورفو، وهو واقع ضمن أراضي امبراطور القسطنطينية، ثم غادر السفينة الكبيرة التي كان يستقلها، ومضى ومعه شينين، ونزل في سلافونيا، وبعدما مضى خلال البندقية، وأكويليا، دخل إلى بلاد دوق النصياء

وقد ألقي القبض عليه في مدينة فينا يوم ٢٠كانون الأول، ومع أن الدوق لم يضع فعلاً قدمي الملك في الأغلال، غير أن خشونة معاملة حرسه له جعلت اقامته أسوأ بما لوكان في الأغلال، فرجال هذه البلاد موسومين بالهمجية والقسوة، مرعبين في حديثهم، قذرين في عاداتهم، تغطيهم الأوساخ، وعلى هذا كان هو بالحري مقيماً بين حيوانات وليس بين بشر.

### سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف

# في يوم ٢٨شباط توفي صلاح الدين.

وفي يوم ٢٣آذار سلم دوق النمسا ملك انكلترا إلى الامبراطور [هنري السادس] (٢٥) وذلك بعدما اتفقا على مبلغ من المال، وبعدما أرغم الامبراطور الملك رتشارد على دفع فدية عظيمة، باستخدامه للتهديدات، سبجنه في قلعة اسمها تريفل Trifels قائمة على حدود ألمانيا واللورين، وهي قائمة على قمة جبل أعلى من الجبال التي من حوله، وبنيت لتكون سبجناً فقط للأعداء المشهورين بالخطورة وبسوء السمعة بين أعداء الامبراطورية الرومانية.

ولم يحدث هذا بالصدفة، بل دبرته الحكمة الربانية وقضت به أن يكون انتقاماً، حتى يعود رتشارد إلى جادة الصواب ويتوب، ويقلع عن تجاوزاته التي اقترفها ضد أبيه الأرضي هنري الثاني ملك انكلترا، عندما كان يحتضر في لامانس، بحصاره لهذه البلدة بمساعدة من ملك فرنسا، وصحيح أن رتشارد لم يضرب والده نفسه بالفعل، إنه مع هذا أرغمه على التراجع بوساطة حملات متتالية ووحشية زائدة.

وعندما سمع جون كونت مورتين بأن أخاه كان في السجن، تدغدغ بآمال عظيمة في أن يكون ملكاً، فربح إلى جانبة عدداً كبيراً من الناس من جميع أرجاء المملكة، وقدم وعوداً كثيرة، وبسرعة متن قلاعه، وعبر البحر، وعقد اتفاقاً مع ملك فرنسا قضى بحرمان ابن أخيه آرثر دوق بريتاني و إبعاده عن الأمال التي يرعاها البريتانيون حوله.

وعندما كان الملك رتشارد في السجن كان قلقاً كثيراً ومهتماً بشأن شغور كرسي كانتربري، فكتب الشروط التالية:

«من رتشارد، ملك الانكليز، بنعمة الرب إلى عزيزه المخلص رتشارد أسقف لندن، وإلى عميد كنيسة كانتربري وإلى جميع الأساقفة المساعدين، تحيات:

نريد أن نبحث معكم، بقدر مانستطيع، وحسب امكاناتنا، مسألة التعيين لكنيسة كانتربري التي هي الرأس والأم لكم جميعاً، تعيين رجل مناسب، ومقبول منا ومنكم ومن جميع المملكة، رجل سوف يسعى وراء سلام الكنيسة المقدسة وأمنها وسلام مملكتنا وأمنها».

وبعدما قرىء هذا الكتاب بشكل علني، اجتمع كثير من الأساقفة بناء على دعوة أسقف لندن، وعلل بعضهم غيابهم واعتذروا بوساطة رسالة أو من خلال الرسل، واستجاب للدعوة أيضاً عدد من رؤوس البيوتات الدينية، وجرى الانتخاب يوم ٢٩حزيران.

وبذلت الملكة إليانور، أم الملك مع وولتر أوف كاوتانس، رئيس أساقفة روان، ورئيس هيئة العدالة في انكلترا وبارونات آخرين، غاية الجهد للحفاظ على سلام المملكة، وسعوا لجمع القلوب المتخاصمة فيا بينها بشكل دائم، وقرر رئيس هيئة العدالة، وجوب عودة غيوفري رئيس كانتربري والرهبان الذين جاءوا معه إلى لندن، حيث حصل توماس الشهيد الرائع على تاجه بدمه، لتمجيد اسمه خلال العالم أجمع، وفي يوم ١٩ أيار، تقدم الرهبان على الأساقفة وانتخبوا هيوبرت وولتر [أسقف سالسبري] وقبل ذلك عميد يورك، ولقد أوحت إليهم روح ما وأوضحت أنه سوف ينتخب من قبل الأساقفة، وترأس الاجتماع رجال من ذوي المراتب المتوسطة وعملوا بمثابة هيئة قضائية في بيت الكهنة في كانتربري، وأعطوا موافقتهم على الانتخاب.

وحسبها كان مرتباً، جرى في يوم الأحد، الذي هو يوم مقدس، انتخاب هيوبرت أسقف سالسبري رئيساً لأساقفة كانتربري، وتم ذلك

الانتخاب من قبل الأساقفة، وأعلنت النتيجة إلى الناس، من قبل أسقف لندن، وجرى الإعلان في وستمنستر، وهو المقر الملكي المشهور، والمكان الممجد دوماً من أجل انتخاب رؤساء الأساقفة، وأعطى وولتر رئيس أساقفة روان ورئيس هيئة العدالة في انكلترا الموافقة الملكية والتأكيد.

وكان هناك لقاء عام لجميع أعيان ألمانيا عقد في وورمز، يوم ٥ تموز، حيث جرى البحث بشأن فدية ملك انكلترا، وكان هناك الثمن الذي دفعه الامبراطور هنري إلى ليوبولد دوق النمسا، فقد أعلن أنه دفع له خسين ألف مارك فضي، ولكن الامبراطور الذي كان مرابياً عظيم الشهرة، استطاع أن يضاعف ماله في يوم واحد، فاستخلص مائة ألف مارك من الملك (٢٦)، وبات المبلغ الحقيقي الذي سيدفع فدية للملك هو مائة ألف جنيه (باوند) من نقود كولون، وتقرر دفعه على أقساط في أوقات محددة، وتم تقديم خمسين رهينة مقابل الدفع.

أما بالنسبة لجمع المال، فسنعرض الآن ونوضح صورة الحب والاخلاص التي أظهرها رجال الملك المخلصين، بداية مع الكنيسة: جاءت الكنائس الكبرى مع خزائن مليئة منذ زمن بعيد، وقدمت الأبرشيات كؤوس قرابينها الفضية، وتقرر وجوب أن يدفع رؤساء الأساقفة والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الكنائس، والإيرلات والبارونات، ربع دخلهم السنوي، وأن يدفع الرهبان السسترشيان والبريمونستراتينشيان Premonstratensian جميع نتاجهم من الصوف

وأن يدفع رجال الدين الذين يعيشون على العشور، العشر من دخلهم.

ودهش الألمان لرؤيتهم تدفق الناس بشكل كبير ومستمر من الأساقفة، ورعاة الديرة، والإيرلات والبارونات والناس الأقل شأناً من مختلف المناطق وأبعدها، على طلب رؤية الملك، وكان كلّ واحد في بلاده

متشوقاً لعودته، وبها أن عدداً كبيراً من الناس أعادوا معهم أنواعاً من التعليمات [التي نسبت إلى الملك] كتب الملك الرسالة التالية:

«من رتشارد ملك انكلترا إلى وولتر رئيس أساقفة روان:

مهما بلغ عدد المرات التي نرسل بها رسائل إليكم في انكلترا مع أوامر صادرة إليكم، عليك أن تعتمد فقط الرسائل التي تتعلق بسمعتنا وتقدمنا، أما الرسائل التي لاتتعلق بسمعتنا أو منفعتنا، فلا يجوز اعتادها».

وجرى استدعاء هيوج أسقف تشستر -- حسبا قال -- من قبل الملك، وأعد نفسه إعداداً جيداً مع هدايا عظيمة، وقد تعرض لكمين حتى قبل أن يتعرض لمخاطر ألمانيا، فبينها كان يرتاح في إحدى الليالي قرب كانتربري، ألقي القبض عليه وسرق، وكان ماثيو دي كلير، شحنة قلعة دوفر، قد أعطى هايته إلى اللصوص، ومع أنه حرم بالاسم من قبل رئيس الأساقفة والأساقفة تحت شموع مضاءة، من غير المعروف فيها إذا كان قدم ترضية صحيحة لما اقترفه.

وتزوج فيليب ملك فرنسا أخت ملك الدانهارك، غير أنها تطلقا بشكل غير متوقع، وجرى الحديث عن هذا أكثر مما جرى حول ماحدث في العرس يوم ١٥ آب في آمين Amiens وفضلت الملكة المطلقة أن تعيش في سواسون على العودة إلى بلادها الدانهاركية.

وعاد الرسل الذين أرسلهم رئيس الأساقفة إلى البابا لإحضار الطيلسان البابوي، وعاد معهم واحد يدعى «الأسقفي» يحمل الطيلسان نفسه، وعقد اجتماع عام للأساقفة في كانتربري يوم ٥ تشرين الثاني، حضره أيضاً بعض رعاة الديرة، وذلك من أجل استقبال رئيس الأساقفة وتتوجيه.

وعندما بات كلّ شيء محتاج إليه لهذا الاستقبال جاهزاً، جرى تتويجه

بشكل مهيب ومنح قبلة السلام، وقد جلس على يمينه أسقف لندن وعلى يساره أسقف ونشستر، ثم ذهبوا في موكب لاستقبال «الأسقفي» وهو يحمل الطيلسان، وتوجه رئيس الأساقفة إلى المذبح المرتفع، وهناك قيد بقسم الثالوث القديم، مع اضافة قليل من الكلمات الجديدة، التي نعتقد أنه من غير الضروري ذكرها هنا.

ثم وجه وولتر رئيس أساقفة روان شؤون المملكة لمدة سنتين وثلاثة أرباع السنة، وذلك بمشابة رئيس لهيئة القضاء في انكلترا، وهو لم يهاش جماعة النبلاء في تلك الأثناء، ونأى بيديه عن أخذ الأعطيات، ناظراً إلى الفرقاء بعين واحدة ومعيار واحد، وذهب هذا الرجل بناء على طلب من الملك رتشارد إلى ألمانيا، وسافرت معه إليانور أم الملك، وقد احتفلا بعيد الغطاس على الطريق.

# سنة أربع وتسعين ومائة وألف

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديسيتو عمدة لندن:

إنني أعلم أننا منذ أن أتينا إلى مولانا العزيز والمشهور جداً، ملك الانكليز، لم نكتب إلى أحد في انكلترا، حتى الثالث من شباط حيث سمعنا بمسائل جديرة بأن نخبركم عنها، ومتوجب علينا أن نكتب لكم عنها، لأنه في ذلك اليوم نظر الرب الرحيم إلى شعبه في مينز، بتدبيره اطلاق سراح المولى الملك، ففي ذلك اليوم نفسه في الساعة التاسعة منه، كنا نحن أنفسنا حاضرين نيابة عن المولى الملك، وذهب أسقفا مينز وكولون بين السيد الامبراطور والسيد الملك، ودوق النمسا يلتمسون اطلاق سراح الملك، وبعد بذل جهود كبيرة ومصاعب مع كثير من المتاعب، حصل الأسقفان على اطلاق سراحه.

واتصلت الملكة ونحن أنفسنا وأساقفة باث، وإيلاي، وسينت، وعدد كبير آخر من النبلاء بالملك شخصياً، وأخبرناه باختصار بالأخبار السعيدة، وهكذا أعلن السيد الامبراطور له، أنه صحيح قد أبقاه بالاعتقال لديه لمدة طويلة، سيطلق سراحه الآن ويمنحه الحرية، وبناء عليه يمكنه من الآن فصاعداً أن يستأنف سلطاته، فقد حصل على حريته، وحلت المسألة وفقاً لرغبته».

وتزوج في هذه الآونة هنري ابن أخت رتشارد ملك انكلترا، والابن الأول ولادة لهنري دوق سكسوني، الابنة الوحيدة والوريثة لكونراد كونت أوف بالاتنيت Palatinate.

وجرت نقاشات كثيرة بين الامبراطور والملك، ليس من أجل إعداد مال الفدية الذي سيدفع فقط، بل لتخفيض مرتبة الملك [بجعله تابعاً للامبراطور] وقد امتزج بهذه المفاوضات شيء كان إجرامياً تماماً، وكان بكل تأكيد عملاً مناقضاً للشرائع، وضد القوانين، وضد السوابق الحسنة، ومع ذلك صحيح أن الملك وأتباعه حلفوا الأيان بأنهم سيرعون ذلك، وقدموا رسائل تأكيد واعتراف كانت معترف بها ومقبولة في كل مكان في العالم، لقد كان الفرقاء محلين من أيهانهم لأنها استخرجت منهم بشكل غير قانوني، وكذلك الرسائل ينبغي ألا تتملك أية سلطة في المستقبل، ولا أن تحصل على أية قوة في مجرى الأيام.

وجرى تقديم وولتر رئيس أساقفة روان، ووليم لونغ شامب، مستشار الملك، وعدد آخر من الأعيان، كرهائن، حتى يأتي وقت تحريرهم عندما يتم دفع عشرة آلاف مارك، وهو مبلغ طلب من الملك دفعه على الفور، وقد أقسموا على مراعاة هذه الأحكام، وألا يغادروا ألمانيا بدون معرفة الامبراطور.

وقدم الملك الانكليزي إلى كولون بناء على طلب ملح ومستعجل من

رئيس الأساقفة أدولف، وقد استقبل بحفاوة بالغة في قصره، حيث الأبهة عظيمة والاحتفالات رائعة، وقد بقي هنباك لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث باشر رئيس الأساقفة الأمور بنفسه، ونشط من أجل حضور الملك قداساً يعقد في كنيسة القديس بطرس، وطرح رئيس الأساقفة جانباً ثيابه الفخمة، واحتل مكان قائد جوقة المرتلين، ووقف وسط الجوقة مع الآخرين من أفراد الجوقة، وبدأ القداس المقدس، وتلا: «أعرف الآن بصدق أن الرب بعث بملاكه وأنقذني من أيدي هيرود».

وسافر الملك رتشارد، وركب الطريق دونها توقف حتى نزل في انكلترا في سندويش يوم الأحد ٢٠ آذار، وفي يوم ٢٣ آذار جرى عقد اجتماع هائل لرجال الدين وللشعب، وجرى استقباله في موكب مرّ خلال المدينة المزينة حتى دخل إلى كنيسة القديس بولص، ومن هناك ركب الطريق إلى نوتنغهام، ووصل إليها بالحال، وبعد ثلاثة أيام تسلم استسلاماً جميع المدافعين عنها الذين طلبوا رحمته.

واحتفل الملك بعيد الفصح في نوتنغهام، وتسلم بعد ثمانية أيام تاج المملكة من هيوبرت وولتر، رئيس أساقفة كانتربري، وجرى ذلك في ونشستر، وكان بين الحضور أيضاً وليم ملك اسكوتلندا.

وفي يوم ١٢ أيار ركب الملك رتشارد سفينة من بورتماوث، ووصل إلى نورماندي إلى بركس [الصحيح ليزكس] وقابل أخاه جون، الذي سجد على قدميه يطلب الرحمة منه، وقد حصل عليها، وزحف نحو فيرنويل Verneuil فسمع أن الملك الفرنسي كان يحاصر القلعة، وأنه لم يكن هناك توقف منذ ثهانية أيام سواء عن رمي النيران بوساطة المنجنيقات، أو بقذف الحجارة الكبيرة، أو باستخدام آلات الحصار، أو بحفر الأنفاق تحت المدافعين، أو بالحاق الجراحات بأجساد المدافعين، ثم حل موعد وصول ذلك اليوم العظيم في التقويم، اليوم الذي كرّس للجلالة العلوية، إنه اليوم الأعظم في جميع أنحاء العالم، ذلك هو يوم عيد العلوية، إنه اليوم الأعظم في جميع أنحاء العالم، ذلك هو يوم عيد

الشعانين، الذي يحتفل فيه المسيحيون في كلّ مكان من أمكنة الكرة الأرضية.

ثم سمع الفرنسيون كيف أن ملك الانكليز كان يحضر تحت جنح الظلام للقتال، وقد سمعوا أنه سيهاجم في اليوم التالي، فارتعبوا لدى سهاع هذا التقرير، وآثر الرجال المرعوبين الفرار على القتال، وآثروا أيضاً العار الأبدي، على الخسارة، فتراجعوا وانسحبوا من أمام القلعة.

وعاد وولتررئيس أساقفة روان من ألمانيا بعدما تم دفع العشرة آلاف مارك، واستقبل يوم ١٩ أيار في كنيسة القديس بولص في لندن، حيث تولى تقديم عظة وقداس للناس، وبعدما أكمل طقوس القداس جرى الاحتفاء به بعناية في بيت أسقف لندن، وتوجه في يوم ٣٠أيار بحراً نحو نورماندي.

وكان الملك الفرنسي يتراجع مسرعاً من فيرنويل، ولكي لايظهر وكأنه لم يفعل شيئاً أقدم على حصار بلدة صغيرة قرب روان تدعى فونتين Fontaine بسبب كثرة الينابيع المتفجرة فيها، وكان في داخلها أربعة فرسان وعشرين رجالاً مسلحاً بمثابة حرس لها، ولقد عزم الملك الفرنسي على شيء ليس أقل من تحويل حاكم عظيم مع جيشه كله إلى مثل هذا المكان الصغر.

وبعدما وزع نوبات الهجهات الشديدة، هاجم الملك نفسه الباب في اليوم الرابع، فتغلب على الحامية الصغيرة، ودمر كل شيء، غير أنه احترم رجال روان نفسها، خشية أن تنبعث في نفوسهم الحمية كما فعل أهل فونتين، وهكذا رجع إلى أراضيه محرزاً على الأقل نصراً صغيراً.

وفي تلك الآونة كان الجيش الأنجيفي يحاصر قلعة وليم غووي Gouet التي بنيت على مقربة من لى فيرت برنارد التي تدعى أيضاً مونتميرال Montmirail وقد استولى هذا الجيش عليها وهدمها

بالكامل.

وبعدما تراجع الملك الفرنسي من فيرنويل، جاء الملك الانكليزي إلى تور، حيث دفن مارتن المقدس، واستلم ألفي مارك هدية طوعية من برجاسية المدينة الذين جمعوها بدون أي إكراه، ثم تقدم رتشارد إلى بيوليو العيم التي قامت على حدود تورين، وحاصرها وتمكن خلال أيام من الاستيلاء على قلعة لوشي، وكان الملك الفرنسي قد تسلم لوشي من وكلاء ملك الانكليز، وجعلها تحت سلطانه، وكان وقتها الملك الانكليزي بالأغلال، وقد تسلمها بمثابة ضمانة حتى لايتم خرق الاتفاقية المعقودة بين الملكين، ووقتها شحنها الملك الفرنسي بخمسة عشر فارساً وثهانين رجلاً مسلحاً مع مايكفي من مؤن وعتاد للدفاع عن المكان.

وفي تلك الآونة جاء ابن ملك نافار بمثابة حليف لملك الانكلين، وكان قد حشد جيشاً كبيراً يضم فيها يضم مائة وخمسين من حملة القسي العقارة، وقد نهب بلاد غيوفري أوف رانكون Rancon لورد أوف تيليبورغ Taillebourg وبلاد كونت أنغوليم

وأغار الملك الفرنسي على حدود تورين، ونصب خيامه قرب فاندوم Vandome لكنه عندما شهد قدوم ملك الانكلين، أزال معسكره في الصباح الباكر، وعاد مسرعاً إلى فرتفال Freteval وتبعه رتشارد وسار خلفه واستولى على قطار أثقاله، والكونتات والبارونات والنبلاء والفرسان الذين كانوا يدافعون عنة ويقاتلون، واستولى على جميع معداتهم، وعلى الذهب والفضة المحفوظة في الصناديق وفي أماكن أخرى، وكذلك على الخيام، وعلى القسي العقارة، وعلى عدد لا يحصى من الأشياء الأخرى، التي كانت أثمانها غير محددة، فلقد استولى رتشارد على هذا كله وحمله بعيداً دون المعاناة من أية جراحة لنفسه.

ومضى من عيد أحد العنصرة، عندما طلب ملك الفرنسيين الفرار، حيث نجا من فيرنويل خلال الليل. سبعة وثلاثون يوماً إلى اليوم الذي كان مقيهاً فيه قرب فاندوم، وقد فوجىء بالصباح ورعب من الجراحات القاسية التي لحقت برجاله، لذلك ألقى بنفسه في شاتودون -Cha واتخذ داخلها موقف الدفاع.

واستروح الملك الانكليزي رائحة النصر، فعبر إلى بواتو، واستولى بعد عدة أيام على تيلبورغ Taillebourg جميع أراضي غيوفيري أوف رانكون مع جميع أراضي كونت أوف أنغوليم، وعلى هذا لم يبق فيها بين مفرق شارل [ممر رونسيفو في جبال البرانس المفترض أنه كان مسرح معركة نشيد رولاند] وقلعة فيرنويل، ولا عاص متمرد ضده.

وكتب «البابا كليستين إلى أسقف فيرونا:

نحن نرغب، وبموجب الارادة الرسولية نأمر، ونقضي بأن نتولى أخذ يمين من دوق النمسا، بالمواثيق التي تراها ضرورية، في أن يطيع دونها خداع أوامرنا التي أرسلت إليه بوساطتك نفسك، أو بالرسائل أو بالرسل، وبعدما تتسلم هذا اليمين، أصدر إليه أمراً بموجب فضائل أحكام اليمين في أن يطلق سراح جميع رهائن ملك الانكليز، وأن يلغي جميع الشروط التي استخرجها من الملك، وأن يعيد إليه كل شيء أخذ منه وكذلك ما أخذ من رجاله، ويتوجب عليه إعادة ما أخذه خطأ بمثابة فدية للملك تماماً دون نقص، وعليه ألا يحاول من الآن فصاعداً مثل هذا العمل. وينبغي عليك ايجاد صيغة مناسبة للتعويض عن جميع الجراحات والأذى الذي اقترفه.

وبعدما يكون قد جرى إتمام هذه الأشياء وتنفيذها، عليك أن تمنحه التحليل، وأن تخفف الحرمان المفروض على أراضيه، وعليك أيضاً أن تأمر الدوق المذكور ورجاله، بعدما تسلمت أيهانهم ومنحتهم التحليل

والغفران، أن يقوموا في أقصر وقت يمكنهم، بالذهاب إلى منطقة القدس والبقاء هناك في خدمة المسيح قدر الوقت النذي أمضاه الملك السالف الذكر في الأسر، وإذا لم يلتزموا بهذه الأشياء ويأخذوا بها، أعد اصدار قرار الحرمان نفسه عليه وعلى رجاله، بدون حق الاستئناف.

صدر في روما، في كنيسة القديس بطرس؛ ٦ حزيران ١١٩٤».

وجمع ملك الانكليـز بموجـب أمر عـام جميع النبـلاء الخاضعين له، في لامانس، حيث أثنى بصوت مرتفع على اخلاص الانكليز له في محنته.

وعقدت هدنة بين ملكي فرنسا وانكلترا، لكن مرور التجار خلال خطوط القتال منع. وفرض ملك انكلترا في هذه الآونة بعض الاجراءات لتحسين الأوضاع المالية الملكية، وأعلن أنه يتوجب على جميع الفرسان من كافة أنحاء انكلترا القدوم والاجتماع معاً بغية اختبار قوتهم في المبارزات، معتقداً أنه ربا إذا ماأعلن الحرب على المسلمين أو على جيرانه، أو فرضاً حاول أحد الأجانب غزو المملكة، فوقتها سيجدهم أكثر نشاطاً، وأحسن تدريباً، وجاهزية للقتال.

وجرى أخيراً تحديد يوم، وتعيين مكان، فدعا إلى المبارزات المكرسين على تمارين الفرسان وتدريباتهم، وحضر رجال من الانكليز مدربين بشكل جيد على الحركات العسكرية، وبارعين بالسيف وقادرين على الضرب والطعن، ولكن بها أنهم حملوا رماحاً خفيفة جعلهم هذا غير مستعدين لمعركة حقيقة بقدر ماكان الأمر معركة افتراضية ونوع من أنواع الاحتفالات الكهالية، وظهروا بشكل أفضل بامتلاكهم وحملهم للمشاعل، وكان هناك شباب جدد على حرفة الفروسية، راغبين بالمدح أكثر من الثروة، لهذا لم يضغطوا قط على الذين هزموهم بقوة السلاح: بسجنهم أو بارغامهم على دفع فدية غير معقولة، بوساطة أنواع خاصة من التعذيب، لكن وقد أسروهم بموجب حق الحرب، اكتفوا منهم بوعد قائم على الثقة

الجيدة، وهكذا تركوا أسراهم يذهبون، ليعودوا عندما يطلبون.

ووصل أربعة رسل من عند الملك فيليب إلى رتشارد ملك الانكليز، يحملون كلمات سلام، ويطلبون البحث في شؤون المملكتين، وذلك خشية أن يقوم عدد كبير من رعاياهم بهجر كثير من أماكن سكناهم بسبب انهاكهم وافقارهم وحرمانهم من الذهب والفضة، هذا إذا لم يتم تدميرهم بالسيوف المحاربة وبسفك الدماء، وكرروا مراراً القول إن الخلاف بين المملكتين يمكن أن تحسم نتائجه وينال الاستقرار والحل بوساطة المبارزة بين خمسة رجال شجعان، وينبغي إعلان حكم المتبارين إلى الشعب في كلا المملكتين الذي يتوقع النتيجة وينتظر إعلان أي الملوك سيؤثر الملك السرمدي جانبه.

ولاقت الخطة والشروط على الفور رضا ملك الانكليز، واختار الملك الفرنسي خمسة من رجاله، واختار ملك الانكليز خمسة من رجاله أيضاً، وبعدما جرى إعدادهم بكل دقة وتسليحهم والباسهم السوابغ والدروع باتوا متساوين ومتقاربين للمباراة.

وحبست في هذه الأيام نفسها سمكة تدعى بشكل عام «سمكة سمينة» [أي حوت] على النيز Naze وكان ذلك بسبب هبوب الرياح وتيار البحر، والنيز مزرعة تابعة لكهنة القديس بولص في لندن، وعندما أثير خلاف حول هل السمكة ينبغي أن تؤول إلى الملك أو إلى الكهنة جرى فحص امتيازات كنيسة لندن من قبل رئيس هيئة قضاء المملكة، وجاء القرار يقضي بوجوب صيرورة السمكة ليس إلى الملك، بل إلى عميد مقر الكهنة.

وأعاد رتشارد ملك انكلترا إلى عميد وكهنة تور وإلى بقية رجال الدين من رهبان وآخرين جميع ممتلكاتهم التي استولى عليها، وكرماً أعطى هذه الأشياء إلى السيد نائب الحبر الأعظم، وأخذت هذه الأشياء واستردت في

ألنكون Alencon يوم ١١ تشرين الثاني.

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف أوف ديسيتو عميد لندن، تحيات:

حقق السيد نائب الحبر الأعظم ونحن أنفسنا استرداد جميع الممتلكات الدينية التي صادرها ملك الانكليز من أرض السيد ملك الفرنسين، ونحن نعمل على الجانب الفرنسي ونسعى لدى ملك فرنسا أن نسترد لأنفسنا ولرجال الكنيسة الآخرين الأشياء التي أخذت من أرض الملك الانكليزي. صدر في سنس».

أخذ الامبراطور هندي الطريق إلى بلرم، وهناك استقبل بموكب مهيب في الكاتدرائية، وتوج ملكاً على صقلية في ٢٢تشرين الثاني.

وكان في ٢٦كانون الأول ليوبولد دوق النمسا في غراز عادات يستعرض قواه ومهارته بالفروسية مع جنده، وكان مسلحاً وفق عادات بلاده، وقد سقط من على حصانه واندقت قدمه، وأوصلته جراحه حتى الموت، واتخذت، بناء على نصيحة الأطباء، اجراءات مستعجلة، وجرى بتر قدمه، وهكذا حدث أن الرجل الذي ربط قدمي الملك رتشارد عندما كان على طريقه عائداً من القدس، يعاني من آلام حمل الصليب على جسده، وينوي العودة إلى الأراضي المقدسة، والذي حرمه من الإذن بالندهاب إلى حيث أراد، قد حرم من قدمه عقوبة على جريمته التي اقترفها، وكان ذلك مثل قرار حكم بطرس أوف رافينا، الذي قال بين أشياء وهو يكتب عن الولد المبذر: «من أجل الرفاه، والنهم والجشع، ليكن الجوع نصيبه، وبذلك ستضرب العقوبة المكان الذي اقترف فيه الذنب».

وكتب «هنري بنعمة الرب الامبراطور، والأغسطس الدائم، وملك صقلية إلى صديقه العزيز وولتررئيس أساقفة روان، تحيات وحب.

نحن نعلم أنك تطير فرحاً بسعادتنا ونجاحنا، وبناء عليه ندعك تعرف اننا تملكنا بنعمة الرب جميع مملكة صقلية وأبوليا بسلام، وكان هناك بعض الأعيان من المملكة معارضين لنا كثيراً في البداية، ثم ثابوا إلى حظيرة نعمتنا، غير أنهم مالبثوا أن تآمروا بعد ذلك مؤامرة خيانية رهيبة ضد شخصنا، وبها أنه مامن شيء مغطى إلا وسيكشف، فبنعمة الرب كشفت المؤامرة وأخفقت وأحبطت وبناء عليه أمرنا بهم جميعاً أن يؤخذوا ويثقلوا بالأغلال، وزادت النعمة الربانية والرحمة من سرورنا عيث ولدت رفيقتنا كونستانس، الامبراطورة اللامعة للرومان والأوغسطا، يوم ٢٦كانون الأول، لنا ولداً، شاركونا في سرورنا، أعطونا أخباراً عن أخساراً عن أخساراً عن أخوال بلادكم. صدر في سان ماركو في ٢٠كانون الثاني».

## سنة خمس وتسعين ومائة وألف

بموافقة من جميع الكرادلة، صار هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري [ورئيس هيئة العدالة] النائب البابوي، وقد تمتع بسلطات كاملة، لم يسمع بنظير لها منذ قرون.

وكتب «وليم أسقف إيلاي إلى رالف عميد لندن:

نبعث إليكم رفقاً الرسالة التي أرسلها شيخ الجبل إلى الدوق ليوبولد صاحب النمسا، حول وفاة مركيز [مونتفرات] وقد حوت الكلمات التالية:

رسالة قيل إنها جاءت من قائد الطائفة الاسلامية التي لاتعرف الرحمة، والتي تدعى الحشيشية، وفيها ادعاء أنهم هم الذين يتحملون مسؤولية قتل كونراد أوف مونتفرات وليس رتشارد الأول، وهدفها في تبرئة الملك الانكليزي من الحادث زيف واضح».

«إلى ليوبولد دوق النمسا، يبعث شيخ الجبل بتحياته.

بها أن عدداً كبيراً من الملوك والأمراء فيها وراء البحار يلومون السيد رتشارد، ملك انكلترا، من أجل وفاة المركين، إنني أقسم بالله الذي يحكم إلى الأبد، وبالشريعة التي نؤمن بها، أنه لاذنب له في ذلك الموت، والسبب الذي أدى إلى موت المركيز هو هذا:

كان واحد من اخوتنا عائد إلى مناطقنا من ساتاليا Satalia (أضاليا)، لكن الريح دفعته إلى صور، حيث أمر المركيز بأخماه وقتله، وسلب منه كثيراً من آلمال، وبعثنا إلى المركيـز برسلنا نخبره أن يعيـد مال أخينا إلينا، وأن يتفق معنا حول التعويض عن موته، لكنه لم يرغب بشيء من هذا أبداً، زيادة على ذلك لقد أبدى ازدراءً نحو رسلنا، لابل حتى اتهمنا بوفاة اللورد رينالد (أرناط) صاحب صيدا، علماً بأننا نعرف من رفاق لنا أنه هو نفسه قتل رينالد وسلبه، ثم بعثنا إليه بـرسول آخر اسمه ادريس، وقد أراد اغراقه، لكن رفاقنا ساعدوا الرسول للنجاة من صور، وعندها بادر ادريس مسرعاً إلينا وأخبرنا بالذي حدث، وأردنا من تلك الساعة أن نقتل المركيز وبناء عليه بعثنا باثنين من اخواننا إلى صور، فقتلوه بشكل مكشوف، وأمام شعب المدينة كله تقريباً، لقد كان هذا السبب في قتل المركيز، ويمكننا أن نخبركم بصدق بأن رتشارد ملك انكلترا ليس ملذنباً في موت المركيز، وأي انسان يحاول أن يؤذيه بسبب هذه القضية، يقترف بذلك عملاً ظالماً، وبدون مسوغ، واعلم بشكل مؤكد أننا لم نقتل أي انسان في هذا العالم مقابل أجر أو مال أو أي شيء، مالم يكن قد سبب لنا أولاً ضرراً. وكتبت هذه الرسالة في قلعتنا مصياف، في منتصف شهر أيلول أمام اخوتنا، وقد ختمت بختمنا في سنة ١٥٠٤ للاسكندر».

«لقد بعثنا بنسخة من هذه الرسالة إليك، أنت الذي ندرك تماماً مدى حبه، حتى يمكنك أن تثبتها في تاريخك».

#### سنة ست وتسعين ومائة وألف

حدث في هذه الآونة فيضان عظيم مفاجىء جرف كل شيء كان قائماً قرب السين سواء من الأخشاب أو الحجارة، وكمان فيليب ملك فرنسا وموريس أسقف باريس مقيان آنذاك في باريس، وكانا خائفين بشكل كبير.

ولعل فيليب تفكر ببيت [المزامير٢٩/١٦] قوله: «لايغمرني سيل المياه ولا يبتلعني العمق ولا تطبق الهاوية عليّ فاها» فقرر الالتجاء إلى رابية، فغادر قصره، وأخذ ابنه لويس وجميع أسرته لإمضاء الليل في دير القديسة جينيفف، وردد الأسقف قوله: «الميساه قد دخلت إلى نفسي» [المزامير:٢٩/٢]، ومع ذلك أخذ نفسه وشعبه للإقامة في دير القديس فكتور.

وغالباً مارأيت في هذه الأيام الحد الذي بلغه انتشار الشرور والخلاف في مدينة لندن، حول توزيع حمل الأعطيات التي توجب تقديمها للخزانة، تبعاً لقدرة كل واحد على الدفع، الأمر الذي يمكن أن يقال حوله أنه نظم بشكل غير عادل، وكان قائد هذا الخلاف رجل يدعى وليم فتزأوسبرت fitzosbert الذي غالباً مادعا إلى الاجتماعات، وجعل الناس يقسمون أيهاناً مضادة لجلالة الملك ومكانته، فقد عذب أخاه مع اثنين كانت مواقفها سليمة، بقسوة حتى الموت، وكان آخر أفاعيله الشريرة إثارة اضطراب في كنيسة القديس بولص، وعندما وجد أنه أثار السلطات إلى حد الغضب، اعتصم في برج إحدى الكنائس العائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري [سينت ماري لى بو Bow] المائدة إلى رئيس أساقفة كانتربري [سينت ماري لى بو Bow] المسلحين قادمين، وفي سبيل النجاة من الاقتراب من الموت، ألقى النار

في الكنيسة، وبذلك أحرق قسماً من معبد الرب.

وقد مُمل من الكنيسة إلى قلعة لندن ليقابل حتفه، ذلك أن عقوبة واحد يمكن أن تلقي الرعب في قلوب كثير من الناس، وقد حكم عليه من قبل النبلاء في أن يجرد من ثيابه، وأن تربط يداه خلف ظهره وكذلك تربط قدماه بحبل طويل، وأن يجرّ بوساطة حصان خلال وسط المدينة إلى المشنقة القائمة قرب تيبورن Tyburn وعلق هناك بسلسلة معدنية حتى لايموت سريعا، وجرى تعليق تسعة من أصحابه في الجريمة معه، وذلك لكي ينال الذين تلوثوا بالجريمة نفسها عذاب العقوبة نفسها، ومن أجل ضمان سلام المملكة والحفاظ عليه صدر قرار عن رئيس الهيئة القضائية بوجوب إيبداع أولاد أو أقرباء عدد كبير من ذوي المراتب الوسطى في مختلف السجون حول البلاد وذلك بعد أخذهم بمثابة الوسطى في مختلف السجون حول البلاد وذلك بعد أخذهم بمثابة رهائن، هذا وقدم الفقراء ترضية موائمة وفقاً لحكم جيرانهم.

وكتب «وولتر رئيس أساقفة روان إلى رالف عميد لندن:

أنت تعرف أية أنواع من المحن والمصاعب توجب على كنيسة روان أن تعانى منها منذ زمن طويل إلى الآن، ونأمل في أن نقنع الملك في أن يكون أكثر لطفاً نحونا ونحو كنيستنا، ذلك أنه آثر نصائح الآخرين السيئة، فاستولى على ميراث الكنيسة، وأعني بهذا لاس أندلاس السيئة، فاستولى على ميراث الكنيسة، وأعني بهذا لاس أندلاس وضرراً يمكن مع الأيام أن ينقل الأضرار إلى الأطراف، وإنا نحن أنفسنا مع آخرين محقين في انذار الملك مرتين ثم ثلاث مرات ليقلع عا بدأ بفعله، وليقوم بترضية موائمة لنا، ويرضينا بالتعويض عن مختلف أنواع بغيد إلينا بيعتنا في بليث الحراقهم عزبنا وأشياء كثيرة هائلة، وأن يعيد إلينا بيعتنا في بليث الهالله مع دخلها الذي وضعه في يديه منذ سنة أو أكثر، ولقد قدم معاذير مختلفة، كلها لاقيمة لها وغير منطقية، واستمر فيا بدأ به ولم يصغ لتحذيراتنا، وإذا ماأراد أن تبقى لنا

حيواتنا، يمكنه أن يفعل، خشية أن تكون أندلاس هي المفرج الموحيد والمتنفس لأنفسنا ولحاجات الفقراء.

والذي يجعل هذه الأفاعيل غير مغفورة أو مسوغة أنه لم يحتفظ بجزيرتنا تحت احتلاله فحسب على الرغم من تحذيراتنا، بل أخذ في زيادة تحصين أراضينا بالجنادق والدفاعات، وعندما رأينا هذا الغزو يزداد بسرعة سوءاً، ذهبنا متذللين مرة ثانية إلى مولانا الملك، وخشية أن يظن أننا نعمل مخادعة أخذنا معنا بعضاً من أعيان كنيستنا ورجونا الملك وتوسلنا إليه لكي يظهر رحمة نحونا وأن يعيد جزيرتنا التي اغتصبها، وأن يعوض علينا الأضرار التي سببها لنا ولكنيستنا، وأضفنا انه إذا لم يرضنا محلال شلاثة أيام لن نكون قادرين أكثر على اغهاض أعيننا عن عناده، ولن نترك المسألة تمر دون عقاب، شم لإضافة التعاسة فوق الشقاء، ولتعريض كنيستنا لمشاكل الحرب الأهلية، قام وليم أسقف ليزوكس مدفوعاً بالتكبر وبخبائث من الجحيم، فأثار اعتراضاً ضد أمه الكنيسة، ولهذا السبب استحق الحرمان، وكان ذلك بناء على نصيحة عدد من أتباعه الأساقفة، لتجاوزاته الكثيرة، ولطغيانه وعصيانه.

وبها أننا لم نعد قادرين بأي طريق، سواء بالرجاء أو بالانذار، أن نعيد الملك إلى عقله، فلقد انقضى الوقت المحدد دونها ظهور بوادر ترضية، نجد أنفسنا مدفوعين بالضرورة ألا ندع أعهال الأذى الكثيرة والكبيرة هذه تمر بدون عقوبة، مالم يسرع الملك إلى اصلاح خطاياه. ولسوف نذهب إلى روما يوم ٧ تشرين الثاني، حيث نأمل بعون الرب ونعمته أن نجلل أسقف ليزوكس بالعار والفوضى أمام البابا، ذلك أن سلوكه الآثم لم يترك لنا خياراً سوى ايجاد عقوبة موائمة له، إننا نطلب منكم برحمة الرب رحمة أخوية نحونا، وأن تدعو الرب من أجلنا».

## سنة سبع وتسعين ومائة وألف

مُل رئيس أساقفة كانتربري مريضاً جداً، ولم يكن قادراً على الاحتفال بقداس يوم عيد الميلاد، لكن لحسن الحظ تعافى وأمضى مدة الميلاد في كانتربري، ودخل دير الرهبان للتباحث مع الرئيس ومع الرهبان، وقد قيل بأنه ترك جميع حاشيته، حتى حامل صليبه بالخارج، ومشى أمامه واحد من الرهبان واسمه جون أوف دوفر، حاملاً صليبه، والذي حدث في الداخل خلال الأيام الثلاثة التالية غير معروف لكثير من الناس، والذي أفشى هو فقط مايلي:

دخل رئيس الأساقفة بسلام، وظهر رئيس هيئة عدالة الملك بسلام، ولم يعثر خلال الاجتماع على شيء يستحق الإدانة دينياً أو مدنياً.

وأحرق الملك رتشارد مع جيش كبير كان بصحبته قلعة القديس فاليري، ونهب المنطقة المحيطة بها، وجرى شنق قباطنة خسة سفن كانوا يجلبون المؤن إلى الأعداء، والذي عثر عليه في السفن وزعه الملك على رجاله يوم ١٥ نيسان.

وهطل مطر غزير في انكلترا لمدة ثلاثة أيام، وقد أخاف ذلك عدداً كبيراً من الناس.

## [وصدر الإعلان التالي]:

«دغ كلّ من يقرأ هذه الرسالة يعرف، أن هذه هي اتفاقية ومعاهدة بين رتشارد ملك انكلترا، وبين بلدوين كونت أوف فلاندرز وهينو قريبه: لن يعقد ملك انكلترا هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة الكونت وموافقته، وكذلك لن يعقد الكونت هدنة أو سلاماً مع ملك فرنسا دون رغبة ملك انكلترا وموافقته، وإذا حدث وعقد كلّ من الملك والكونت

سلاماً مع ملك فرنسا، وشن بعد ذلك ملك فرنسا الحرب على واحد منها، عندها سوف يكون ملك انكلترا والكونت مربوطين بتبادل العون والمساعدة، بقدر مايستطيعانه وكها كانا يفعلان وقت عقد هذه المعاهدة، ولا يجري تطبيق هذه المعاهدة أوقات الحرب فقط لكن بشكل دائم بين الطرفين، وورثتها الذين سوف يتملكون البلاد من بعدهم في السلم والحرب وإذا لم يحافظ ملك انكلترا على الاتفاقية، سوف يقدم الذين أقسموا —نيابة عنه ولصالحه أنه سوف يفعل— أنفسهم إلى الكونت المذكور، ويضعوها تحت تصرفه خلال شهر واحد من معرفتهم بالخرق، وذلك دون انتظار منهم لدعوة الكونت لهم، ومثل هذا، إذا ماخرق الكونت الاتفاقية، على الذين أقسموا نيابة عنه ولصالحه تسليم أنفسهم إلى ملك انكلترا خلال الشهر دون انتظار الدعوة. وأقسم عن الملك ولصالحه جون أوف مورتين أخو الملك، وأقسم كونت فلاندرز عن نفسه ولصالحها بحفظ المعاهدة. وكان هناك شهود كثر على كلا الجانبين، ولصالحها بحفظ المعاهدة. وكان هناك شهود كثر على كلا الجانبين،

وأمر هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري من قبل الملك بعبور البحر، وقد غادر لامبث، ثم عاد إلى هناك في التشرين الأول، أي بعد عشرين أسبوعاً وستة أيام.

وحينها كان في نبورماندي أنجز عدداً كبيراً من الأعهال النافعة، فقد سمع بأن أسقف بوفياس Beauvias الذي شغل وظيفة مزدوجة، هي وظيفة الأسقف والكونت، قد وجد وهو يحمل سلاح فارس، تبعاً لما اعتاد أن يتفاخر به أجداده، وقد ألقي القبض عليه، وحفظ بالأغلال من قبل رتشارد الأول، وتمكن رئيس الأساقفة من اقناع الملك في ابقاء الأسقف في حجز أكثر سهولة، وصالح كنيسة روان، التي كانت الخدمات الدينية فيها معلقة، وأضاف بعض الفقرات إلى معاهدة السلام بين ملك انكلترا وبلدويين كونت فلاندرز وخلفائهها، وبذل جهوداً

كبيرة، ونجح في العمل على اعادة السلام بين رتشارد ورئيس أساقفة روان، بإيجاد بديل دائم، تعويضاً لكنيسة روان عن لاس أندلاس.

كانت ماتزال حاجة رتشارد للهال ملحة، لهذا دعا هيوبرت البارونات الانكليز إلى اجتهاع ليطلب منهم المزيد من الاسهام المعتبر، وكان هيوج أسقف لنكولن بين الذين قاوموا الملك، وذلك حسبها يروي لنا صاحب سيرة حياته:

#### سنة ثمان وتسعين ومائة وألف

قبل قرابة سنة وأربعة أشهر من وفاته، أصبح رتشارد ملك انكلترا حنقاً عظيم الغضب من هيوج أسقف لنكولن، وكان الملك فيها وراء البحر، منشغلاً في صراع مرير مع فيليب ملك الفرنسيين، وتحت البدعوة إلى اجتماع عام لجميع بارونات انكلترا في اكسفورد، وذلك بناء على طلب من هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ومدح رئيس الأساقفة منافع الملك، وشرح أوضاعه الصعبة، وبين أنه اعتماداً على موارد قليلة وقوى صغيرة كان يصارع ضد ملك قوي(٢٧) جداً، ملك كان يثير كل جوارحه ليحرمه من ملكه وليدمره، وسألهم أخيراً أن يقرروا ككتلة واحدة الوسائل التي يمكنهم بها على أحسن وجه مساعدة مولاهم في وضعه الوسائل التي يمكنهم بها على أحسن وجه مساعدة مولاهم في وضعه ويعتقدون بوجوب اطاعة كل رغبة للملك بدون تردد، أنه يتوجب على ويعتقدون بوجوب اطاعة كل رغبة للملك بدون تردد، أنه يتوجب على بارونات انكلترا بها فيهم الأساقفة امداد الملك بثلاثهائة فارس حتى يقاتلوا معه طوال السنة فيها وراء البحر ضد أعدائه، وذلك على حسابهم.

وعندما طلب من أسقف لنكولن بشكل علني اعطاء الموافقة على هذا الاقتراح، بقي صامتاً يفكر حتى بادر أولاً رئيس أساقفة كانتربري ثم

رتشارد أسقف لندن، الذي شغل منصب العميد بين الأساقفة، فأعلنا عن استعدادهما لتكريس نفسيهما ورجالهما وممتلكاتهما لحاجة الملك، وهنا قدم اجابته حول السؤال الذي طرح عليه فقال:

"إنني أعرف تمام المعرفة أن كنيسة لنكولن مكرّسة لخدمة الملك في الحرب، لكن في هذه البلاد فقط، وإنها لحقيقة ملزمة أن مامن خدمة متوجبة وراء حدود انكلترا، ولهذا إنني أؤثر العودة إلى موطني الأصلي واستئناف طريقة حياتي العادية، على أن أبقى هنا أسقفاً، مسبباً إلقاء حمل على الكنيسة التي تحت سلطتي، بلاسابقة، ومن ثم التخلي عن حقوقها القديمة».

وتلقى رئيس الأساقفة هذه الاجابة بامتعاض، وسأل بشفتين ترتجفان من الغضب، وبصوت خافت، هربرت أسقف سالسبري عن رأيه حول تأمين العون إلى الملك، فرد على هذا السؤال باختصار وقال مايلي: «يبدو بالنسبة لي، أنه بدون الحاق ضرر عظيم بكنيستي، أنا لايمكنني أن أقول أو أفعل شيئاً آخر غير الذي اقترحه أسقف لنكولن الآن أن يفعل»، وفقد الآن رئيس الأساقفة السيطرة على نفسه تماماً، وانفجر في وجه أسقف لنكولن، ثم فيض الاجتماع، وقام باخبار الملك بأن أسقف لنكولن هو المسؤول عن رفض اقتراحه، وعندما استقبل الملك اثنين أو ثلاثة رسل من عند رئيس الأساقفة، أمر وهو في حالة هياج من شدة الغضب بمصادرة جميع ممتلكات الأسقف، وأرسلت التعليات نفسها إلى أسقف سالسبرى الذي أيد أسقف لنكولن ثم ماالذي أعقب هذا؟ عانى أسقف سالسبري من المصادرة مباشرة، وتمكن من شراء رضى الملك واسترداد ممتلكاته بدفع مبلغ كبير من المال، وتحقق هذا من خلال ذهابه إلى الملك وتحمله لكثير من الاهانات، وللمزيد من الاساءات، وبدفع ثمن باهظ وبعد مصاعب جمة، ولم يتجرأ، على أية حال، أحد على الاستيلاء على أراضي وممتلكات أسقف لنكولن، خشية اثارة غضبه، وخوفاً من حرمانه الندي ساوى الحكم بالموت، ولهذا لم يتخذ اجراء ضده من عيد القديس نيقولا إلى بداية ايلول، لأن عامل المصادرة الملكي لم يتجرأ على مصادرة ممتلكات الأسقف على الرغم من أوامر الملك المتوالية والقاسية.

وأخيراً، وتحت إلحاح طلبات الموظفين الماليين، الـذين تعرضوا لضغط شديد من الأوامر الملكية القاضية بمصادرة ممتلكاته، ذهب أسقف لنكولن عبر البحر إلى الملك، واتصل بالملك نفسه، بدون الاستعانة بخدمات أي وسيط، ووجده في البيعة في قلعته الجديدة في لاس أندلاس، يستمع إلى قداس رفيع بمناسبة عيد الطبيب الكبير القديس أوغسطين، يـوم ٢٨ آب، وحياه مباشرة، وكان الملك جالساً على عرش ملكى عند المدخل، والأسقفان: فيليب أوف درم ويوستاس أوف إيلاي يقفان عند قدميه، وعندما حياه أسقف لنكولن، لم يرد الملك عليه، بل قطب في وجهه، وبعد وقت قليل أشاح بـوجهه عنه، وقال الأسقف له: «مولاي الملك، قبلني»، لكن رتشارد أدار رأسه أكثر ونظر نحو الاتجاه الآخر، وهنا أمسك الأسقف بشدة بإزار الملك الذي لفه حول صدره، وهزه بعنف قائلاً ثانية: «أنت مدان لي بقبلة، لأنني جئت من مسافة بعيدة لرؤيتك» فأجابه الملك: «إنك لاتستحق ولاقبلة مني» فهزه بعنف أكبر من قبل، وهذه المرة بوساطة ردائه الذي أمسكه بقوة، وقال بجرأة: "إنني أمتلك كلّ الحق بواحدة" ثم أضاف "قبلني"، واستسلم الآخر أمام شجاعته واصراره، وبعد قليل قبلُه مع ابتسامة.

وتبادل أسقف لنكولن مع الملك عبارات الاحتجاج بعدة كلمات قاسية، لغضبه الأخير الذي هو غير مسوغ، وقدم تعليلات كثيرة أظهر فيها أنه لم يخفق قط في أداء واجبه نحوا لملك، ولم يستطع الملك معارضته، ولهذا وضع جميع اللوم على رئيس أساقفة كانتربري، الذي غالباً ماأساء الشرح له في رسائله، واستفاد الأسقف من هذا التوضيح واستغله

بسه ولة لإقناع الملك أن كل ماقيل غير صحيح تماماً، وقال: «إنه باستثناء مجد الرب، ونجاة نفسي ونفسك، لم أعارض قط حتى الآن أي شيء هو لصالحك».

وهكذا انطفأ غضب الملك وسخطه، وقدم أعطيات ملكية إلى الأسقف، وأرسله للاقامة بمثابة ضيفه في شاتو— غيلارد —Chateau التي بناها حديثاً على إحدى الجزر [لاس أندلاس] التي لم تكن بعيدة كثيراً، وطلب الملك من الأسقف أن يعود في اليوم التالي ليراه، حتى يتمكن بعد مقابلة أخرى من العودة إلى وطنه وهو واثق من صداقته، وسمع هيوج أسقف لنكولن هذا شاكراً، ووعد بالعودة في اليوم المقبل.

وشعر هيوج، وهو الأب الروحي للملك، بمسؤوليته عن سعادة نفس رتشارد، وبناء عليه، أخذ بيده، وجعله يقوم من على كرسيه، وسحبه جانباً إلى مكان قرب المذبح، وسأل هيوج رتشارد الجلوس، ثم جلس هو نفسه، وشرع بعد ذلك يتكلم معه على انفراد، وقال له: "إنك فرد من أبرشيتنا يامولاي الملك، وبسبب وضعنا الكهنوي سوف نجيب في يوم الحساب الرهيب، عن نفسك، التي أنقذها رب العالمين بدمه الخاص، ولهذا أسألك أن تخبرني عن أحوال ضميرك، فبذلك يمكنني أن أقدم لك مساعدة فعالة ونصيحة حسبها ستوجهني روح القدس، فقد مر مالا يقل عن سنة منذ أن تكلمت معك حول ذلك في مناسبة أخرى.

وفي الحقيقة، إنه فيما يتعلق بك، وهنا أتكلم بأسف، هناك روايات أنك غير مخلص لفراش الزوجية، وأنك لاتبقي امتيازات الكنيسة دون انتهاك، لاسيما فيما يتعلق بتعيين الأساقفة أو انتخابهم، لابل لقد قيل إنك اعتدت على رفع أناس إلى حكم النفوس صدوراً عن عواطف الصداقة، أو أنهم دفعوا لذلك، وهذا ذنب شائن جداً، وإذا صح هذا فالرب لن يمنحك السلام».

وأصغى الملك باهتمام إلى عظته ونصيحته، وأنكر في بعض الحالات أنه كان مجرماً، وسأل مساعدته بصلواته في مسائل أخرى.

وبعدما تلقى الملك مباركته تركه يذهب، وانطلق هيوج شاكراً نحو مكان الاقامة الذي اختاره له الملك وأعده.

وتباحث الملك في الوقت نفسه مع أعوانه حول الأسقف، وعلق على قداسته بشيء كبير من الاعجاب وقال: «في الحقيقة، لو كان بقية الأساقفة مثله، مامن ملك أو حاكم سيتجرأ على رفع رأسه ضدهم».

ونتابع مع رواية ديسيتو عن حكم رتشارد في سنة ١١٩٨ ، التي شهدت حدثاً حاسباً في أهميته بالنسبة للسياسة الأوروبية، وتمثل ذلك بانتخاب البابا انوسنت الثالث.

وبعدما تخلص البابا كلستين من أعباء هذه الحياة، جرى انتخاب الكاردينال الشهاس لوثاريو Lothario بابا يوم اكسانون الثاني، وقد اتخذ لنفسه اسم انوسنت الشالث، وفي يوم الاشباط رسم أسقفاً وتوج على عرش القديس بطرس.

وهطل في يـوم ٨أيار مطر دموي على الـرجال الذيـن كانوا يتولـون بناء قلعة في لاس أندلاس في منطقة روان.

واستسلمت آخن التي كان يحاصرها أوتو ابن أخت رتشارد ملك الانكليز إليه، وتزوج في اليوم التالي من الابنة الوحيدة والوريثة لدوق برابانت، وكان عمرها سبع سنوات، وفي ١٢ غوز جرى تتويجه من قبل أدولف رئيس أساقفة كولون، واعتلى عرش القياصرة.

تجمعت على تخوم ويلز، قرب مايعرف باسم قلعة ماتيلدا، قوات الدفاع الرئيسية بنوايا عدوانية وكانت هذه القوات مسلحة من أجل القتال، وكانت المجموعة الأولى من الويلزيين مؤلفة من الجنود الرجالة،

والذين كانوا في المجموعة الثانية عبارة عن فرسان ورجالة، أما المجموعة الثالثة فتكونت من الفرسان فقط، أما جيش الملك فقد تألفت المجموعة الأولى فيه من الجنود الرجالة، ووقف الفرسان في المجموعة الثانية، بينها تجمعت قوة الجيش كله في المجموعة الثالثة، ومع أول اشتباك أدار الويلزيون ظهورهم، وأخذت الأسلاب منهم، ووقع عدد كبير منهم بالأسر، وقتل عدد أكبر، فقد وصل عدد المقتولين إلى ثلاثة آلاف مقاتل، وهكذا تحققت النبوءة القائلة: «سوف تسبب الجراء العاوية مذبحة عظيمة بين صفوف كل من يعترضها».

وفي يوم ١٠ أيلول توفي رتشارد أسقف لندن صاحب الذكرى الحبيبة، وذلك بعدما شغل كرسيه لمدة ثماني سنوات، وثمانية أشهر، وعشرة أيام.

ووصل بلدوين كونت فلاندرز إلى أمام بلدة سينت أومر ومعه جيشه يوم ٦ أيلول، وألقى عليها الحصار لمدة ثلاثة أسابيع.

وفيها الكونت ملقياً للحصار، وصل رسول من عند ملك فرنسا، يحمل رسالة تقول: إنه إذا ماتمكن شحنة البلدة ومعه سكانها من الصمود والدفاع عن بلدتهم ضد الكونت حتى ٣٠أيلول، إنه سوف يأتي إلى مساعدتهم مع جيش كبير في ذلك اليوم، وإذا لم يقدم، بإمكان الشحنة وأهل البلدة أن يفعلوا أحسن مايستطيعون، وبذلك استسلمت البلدة إلى الكونت.

ودخل رتشارد ملك الانكليز مناطق الملك الفرنسي مع جيش كبيريوم Bur- وبوريز Courcelles وبوريز Sirefontaine وسيرفونتين Sirefontaine وجاء في اليوم التالي ملك فرنسا من مانتس Mantes مع أربعائة فارس وسيرجندية مع عتاده ومؤنهم لمساعدة قلعة كورسل، التي لم يعتقد أنها سقطت، ولهذا ما ان رآه ملك الانكليز قادماً حتى أقنعه بادارة ظهره والفرار، وزجّه في أوضاع

محرجة عند بوابة غيسور، حيث تحطم الجسر تحته، مع غرق عشرين من الفرسان، وأسقط ملك انكلترا بالوقت نفسه برمحه ماثيو أوف مونتمورنسي Montmorency وألان أوف روشي Rusci وفولك غلرفيل Gi- اervalle وأخذهم أسرى مع مائة فسارس وعدد كبير جداً من السيرجندية، وتم الاستيلاء على مائتي حصان حربي، بينهم مائة وأربعين كانوا مدرعين.

## سنة تسع وتسعين ومائة وألف

عدّ البابا إنوسنت الشالث البابا الرابع والثمانين بعد المائة في ثبت البابوات شروعاً من بطرس الرسول، الذي قال له يسوع المسيح: «أنت بطرس —الصفا— وعلى هذه الصخرة سوف أبني كنيستي».

تسلم وليم المولود في نورماندي، والكاهن في كنيسة لندن، هبة السيامة في وستمنستر في بيعة القديسة كاترين، وجاء ذلك بناء على طلب من رالف ديسيتو عمدة لندن، وكان الذي قدم إليه الهبة هو هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، بحضور ثلاثة عشر أسقفاً، في يوم ٢٣أيار.

في ٢٦نيسان جرح ملك انكلترا بسهم أطلقه بيتر باسليوس -Ba قرب قلعة شالو Chalus في الليموزين في دوقية أكوتين، وتوفي بعد ذلك في القلعة يوم الثلاثاء، وجاءت وفاته جديرة وموائمة لرجل أوقيف نفسه على أعمال الحرب، وقد حكم تسع سنين وستة أشهر، وتسعة عشر يوماً.

وقد دفن في فونتفرولت Fontevrault عند قدمي أبيه، هنري

الثاني.

قدم آدم آينشام وصفاً دقيقاً لرحلة هيوج لنكولن السريعة والمرعبة لحضور جنازة رتشارد الأول في فونتفرولت.

جاءت راعية دير فونتفرولت المبجلة إلى أسقف لنكولن وأخبرته على انفراد بأن الملك قد أصيب بنشابة أطلقت عليه من قوس عقار، وأمضى عدة أيام في آلام مبرحة، وأن حالته خطيرة، ومن غير المعروف هل سيظل حياً أم سيموت، وبقدر ما أذكر، أصيب الملك بجرحه القاتل في اليوم نفسه الذي تعرض فيه الأسقف للمضايقات بوساطة الأذى الذي صدر عن مستشاريه الأشرار، ولدهشتنا أنه خلال الوقت الذي مضى فيا بين وصول الرسول وجراحة الملك مامن واحد تحادث معه حول كيفية معاجة هذه القضية، فقد جلس بهدوء ينتظر «الخلاص من الرب».

وفي الوقت نفسه سأل عميد أنغر مع الكهنة الأسقف أن يرأس القداس يوم أحد السعف، بسبب أن أسقفهم لم يعد من المجمع الكهنوي في روما، حيث جرت سيامته حديثاً، وقد وافق، وعندما كان يوم السبت في طريقه إلى المدينة، رآه أحد الكهنة واسمه غلبرت دي لاسي Gilbert de Lacy وأخبره أن الملك قد مات ولاشك حول ذلك، وأخبره أنه سيدفن في اليوم التالي عند قدمي أبيه في فونتفرولت.

وعند سماع الأسقف هذه الأخبار تنهد وأجهش بالبكاء بصوت حزين مرتفع، وأخبر على الفور مرافقيه أنه سيذهب إلى المكان المتقدم الذكر لحضور الجنازة، وحاول الجميع أن يمنعوه من فعل ذلك، زد على هذا أنه عندما قدم إلى المدينة، سمعت اشاعات من جميع الجهات أن المسافرين قد هوجموا في كلّ مكان وسلبوا، وسمع أيضاً أن بعضاً من رجاله، الذين كانوا جالبين له مالاً من انكلترا قد وقعوا في أيدي قطاع الطريق، وأن

هؤلاء أخذوا منهم أربعين ماركاً فضياً.

وحثه رفاقه وخدمه ألا يعرض نفسه وصحبه إلى هذه المخاطر، وأن يبقى في المدينة حتى ينجح الخليفة الشرعي لرتشارد في اخماد عنف هؤلاء الرجال الأشرار، وأصرّ بعضهم على القول بأن شرورهم كانت كبيرة إلى حد أنه لم يبق لديهم احترام لأسقف أكثر من انسان عادي، وقالوا:

«ماالذي ستفعلونه، وإلى أي طريق ستتحولون، إذا — السمح الرب— كنتم في بقعة منعزلة وتعرضتم للسلب من خيولكم ومن ثيابكم»؟.

وكان وهو الرجل المستقيم، شجاعاً وثابتاً مثل الأسد، وأصبح الآن في الحقيقة أقل خوفاً في وجه الخطر، فرد على هذا كما يلي:

"من الواضح كثيراً أن هناك أشياء التحصى تخيف المسافر وتثير أعصابه في هذه الرحلة، وعلى كلّ حال إن الذي يبدو لي ماينبغي أن يخشى منه هو أن أقوم أنا بالتصرف كرجل جبان، فأتمنع عن شهود مولاي السالف وملكي في هذه المناسبة، وأن أخفق في تقديم الاحترام للميت مع الولاء، مثلما قدمتُ له دوماً وأنا حي، وافترض أنه آذاني، لأنه لم يكن متنبهاً تماماً ومتيقظاً لمستشاريه الأشرار، ولإطراءاتهم؟ ولكي نكون متأكدين، لقد فعل ذلك، لكن عندما كنت معه عاملني دوماً باحترام فائق، ولبي لي طلباتي كلما اتصلت به شخصياً حول أية مسألة تتعلق بي شخصياً، وإذا كان قد عاملني بشكل سيء بأية طريقة من الطرق عندما كنت غائباً، فهذا ينبغي عزوه إلى شرور خصومي وليس لنوايا شريرة صادرة عنه، ولهذا سأبذل جهد مستطاعي لأرد له أعماله الحسنة وفضائله نحوي، هذا ولن يكون الخطأ خطأي إذا لم أقدم خدماتي أثناء الجنازة، وإذا ماواجهت لصوصاً على طريقي، وإذا ماأخذوا خيولي وثيابي، ستوصلني قدماي إلى هناك بشكل أسرع، وذلك إذا ما تحررت

من أثقال ثيابي، وإذا ماربطوا قدماي، وسلبوني من أية قدرة على الحركة، وقتها فقط يكون غيابي الجسدي مسوغاً، لأن مرد ذلك لبس لخطأي بل للمعيقات التي فرضها عليّ أناس آخرون».

وبعدما قال هذا ترك معظم رفاقه، وجلّ أثقاله في المدينة، وانطلق، آخذاً معه واحداً من أقل كهنته أهمية، وراهباً وعدداً ضَئيلاً من خدمه، ولقد سمع بأن الملكة بيرنغاريا كانت مقيمة في قلعة بوفورت Beaufort وقد تخلى عن الطريق العام وسافر خلال منطقة غابية كثيفة إلى تلك البلدة، وذلك بهدف مواساتها لموت زوجها، ونفذت كلماته إلى نفس الأرملة الحزينة، ذات القلب المحطم، وسكّن حزنها بطريقة رائعة، وتحدث إليها بشكل جميل جداً عن الحاجة إلى الجلد في مواجهة النوازل وإلى الحكمة في أوقات السعادة، وبعدما أقام قداساً، وأعطى الملكة والذين معها تبريكاته المهيبة بشكل عاطفي فيه حب وولاء، غادر على الفور، ووصل في ذلك اليوم إلى بلدة تدعى سومور Saumur حيث جاء سكان البلدة بشكل انفعالي لمقابلته، وتجاوب مع الرجاءات الحارة التي قدمها له غلبرت دي لاسي الذي ذكرته من قبل، والذي كان يشرف على المدرسة هناك، وأقام معه، حيث عومل بكرم فائض، ووصل في فجر اليوم التالي، الذي كان أحد السعف إلى دير فونتفرولت، والتقى عند باب الكنيسة مع حملة تابوت الملك، وبعدما دفن بشكل فحم جداً، مع الأبهة الملكية، ذهب الأسقف أخيراً إلى المقر الذي عين له، ولمدة ثلاثة أيام كاملة اعتاد أن يذهب إلى الدير، حيث كان يردد القداسات والمزامير ويصلى للعفو عنه، وللمباركة بنور سرمدي يصاحب نفسيّ الملكين اللذين دفنا هناك، ونفوس جميع المؤمنين الذين ماتوا في المسيح.

# القسم الخامس

### جون ۱۲۱۹–۱۲۹۹

شكل حكم الملك جون نقطة عسلامة، وحداً فاصلاً في التاريخ الانكليزي، فقلًا تمّ فقـدان جميع الممتلكات البلانتغنتية الواسعـة في فرنسا باستثناء فسكون، لقد فقدوا لصالح فيليب الثاني ملك فرنسا، الذي قطع أواصر بيت أنجو مع موطنه الأصلي، يضاف إلى هذا نجم عن النفقات المدمرة والمتصاعدة للحرب الفرنسيَّة، وسوء تصرف جون مراراً مع رعيته، تصاعباً في مقاومة البارونات، التي أرغمت جون في سنة ١٢١٥ على إعطاء تنازلات -مؤقتة- كثيرة صدرت في مرسوم أو ميثاق اصلاحات [ماغناكارتا]، وتوفي جون بشكل مفاجىء سنة ١٢١٦، تاركاً ولله الرضيع هنري الثالث وريثاً لـه. وبدأ رالف أوف ديسيتو حكاية حكم جون في كتابه «صورة التاريخ» اللذي توقف مع أحداث سنة ١٢٠١ ، وتناول السرواية من بعده لمدة أربع سنوات رالف راعى دير كوغشال Coggeshall وهو كاتب رهباني مسولع بالأحداث الاعجازية، وبعده تولى جيرفاس Gervase وهو راهب من كانتربسري، وصف الأحداث من ١٢٠٥ إلى ١٢١٠ في كتابه «أعال الملوك»، ولقد كان جيرفاس ولداً مخلصاً لدير كاتدرائيت، وتظهر كتابته فن التأريخ الديري في أحسن أحواله، وأخيراً هناك بالنسبة للسنوات

الست المتبقية من حكم جون المؤرخ المجهول من بارنول Barnwell الذي قدم لنا رواية متوازنة إلى حد ما ومصقولة، ومع ذلك هي رواية حيّة حول هذه السنوات الحاسمة من تاريخ انكلترا.

جرى تتويج جون صاحب إيرلاندا، والوريث الشرعي لأخيه رتشارد الأول، دوقاً لنورماندي في روان، وتولى التتويج وولتر رئيس أساقفة روان يوم ٢٥ نيسان ١١٩٩، وعندما وصل إلى انكلترا عُمّد بشكل مهيب ملكاً في وستمنستر من قبل هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، في يوم عيد الصعود، ٢٧ أيار.

وزار جون ملك انكلترا، بعد تتويجه مباشرة، ضريح القديس توماس (في كانتربري)، وزار بعد ذلك ضريح القديس ادموند في بري وأمضى أحد الشعانين في نورثأمبتون، وقام بعد ذلك في ١٩ حزيران بعبور القنال مع حشد من الفرسان، والجنود الرجالة والسفن، وتم العبور من شورهام.

وجرى طلاق الملك من ابنة إيرل غلوستر في نورماندي، وتولى ذلك أساقفة ليزوكس وبيوكس Bayeux وأفرانش Avranches مع أساقفة آخرين كانوا حضوراً، وكان الملك جون قد تزوج منها بإذن البابا، وتسلم مقاطعات غلوستر، وسمرست، وديفون، وكورنول، وتشريفات ومنح أخرى في أرجاء انكلترا.

ومهما يكن الحال، لقد استولى عليه الأمل بزواج يرقى به أكثر، فأصغى إلى النصائح السيئة ورفض زوجته، فكسب بذلك الغضب العظيم للبابا، أعني بذلك البابا انوسنت الثالث، وذلك مع غضب جميع أعضاء مجلس الكرادلة في روما، فلقد غضبوا لأنه تصرف بسرعة ضد الشرائع والقوانين، وتحلل مما ربطوه به بوساطة سلطاتهم.

وقدم آرثر ابن غيوفري صاحب بريتاني، وابن أخي الملك جون، إلى عمه الملك، وأطاعه في جميع رغباته، ثم تركه جون يذهب دون اتخاذه أي إجراء احتياطي، ولهذا ذهب آرثر عندها إلى ملك فرنسا، الذي تطلع شرها إلى ثروته، فضمه إليه ليتربى مع ابنه في باريس.

كان جون وآرثر صاحب بريتاني في سنة ١١٩٩ متنافسين بشأن إدعاء ملكية أراضي أسرة بلانتغنت، وامتلك آرثر مساندة قوية في أنجو، لكن لموردات بواتو وقفوا إلى جانب إليانور بقبول جون، وبذلك قلبوا الموازين ضد آرثر، وعندما حصل آرثر على حماية فيليب الثاني، ملك فرنسا، بقي هكذا ممثلاً لتهديد رئيسي لسيطرة جون على أراضيه.

### سنة مائتين وألف

وحدث خسوف للقمر يوم ٣كانون الثاني، في منتصف الليل، ودام ثلاث ساعات، وقد حول على الفور لون الدم، وقذف بأشعة تشبه النار.

وأبرم في هذه السنة سلام بين فيليب الثاني، ملك فرنسا، وبين جون، ملك انكلترا. وتزوج لويس ابن ملك فرنسا من ابنة ملك اسبانيا، التي هي ابنة أخت ملك انكلترا، وبسبب هذا الزواج أعطاه جون كل أراضي بري Berry وأوفرين Auvergne وقلاعاً وكثيراً من التشريفات في نورماندي وغسكوني وأماكن أخرى كثيرة.

انتهى الآن تاريخ رالف ديسيتو، ونكمل الرواية بالحكاية الملونة لرالف راعي دير كوغشال Coggeshal ومثله مثل ديسيتو حدثنا عن السلام الذي عقد فيا بين جون وبين فيليب الثاني ملك فرنسا في سنة ١٢٠٠، وقدم لنا المزيد من التفاصيل، فقد تنازل كما قال: جون عن

أراضي وقلاع، ومنح فيليب ثلاثين ألف مارك (٢٠, ٢٠, جنيه) وقدم له أيضاً الولاء عن الأراضي الفرنسية، ومن أجل أن يجمع هذا المبلغ فرض ضرائب ثقيلة على انكلترا، بها يعادل ثلاثة شلنات على كلّ مساحة من الأرض يفلحها محراث واحد. (فدان).

وقدم الملك جون إلى مقاطعة يورك، وطلب المال من بعض رعاة الديرة السسترشيين، الذين قابلهم هناك، ومن رعاة ديرة آخرين تابعين لرهبانيات أخرى، فقد استهدف إلحاق الظلم بهذه الرهبانيات بفرض الضرائب، لأن الديرة كانت حتى حينه معفية من ضرائب من هذا القبيل، ورد رعاة الديرة ببساطة بالرفض، وفعلوا ذلك قبل الاتصال بالديرة التابعة لهم وبرعاتها، ذلك أنهم كانوا يخشون أنهم إذا ماوافقوا على المكوس الملكية، قد يفرض بعد ذلك خدمات أخرى على التنظيم الرهباني، وتعللوا حين رفضوا بأنهم لم يدفعوا أي مبلغ من المال دون موافقة عامة من جميع الرهبان.

وانزعج الملك كثيراً من ردهم، وأمر وهو مغضب وحانق العمال (الموجودين منهم بكلمات الفم والغائبين بالرسائل) بوجوب إلحاق الأذى برجال هذه الرهبنة بأية وسيلة يستطيعون استخدامها، وأن عليهم تعذيبهم، وعدم اظهار العدالة نحوهم في المضار التي تلحقهم، وفي المحاكم، وعدم مساعدتهم في خلافاتهم، بل عليهم إحالة كل شيء إلى الملك.

وانزعج رجال الفضيلة هؤلاء تجاه هذا القرار القاسي انزعاجاً كبيراً وخافوا، ولذلك أحالوا قضية مافرضه الملك إلى هيوبرت رئيس أساقفة كانتربري، ورجوه أن يقابل الملك ويبحث معه قضية هذا الأمر العنيف، وليحاول التخفيف من عدوانيته بأية طريقة ممكنة سواء بالصلوات أو بالهدايا، وانتقد هيوبرت الملك بشكل علني بسبب عنفه الكبير، وأعلن أنه مضطهد للكنيسة المقدسة، لأنه عزم على فرض مثل هذه الظلامات

والمضار العظيمة على أبناء الكنيسة الذين هم أكثر الناس قدراً بين أبناء الكنيسة والناس قدراً بين أبناء الكنيسة والنام وتحترمهم بسبب مسلكهم الكنيسة والدقيقة للأمور الدينية.

فإلى تلك الساعة وضع الملوك والأمراء هولاء الناس دوماً في مكان محترم لائق، وأعطوهم أراضي مع كثير من المقتنيات، وحموهم جميعاً بدرع الوقاية والدفاع.

وأظهر الملك جون القبول بها طرحه رئيس الأساقفة، لكن لبعض الوقت فقط، ولزيادة الازعاج استدعى رعاة الديرة بوساطة رسائل جديدة، ولم يخلص عقله من العدوانية التي حملها نحوهم. وعندما كان الملك على وشك عبور البحر، وعده رئيس الأساقفة، حتى يرضيه، بمبلغ ألف مارك لصالح المنظمة الرهبانية، على شرط أن يؤكد الأعطيات والحريات التي منحت للرهبان من قبل الملك رتشارد، ورفض الملك هذا العرض رفضاً مطلقاً، لأنه كان صغيراً، ثم عبر البحر، وهو يتلفظ بالتهديدات وبالشتائم ضد تلاميذ المسيح، واشتكى إلى رعاة أديرة ماوراء البحر حول رد رعاة الأديرة الذين يعيشون في انكلترا.

ودفع الملك جون إلى ملك فرنسا الثلاثين ألف مارك كجزء من ثمن السلام معه، وبعدما هدأ جميع الأعداء وأخضعهم عاد إلى انكلترا في أيام عيد القديس مايكل في ٢٩ أيلول، وقدم مع زوجته ايزابلا(٢٨) ابنة دوق أنغوليم، التي تزوجها عندما كان فيا وراء البحر بموافقة الملك فيليب، ووضع جانباً زوجته الأولى للسنوات الخالية، وتخلى عنها على أساس القرابة المحرمة للزواج، وفي اليوم التالي جرى تتويج جون في وستمنستر ومعه زوجته، التي كانت في حوالي الثانية عشرة من عمرها، ومع ذلك توجها ملكة.

وفي الصباح الباكر، وقبل الذهاب إلى الكنيسة، أمر الملك هيوج دي

نيفل، المسؤول الرئيسي عن الغابات، مع بقية رجال السلطة الأقوياء، أن يأخذوا بعين الاعتبار أمر الرهبان السسترشيانيين بوجوب نقل خيولهم، وخنازيرهم وقطعانهم من الغابات الملكية خلال أسبوع واحد، وبنهاية هذا الموعد كل مايوجد في داخل الغابات سوف يؤخذ ويباع لصالح الملك.

وبناء عليه، عندما أعلن أمر الملك القاسي إلى الرهبان في كلُّ مكان، جهز كلّ دير أفضل مالديه لإيواء قطعانه، وتحمل الرهبان بصبر الأذى العظيم اللذي لحق بهم من الملك، وصلَّوا في ضيقهم إلى ربهم المدافع عنهم، ليغير روح الملك نحرو اللطف بهم، وليحرر رعيته من محنهم وحزنهم، أما اللذي سمعهم ولم يتخل عن اللذين وضعوا أملهم به، فحررهم بسرعة من آلامهم، فلدى اكتشاف رئيس الأساقفة لأمر الملك، أمر بناء على تشاوره مع رعاة الديرة، بعقد اجتماع في لنكولن، استعداداً لوصول الملك في ١٩ تشرين الثاني، حتى يتمكن ذلك الجمع من اللقاء به، وبسهولة يستطيع تهدئة فورة غضب الملك، وتحويله نحو الرحمة والتصالح، ووافق رعاة الديرة عن طواعية على هذا المسعى، والتقوا في المكان المذكور في اليـوم المحدد، واثقين أكثر بعون الـرب، ومعتمدين عليه أكثر من اعتمادهم على قدراتهم، واجتمعوا في اليوم التالي، وهو يوم عيد القديس ادموند، واستقبلوا باحترام وتحيات رئيس الأساقفة عندما قدم إلى المدينة، فترجلوا وركعوا على ركبهم أمامه، وبتواضع التمسوا من رئيس الأساقفة أن يعالج بلطف وعاطفة نحوهم، مسألة هذا الخلاف، وأن يتدبر بعنايته تلطيف سخط الملك عليهم، وأثير رئيس الأساقفة -على كلّ حال- بتذلل مثل هذا العدد الكبير من الرجال المشهورين، وترجل من على حصانه، ومثلهم تذلل في نفسه، وبكي، ثم وعد في أن يكون عونهم وناصحهم في جميع القضايا، وبعدما أصغى إلى مطلبهم وعدهم بتحقيق السلام ومنفعة الـرهبنة بقدر مـايمكنه، وأن يحاول تهدئة

الملك بكافة السبل.

ثم غادر رعاة الديرة المدينة دون رؤية الملك، وبحثوا قضية الخلاف فيا بينهم، ورأى بعضهم أنه يتوجب عليهم أن يدفعوا له كامل ماطلبه، ورأى آخرون وجوب رفض مطلبه، وكان هذا الرأي هو الذي انتصر بالنهاية.

التقى الملك جون في يوم الأربعاء الأول الذي جاء بعد عيد القديس ادموند، بوليم ملك اسكوتلندا الذي جاء مع رولاند أمير غالووي Galloway وعدد آخر من اللوردات، فهو قد جاء إلى لنكولن لتقديم الولاء إلى الملك، الذي توقف عنه حتى الآن، ولهذا تأجلت مسألة رعاة الديرة، وفي اليوم التالي أراد رئيس الأساقفة أن يتدخل مع الملك ويبحث معه قضية رعاة الديرة، لكنه سمعه وهو يتحدث وكأن الغضب مسيطر عليه، ويتحرك بموجبه حيث قال مخاطباً رئيس الأساقفة: «أرجوك عليه، ويتحرك بموجبه حيث قال مخاطباً رئيس الأساقفة دريصاً على نصح رعاة أستدمي هذا اليوم»، ولهذا كان رئيس الأساقفة حريصاً على نصح رعاة الديرة أن يتجنبوا التحرك أمام ناظري الملك، وفي الأحد التالي انتهى الملك من سماع قداس مع رئيس الأساقفة، وعندما كان على وشك مغادرة الكنيسة، سأل رئيس الأساقفة الملك أن يتعامل برحمة مع مشكلة معادرة الديرة، الذين كانوا واقفين بحضرته.

وبعد قليل من التريث، مضى الملك نحوهم، وخاطبهم بصوت مرتفع قائلاً: «وأين مولانا وأبونا رئيس الأساقفة»؟ وبادر رئيس الأساقفة نحوه مسرعاً، وبدأ على الفور نقاش سري معه ومع الأساقفة، بينها ظل رعاة الديرة واقفين في القاعة، وبعد طول انتظار جرى استدعاء رعاة الديرة للمثول أمام الملك، الذي أمر رئيس الأساقفة باخبارهم بخطته

وبرغبته، وبدأ رئيس الأساقفة حديثه على الوجه التالي: «نخبركم أولاً، أيها الآباء، أن الملك قد أزال من ذهنه جميع الحقد وكل الغضب الذي بدا واضحاً نحوكم»، ولدى سماع رعاة الديرة هذه الكلمات سجدوا على الأرض، وقدموا الشكر للملك، ثم تابع رئيس الأساقفة يقول: «ومثل هذا يسألكم الملك بتواضع أن تغفروا له كل أذى تحملتموه نتيجة لعدم الاتفاق هذا».

# ثم شرع رئيس الأساقفة يتحدث مجدداً قائلاً:

«يسأل الملك الرهبنة السسترشيانية وأنتم أن تتدخلوا لصالحه، حتى يتم قبوله في اخوانيتكم، وفي جماعة الرهبانية، وأن يصلي رهبان كلّ دير في تلاوتهم لصالحه، زد على هذا قرر الملك، بناء على نصيحتكم بناء دير في انكلترا، حتى يُتذكر بشكل خاص مادام حياً، وليدفن فيه ويشرف بعد موته، إذا وفقه الرب إلى ذلك، ويعد من الآن فصاعداً أن يكون ولي رهبانيتكم والمدافع عنها، وأن يحمي كلّ مايلوذ بكم من أشياء، وعندما سمع رعاة الديرة هذه الكلمات امتلأوا بسرور عظيم، وقدموا الشكر للرب القادر الذي حول هكذا روح الملك لتكون لطيفة مع الرهبانية ومحترمة لها.

وعندما تم الاتفاق على هذه الأشياء بالطريق المعتاد، وأعطي كلّ واحد قبلة السلام من قبل الملك، اقترح رعاة الديرة وجوب ارسال الملك رسائل إلى كلّ واحد من عاله، خشية أنهم بتنفيذهم الأمر يوقعون المزيد من الضرر، ووافق الملك عن طواعية على هذا الاقتراح، وكلف رئيس الأساقفة بمهمة ارسال الرسائل باسنم الملك إلى العمال في كلّ مقاطعة، وكانت نسخة الرسالة حسبها يلى:

«من جون ملك انكلترا بنعمة الرب، ولورد ايرلندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو إلى عاملي اسكس وهارتفورد، تحيات.

اعلموا اننا استقبلنا رعاة ديرة رهبانية سسترشيان برعاية كاملة وجميع مقتنياتهم وبضائعهم بأيدينا، محفوظة ومحمية، وبناء عليه آمركها بكل دقة أن تتوليا حماية هؤلاء الرجال والحفاظ عليهم والدفاع عنهم وعن جميع مقتنياتهم، وكأنها تماماً مقتنياتنا الملكية الخاصة، وألا تسببا لهم أي أذى أو ضرر، وألا تسمحا أبداً بمعاناتهم من أي أذى داخل منطقتي ادارتكها، وإذا حدث وكان قد لحق أياً منهم أذى أو اقترف بحقه جريمة من قبل وإذا حدث وكان قد لحق أياً منهم أذى أو اقترف بسوء نحوهم، عليكها التعويض والاصلاح بدون تأخير. شهدت بنفسي. لنكول ٢٦ تشرين الثانى».

وقبل هذا التاريخ سمع في الأول من تشريس الثاني صوت رعد مرعب، منذراً بوقوع شيء عظيم، فقد عاد من روما هيوج أسقف لنكولن، الذي كان في يوم الأيام رئيس دير في وتهام Witham وهو دير رهبانية كارثوشيان Carthusian في انكلترا، وبعد عيودته أصيب بمرض عضال في لندن، ونتيجة لهذا المرض، وبعدما شغل هذا المنصب لمدة خمس عشرة سنة وخمسة عشريوماً، انتقل من هذا النور، إلى النصب لمدة خمس عشرة الذي لاينتهي، وكان ذلك في الأول من شهر كانون الأول، ونقل جسده الذي بالإحياة من لندن إلى لنكولن، وكان مصير منصبه آنذاك بمشيئة الرب موضوع مشاورات في لنكولن فيا بين ملك انكلترا، وبين وليم ملك اسكوتلندا، وكان قد حضر معها ثلاثة رؤساء أساقفة وتقريباً كافة نبلاء الملكتين.

وعندما أعلن أن جسد الأسقف بات على مقربة من المدينة، اندفع الناس على شكل حشود للمشاركة في موكب جنازة راعيهم الكنسي، وحضر الملكان نفسيها، ورؤساء الأساقفة وجميع رجال الدين والنبلاء بكل تبجيل، وتخلى جون عن الأبهة الملكية، وسار مع رؤساء الأساقفة برؤوس مطأطأة، وبتواضع وضعوا التابوت على أكتافهم، وحملوا الحمل

المقدس لبعض الوقت متجاهلين الطين في الطرقات من أجل جنازة مثل هذا الرجل.

وأخيراً حمل جسد هيوج إلى كنيسته الأسقفية، من قبل رؤساء الأساقفة، والأساقفة ورجال الدين في البلدة، وهم ينشدون التراتيل والمزامير، وتليت فصول من الكتاب المقدس في القداس الليلي من قبل الأساقفة ورؤساء الأساقفة، واعتقد الذين أتيحت لهم الفرصة بلمس تابوته أو بتقبيل قدميه، أو بلمس بعض ثيابه، انهم محظوظين، وقدمت تقدمات كثيرة وأعطيات له، وهو مسجى لابساً شاراته وملابسه الكهنوتية، ووجهه غير مغطى، تبعاً للعادة، ورأسه مزين بقلنسوته الدينية.

وكان الأسقف هيوج قد شرع ببناء كنيسة جديدة في تلك البلدة تكرّس على اسم الرب الأب، وأراد أن تبنى هذه الكنيسة بمخطط رشيق، فتتفوق بجهال بنائها على جميع كنائس انكلترا الأخرى، وأمر بوجوب اكهال عهارتها سواء أكان حياً أم ميتاً، وفي الحقيقة كان قد أسس في أسقفيته نقابة دفعت ألف مارك كلّ سنة من أجل هذا العمل.

وانتشرت أقاويل أنه من خلال فضائل هيوج، وبنعمة من الرب، نال بعض المرضى من الناس الشفاء، ولاعجب أن يظهر الرب الكرامات للناس على الأرض ليمجد محبوبه هيوج، الذي آمن بقداسته عدد كبير من الناس، اللذين عرفوا أنه مارس حياة كانت كلها فضائل وبلا خطيئة، ولكونه كان الأكثر شهرة وسمواً بين الأساقفة بالنسبة للقيام بواجباته الدينية، نال هيوج أعظم احترام بين رجال الدين، بسبب أنه حتى بعدما صار أسقفاً، حاول دوماً أن يعيش حياة متواضعة لابل حياة رهبانية، وذلك بقدر ماسمحت له وظيفته ومسؤولياتها، وقد كره وباء السيمونية كثيراً، إلى حد أنه لم يمنح قط منصباً لاهوتياً لأي انسان بسبب توصية من الملك أو من أي انسان صاحب سلطان، مالم تكن هناك براهين بأنه كان جديراً. وهناك أشياء كثيرة يمكن أن تكون نافعة

لتكتب عن طريقة حياته المحمودة، غير أننا ندع ذلك إلى الذين هم أكثر فصاحة منا، ويمتلكون المزيد من المعرفة عن أفعاله.

وانقطع كاتبنا هنا عن متابعة روايت ليقدم إلينا عدة حكايات عن الكرامات العجائبية جاء القصد منها التوجيه والتسلية للقارىء، وكانت هذه الوقائع قد حدثت قبل بعض السنين المتقدمة.

حدث في أيام هنري الثاني، عندما كان الفارس بارثلميو أوف غلانفيل Glanville يتولى حفظ القلعة في أكسف ورد، أن بعض الصيادين كانوا يصطادون في البحر هناك، فأمسكوا بشباكهم مخلوقاً متوحشاً، وقد حمل إلى شحنة القلعة ليراه ويتفحصه، وكان عارياً تماماً، وشابهت جميع أطرافه أطراف الانسان، وكانت له لحية طويلة مدببة، وكان صدره مليئاً بالشعر وخشناً.

واحتفظ الفارس المذكور أعلاه بهذا المخلوق في السجن لمدة طويلة، ليلاً ونهاراً خشية أن يعود إلى البحر، ولقد أكل بشهية كل شيء جلب إليه، سواء السمك المطبوخ أو غير المطبوخ، لكنه كان يعصر بشدة السمك النيء حتى يطرد ماءه كلياً، وذلك قبل أكله، وهو لم يرغب بالكلام، أو بالحري لم يستطع، حتى عندما كان يعلق من قدميه ويعذب عذاباً شديداً، وعندما كان يؤخذ إلى الكنيسة، لم يظهر أي علامة على عذاباً شديداً، وعندما كان يؤخذ إلى الكنيسة، لم يظهر أي علامة على الاحترام أو الإيهان، لابركوعه ولابطأطأة رأسه، وقد شهد —على كل حال — القداس مراراً، وكان يسرع إلى فراشه عند غياب الشمس، ويبقى مستلقياً حتى شروق الشمس.

وحدث أيضاً أنهم أخذوا هذا الرجل إلى البحر، ووضعوه في البحر، بعدما جعلوا أمامه شباكاً قوية جداً مؤلفة من ثلاثة صفوف، وقصد هذا المخلوق أعماق البحر وعبر خلال هذه الشباك جميعها، وظهر مرة تلو أخرى ونظر مطولاً إلى الذين كانوا يراقبونه على الشاطىء، وغالباً ماغطس ثم ظهر بعد وقت قصير، وكأنه يسخر من الذين كانوا يراقبونه ويخبرهم أنه تجنب شباكهم، وبعدما لعب هكذا لوقت طويل في البحر، وانفقد الأمل كلياً بعودته، سبح خلال أمواج البحر، وعاد ثانية إليهم عن طواعية وبإرادة منه ومكث معهم لمدة شهرين آخرين.

واحتفظ به بعد ذلك بإهمال وعومل بازدراء، لذلك هرب سراً إلى البحر، ولم يعشر عليه ثانية، وليس من السهل القول فيما إذا كان مخلوقا بشرياً كتب عليه الفناء، أو نوعاً من أنواع الأسهاك ظهر على شكل مخلوق بشري، أو نوع من أنواع الأرواح الشريرة مختبئة في جسد انسان غريق، وذلك حسبها قرأنا عن واحد من هذا القبيل في أيام القديس أون وذلك حسبها وليس بالمكن التأكيد أو النفي خاصة بسبب أننا سمعنا عن كثير من هذه الأشياء العجائبية، وعن وقوع حوادث مثل هذه.

ووقعت أعجوبة أخرى في سفولك Suffolk عند وولبت -Wool فقد عثر على طفل وأخته من قبل السكان قرب فم حفرة كانت هناك، وقد بديا في مظهرهما مثل بقية المخلوقات البشرية في شكل أطرافها، لكن اختلفا عن البشر العاديين في لون شعرهما، لأن الطبقة الخارجية من شعرهما كانت مجزوجة بالأخضر.

ومامن أحد كان بإمكانه أن يفهم كلامها، وعندما أخذا إلى بيت أحد الفرسان في وكس Wix وإسمة السير رتشارد دى كلين Clane للنظر إليها والتعجب، بكيا بدون توقف، ووضع أمامها الخبز وأنواع أخرى من الطعام، لكنها لم يرغبا بأكل شيء، وقدم لها الطعام مع أنها عذبا بالتجويع الكبير، لكنها لم يأكلا شيئاً، وكان هذا بسبب اعتقادهما أن هذا النوع من الطعام لايؤكل، فهذا مااعترفت به الفتاة، عندما أحضر إليها بعد وقت طويل، بعض السنابل الطازجة وهي على سوقها، وأدخلت عليها في البيت، وقد أوميا برغبة شديدة أنه ينبغي اعطائها هذه السنابل، وعندما وضعت الحبوب أمامها، فتحا السوق وليس

سنابل القمح، ظانين أنه يمكن لهم العثور على الحبوب في السوق، وعندما لم يجدا الحبوب في السوق، شرعا بالبكاء ثانية، فأروهما الحبوب المقطوفة، فأكلاها بسعادة كبيرة، ولم يلمسا طعاماً آخر لوقت طويل.

وكان الطفل دوماً حزيناً وكأنه يعاني من وهن عظيم، وتوفي خلال وقت قصير، لكن الفتاة تمتعت تماماً بمزيد من ازدياد الصحة، ونمت لتعتاد على أنواع الطعام الأخرى، وفقدت ذلك اللون الأخضر، وكسبت ببطىء لون بشرة حمراء في جميع أنحاء جسدها، فبعدما ولدت مجدداً من خلال التعميد بقيت لسنوات عديدة في خدمة ذلك الفارس (حسبها اعتدنا أن نسمع منه ومن أهل بيته) وكانت حيوية ومفعمة بالنشاط.

وغالباً ماسئلت عن شعب بلادها، فكانت تؤكد أن جميع السكان لهم بشرة خضراء، وأنهم لم يروا الشمس قط، بل تمتعوا بنوع من الضوء، مثل الضوء الذي يبقى بعد غياب الشمس، وعندما سئلت كيف حدث أن وصلت إلى هذه البلاد مع أخيها، أجابت أن ذلك كان عندما كانا يتبعان شاة، ففتشا داخل أحد الكهوف، وبعدما دخلا إلى الكهف سمعا الأصوات المبهجة للنواقيس، وسيطر عليها الصوت الجميل فمشيا وظلا يسيران بلا هداية داخل الكهف لمدة طويلة، حتى وصلا إلى المخرج، وعندما خرجا صعقا وصارا بلا عقل بسبب ضوء الشمس والمناخ الذي كانا غير معتادين عليه والهواء، وبقيا مستلقيين لوقت طويل عند فم الكهف، وخافا من أسئلة الذين وصلوا ورغبا بالفرار، غير أنها لم يجدا المدخل إلى الممر، وألقي القبض عليها.

وفي أيام الملك رتشارد، على شاطىء اسكس، وفي قرية اسمها ايدولف نس Edolfes Nesse عشر على سنين يعودان إلى مخلوق عملاق، وكانا من عظم الحجم بمكان أن مائتين من أسنان الانسان يمكن أن تقطع منها، ولقد رأينا هذين السنين في كوغشال، واتفقنا أنها فعلاً من العجائب، ووجد هناك أيضاً ضلع مخلوق عملاق، وعشر في

مقاطعة يورك على رأس مخلوق عملاق، يمكن للجمجمة أن تستوعب بوشل من القمح (٥, ٣٢ليتر)، وأيضاً عثر عليه على شاطىء البحر.

وكان في ويلز رجلاً هائل الطول، بلغ نحواً من تسعين انشاً في الطول، وكانت أصابعه طويلة جداً وغليظة، غير أنه كان قد حرم من القوة بشكل مابوساطة المراهقة، وظهرت في السنة نفسها في تلك المقاطعة آثار أقدام بطول غير اعتيادي، على السهل المعشوشب، وحيثها كانت الآثار، ظهر العشب وكأنه أحرق بالنار.

استأنف كوغشال روايته التاريخية وأعادنا بشكل مفاجىء إلى حوادث سنة ١٢٠١.

### سنة إحدى ومائتين وألف

ثار واحد من نبلاء أكوتين اسمه هيوج، ويعرف بلقب البني، ضد الملك جون، وأراد أن يغزو أجزاء كثيرة من المقاطعة مع حلفائه، وكان سبب هذا أن الملك قد تزوج من ابنة كونت أنغوليم، التي كانت مخطوبة له من قبل وفي حفظه، ولهذا السبب عبر الملك البحر، وأخضع الثوار.

وثارت في يوم ميلاد القديس يوحنا عاصفة قاسية، فيها رعد وبرق، وبرد ومطر غزير وعنيف، وقد سببت دماراً كبيراً للرجال، وللحيوانات وللحقول، وأحرقت البيوت، واقتلعت الأشجار في أماكن كثيرة، وبعد مضي خمسة عشريوماً ثارت عاصفة أخرى، لكنها لم تشبه الأولى، لذلك لم يمكن تقطيع المروج، لأن ماقطع حملته بعيداً مياه الفيضان المتدفقة، وماتت حشود هائلة من الأسماك، من تلوث المياه التي سببها العشب المتعفن، وفي الحقيقة كان هناك فيضانات كثيرة وعارمة، استمرت لعدة

أيام وغطت مناطق كثيرة، فدمرت الجسور وأتلفت المحاصيل، وغرق كلّ شيء، ولهذا خاف بعض الناس أن الرب نوى من وراء هذا الهطول فيضاناً آخر عظيماً.

وجاء راعي دير فلي Flayإلى انكلترا لينشر كلمة الرب في مناطق متعددة، وحث الناس على مراعاة يوم الأحد، والاحتفال بوقار بأعياد القديسين بين أشياء أخرى كثيرة، ومنعهم من الذهاب إلى أي سوق مها كان نوعه في يوم الأحد، ولهذا حدث منذ ذلك الحين أن الناس في جميع مقاطعة كانتربري وأماكن أخرى عديدة في انكلترا لايذهبون إلى الأسواق في يوم الأحد، وذهبوا لحضور القداسات الدينية، وانتشرت الأحاديث عن عدد كبير من الكرامات العظيمة، وكانت هناك أقاويل في كثير من مناطق انكلترا عن عقوبات ربانية أنزلت على الذين رفضوا بعد التبشير، ترك أعمال خدماتهم في الأيام المقدسة والسبوت بعد نداء الساعة التاسعة بعد الشروق.

وحدث في أيام بطرس الراعي الرابع لدير كوغشال، أن الأخ روبرت وهو أخ علماني تابع لـذلك الدير، وكان مسؤولاً عن حفظ بيت الضيافة، دخل في أحد الأيام إلى قاعة الضيافة قبل تقديم وجبة الغداء حسبها جرت عادته، فوجد بعض الأشخاص، يدل مظهرهم الخارجي ولباسهم على أنهم كانوا محترمين، وكانوا جالسين في القاعة، وقد ارتدوا أردية تشبه مايرتديه فرسان الداوية، ووضع كل واحد منهم قبعة على رأسه، وكان هناك منهم قرابة تسعة رجال، أو أكثر، لأن الأخ لم يدقق تماماً ليعرف تعداد من اجتمع هناك، ونظراً لأنه اعتقد أنهم من الداوية، حياهم بلطف، وقال له أحدهم وقد بدا أنه مسؤول عن الآخرين: "أين يمكننا تناول الطعام»؟ فأجابه: "سوف تأكلون بالحجرة مع راعي الدير" فأجابه هذا على الفور: "ليس من عادتنا الأكل في حجرة خاصة بل في القاعة مع الضيوف» وخرج بعد هذا الأخ إلى خارج القاعة، وذهب إلى راعي

الدير، وأعلمه بوصول الضيوف، فأمره الراعي بتحضير كلّ شيء ضروري و إعداد المائدة، ووعد بأنه سيأكل معهم في الحجرة، وبناء عليه عندما جاء الراعي إلى المائدة أمر الأخ بجلب الضيوف.

وذهب الأخ إلى القاعة، لكن الضيوف الذين تركهم فيها قبل وقت قصير، لم يجدهم، فذهب يفتش عنهم في الغرف الداخلية وفي مختلف الأماكن، فلم يعثر على أحد منهم مطلقاً، وركض إلى هنا وهناك في فناء الدير آملاً في لقاء الرجال، وقال له رجل هناك بأنه شاهدهم يذهبون نحو الكنيسة ومقبرة الاخوان، فبادر مسرعاً بارسال رسول إلى هناك، لكن الرسول لم يعثر على أحد منهم، وسئل حفظة الأبواب عن الضيوف فقالوا إنهم لم يشاهدوا مثل هؤلاء الرجال يدخلون من الأبواب أو يخرجون منها في ذلك اليوم، وفي الحقيقة: من كان أولئك الرجال، وكيف جاءوا، وإلى أين ذهبوا؟ يبقى هذا سراً غامضاً حتى اليوم.

ونحن لانشك في حكاية الأخ الذي رآهم وتحدث معهم، لأننا نعرف حياته وضميره، فلقد أخبرنا مراراً بهذه الحكاية، حتى في أثناء مرضه الكبير الذي أخذه من هذا النور، وقد تحدث عنهم ببساطة، لأنه كان راوياً للحكايات بسيطاً، يستخدم كلهات قليلة، ولايظهر أي تفاخر في كلهاته أو أفعاله.

### سنة اثنتين ومائتين وألف

أبرم في سنة اثنتين ومائتين وألف سلام بين فيليب ملك فرنسا وبين جون ملك انكلترا، لكن الملك قام على الفور بحملة قتالية حادة على كونت لى مارشي، الذي اسمه هيوج ويعرف بلقب البني، وعلى أخيه كونت ابري اللذان ثارا ضده، بسبب زواجه من ايزابلا أوف

أنغوليم.

وأمر الملك فيليب جون مراراً أن يتمنع عن اثارة رجاله، وأن يقيم معهم تسويات سلمية، ولكن لعدم مراعاة جون الأوامر فيليب، ومطالبه، جرى استدعاء ملك انكلترا هذا من قبل نبلاء مملكة فرنسا بحكم كونه كونتاً الأكوتين وأنجو، وطلبوا منه الحضور إلى بلاط محكمة مولاه، ملك فرنسا، في باريس، وكان عليه الخضوع لحكمهم والاجابة على أخطائه، والاستجابة للتعامل مع القانون، حسبها يقرر رفاقه في المراتب الاقطاعية.

وعلى كلّ حال، رد ملك انكلترا أنه دوق نورماندي، وليس مرغماً بأي حال من الأحوال على الحضور إلى البلاط للمحاكمة في باريس، وهو يرغب فقط بالتشاور مع الملك حول موضوعات الحدود بين المملكة والدوقية، فهذا متفق عليه بين الدوق والملك منذ زمن قديم، ومؤكد بوثائق أصلية، وناقش الملك على كلّ حال هذا الموضوع وبين أنه ليس من العدل مطلقاً أنه بسبب أن الرجل هو كونت أكوتين ودوق نورماندي ينبغى ألا يفقد حقه في أكوتين.

واستمرت هذه المناقشة طويلاً، وظهرت مشاكل جديدة من يوم إلى آخر، ومع الأيام تراكمت المشاعر العدوانية على الطرفين، وأضيف إليها تهديدات عنيفة.

وبعد وقت طويل اجتمع البلاط وحكم بوجوب انتزاع جميع الأراضي التي تملكها ملك انكلترا مع أجداده من الملك الفرنسي، لأنهم لم يقدموا لها منذ زمن طويل أية خدمات تقريباً، ورفضوا اطاعة مولاهم، وبناء عليه قبل الملك فيليب مسروراً بالحكم الذي صدر عن بلاطه ووافق عليه، وجمع جيشاً وهاجم على الفور قلعة بوتفانت Boutavant التي بنيت من قبل الملك رتشارد في نورماندي واجتثها من على وجه الأرض، بنيت من قبل الملك رتشارد في نورماندي واجتثها من على وجه الأرض، ثم استولى على جميع أراضي هيوج دي غورني Gournay وعلى جميع

القلاع المجاورة، ثم استولى على كونتيه وقلعة أوميل Aumale ولم يواجه وكونتيه إيو Bu وجميع الأراضي حتى اركوي Arques ولم يواجه أية مقاومة.

وعندما بلغ آرثر، ابن أخي الملك جون، السادسة عشرة من عمره، رسم فارساً من قبل الملك فيليب وخطّبه ابنته الصغرى، وبناء على نصيحة مؤذية واقتراح من قبل بعضهم، أعلن العصيان على عمه، واتبع النصائح الشريرة المتعجلة، فانطلق مع هيوج البني وغيوفري أوف النوزغنان ومائتين وخمسين جندياً لحصار قلعة ميربو Mirebeau حيث كانت جدته، الملكة إليانور مقيمة مع رجالها، وخشية من الملكة أن تقع بالأسر، أمرت ابنها جون أن يجلب إليها العون بأقصى سرعة مكنة.

وانطلق الملك على الفور إلى هناك مع جزء من جيشه، وكان الثوار قد دخلوا إلى البلدة وأغلقوا بالتراب جميع أبوابها باستثناء باب واحد، وانتظروا وصول الملك وهم قد أحكموا الدفاع عن أنفسهم، وكانوا أيضاً مطمئنين وواثقين بحشدهم من الفرسان المدربين والسيرجندية، وبعد قتال شديد ذخل الملك إلى المدينة، واستطاع على الفور، بإرادة من الرب أن يأسر جميع أعدائه النين تجمعوا هناك، فقد أسر ابن أخيه آرثر، والكونت هيوج وغيوفري أوف لوزغنان، ومائتين وخمسين من خيرة الفرسان، وبذلك حرر أمه ورجالها من المجاصرين.

وكان الملك فيليب يحاصر قلعة آركوي منذ زمن طويل، وعندما كان على وشك الاستيلاء على القلعة، وصلته أخبار أسر آرثر والآخرين، فأبعدته عن الحصار، وعاد إلى فرنسا، مغضباً كثيراً لسوء الحظ الذي حلّ برجاله.

واستولى بعد هذا الملك جون على بلدة تور بالقوة، وعلى قلعة فيليب

هناك عنوة، وألقى فيها النار فأحرق كلّ تلك المدينة الجميلة تقريباً، وكسب بسبب عمله هذا كراهية سكان تور ونبلاء تلك المنطقة، ولكي يأسر خصومه أحرق أيضاً مدينة لامانس.

وسجن الذين أسرهم في ميربو، وبعث بهم إلى أماكن مختلفة، وبعد هزيمته فيها بعد، وبناء على طلبات الرجاء من بعض النبلاء والتهاساتهم، أطلق سراح الكونت هيوج البني وغيوفري لوزغنان مع آخرين أسرهم في ميربو، لكن ذلك كان بعدما سلموه قلاعهم ورهائن، وأقسموا اليمين ألا يثوروا ضده، وعلى كلّ حال هم لم يحفظوا يمينهم لوقت طويل، وبدأوا يقاتلون الملك بحدة أعظم من ذي قبل، والتحقت بهم جماعات كثيرة من أعدائه.

وتقدم وليم دي روشي، وكان عضواً قوياً بين مجموعة النبلاء الأنجيفيين، ومعه نبلاء آخرين من بريتاني، تقدموا بالرجاء إلى الملك ليسلمهم آرثر الذي كان محتفظاً به بالسجن تحت حراسة مشددة، وعندما رفض جون، تآمروا جميعاً، وأعلنوا معا الشورة ضده، وجمعوا جيشاً كبيراً من المناطق المفترض أنها تحت سلطة الملك، وعاثوا فساداً في البلاد، وسلبوا وأحرقوا، وهاجموا عدداً كبيراً من القلاع.

وعندما حدث هذا تخلى عن الملك عدد كبير من الرجال الأقوياء والتحقوا برفاقهم النبلاء، وكان من بينهم: روبرت كونت أوف ألنكون Alencon وفيزكونت أوف بيمونت، ووليم أوف فوجري Fougeres وبريتانيين آخرين، واستولوا على قلعة أنغر مع البلدة كلها، وبوقت قصير استولوا على عدد آخر كبير من الأماكن الحصينة.

ولاحظ المستشارون لدى الملك أن البريتانيين كانوا يسببون كثيراً من التخريب، ويثيرون الفتن في كلّ مكان لصالح مولاهم آرثر، ورأوا أنه من غير الممكن تحقيق سلام ثابت مادام آرثر حياً، فاقترحوا على الملك أن

يأمر بسمل آرثر وخصيه، وبذلك يتحول إلى عاجز عن الحكم، وبموجب ذلك سوف تتوقف المعارضة، وتقلع عن برنامجها بالتدمير وتخضع للملك.

وازداد غضب الملك جون نتيجة الهجهات غير المتوقفة لأعدائه، وشعر بالأذى من تهديداتهم وأفاعيلهم المضرة، وفيها كان في حالة من الغضب الشديد والحنق العظيم، أمر ثلاثة من خدمه أن يذهبوا إلى فالي، وينفذوا الفعل الكريه، ومقت اثنان من خدمه تنفيذ مثل هذا العمل الشرير ضد شاب نبيل مثل آرثر، فهربا، أما الثالث الذي لبس ثلاثة خواتم حول قدمه، فقد توجه إلى القلعة التي وضع فيها الشاب الملكي تحت حراسة شديدة تولاها الحاجب الملكي هيوبرت دي بيرغ، وعندما أعطى أمر الملك إلى هيوبرت ثار حزن عظيم وأسف كبير بين الذين كانوا يتولون حراسته، وانفعلوا بشدة ورحمة نحو الشاب النبيل.

ولاحظ آرثر الحكم الذي أصدره عمه ضده، وخشية منه على سلامته، انفجر باكياً، وشرع يتشكى ويندب نفسه بشكل محزن جداً، وظهر الرجل اللذي أرسله الملك لتنفيذ هذا العمل وجعل نفسه معروفاً من قبل الشاب الذي كان يبكي نفسه ويندبها، وتوقف آرثر فجأة عن الأنين، ونهض ومد بعنف يديه وأمسك بها الرجل لينتقم منه، وشرع يدعو الفرسان الذين كانوا هناك بصوت منتحب وقال:

«أيها السادة الأعزاء، دعوني من أجل محبة الرب قليلاً لأنتقم من هذا الشرير، لأنه آخر من سأراه في هذا العالم».

وفي سبيل تهدئة هذه الضجة نهض الفرسان مسرعين وأمسكوا بيديه، وقاموا بناء على أمر من هيوبرت، باخراج الشاب الذي جاء من الحجرة، وبهذا الطرد وبكلهات تهدئة قيلت لآرثر من الذين وقفوا من حوله، ارتاح آرثر قليلاً، لكن بقلب حزين.

ونظر هيوبرت حاجب الملك إلى أمانة الملك وسمعته، وكان يتوقع منه

العفو، لذلك احتفظ بالفتى دونها أذى، واعتقد أن الملك سيندم على الفور لإصداره هذا الأمر، وسيكره بعد هذا إلى الأبد كل من بادر إلى اطاعة مثل هذا التصرف الشرير، فقد اعتقد هيوبرت أن الأمر جاء نتيجة غضب مفاجىء ولم ينجم عن تقديرات هادئة.

ورغبة من هيوبرت في تسكين غضب الملك جون، وفي الوقت نفسه المقاف وحشية البريتانيين أعلن في أرجاء القلعة وفي المنطقة كلها بأن الحكم قد نفذ، وأن آرثر توفي لشدة حزنه ومن الآلام الحادة التي نجمت عن جراحه، وانتشرت الأخبار ودارت كل مناطق المملكتين خلال أسبوعين، ثم بدأت النواقيس تضرب، وكان ذلك من أجل روحه، ووزعت ملابسه على بيوت المجذومين، كما وأعلن أن جسد آرثر قد حمل إلى الدير السسترشياني المسمى سينت أندري ان عوفرن عوفرن -en- Gouffern

ولدى سياع هذه الأحبار لم يخضع البريتانيون، بل ازدادوا غضباً أكثر فأكثر، وكانوا أكثر تدميراً من ذي قبل حيثها أمكنهم، وأقسموا أنهم من الآن فصاعداً لن يتوقفوا عن حرب الملك الانكليزي الذي اقترف مثل هذه الفعلة الشنيعة بحق سيدهم، الذي هو بالوقت نفسه ابن أخيه، واستدعى هذا ضرورة الإعلان أن آرثر الذي قيل في كل مكان أنه مات، هو مايزال حياً، وهكذا هدأ غضب البريتانين قليلاً.

وعندما أخبر جون بها حدث، لم يغضب لبعض الوقت، لأن أوامره لم تنفذ، حتى أن بعض الفرسان قالوا له بأنه لن يكون بإمكانه من الآن فصاعداً تأمين قوات تتولى حراسة قلاعه، فيها لو أنه نفذ حكمه في آرثر، لأنه إذا صدف ووقع أي فارس في أيدي ملك فرنسا، فإنه سيتلقى على الفور المعاملة نفسها بلا رحمة.

كان هناك في هذه السنة زلزال كبير في منطقة القدس، لم يعرف مثله

منذ آلام ربنا، وتعرضت مدينة صور الجميلة للهزات الأرضية، وقتل جلّ سكانها، وتهدمت هي كلها تقريباً، كما تهدم ثلث عكا مع قلاعها وأبراجها، ولحق السدمار بعدد من القلاع الأخرى لدى المسيحيين والمسلمين سواء، وأثرت الزلازل على عدد من الأماكن في انكلترا، وكانت هناك صواعق مرعبه، وبروق، وبرد متقطع ورياح قوية خلال شهرآب.

### سنة ثلاث ومائتين وألف

كان في نيسان من سنة ثلاث ومائتين وألف فيضان غير متوقع سبب كثيراً من الأضرار في انكلترا كلها، وحدث هذا بشكل اعجازي، لأن ما تقدم على هذا الغمر هطول قليل من المطر.

وأخذ آرثر من فالي إلى روان، وسجن داخل القلعة، تحت حفظ روبرت دي فوكسبونت Vieuxpontوعلى الفور أمر فيليب ملك فرنسا مع البريتانيين الملك جون، ملك انكلترا، أن يطلق سراح آرثر ويسلمه إليهم، وأعدوا له عدداً كبيراً من الرهائن، وأضافوا تهديدات قاسية إلى هذه الأوامر.

وعندما رفض جون، هاجم فيليب مجدداً قلاع نورماندي، وبين أشياء كثيرة استولى على جريرة لاس أندلاس مع قلعتها، وعلى فودريل Vaudreuil حيث كان قد تمركز عدد كبير من النبلاء لحفظها، أذكر منهم خاصة:

روبرت فتز وولترمع فرسانه، وسيردي كونسي Saer de Quincy مع رجاله، واستولى أيضاً على كمية كبيرة من العتاد الحربي، ولم يقم هولاء الرجال أدنى اعتبار إلى شجاعتهم المعتادة ولا إلى مسلكهم المعسكري، ولأنهم لم يتوقعوا تلقي أية مساعدة، لم يقوموا بأية محاولة للدفاع، وكأنهم بلا قوة، فقاموا بتسليم أنفسهم مع قلعتهم إلى ملك فرنسا، وقد جرى فداؤهم مقابل مبلغ كبير من المال، هو خمسة آلاف مارك استرليني، ولقد تعرضوا لسخرية ولإهانة الشعب في المملكتين، بسبب هذا، ولطخوا بذلك شرفهم.

استولى بعد هذا الملك فيليب على شاتو غيلارد المثال المتال المتال

ثم تولى بالواقع إيقاع الظلم والتشديد على انكلترا، بمطالبه الكثيرة للهال، حيث أمل في حشد جيش كبير يتمكن بواسطته من محق قوات الملك فليب.

# سنة أربع ومائتين وألف

توفيت الملكة إلىانور في هذه السنة، وكان ابنة كونت بواتو، وكان أول

أزواجها الملك لويس السابع ملك فرنسا، ثم تزوجت هنري الثاني ملك انكلترا.

## أفقدَ موت إليانور جون مؤيداً صاحب نفوذ رهيب، وناصحاً كبيراً.

عقد الملك جون في منتصف الصيام مجلساً للتداول، وقرر أن يرسل سفراء إلى ملك فرنسا هم: رئيس أساقفة كانتربري، وأسقف نوروك. وأسقف إيلاي، والإيرل وليم مارشال وإيرل لستر، وكان عليهم معرفا نوايا الملك الفرنسي، وليبحثوا معه في عقد معاهدة سلام معه، وأعلن الملك الفرنسي عن استعداده لعقد معاهدة سلام إذا توفر شرط واحم هو: إذا أطلق سراح آرثر وسلم إليه حياً، فقد أمل فيليب أنه إذ مااكتشف أن آرثر كان ميتاً، وقتها يمكنه أن يزوج أخته وبذلك يحصل على ممتلكاتها في القمارة، وعليه لم يكن الملك فيليب راغباً في اقام السلام، لأنه كان واثقاً أنه سيتمكن حالاً من تملك جميع أراضي الملك الانكليزي.

وفي هذه المرحلة لم يكن لجون أولاد، وكان إذا ماتوفي فسوف ترث أخت آرثر أراضيه.

ولهذا اقترح الملك فيليب دوماً شيئاً محرجاً، أو غير ممكن، وكان هذا دأبه خلال المناقشات، فقد أراد إلحاق العار والذل بالملك جون، وألا يلغم عزته الملكية وينسفها، وأظهر دوماً غضبه بشأن وفاة آرثر، الذة سمع بأنه أغرق في نهر السين، ولهذا أقسم أنه لن يتوقف عن إثار الحرب ضد جون حتى يجرمه من مملكته كلها.

وحشد فيليب في أيام عيد الفصح جيشاً، وحاصر قلعة فالي، الته مالبث أن استولى عليها بدون مقاومة، ثم وصل إلى كين aen وبسلام تسلمها من قبل السكان هناك، واستولى بعد هذا على كام

المنطقة حتى بارفلور Barfleur وتشير بـــورغ Verneuil ودومفرونت Domfront واشترى سكان روان وفيرنول Domfront والذين يتولون حراسة قلعة آركوي Arques هدنة أربعين يــوماً من ملك فرنسا، حتى يكون بإمكانهم ارسال رسل إلى الملك الانكليزي لمعرفة قراره، لأنه إذا كان مولاهم غير قادر على مساعدتهم، أو غير راغب بـذلك، وقتها يمكنهم الاستسلام إلى سلطان الملك فيليب بـدون صراع عنيف.

وبعثوا على الفور برسلهم إلى انكلترا، ببعثة فيها مافيها من التعاسة، وطلبوا من الرسل أن يبينوا الحالة التعيسة في نورماندي، وأن يطلبوا منه القيام بانقاذهم، ومهما يكن الحال، لم يعطهم الملك جون العون لأنه خاف من خيانة بعض رجاله، وعاد الوفد حزيناً وقلقاً، وهكذا استسلمت مدينة روان التي لم تقهر بعد، واستسلم سكان فيرنول وآركوي معا إلى الملك فيليب.

وهكذا خضعت في وقت قصير لسلطان الملك فيليب: نورماندي العنيدة، وأنجو، وبريتاني، ومين، ومقاطعة تور، وحدث هذا كله وفاقاً مع نبوءة ميرلين Merlin التي قالت في هذه السنة: «سوف يفترق السيف عن الصولجان»، أي ستنفصل نورماندي عن مملكة انكلترا، فقد مكث ملوك انكلترا دوقات لنورماندي لمدة مائة سنة وتسع وثلاثين سنة، من أيام الدوق وليم الذي استولى على انكلترا، حتى الملك جون الذي فقد هذه الدوقية مع الكثير من أراضي ماوراء البحار.

وكان طوال هذا الوقت هناك صراع عظيم فيها بين البواتويين وبين الأكوتينين، فقد كان الأول مخلصين للملك جون تحت قيادة روبرت تسورنهام Tjornham في حين كان مع الآخرين وليم دي روشي والكونت هيوج الذي غزا أراضي الملك جون، وكان الملك فيليب بمساعدتهم قادراً على الاستيلاء على كلّ بواتو تقريباً، باستثناء روشل

Rochelle التي صمدت بشجاعة ضد كلّ انسان لمدة سنة، ومثلها كانت قلعة شينون Chinon مع هيوبرت دي بيرغ فيها، فهي لم تستسلم إلى أعدائها طوال ذلك الوقت، وقاوم جيرارد دي آثي -Ath شحنة قلعة لوشي، بشجاعة ووقف ضد الثوار.

وساند الغسكونيون الملك الانكليزي، وأعطى الملك جون إلى موريف Moreve وكان واحداً من الغسكونيين، مبلغاً قدره تسعة وعشرين ألف مارك ليحشد جيشاً قوامه ثلاثين ألفاً، يتوجب قدومه لدى طلبه من قبل الملك جون، عندما سوف يعبر البحر، وكان رئيس أساقفة بوردو، وهو راهب مورافي، موجوداً في انكلترا للبحث في هذا العمل، وليعمل بمثابة رهينة مقابل المال.

وبنى الملك جون ديراً في نيوفورست حمل اسم بيولو Beaulieu وجلب إليه ثلاثين راهباً من رهبانية سيتو Citeaux.

جرى خلع ألكسيوس الأمبراطور الضعيف للقسطنطينية من قبل قريبه مرزوفلوس، الذي أعلن عن نفسه امبراطوراً، وقام بقتال الجيش الغربي في عدد من المناسبات، وفي ردة فعل ضده وانتقاماً منه نهب الصليبون القسطنطينية.

قامت القسطنطينية على مثلث من الأرض، طول الضلع فيه ستة أميال، وقالوا بلغ محيط المدينة ثمانية عشر ميلاً، وهذا معناه أن المسافة من زاوية إلى زاوية كانت ستة أميال، وكان ارتفاع الأسوار خسين قدماً، وكانت هناك أبراج على طول الأسوار بين البرج والبرج الآخر عشرين قدماً، وكان أشهر القصور الامبراطورية في المدينة اسمه بالاشرين، ثم قصر قسطنطين وقصر بوهيموند، واحتوت المدينة على كنيسة لانظير لها اسمها آيا صوفيا، بناها جستنيان، وقيل دوماً بأن معيار بنائها مع

تزييناتها رائعة إلى درجة لايمكن تصديقها، ومنح الأباطرة الكنيسة إيرادات كثيرة، ووضعوا فيها تسعائة وخمسين كاهنا، ومن المؤكد القول على عهدة الذين عرفوا المدينة، أنه كان فيها من السكان أكثر مما عاش بين مدينة يورك ونهر التيمز.

وعندما تم الاستيلاء على المدينة، وهرب الامبراطور مرزوفلوس، جرى اتفاق عام على اختيار بلدوين كونت فلاندرز امبراطورية، فقام على الفور بكرم منه فوزع ثلث ماكان من مال في الخزانة الامبراطورية، الذي بلغ مليوناً وثهانها ته مارك فضي، وزعه بين الأمراء اللاتين والجيش، وبدا هذا المبلغ الضخم من المال مثله مثل أي شيء تعلق بثروات الاغريق، ومثل أبنية المدينة وآيا صوفيا، أمراً لايصدق، لأن الذين عادوا من تلك المدينة قالوا بأن الدخل اليومي للامبراطور هو ثلاثين ألف بيربري المضحة، كما منح والبيربري هو بنس ذهبي يساوي ثلاث شلنات من الفضة، كما منح أيضاً بكرم الأمراء وآخرين كانوا معه مناصب رفيعة وتشريفات، وكثيراً من الأعطيات الثمينة، وبعث إلى الملك فيليب الذي كان من قبل مولاه قطعة من العقيق، وكانت من أثمن المجوهرات، يمكنها اضاءة القصر كله بأشعة براقة حمراء، وشوبين ملكين نسجا بالذهب بشكل رائع، وأحجار كريمة.

هناك في القسطنطينية عمود، بني في العصور القديمة من قبل واحد من رجال الكنيسة، حيث استخدم فنوناً ميكانيكية، فقد قيل بأن قاعدته بحركة دائمة، وفي أعلاه تماثيل ثلاثة أباطرة، ينظر أحدهم نحو آسيا، وآخر نحو أوروبا، وثالث نحو أفريقيا، وهناك اطار فوق التماثيل كتب عليه بالاغريقية بأنه بعد أن يحكم ثلاثة من الأباطرة اسم كل منهم ألكسيوس بلاد الاغريق، ستصل مملكة الاغريق إلى نهايتها، وستنتقل الامبراطورية إلى أيدي شعب غريب، ووقف على رأس الاطار تمثال رابع جاء فوق الجميع، وهو أكثر عظمة، وأعظم سمواً من التماثيل الأخرى،

وقد نظر نحو العالم الغربي ومدّ يديه نحو الغرب.

## سنة خمس ومائتين وألف

كان الشتاء في سنة خمس ومائتين وألف شتاء قاسياً، وتجمد النهر، لذلك بات بإمكانك عبور نهر التيمز على الأقدام، وكانت الأرض قاسية لم يمكن فلاحتها من عيد الختان في الأول من كانون الثاني حتى عيد البشارة في ٢٥ آذار، وفي الحقيقة لحق التلف بالموسم الشتوي كله تقريباً بسبب شدة البرد، وبادر الناس بسرعة إلى اقتلاع الخضار النامية، وحدثت مجاعة كبيرة في جميع أرجاء انكلترا، ولهذا بلغ ثمن بوشل bushel القمح الواحد [٨-غالون] ماركاً واحداً، وهو ماكان يكلف في أيام الملك هنري الثاني ١٢ بنساً، وبات ثمن المقياس الواحد من حبوب الفاصولياء والبازلاء نصف مارك، وبلغت تكلفة البوشل الواحد من الشوفان ٤٠ بنساً، وهو ماكنا اعتدنا على شرائه بأربعة بنسات، وصارت النقود رديئة إلى درجة كبيرة وفاسدة بسبب قصقصتها وتقطيعها وصارت النقود رديئة إلى درجة كبيرة وفاسدة بسبب قصقصتها وتقطيعها آلل أنصاف وأرباع] حتى بات من الضروري تجديدها هذه السنة.

ووقع الآن بالأسر روبرت ثورنهام الني صمد بشدة أمام الثوار البواتويين، والني تولى أسره هو جيش الملك الفرنسي، وحدث الشيء نفسه لجيرارد دي آثي، فقد سقط مع قلعة لوشي التي دافع عنها بشجاعة كبيرة لمدة طويلة.

وقرر الملك جون، الذي كان قلقاً جداً، مع أنه أخفى حزنه وأسفه، أن يعبر البحر مع جيش كبير بغية استرداد الأراضي المفقودة، وكان قد ربح إلى جانبه نبلاء بسواتو وغسكوني من خلال وعود سرية، وتلقى التحريضات بشكل مستمر من بعض نبلاء نورماندي، الذي تشكوا

بحرقة من طغيان الملك الفرنسي.

وبناء عليه عقد الملك جون بعد عيد الفصح مجلساً استشارياً في نورثأمبتون، ثم عبر البحر من بروشستر مع جيش كبير وجيد، والتحق به هناك حشد من السفن جاءت من عدد كبير من المراسي، وبعدما جرى توزيع السفن التي وصلت. على كلّ واحد من النبلاء، خصصت سفن للأطعمة، والعتاد، وحملت أخرى بمختلف أنواع الأسلحة، وعندما حلّ اليوم الذي باتت فيه السفن جاهزة للاقلاع، إذا برئيس أساقفة كانتربري والإيرل وليم مارشال قد عادا من بلاد ماوراء البحار، وذهبا إلى الملك لاقناعه بأي ثمن ممكن ليتخلى عن الحملة.

ووضعوا أمامه مخاطر كثيرة يمكن أن تنجم عن عبوره: سيكون من الخطر جداً انزال القوات بين الأعداء من دون تأمين قاعدة، وسيكون بإمكان الملك الفرنسي قيادة جيش أكبر ضده، وبذلك يمكنه غزو البلاد كلها، وسيكون من الخطر الاعتباد على البواتويين المرائين والمتقلبين، اللذين اعتادوا دوماً على التخطيط لعمل تآمري ضد أمرائهم، وسيكون بإمكان كونت بولون Boulogne مع شركائه غزو انكلترا إذا ماسمع أنها فارغة من قادتها ومن جيشها الشهير، وسيكون هناك خوف عظيم من أنه سيخسر البذي بين يديه من الأراضي وهو يحاول استرداد مافقده، خاصة وأنه لم يترك خلفه وريث واضح للمملكة، يمكنه أن يتسلم حكومة المملكة إذا ماحدث شيء سيء له في بلاد ماوراء البحار. ومع أن الملك سمع هذه الحجج وغيرها لم يكن من الممكن اقناعه بالتخلي عن خططه بالذهاب إلى ماوراء البحار، وأمسكه رئيس الأساقفة والإيرل وليم من ركبتيه وتعلقا به خشية أن يتخلص منها، وأصرا على أنه إذا لم يصغ لما طرحاه ويأخذ به سيمنعانه بالقوة، خشية أن تقع المملكة في لجة من الفوضي بسبب مغادرته.

وجاءت الضغوط إلى الملك من جميع الجهات، فمن جانب كان هناك

العارفيا لو تخلى عن خطته، وكانت هناك من جانب آخر الطلبات الملحة له بالبقاء، وسأل رئيس الأساقفة وهو يبكي وينوح عن رأي يكون عملياً أكثر لصالح المملكة وللحفاظ على سمعته الملكية، وكيف يمكنه تأمين المساعدة للذين كانوا ينتظرونه فيا وراء البحار، وعقد رئيس الأساقفة مجلساً استشارياً قرر وجوب إرسال بعض النبلاء الانكليز مع قوة معتبرة من الفرسان الأشداء، لتكون طليعة لقدوم الملك.

وبعدوقت طويل اقتنع الملك مكرهاً بالبقاء وأخبر لورداته وفرسانه بالعودة إلى ديارهم، وطلب أن يحاسبوا على المبالغ التي دفعت في سبيل العبور، وعاد هؤلاء الرجال، الذين تحملوا الكثير من المصاعب، وأنفقوا نفقات عالية في هذه المناسبة، إلى ديارهم وهم ساخطون كثيراً، ومعهم أحمال الأطعمة التي جمعوها، ولعنوا رئيس الأساقفة والمستشارين الآخرين الذين أعطوا الملك مثل هذه النصيحة السيئة، حسبها بدت لكثيرين، وكان هذا صحيحاً بشكل خاص بالنسبة للبحارة الذين قيل بلغ تعدادهم أربعة عشر ألفاً، فقد جلبوا سفنهم من أماكن نائية، وانتظروا عبثاً لبعض الوقت، مع متاعب كبيرة، ونفقات عظيمة، وذلك في سبيل العبور، فلقد قيل إنه لم يجتمع قط مثل هذا العدد الكبير من السفن للابحار من ميناء انكليزي للجواز، ولم يحشد أبداً جيش أكبر في الكري الكري في فرسان أشداء متشوقين للجواز مع الملك، فقد وصلت أخبار الفرسين في نورماندي، حتى أن بعضهم تخلى عن القلاع والبلدات الفرسين في نورماندي، حتى أن بعضهم تخلى عن القلاع والبلدات القريبة من البحر، وطلبوا السلامة في الفرار.

وعلى كلّ حال توجه الملك من ساحل البحر إلى ونكستر وهو حزين جداً، فقد استولى عليه الأسى وشعر بثقل في قلبه حمله في اليوم الذي تلا عودته من الشاطىء، على الابحار إلى جزيرة وايت Wight وظلّ هائهاً على وجه البحر يمضى إلى هنا وإلى هناك لمدة يومين، وفي تلك الأثناء

كان رفاقه يحاولون ثنيه عن عبور البحر من دون الجيش الذي فرقه.

أما الذين مكثوا على البر فقد اعتقدوا مرجحين بأن الملك قد عبر، وأن أخباره انتشرت في جميع أرجاء المملكة، وعبر وقتها إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، ومعه كثير من الفرسان، ووصل إلى روشيل Rochelle وكان قد عبر قبله بقليل غيوفري، الذي كان ابناً للملك جون من خلال خليلة، ووصل مع عدد كبير من الفرسان.

أما ماكمان جرى جمعه من مبالغ مالية ضخمة، وحجم المؤن التي احتيج إليها في إعداد السفن، والأغذية التي جمعت والمخازن ليس من السهل تعداده.

وكان خلال ليلة عيد القديس يوحنا المعمدان في ٢٤ حزيران، رعد غيف وبرق قدم من الساء عبر انكلترا، وضرب مخلوق عملاق مرعب (تنين) بالبرق في كنت، قرب ميدستون Maidstone مع صوت تدمير كبير، وقد تبين أن له رأس أتان، وأمعاء انسان، أما أطرافه العملاقة الأخرى فلم تكن تشبه أطراف أي مخلوق آخر من أنواع الحيوانات، ونادراً ما تجرأ أحد على الاقتراب من جسده الأسود، الذي احترق بالبرق، وذلك بسبب الرائحة التي لاتحتمل التي صدرت عنه.

وفي ٢٩ تموزكان هناك رعد وصواعق مرعبة مماثلة، وأصوات صدرت عن تلاقي البروق من خلال اصطدام الغيوم فوق جميع أرجاء انكلترا، وكانت مرعبة إلى حد أن كثيرين اعتقدوا أن يوم القيامة قد جاء، وغدا أناس كثر وحيوانات بلا عقل تقريباً بسبب الخوف، وملأ الرعب والنذر المملكة بأسرها، وهلك رجال ونساء في كثير من المناطق بسبب اصابتهم بالصواعق، وأصيبت حيوانات أيضاً، وضربت بيوت وأحرقت، وأتلفت بعصيل بالبرد النازل الذي كانت في بعض الأماكن حباته كبيرة بقدر بيض الأوز، واجتثت أشجار من جذورها وحملت بعيداً، وبرم بعضها بيض الأوز، واجتثت أشجار من جذورها وحملت بعيداً، وبرم بعضها

مثلما يبرم الحبل، وانشطر بعضها إلى قسمين.

وفي اليوم التالي شوهدت آثار أقدام عملاق مرعب في عدد من الأماكن، وكان من النوع الذي لم ير من قبل أبداً، وقال الناس إنها آثار أقدام شياطين أرغمت على الفرار إلى هنا وهناك بقوة الصواعق الصادرة عن الملائكة الجيدين، كما قال أرميا في الوصايا، فقد صبّ الملائكة الطيبون غضبهم على القدماء بالشهب والقذائف، وبذلك حموا السهاء بوساطة الصواعق والبرق المتصادم، وبرزاز من النشاب دمروا العدو، وأرغموه على الالتجاء إلى ظلمات باطن الأرض، لأن الملائكة امتلكوا قوى نارية على رؤوس أصابعهم، بإمكانهم بوساطتها احراق الحجر وتفتيته إلى قطع صغيرة، واقتلاع الأشجار وجرها، ومهما بلغت قوة تفجر غضب الانسان، إن آلافاً من الناس يمكن أن تموت بضربة واحدة من غضب الانسان، إن آلافاً من الناس يمكن أن تموت بضربة واحدة من ملاك واحد، وهذا ما يمكن للفلاسفة أن يناقشوا حوله أكثر من سواهم.

وغادر هيوبرت المبجل، رئيس أساقفة كانتربري، كانتربري مع جماعته، وقصد بوكسلي لإرساء السلام فيها بين رهبان روشستر وأسقفهم، وعانى أثناء سفره من مرض مزدوج تمثل بالحمى والقرحة، لذلك قصد عزبته في تاينهام، وهناك، بعد مضي أربعة أيام، أنهى حياته يوم ١٣ تموز، فقد قصم المرض ظهره عند الفقرة الثالثة من عموده الفقري، وهو ماكان يخجل في أن يريه للذين كانوا معه في حجرته لأن أعضاءه الداخلية كانت ستظهر.

والدرس المستفاد من قرحته الخطيرة، والذي يمكن تعلمه هو أن المريض إذا ماشعر بآلام في الصدر أو بدأ بالتعرق، فهذا معناه أنه في خطر الموت، ومن الممكن معالجة هذا الداء بوساطة مزج قدر متساوي من صفار البيض والملح، ووضعه على موضع الداء، وتجديده باستمرار، وينبغي أن يأكل المريض الخبز والماء حتى يبرأ جسده، وانتبه عندما تخرج الدم، خشية أن ينتشر المرض بين العروق، ولو أن رئيس الأساقفة لاحظ

الداء مبكراً وبسرعة، لكان بإمكان استخدامه هذا العلاج، الذي لايخفق حسبها أخبرني الأطباء.

وصف كوغشال بعد هذا موت رئيس الأساقفة بالتضاصيل، لكن تاريخه انحرف عندها ليروي سلسلة من المواد الحولية، وتناول الرواية جيرفاس، الذي كان راهباً في كانتربري، والذي حياته الدرامية وروايته الحيوية مشوية بتكريسه نفسه لكاتدرائيته الرهبانية.

في ١٢ تموز مات رئيس الأساقفة هيوبرت، وبعد ثلاثة أيام بادر الملك جون مسرعاً إلى كانتربري، وتحدث بلطف زائد مع الرهبان حول استخلاف رئيسهم وأعطاهم بعض الأمل، أن باستطاعتهم اختيار واحد من كنيستهم، وعندما سمع أن رئيس الأساقفة الشهير والنبيل قد ترك لمم بيعة محمولة في وصيته تساوي ثلاثهائة مارك [٠٠٢-جنيه] سأل بهدوء رؤيتها، وعندما رآها حملها إلى ونشستر، وأعطى إلى أسقف ونشستر ماكان أخذه من كنيسة المسيح، وبعد هذا سأل رئيس رهبان ورهبان كانتربري ألا يقوموا بالانتخاب قبل عيد القديس أندرو، في ٣ تشرين الثانى، وقد وافقوا على طلبه.

وبعث الملك بالوقت نفسه سراً برسل إلى روما، وعندما سمع الرهبان بهذا بعثوا بعدد من أفرادهم مع نائب راعيهم إلى روما أيضاً، خشية أن يطلب الرسل الملكيون أي شيء يضر بمكانة وحقوق كانتربري، وعلى الفور كتب الرسل الملكيون إلى الملك يقولون بأن رهبان كانتربري قد انتخبوا نائب راعيهم وبعثوه إلى روما، وانزعج الملك لدى سماعه هذا وذهب إلى كانتربري بعد عبد القديس أندرو، وسأل الرهبان عما إذا كانوا قد انتخبوا نائب راعيهم أو أي واحد آخر، فأصروا على أنهم لم يقوموا بأي انتخاب، وليبرهنوا عما قالوه وفعلوه، قاموا بناء على نصيحة يقوموا بأي انتخاب، وليبرهنوا عما قالوه وفعلوه، قاموا بناء على نصيحة

وموافقة جميع الكهنة والرهبان فانتخبوا أسقف نوروك، ووسط الغناء، اقتادوه إلى داخل الكنيسة، ووضعوه على كرسي رئيس الأساقفة، وأخذوا قبلة السلام.

وبها أن الملك وافق على انتخابهم، بعث الرهبان برسل إلى روما للحصول على الطيلسان، لكن الرهبان الذين كانوا قد ذهبوا إلى روما، عارضوا الانتخاب، وذلك على الرغم من تحريم الدير لهم الاقدام على ذلك تحت طائلة عقوبة الحرمان، ولقد ادعوا بأن أسقف نوروك لم ينتخب من قبل الرهبان، بل فرض من قبل الملك باستخدام القوة، وأن الانتخاب بلا قيمة.

#### سنة ست ومائتين وألف

وبعد وقت طويل، قام الرهبان الذين نالوا التفويض من دير كانتربري، بأن يقوموا بانتخاب اعتاداً على السلطة البابوية، قاموا بعد تقديرات وافية، وبموافقة من البابا، فانتخبوا السيد المبجل ستيفن لانغتون Langton كاردينالاً، واحتراماً من البابا للملك بعث إليه برسائل طلب فيها موافقة الملك، وكان الذي فعله الملك، الاصغاء لنصائح شريرة، فرفض اعطاء الموافقة، وعلى كلّ حال سأل فيها إذا كان جميع الرهبان قد وافقوا على انتخاب ستيفن لانغتون، ورد الدير أنهم سوف لن يتخلوا عنه، وبناء عليه أقسم الملك الغاضب أن مامن واحد منهم سوف يبقى في كنيسة كانتربري، ولاحتى في انكلترا.

# سنة سبع ومائتين وألف

[رسم ستيفن لانغتون رئيساً لأساقفة كانتربري في روما يوم ١٥-حزيران]، وبناء عليه تم طرد جميع الرهبان من كانتربري يوم ١٥ تموز، وجرى استقبالهم بتشريف في بلاد ماوراء البحار من قبل دير القديس بيرتن، وتباهى الملك بنصره الرائع، وعبثاً كتب رسائل إلى الراعي هناك أن يحاول طرد الرهبان.

ولد في هذه السنة هنري، أول مولود للملك جون من خلال الملكة ايزابيلا ابنة كونت أنغوليم، وكان هذا حدثاً حيوياً في أهميته، فالآن امتلك جون وريثاً ذكراً.

غادر انكلترا أسقف لندن، وأسقف إيلاي وأسقف هيرفورد، وأسقف تشستر ورئيس أساقفة يورك، الذي كان أخا للملك، ومعهم عدد كبير آخر، وأغنياء وكذلك فقراء، لأنه لم يعد في مقدورهم تحمل طغيان الملك، ولم يبق ولا واحد في البلاد يستطيع أن يخالف ارادته، وكان أساقفة درم، ولنكولن وتشستر قد ماتوا، وفقط بقي أسقف ونكستر يتمتع بحظوة الملك، وكان أسقف نوروك في ايرلندا، وتحمل أسقفا روكستر وسالسبري كثيراً من الأذى، ثم غادرا إلى اسكوتلندا.

### سنة ثمان ومائتين وألف

كان الملك نفسه هو السلطة الوحيدة في البلاد، وهو لم يخش لا الرب ولا الانسان، وكان البابا مزعوجاً نتيجة للمضايقات التي تعرضت لها

الكنيسة في كانتربري، وبعث برسائل أمر فيها الملك باستقبال رئيس أساقفة كنيسة كانتربري ورهبانها، وأن يعيد إليهم مقتنياتهم المصادرة، وراسل الملك روما، ووعدها بأنه سوف يقوم بالتعويض عن كلّ شيء، في سبيل الرب، والكنيسة المقدسة، والبابا، وعندما سمع البابا بأن الملك قد تاب فرح فرحاً عارماً، وبعث إليه برسائل غفران، وعندما عاد الرسل إلى انكلترا، بعث رئيس الأساقفة بأسقفين وراهبين، ليتسلموا مقتنيات كنيسة كانتربري، وعندما سمع الملك ماجلبه الرسل من روما، غضب كثيراً، وأقسم أنه لم يرسلهم لهذا الغرض، وجرى استدعاء المستشار الملكي الذي كتب الوعود الأصيلة وعليها خاتم الملك، ومع ذلك أنكر الملك أنه وإفق عليها.

وبناء عليه انسحب الملك من المباحثات، وكذلك فعل الأساقفة وكل واحد آخر، وفي ٤ آذار، جرى بناء على قرارات بابوية، تعليق الخدمات الدينية في جميع أنحاء انكلترا، وعمّ الأسف الكبير والقلق خلال البلاد، ولم يحتفل لابالجمعة الحزينة ولا بأحد الفصح، لكن عمّ صمت لم يسمع بمثله، فرض على جميع رجال الدين والرهبان من قبل رجل علماني، ولم يعد من الممكن دفن الموتى من العاديين أو من رجال الدين في المقابر المكرسة، بل فقط في الأماكن الدنسة والملوثة.

وأمر الملك أيضاً بطرد العدد القليل من الرهبان الذين بقوا في كانتربري، وكان هؤلاء من العميان والمعوقين، وأن يُعدّ الرهبان بمثابة أعداء عامين، وهرب بعضهم من انكلترا، وسجن بعضهم، وجرى الحفاظ على بعضهم بالمال، وعانى آخرون من مصاعب جمّة، فقد قطعت أشجارهم، وجرى تغريم رجالهم وفرضت عليهم ضرائب ثقيلة، وعانت انكلترا كلها من هذه الأثقال، وأرغم الشعب على أن يدفع أولاً ربع أمواله، ثم الثلث، وبعد ذلك النصف، حتى أجور الكرادلة وكلّ ماكان لهم في انكلترا قد انتزع، وانتزع بنس بطرس الذي كانت الكنيسة

الرومانية تحصل عليه من أيام كنوت Cnut فقد آل هذا كله إلى الملك، وفرض بشكل خاص مكوس كبيرة في هذه المناسبة على الموانيء الخمسة التي كانت تدافع عن السواحل ضد الغزوات العدوانية، ولهذا الغرض شنق بعض سكانها، وقتل بعضهم الآخر صبراً، وسجن الكثير، وغلهم بالحديد، وبعد وقت طويل أطلق سراحهم مقابل عهد الولاء والمال، ولهذا غادر الفقراء والأغنياء انكلترا، وشكلوا أعداداً لاتحصى من الرجال والنساء، وكان سفرهم حجاً غير مشكور لتجنب الهمجية الهائلة المملك وليس عملاً دينياً أو للتقوى، وسجن جون حتى زوجته الملكة، وضعها تحت الحراسة المشددة في قلعة كورف Corfe.

## سنة تسع ومائتين وألف

لدى سماع البابا بهذه النوازل وماشابهها ومعه جماعة آباء الكنيسة الانكليزية، بعث إلى ملك انكلترا برسائل إعذار وانذار، حذره فيها بضرورة الابتعاد عن أعماله الشريرة والاقلاع عنها، وأن يعيد كنيسة كانتربري إلى وضعها الأصيل، وإلا من المؤكد أنه سوف يعاني من الحرمان الكنسي، الذي سيتلفظ به البابا شخصياً بشكل علني، ولن يقتصر الحرمان العلني للملك على انكلترا، ولكن سيشمل المناطق الأخرى أيضاً، واهتم جون —على كل حال— بالانذار البابوي قليلاً، وتجاهل التحذير.

وأرسل الملك رسائل إلى الملك وليم ملك اسكوتلندا، وكان رجلاً متميزاً بتقواه، وأمره إما أن يسلم إليه ثلاث قلاع على الحدود، أو ابنه بمثابة رهينة، وعندما لم يرغب الملك السكوتلندي في تلبية أوامره، أراد ملك انكلترا أن يستولي بالقوة العظيمة على مالم يستطع الحصول عليه

بالرجاء، وأن يعيد القلاع الثلاثة إلى مملكته.

وعندما أخذ ملك انكلترا الطريق نحو اسكوتلندا مع قوة كبيرة، بدأ جنده يتململون قائلين: «إلى أين نحن ذاهبون؟، ماذا نحن صانعون؟ إننا مثل الكفار، خوارج على شريعة الرب وعلى المسيحية، لماذا يتوجب علينا محاربة ملك اسكوتلندا المقدس؟ لأنه مؤكد أن الرب سوف يقاتل لصالحه وضدنا، وسيصنع المعجزات من أجله».

ولدى وصول هذا وغيره من حكايات جند الملك إليه، وخشية منه أن يحدث ويتخلى الجيش كله عنه ويتركه أثناء القتال لوحده، أمر غيوفري فتربيتر، ورئيس الهيئة القضائية وإيرلات آخرين أن يبحثوا مسألة التصالح مع الكنيسة في كانتربري وفي انكلترا، وأن يستدعوا بسلام رئيس أساقفة كانتربري وأساقفة آخرين ورهبان إلى انكلترا، لأن البابا كان قد أمر هؤلاء الأساقفة بتلفظ قرار الحرمان على الملك.

وبناء عليه أرسل غيوفري فتزبيتر رسائل مستعجلة إلى أسقف لندن، وسأله القدوم مع أساقفته إلى انكلترا بالسرعة الممكنة، بقدر مايحب شرف الحرب والكنيسة وسلام الملك والمملكة، لأن الملك قد أعطى السلطة الكاملة إلى الأساقفة لإقامة سلام مع كنيسة الرب.

وبينها كان الأساقفة يستعدون للعودة إلى انكلترا، والملك في طريقه إلى اسكوتلندا مع الجيش، أخذ ملك اسكوتلندا يشعر بالخشية على سلامة مملكته، وفضل كثيراً أن يمتلك السلام على اللجوء إلى السيف، وأن يزود شعبه بالحكمة بدلاً من الحديد، ولهذا بعث بابنتيه مع رسل أمناء إلى ملك انكلترا، وذلك من أجل أن تتزوج احداهن ابن الملك والأخرى واحداً من النبلاء الانكليز، كها أرسل ابنه، لكن ليس رهينة، بل ليقدم الولاء اللائق والتبعية إلى الملك بشأن القلاع المذكورة مع الأراضي التي بحوزته، وهكذا تم استرداد سلام مملكة اسكوتلندا، وعاد الجميع إلى بحوزته، وهكذا تم استرداد سلام مملكة اسكوتلندا، وعاد الجميع إلى

ديارهم.

ووصل الآن الأساقفة إلى دوفر يملكون كامل الصلاحية لإبرام سلام، ووافقوا بعد كثير من المباحثات على شكل من أشكال السلام الذي تمت كتابته والتوقيع عليه، وهكذا جرى تعليق قرار الحرمان المفروض على الملك وتأجيله لمدة خسة أسابيع.

فاحتشد بناء على أمر من الملك جميع الرجال الأغنياء والفقراء والوسط في انكلترا ممن تجاوز سن الخامسة عشرة، احتشدوا في مالبرو، ليقسموا هناك يمين التبعية للملك ولابنه هنري البالغ من العمر ثلاث سنوات، على أنه وريثه. وعندما رأى الملك وسمع صيغة معاهدة السلام التي أبرمت بموافقة كثير من الناس، بعث برسل مع رسائل طالباً من رئيس أساقفة كانتربري الاجتماع به في دوفر للتباحث.

وبناء عليه، عبر رئيس الأساقفة البحر، وانتظر الملك حتى يصل إلى دوفر، وعندما سمع الملك بهذا جاء إلى قلعة تشلهام Chilham التي لم تكن بعيدة عن دوفر، وقد جاء مسرعاً جداً ومسلحاً تماماً.

وانتظر رئيس الأساقفة هناك، بينها انتظره رئيس الأساقفة في دوفر، وتأثر الملك ببعض الألسنة ذات التغرير الشريرة، فغير موقف حول الاقتراح، وغادر فجأة، وقام رئيس الأساقفة بناء على نصيحة النبلاء، فعبر البحر، وعاد إلى فرنسا، وجرى حرمان ملك انكلترا من قبل عدد كبير من رجال الكنيسة، وذلك بناء على أوامر من البابا، وجرى حرمانه في فرنسا أبضاً.

وولد في هذه السنة رتشارد، وهو الابن الثاني للملك جون.

## سنة عشرومائتين وألف

استخرج الملك في خطة جديدة، مبالغ لم يسمع بها، من اليهود الانكليز، ذلك أنه أمر بشنق بعضهم، وبسمل عيون بعضهم الآخر.

تمتع اليهود لوقت طويل بحهاية ملكية صعبة مقابل جعل قسم من أرباحهم متوفراً لخزينة الدولة، ودفعت محاولات جون الهمجية لاستخراج مبالغ كبيرة منهم، إلى مغادرتهم انكلترا كلياً.

ولم يوفر جون رجال الدين في بحثه عن المال، وعندما اجتمع رعاة ديرة الرهبانية السسترشيانية مع بعضهم سألهم أن يساعدوه ليس بصلواتهم بل بأموالهم، وعندما رفض طلبه بتواضع كامل، غادر الاجتماع مغضباً، وقاد الجيش والأسطول اللذين اعتقد الناس أنه أعدهما للذهاب إلى بواتو، لقد قادهما إلى ايرلندا، وبسرعة أخضعها بالقوة والخديعة، ومع أن الكثيرين عارضوه، لم يكن بإمكانهم مقاومته، وفرض هناك القوانين الانكليزية والعادات، وأمرهم بمراعاتهم والأخذ بهم، ثم عاد إلى انكلترا.

وأمل كثيرون أنه بسبب هذا النصر، سيعمل الملك على تدارك أفعاله السيئة التي اقترفها بحق كنيسة الرب، وأنه سيحاول اصلاح أخطائه، لكن غضباً جديداً صدر عنه خاصة نحو السسترشيان، الذين لم يستطع أن يستخرج منهم أي مال لابالقوة ولابالرجاء، ولهذا شردهم بين مختلف كنائس انكلترا، وبذلك أرغموا على التسول من أجل الحصول على الطعام، ولم يسمح حتى لرعاتهم بعبور البحر للالتحاق بمجامعهم، ولم يعط الإذن بالعبور حتى إلى راعي دير بوليو Beaulieu الذي كان قد أعطاه موقعاً جميلاً في «النيوفورست» ليبنى عليه ديراً.

وأرسل جون رسائل مع رسل إلى رئيس أساقفة كانتربري، طالباً منه القدوم إلى انكلترا، حتى يمكنها التباحث معاً حول السلام في دوفر، وعندما بات كلّ شيء جاهزاً للعبور، تلقى رئيس الأساقفة رسائل من بعض النبلاء الانكليز الذين كانوا مخلصين له،أخبروه فيها بألا ينخدع في قدومه إلى انكلترا، وأن يتجنب كهائن أعدّت له، وهكذا عاد إلى فرنسا، ذلك أن ملك انكلترا كان مليئاً بالاجرام إلى حدّ أنه نادراً ماكان صادقاً أو وفياً مع أي شيء كتبه أو قاله، فهو لم يحفظ لاوعوده ولاعهوده.

أرسل الملك جيشاً كبيراً إلى ويلز تحت قيادة أخيه وليم وإيرل تشستر، وقد عاث الجيش فساداً في محيط تلك البلاد، وقتل عدداً كبيراً من مختلف الناس، وقال كثير بأن نبوءة ميرلين قد تحققت في قوله: «سوف يهدم السادس أسوار ايرلندا» و«سوف تخضع بدايته لطبيعته المتقلبة»، وكان الملوك هم: وليم الأول، ووليم الثاني، وهنري الأول، وهنري الثاني، وبعد ذلك رتشارد، وكان السادس هو جون الذي استولى على ايرلندا، لكن كلّ بقية الأشياء كانت عبثية وبلا منفعة.

انتهى تاريخ جيرفاس بحوادث سنة ١٢١٠، وهي السنة التي توفي في السنة التي توفي فيها، ويزودنا المؤرخ الواسع المعرفة، لكن المجهول، والمعروف باسم صاحب حوليات بارنول Barnwell بروايات ثمينسة حول السنين الدرامية الأخيرة لحكم جون.

### سنة إحدى عشرة ومائتين وألف

قاد ملك انكلترا جيشاً إلى ويلز ضد انه اليويليين » Lewellyna الكنه عاد مسرعاً، لأنه الويلزيين، خافوا من زحفه، فانسحبوا مع أمتعتهم إلى الجبال، ولهذا عانى الجيش الانكليزي من المجاعة، لكنه

بعدما جمع كميات كبيرة من المؤن، كان الملك على الفور قادراً على القيام بحملة أخرى ضد ويلز، وفي هذه المرة مع قوة كبيرة، ووفرة من المؤن، وبذلك فرض على الويلزيين تقديم رهائن له، وبعدما نجح في تدبير أموره كما رغب، عاد مكللاً بالمجد.

ولم يكن الآن ولا واحد في ايرلندا واسكوتلندا،أو ويلز إلا وانحنى أمام إشارته ، وهي حالة \_ كما هو معلوم \_ ما من واحد من أجداده قد حققها ، وبدا الآن ناجحاً تماماً ، ويمتلك مستقبلاً واعداً جداً لخلفائه ، فيما عدا إنه أخفق بشكل مروع في أراضيه الأجنبية ، وكان خاضعاً لحكم الحرمان الكنسى .

وبعثت روما باثنين من الرسل البابويين لمصالحة الكنيسة الانكليزية ، لكنها غادرا قبل أن يحققا أي سلام ، ولم يجلبا أية منفعة إلى التعساء .

وحدث أن عدداً كبيراً من الغزلان تجمعت مع بعضها في الغابة الانكليزية المعروفة باسم كانوك cannock ، وبعد كثير من الانكليزية المعوية المزعجة، وكثير من الأنين رموا بأنفسهم إلى البحر عند مصب سيفرن severn ، ووجدوا بين الغزلان خشفاً له رأسين وثهانية أقدام.

وكان هناك خسوف تام للقمر يوم ١٨ ــ تشرين أول. وتوفي سمسون أسقف بري سينت أدموند، وروجر شحنه تشستر.

## سنة اثنتي عشرة ومائتين وألف

انتهت قوة المغاربة التي تنامت بقوة وفخار كبير في الأندلس، لأن جيشهم قد سحق على أيدي الأمراء المسيحيين، بعدما تراجع في فوضى

وخوف، وعدل عن حملته الجريئة.

اجتمع الأطفال في جميع مدن فرنسا مع بعضهم ، وكان هذا أمراً مدهشاً لكل من رآهم ، وكانوا حيثها ذهبوا ، يجتمع الأطفال ، وكأنهم لا يستطيعون البقاء منفردين ، بل يتوجب عليهم التجمع على شكل كتل، وصحيح أن واحداً منهم لوحظ أنه كان في الخامسة عشرة من عمره، وهو من أهل باريس، لم يكن سواه ممن احتشد قد تجاوز الثانية عشرة، وعندما سئل الأطفال عها هم عازمون على فعله، أجابوا أنهم ذاهبون لحمل صليب المسيح.

انتهت حركة الأطفال الغريبة والعفوية بشكل مأساوي، فقد أسر الجيش من قبل تجار الرقيق وبيعوا إلى المصريين .

شوهد رزاز من الدم في كين caen في نورماندي يوم السبت ١٠ مرز، وشوهد في اليوم نفسه في فالي ثلاثة صلبان معاً في السماء وكأنهم يتبارزون.

وسمح في انكلترا كلها للمؤمنين النين اقتربوا من نهايتهم بتناول قربان الموت المقدس لجسد مولانا، وكان هذا قد طولب به من قبل الكهنة في الديرة، النين سمح لهم بالاحتفال بالقداس المقدس مرة واحدة في الاسبوع.

ووقعت في مدينة لندن نار غير اعتيادية ومرعبة على الضفة اليمنى لنهر التيمز، قرب كنيسة كهنة سيدتنا في ساوثورك Southwark وعندما عبر حشد كبير النهر، إما لإطفاء النار، أو للمشاهدة، فجأة وقعت النار في الجزء الشهالي، بسبب أن الريح الجنوبية كانت هابة، وهكذا حدثت الاعاقة باللهب المتصاعد للذين كانوا يعبرون الجسر عائدين، ثم إنه عندما تأثر الطرف الآخر من الجسر بالنار، باتوا محجوزين، وكأنهم بين

نارين، وتعرضوا للضغط من كلّ طرف على حدة، حتى باتوا لايتوقعون سوى الموت.

ثم جاءت بعض السفن إلى عونهم، لكن أعداداً كبيرة المدفعت إليها بحهاقة مما سبب غرقها وهلاك كلّ انسان، وعدّ هذا فاجعة كبيرة من قبل الشعب، ولقد قيل بأن ثلاثة آلاف قد ماتوا إما في النار أو في غرق السفن، وبدا أن سوء الحظ الذي كان من المتوقع نزوله بانكلترا، قد جلب دماراً أعظم على العاصمة.

وفي الوقت نفسه حدث شيء آخر جعل الناس العقلاء مندهشين، ففجأة وبدون سبب محدد، انطلق بعض الناس وكأنهم هجروا عقولهم، وجالوا من بلدة إلى بلدة في جميع أنحاء انكلترا، ينفخون بالأبواق التي يدعوها الانكليز النفر Hue وعندما قيل إن هذا يمكن فقط أن محدث لدى اللحاق بالمجرمين، وبها أنهم كانوا لايلحقون بأي انسان، توقعوا أنه سيكون هناك اضطراب أعظم في المستقبل القريب.

وكانت السهاء في الخريف، حتى ٨أيلول، يوم عيد ميلاد مولاتنا، صافية، والطقس مشرقاً، ثم حدث فجأة هطول مطر مفاجىء ومتزايد بدون توقف، وقد أحدث أضراراً كبيرة لحقت بالانكليز، لأن ريح الشتاء كانت قوية إلى درجة أن حجارة الأبراج سقطت إلى الأرض.

وعندما وصل وليم ملك الاسكوتلنديين إلى سن لم يعد قادراً فيها على تهدئة الأجزاء النائية من مملكته، التي اضطربت بقلاقل وحرب أهلية، هرب هو والملكة وابنها الوحيد إلى الملك الانكليزي ليطلبوا مساعدته، وقدم الولاء إلى جون، الذي رسمه فارساً، ثم ذهب مع جيش توغل إلى أقصى أطراف المملكة، وأسر كوثرد Cuthred الذي عرف باسم ماكوليم، وكان قائد العصاة، وشنقه، وكان ماكوليم من أفراد أسرة ملوك السكوتلنديين القدماء، وكان مثله مثل أباه الذي قاتل لأمد طويل ضد

الملوك الحاليين، أحياناً بشكل سري، وأحياناً بشكل علني، لكن دوماً بشكل عدواني، بالاعتهاد على مساعدة السكوتلنديين والايرلنديين، ولأن معظم الملوك السكوتلنديين الحاليين كانوا متأثرين كثيراً بالفرنسيين، وهكذا حدث أن الفرنسيين فقط عوملوا بصداقة واحترام، بعدما جرى اخضاع اللغة والثقافة السكوتلندية.

وتشجع الأمراء الويلزيين من قبل البابا، الذي حللهم من كلّ من الاتفاقية التي عقدوها في السنة الفائتة مع الملك الانكليزي، ومن الولاء والأيهان التي قطعوها على أنفسهم، وشرعوا يقاتلون الملك الانكليزي مقابل التساهل في تطبيق الحرمان الكنسي عليهم في بلادهم كلها، وانفجر الملك جون بغضب عنيف، فشنق الرهائن، وحشد جيشاً للزحف ضدهم من جميع أجزاء المملكة، ثم إنه عندما حشد جيشاً عظياً لم ير مثله قط من قبل في أيامنا، قضى الرب بهزيمة قواته.

ثم اضطرب قلب الملك جون، لأنه كما قيل بات بلا سلطة، فقد سمعت أقاويل واشاعات تفيد أن البارونات الذين اجتمعوا معاً كانوا يتآمرون ضده، وانتشرت في كثير من المناطق حكايات تحدثت عن رسائل حللت البارونات من طاعة جون والولاء له، وقيل بوجوب انتخاب ملك آخر بدلاً عنه، وأن جون ينبغي طرده من المملكة، وإذا ماقبض الملك عليهم فلسوف يعانون من الموت أو من السجن مدى الحياة.

وبعدما أعلن الملك عن عودته، بدأ يتصرف بشكل سيء، وكان لايذهب إلى مكان إلا وهو مسلح أو وهو مرافق بقوة كبيرة من الرجال المسلحين، وإثر إلقائه القبض على بعض من بدا أنه قريب جداً من الثوار، استولى بسرعة على قلاع الإيرلات والبارونات، لذلك كان هناك عدم استقرار لبعض الوقت.

ثم إن بعض نبلاء البلاد باتوا يخشون إما من غضب الملك أو من

وسواس الضمير، لذلك غادروا انكلترا بشكل سري، فقد جرى استقبال يوستاس دي فسكي Vesci في اسكوتلندا، وذهب روبرت فتز وولتر إلى فرنسا، وإثر ذلك تمت مصادرة مقتنياتهم وأملاكهم، كما أن قلعة روبرت في لندن، المسهاة قلعة ريموند أزيلت من الوجود مع قلاع وحصون أخرى، ثم بدأ الملك يقيم تقديراً أعظم لشعبه، وظلت البلاد صامتة.

حتى في وسط الأجواء العدوانية، حرك جون عملاً عظياً وله ذكرى طيبة، فعندما شرع المشرفون على الغابات في إيذاء الناس في أجزاء كثيرة من انكلترا، بزيادة الضرائب المفروضة، ورأى الملك التعاسة التي لحقت بالناس، وبتخهم تماماً، وأرغم الموظفين المسؤولين عن الغابات أن يقسموا أنهم لن يستخرجوا من الضرائب إلا المبالغ التي اعتادوا على جمعها في أيام أبيه.

وكبح الذين فرضوا ضرائب جديدة، والذين ضايقوا الناس بفرض أتاوات جديدة بحجة حراسة الموانيء، وتعرضوا للرحالة والتجار، وألغى الأتاوات الجديدة، حتى يقال بأنه رحيم ومهتم بالحفاظ على شروط السلام، واستعداداً منه لإقامة سلام مع البابا، انتزع من جميع رجال الكنيسة التأكيد بكل ماأخذه منهم، في كل مناسبة من المناسبات، منذ بداية حكمه، فبهذه الوسيلة كانوا سيلطفون مطالبهم كثيراً بشأن ماأخذ منهم، ولقد أكدوا المنح التي أعطوه إياها بصكوك مختومة، ومن ثم جرى ارسال الرسل إلى الحبر الأعظم، بكل طريقة كان من المكن اتباعها.

ولقد روي من قبل بعض الناس، أنه رأى رؤيا، أنذر فيها بضرورة اصلاح مسالكه، وإلا فإنه كملك سيشعر بالانتقام الرباني قبل نهاية السنة.

وكان هناك رجل يدعى بيترأوف ووكفيله Wakefield بسيطاً

ومتقشفاً يعيش على الخبز والماء، وكان قد ادعى للناس أن بإمكانه الاخبار عن المستقبل، وقد بشر بأن حكم جون لن يستمر أبعد من عيد الصعود المقبل، لأنه كشف له بأن الملك جون سوف يحكم لمدة أربع عشرة سنة، وأن هذه الأشياء التي بدأت خلال تلك الأربع عشرة سنة ستصل إلى نهاية سعيدة، وعندما سئل بيتر فيها إذا كان الملك سيموت أم سيطرد أو سيتنازل عن العرش، قيل بأنه رد عليهم بأنه لايعرف، والذي يعرفه فقط هو شيء واحد، هو أنه لن يحكم أية مدة أطول، لاهو ولاأي انسان من أتباعه لصالحه، مالم يقضي الرب بذلك، وهو لم يخف هذا عن الملك.

ونظر إليه في البداية على أنه أحمق، وسخر منه سجانوه على أنه مجنون، لأنه عندما كان يتجول في الساحات ينشر أفكاره، ألقي القبض عليه من قبل مؤيدي الملك، واحتفظ به في الاعتقال، وبدا أنه واثق من نفسه ومقدرها تقديراً عالياً، وبات يعتقد أن اسمه، الذي كان حتى وقت قصير غير معروف ومزدرى، أصبح الآن مشهوراً بإلقاء القبض عليه، وتكلم عن كلّ شيء، وأضيف كلّ يوم كلمات مزيفة من الناس العاديين إلى نبوءاته المزيفة، وعزي إليه كلّ يوم أقوالاً جديدة وأكاذيب قيل بأن بيتر هذا قد قالها في قلبه.

وكان هناك خسوف للقمريوم عيد القديس مارتن، في ١١ تشرين الثاني، أثناء الهزيع الأول من الليل، وتوفي جون كومن Cumin أول رئيس أساقفة لدبلن، ونتيجة لهذا أصبحت المدينة من ممتلكات المملكة الانكليزية، ومات أيضاً موغر Mauger أسقف ووركستر، وغيوفري أخو الملك، الذي كان رئيس أساقفة يورك في المنفى.

## سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف

اشتكى الأساقفة الانكليز الذين كانوا في المنفى في فرنسا، إلى البابا، باسم الكنيسة الانكليزية، وتجاوباً من البابا مع شكواهم قرر الموافقة على وضع حدد للشرور، فكتب إلى فيليب ملك فرنسا، وإلى أمراء تلك المناطق، أنه مالم يستسلم ملك انكلترا، عليهم القيام بتحرير انكلترا من حكمه بوساطة جيش قوي، ولم يعد هناك أدنى حاجة لرجاءات مطولة وإعذار وانذار، لأن الملك فيليب والأمراء كانوا ميالين لهذا النهج من العمل منذ زمن طويل، وذلك بسبب كراهيتهم لجون، وبسبب حبهم المال وللذهب، لأن المتداول وقتذاك هو أن البلاد تلك زاخرة بالثروات.

وشجعوا بعضهم بعضاً، وأعدوا أنفسهم بكل شيء ضروري، ببناء بعض السفن وجمع أخرى من الشواطىء التي من حولهم، وقرروا أن الأسطول ينبغي أن يقلع معاً من ميناء واحد، وانتظر الملك الفرنسي شخصياً تجمع السفن في مكان ليس بعيداً عن البحر، وعندما جرى تقدير لحجم جيشه تبين أنه ضمّ مالايقل عن خمسة عشر ألف رجل، وتواردت السفن كلّ يوم على الموانىء والفرسان على القلاع.

وسمع ملك انكلترا بهذا، فحشد أسطولاً كبيراً من جميع موانى، انكلترا، وعين لسفنه رجالاً أشداء بارعين باستخدام السلاح، يمكنهم مع قوة كبيرة مقاومة هجوم العدو، وبذل جهوداً كبيرة لمقاومته، وإلحاق الضرربه وتعطيل خططه، وأقدم حتى على عرض تحرير الأقنان من أجل أن يتولوا الدفاع عن المملكة وحماية شخص الملك، وقد جاءوا لهذه الغاية مسلحين، واجتمع هناك حشد لم ير مثله في أيامنا، وقد وزعهم بين الموانى، حيث الخوف من المخاطر وحيث السفن، واحتفظ بالجيش بعيداً، معه قرب دوفر، أما بقية الأسطول فانتشر قرب الشاطىء ليس بعيداً،

وأعدت الشواني مثل ذلك للحرب.

لكن قلب الشعب كان متذبذباً من السهل تحويله إلى هذا الجانب ثم نحو ذلك الجانب، وفي الوقت نفسه تبخرت شجاعة الرجال وتلاشت من الخوف ومن توقع وصول الأعداء الذين اعتقدوا أنهم سيصلون مع تيار المدّ المقبل، وأرعبت كلمات بيتر الكثيرين، لكن في يوم عيد الصعود، الذي قال بأنه سيكون يوماً حاسماً بالنسبة للملك بدأ العديد يراودهم الشك.

وفيها هم هكذا معلقين بسبب التوقعات، فجأة وصل جماعة من رسل الملك كان قد أرسلهم إلى روما في سنة خلت، جاءوا إليه مسرعين كثيراً، وأعلنوا أن قاصداً رسولياً بابوياً قد بعث معهم، وكان اسمه باندولف Pandulph وقد تطوع شخصياً للقيام بتنفيذ الأشياء التي أمر بها، وعهد إليه بها.

وكان الجانب الأعظم أهمية في أوامره: ينبغي أن يقسم قبل ١-حزيران أربعة من أكثر الرجال أهمية في المملكة، لصالح الملك ونيابة عنه بحضوره وبأمره، أنه إذا مابعث البابا رسالة اتفاق موقعة إلى الملك، يعد الملك بالشيء نفسه في رسائله المعتمدة، ويختم الاتفاقية مع رئيس الأساقفة والأساقفة. وإلا فإن وقت أقصى العقوبات وأشدها لم يأت بعد.

ماالحاجة إلى كثير من الكلمات؟ لقد ألهم الملك من قبل الذي بيده قلوب الملوك، وسعى لكسب السلام والحصول عليه، وكان الذين أقسموا على الاتفاقية المشار إليها والمكتوبة من قبل البابا هم:

رينو كونت أوف بولون، ووليم إيرل وارن Warenne ووليم إيرل فيرير Ferrers ووليم إيرل سالسبري، وهو أخو الملك، وعندما كمل هذا وعد الملك الشيء نفسه في رسائله وفقاً للشكل الذي أقسم عليه هؤلاء الأربعة لصالحه.

وبمبادرة من الملك أضاف مايلي: ينبغي خضوع مملكته كلها، أي انكلترا وايرلندا للرب، وللحواريين المقدسين بطرس وبولص، وبرغبة منه وعن طواعية ومن أجل أن يتمم الاتفاقية، يجب أن يدفع هو وورثته ألف مارك سنوياً إلى البابوات كرمز على خضوعهم، أي سبعائة مارك عن انكلترا وثلاثائة عن ايرلندا، وذلك دون أن يؤخذ بالحسبان دفع بنس بطرس، وأقسم بالوقت نفسه يمين ولاء وتبعية للبابا انوسنت الثالث ولخلفائه من بعده، وتم الإعلان عن هذا كله أمام الناس على شكل رسائل معتمدة، نشرت على صورة مواثيق.

ثم أكدت الحوليات أن خضوع جون للبابا كان خطوة حكيمة، فذلك جعل من الصعب محاربته خوفاً من ردات الفعل الانتقامية للبابا.

وأخذت الأمور تتحسن الآن بالنسبة لجون، فتحالف مع كونت فلاندرز ضد فيليب الثاني ملك فرنسا، وهزمت سفنه الأسطول الفرنسي في معركة بحرية، غير أنه بقي معوقاً في بولون خشية منه أن تصبح نبوءة ووكفيلد عن موته حقيقية.

ثم جاء يوم عيد الصعود، في ٢٣-أيار، الذي علقت عليه آمال كثيرة، وبأمر من الملك نصبت خيمته في المعسكر في بولون، وتركت مفتوحة تماماً، وجرى قداس عام لإمضاء نهار العيد على شكل وقور مع الملك، وكان نهاراً جميلاً، بالنسبة لبهجة الملك وسروره نفسه، مع الأساقفة والبارونات الذين اجتمعوا هناك، ومضى النهار بصحة تامة وسعادة، واعتقد الآن الذين وضعوا ثقتهم في بيترأنه أحمق، وأنهم خدعوا بعقل ساذج، فقد توقع نهاية الملك يوم ٣٣-أيار، في حين أنه حسبها كشف له برؤياه، ينبغي أن تنتهي الأربع عشرة سنة لحكم الملك يوم ٢٧-أيار، وباتوا الآن أقل ميلاً لتصديقه.

وعندما حلّ يوم ٢٧-أيار، وهو اليوم الذي توج فيه الملك قبل أربع عشرة سنة، مرّ النهار بسلام، وبات الوقت متأخراً بالنسبة للذين صدقوا النبوءة حتى يتراجعوا عن اعتقادهم وتصديقهم الساذج، ولم يكن هؤلاء الناس من بين أوساط الناس العاديين، لكن كانوا من بين النبلاء وحكماء العالم وعقلائه.

واقترح على الملك في الوقت عينه، أن بيتر قد سبب انتشار الفوضى في البلاد، وعمم الرعب والقلق بين الناس، وأن هذا قد شجع أعداء الملك، لأن كلماته قد حملت إلى أقصى أجزاء فرنسا، وعدّت بمثابة تحريض على غزو انكلترا، وأغضب هذا كله الملك، لذلك أمر بوجوب شنق بيتر، وزاد على هذا بأن ابنه الذي كان مسجوناً معه ينبغي أيضاً أن يشنق، خشية إما انه كان شريكاً في نبوءات أبيه، أو انه هو الذي صنعها.

ثم عندما رأى الملك أن مملكته تعيش بسلام، وأن مامن شيء يخشى من جانب الفرنسين، سعى إلى نقل كلّ تجهيزاته الحربية إلى بواتو، لكن كثيراً من النبلاء أصغوا بدون رغبة لاقتراحه، وكانوا غاضبين تجاه القيام بحملة طويلة الأمد، ليس من السهل عليهم تحملها لأن خزائن أموالهم كانت منهكة.

وهكذا أعيقت نوايا الملك، وبها أنه عدّ البارونات هم المحرضين على ذلك والمسبين، كنان لابد وأن ينتقم فيها بعد، لولا أنه منع بتدخل الأساقفة ورئيس الأساقفة.

وعاد من القارة في شهر حزيران: ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، والأساقفة: وليم أوف لندن، ويوستاس أوف إيالي، وجايل أوف هيرفورد، وجون أوف باث، وكانت عودتهم من منفاهم مع جميع رجال الدين والعلمانيين الذين كانوا بالمنفى معهم، وأعيدت جميع مقتنياتهم إلى كل واحد منهم كاملة، مع صداقة الملك، وبعد وقت قصير جرى تحليل

الملك من الحرمان بشكل علني وطقوسي مهيب من قبل رئيس أساقفة كانتربري تبعاً لعادات الكنيسة، وبعدما تلقى قبلة السلام من رئيس الأساقفة نفسه ومن بقية الأساقفة، اقتيد إلى داخل الكنيسة ليشارك بالقداس، ونفذ هذا وسط بهجة عظيمة من كل الناس.

وفي هذه الآونة ألهم الرب البابا انوسنت الثالث ليوجه حملة صليبية لمساعدة بلاد القدس ولتقدم الكنيسة الرومانية، ولأن بعضاً من متقدميه قدم في وقت مضى العون إلى الأراضي المقدسة، بدا غير لائق، أنه وهو الذي لم يكن أدنى قوة ولاحماساً في عمله، أن يظهر أقل فاعلية فيها تولاه، ولاحظ على كلّ حال أن الهرطقة في تلك الأيام كانت رافعة رأسها، وأن عدداً كبيراً من الأمراء كانوا محرومين كنسيا، وكثيراً من البلدان كانت أيضاً تحت عقوبة الحرمان الكنسي أيضاً، لذلك كان من الصعب عليه حشد حملة صليبية، وبها أن كثيراً من الأشياء الغريبة قد نمت في كرم الرب، توجب ضرورة بترها، لانقاذ الانجيل، ولهذا دعا البابا إلى مجمع عام ليتولى صياغة هذه المهمة، وبعث بكثير من الرجال ذوي الفعالية من عنده، ليبشروا بالكلمة المتعلقة بتحرير الأراضي المقدسة، وجميع من عنده، ليبشروا بالكلمة المتعلقة بتحرير الأراضي المقدسة، وجميع أجزاء العالم الروماني، ولاكتشاف ماهي الأخطاء المتوجب تصحيحها.

غدت فرقة كارثر Carthar الهرطقية قوية جداً في لانغسدوك Languedoc ودعا البابا انوسنت الثالث لحملة صليبية، استهدف أن تتوجه بشكل خاص ضد ريموند كونت طولوز، الذي اعتقد أنه مؤيد للهراطقة، وكان أعظم الشخصيات مكانة في القوات الصليبية هما: كلّ من سيمون دي مونتفورت والأمير لويس، ابن فيليب الثاني ملك فسرنسا، واستمسر الصراع العنيف والهمجي بشكل متقطع حتى سنة فسرنسا، وسبب دماراً مربعاً في لانغدوك، وجعل المنطقة تحت اشراف التاج الفرنسي.

ثم حدث أن جاء إلى انكلترا المبعوث البابوي نيكولاس أسقف توسكولوم Tusculum وكانت هناك عددة أسباب لبعثته هي: على الملك أن ينفل بحضوره الوعد الذي قطعه للكنيسة الرومانية المقدسة، وتمّ تنفيذ ذلك. ثم في حوالي ٢٩-أيلول، أبرم الملك اتفاق تبعية مع نيكولاس بحكم كونه الممثل للبابا، وأعطاه أيضاً صكاً مختوماً بالذهب، وألف مارك، وهو المبلغ المقرر دفعه سنوياً، وجاء دفعه بمثابة دليل على طاعته، ثم استقبله الملك وأصغى إليه بشكل مفتوح.

وعندما صنع هذا كان جون قد بدأ بإزالة العادات الشريرة من ملكته، وذلك بناء على نصيحة من الأساقفة وتحريض، فقد منع تحصيل المال بالعنف، وألغى المكوس المؤذية التي فرضها عهاله وموظفوه، وكان هذا بسبب أن العهال والموظفين الأدنى، كانوا عندما يجمعون الضريبة السنوية، التي يحق لهم وحدهم جمعها، كانوا يستخرجون المزيد من المال من فقراء المقاطعات، وقد عزل الذين مارسوا الشره، وعين آخرين، ممن كانوا على استعداد للأخذ بنصائح الرجال العقلاء، وممن كانوا سيعملون لصالح أبناء بلدهم من الريفيين بسلام وهدوء وليس بالغش بالمال، وزاد على هذا أنه أقام مساءلة دقيقة حول هذه المسألة، حتى يعرف كم من المال المستخرج من قبل وزرائه قد تسلمه هو بالفعل، لكن هذا لم يكمل قط لأن الرعب والاضطراب تدخلاء عندما جرى استدعاء جميع يكمل قط لأن الرعب والاضطراب تدخلاء عندما جرى استدعاء جميع الرجال إلى حمل السلاح بسبب التعرض للغزو الفرنسي.

وخلع النائب البابوي راعي دير وستمنستر، وراعي دير ايفشام.

وكانت هناك اجتهاعات متعددة بين الملك والأساقفة بشأن عقد عجمع للكنيسة، لكن عندما لم يكن هذا من الممكن عقده، استمر الحرمان إلى السنة التالية. وجرى استدعاء ملك أراغون من قبل بعض رجاله لتقديم العون لهم ضد سيمون دي مونتفورت، قاهر الهراطقة، فقد قتل بالمعركة من قبل الصليبين مع كثير من رجاله، وعدد كبير من

الهراطقة غير المشهورين. ومات غيوفري فتزبيت، رئيس هيئة العدالة في انكلترا.

# سنة أربع عشرة ومائتين وألف

عبر ملك الانكليز إلى بواتو مع جيشه في بداية شباط، ومكث هناك حتى أيلول، واسترد جزءاً واسعاً من الأراضي التي اغتصبها فيليب، ملك فرنسا، في وقت مبكر، وتصالح مع عدد كبير من أعيان الرجال، وقاد هؤلاء معه في الجيش.

وطلب فيراند، كونت فلاندرز، بعدما طُرد من مقاطعته بوساطة الملك فيليب، ملك فرنسا، العون من أوتو الرابع، امبراطور الألمان، ومن الملك جون، وأبرم معاهدة معها، ونظراً لوثوقه بعونها عاد إلى فلاندرز، وهو ينوي استرداد كلّ شيء من أيدي الملك الفرنسي، بوساطة قوات هذين الرجلين الملامعين، وكذلك خاصة مساعدة وليم، ايرل أوف سالسبري، الذي هو أخو الملك، ورينو كونت بولون، فقد جاء هذان الرجلان معاً لمساعدة فيراند مع جيش كبير.

وعندما بعث الملك الفرنسي ابنه لويس ضد فلاندرز، التي احتشدت فيها أعداد كبيرة من البشر مع بعضها، ثم إنه بعدما طوقت حدود فلاندرز، ونظمت العساكر وعبئت، وقعت المعركة عند جسر بوفين Bouvines بين مورتين وتورناي، يوم الأحد في ٢٧-حزيران، وبعد مقتل أعداد كبيرة في الصراع، أمسك الملك الفرنسي براية النصر، ووقع بالأسر المحاربين المتميزين التالين: بلوتو Pluto وفيراند كروت فلاندرز، ووليم أوف سالسبري، ورينو أوف بولون، وكيل أوتو، ومائة وخمسين من الفرسان الآخرين ذوي المكانة الرفيعة.

وبعد هذا حشد الملك فيليب جيشاً ضد ملك انكلترا، لكن بعدما تدخل القاصد الرسولي، عقدت هدنة بينها لمدة خمس سنوات، وذلك لصالح الذين اقترحوا القيام بالرحلة إلى القدس، وعندها عاد الملك فيليب إلى فرنسا، ورجع الملك جون إلى انكلترا.

وعامل في الوقت نفسه أسقف توسكولوم Tusculum الذي عمل كقاصد رسولي بين الشعب الانكليزي، الملك بمنتهى اللطف، وعالج شؤون الكنيسة بأخلاق رضية، ومن أجل تأخير إقامة سلام بين الملك والأساقفة، توصل إلى اتفاقية مع وزراء الملك فيها يتعلق بالكراسي الكنسية الشاغرة والديرة، وتلقى سفراء البابوية اللين انتخبوا لهذه الكراسي رسائل تتعلق بالدين المدان به الملك للكنائس كتعويض على نفيهم، أي أن عليه أن يدفع تعويضات قليلة كل وقت في أثناء السنة المقبلة، وإذا ماتعهد الملك القيام بهذا العمل، عندها ينبغي رفع الحرمان عن انكلترا، وكان هذا ماجرى تنفيذه، ورفع الحرمان بوساطة مجمع عقد في لندن، وذلك بعدما قدم الملك ترضيات حول هذه المسألة في ٢-تموز، وكان ذلك بعد ست سنوات، وثلاثة أشهر، وستة عشريوماً من تاريخ فرض الحرمان.

وإثر عودة الملك من بواتو مباشرة، جرى استدعاء نيكولاس أسقف توسكولوم من مهمته كقاصد رسولي، من قبل البابا، حيث قبل بأن المهمة ينبغي أن تطبق في انكلترا بنشاط أقل، ثم عندما لاحظ الملك أن الذي اعتمد عليه قد سحب، لذلك كان أكثر سلمية وتصالحاً في تعامله مع الأساقفة، وبعدما أرضاهم مباشرة فيها يتعلق بجميع الأذى والأضرار، أعطاهم بمثابة تعويضات كثيراً من التكريهات والتشريفات والمزارع، وأزعن في هذه الآونة لتسليم أسقفية روكستر إلى رئيس أساقفة كانتربري، ورعوية دير ثورني إلى أسقف إيلاي، أي أن تقول أرضهم، مادام الملك يملك الحق في فعل ذلك.

وأمسكت أسماك ذات مظهر غير طبيعي في انكلترا، وبدت وكأن على رؤوسها خوذ وتحمل ترسة، وبدت إلى حد بعيد وكأنها جيش من الفرسان، مع أنهم كانوا أكثر عدداً بكثير.

ومات غلبرت أسقف روكستر، وكذلك جون أسقف نوروك، وهو عائد من روما حيث كان يتباحث من أجل الملك، ومات أيضاً وليم ملك السكوتلنديين.

وفي حوالي ٨-أيلول، يـوم عيد ميلاد العذراء مريم المباركة، ثار البحر وتدفقت مياهه بفيضان غزا الشاطىء وسبب كثيراً من الأضرار في انكلترا.

وقام نزاع بين الملك جون وبين بعض نبلائه فيا يتعلق بتعويض البدلية العسكرية التي طلبها منهم، والتي رفضوا دفعها، كما ورفضوا اتباعه إلى بواتو، ورفض بعض البارونات الشهاليين —وهم النبلاء الذين أعاقوا في سنة منصرمة عبور الملك إلى بواتو— قائلين إنه لايتوجب عليهم اتباع الملك إلى خارج البلاد في مقابل الأراضي التي في حوزتهم منه في داخل انكلترا، كما لاينبغي عليهم مساعدته في البدلية العسكرية، ومن جانب آخر طلب الملك المساعدة التي أعطيت إلى التاج في أيام أبيه وأخيه، والتي كان من المكن استمرار دفعها لولا تدخل القاصد الرسولي، وأحضر البارونات ميثاقاً بمنحهم بعض الحريات من قبل هنري الأول، وطالبوا بتأكيدها لهم من قبل الملك.

# سنة خس عشرة ومائتين وألف

اجتمع في لندن البارونات الذين طالبوا بميثاق الحريات مع شركائهم، وقيل كان من ضمنهم بعض الأساقفة، وقابلوا الملك.

وعندما طلب الملك إزالة العدوانية في النزاع الجديد لم يصغ إليه بأدب ولطف، لسبب بين أسباب أخرى: مرّ زمن طويل حيث امتلك نوايا مختلفة في قلبه، وبعدما تدخل بعض الأفراد، حدد موعد للملك ليعطي جواباً نهائياً، وكان ذلك ٢٦نيسان، وأكد الملك للنبلاء كتابة انه إذا لم يعط جوابه في ذلك اليوم، عندها يمكنهم مغادرته واحداً واحداً والعودة إلى أراضيهم، وعندما نشر هذا الميثاق، وافق كل انسان على مااقترح فيه، وكان الجميع على قلب واحد وإرادة واحدة: أي أنهم مكرسون للدفاع عن بيت السيد، ويقفون مع حرية الكنيسة والمملكة.

وقرر الملك من جانبه، انه طالما هذا قد صنع، على كلّ الناس في انكلترا كلها أن يقسموا له انهم سيقفون معه ضد جميع الناس وضد هذا الميثاق، وذلك بالاضافة لليمين المعتاد، وعندما لم يصغ إليه عن طواعية، وبدأت التعليلات والاعتذارات تعمل، وتوقف عها بدأ به، ولكي لايدع وقتاً لتحريك ثورة بين الشعب، أرسل حينها رسلاً إلى البابا يشكون إليه أن الشعب استعد للقيام ضده، وذلك على الرغم من أيها نهم بالتبعية له، وعرف من خلال بعض رفاق الرسل أن هذا كان قد تقرر قبل أيام كثيرة، ومن جانبهم تشكى البارونات ضد مكوسه غير العادلة، وضد طغيانه.

ومات في تلك الآونة يوستاس أسقف إيلاي، وكان رجلاً صاحب سلطان عظيم، وعلى نصيحته اعتمد - كما قيل - شطر أساسي من هذه الماحثات.

وحمل الملك الصليب في لندن من وليم أسقف لندن، ومع الملك وبعده فعل الشيء نفسه العديد من أتباعه، وبعضهم فعل ذلك بناء على تحريضه، ولقد أعطاهم صليباً أبيض، حسبها جرت العادة في أيام أبيه وأخيه، لأن هناك عادة قديمة بأن الانكليز كانوا يتميزون بالصلبان البيضاء، وتميز الفرنسيون بالحمراء، وفسر بعض البارونات عمله بشكل مفاجىء، وقالوا إنه لم يفعل هذا بدافع التقوى ولالحبه للمسيح، ولكن

من أجل أن يحرمهم من اتخاذ قرار، وسمعوا بأنه استدعى أجانب لساعدته، فاجتمعوا مع بعضهم ولم ينتظروا حتى يوم ٢٦نيسان، الذي جرى تحديده.

وعندما ردّ الملك بقسوة على البارونات، بوساطة رسله، عزموا على عدم التعامل معه بالسبل السلمية مرة ثانية، وعاد كلّ منهم مسرعاً إلى أراضيه من أجل تحصين قلاعه ولطلب العون، وبدأوا يعدون الخيول والسلاح.

وبناء عليه اجتمعوا مع قوة عظيمة في أسبوع الفصح، وذلك توافقاً مع الاتفاقية التي عقدوها، وجاء معظمهم من المناطق الشهالية، ولهذا عرفوا باسم الشهاليين، ثم زحفوا إلى نورثأمبتون، دون القيام بأي عمل عدواني، وذلك باستثناء الظهور بالاستعداد للحرب، وانضم إليهم هناك غايل Giles أسقف هيرفورد، وغيوفري دي ماندفيل، وروبرت فتر وولتر، مع آخرين كثر من الذين كان لديهم بشكل رئيسي شيء ماضد الملك.

وحاول بالوقت نفسه الملك أن يستردهم إلى صفه من خلال كثير من الساقفة السرسل، وكان هناك نقاش كثير فيها بينهم، وشغل رئيس الأساقفة والأساقفة وبارونات آخرين دور الوساطة، وكان الملك نفسه مقيهاً قرب اكسفورد.

وفي نهاية هذا المؤتمر، الذي انعقد ليس بعيداً عن بريكلي -Brack أرسل البارونات رسائل تحدي للملك، ثم غادروا ومعهم رجالهم عائدين إلى نورثأمبتون، وفيها أعلامهم ماضية أمامهم أعدوا أنفسهم للقتال، وبعدما أغلقوا الأبواب ومركزوا الحراس عند الأسوار بدأوا بالهجوم على الحصن الذي كان في المدينة، لكنهم أعيقوا لأنه لم يكن للديهم آلات ومعدات حصار، ولهذا أرسلوا إلى مؤيديهم في كل من

القرب والبعد بوجوب حضورهم وجلب قواتهم معهم.

وجلبوا إلى صفوفهم عدداً كبيراً، خاصة من الشباب، أي من أبناء وأحفاد البارونات الذين رغبوا في صنع اسم لهم في الحرب، وانقسمت البيوتات على بعضها عدوانياً، فقد وقف الآباء والشيوخ إلى جانب الملك، في حين وقف الأبناء والشبان مع خصومه، ونعرف حتى بعضهم ممن عبر إلى الجانب الآخر حباً لأبنائهم، وكانت هناك الجاعة التي لم تنضم إلى الثوار في البداية، لكنها فعلت ذلك فيا بعد، إما لأنها كانت صديقة للسعد، أو لأنها كانت ممن يجب الأشياء الجديدة، ولقد قيل بأن كل من الاسكندر ملك الاسكوتلنديين وللويلن Llewellyn أمير شمالي ويلز، كانا على عهد معهم.

ودعا في هذه الأيام رئيس أساقفة كانتربري إلى مجمع ديني اقليمي يعقد في اكسفورد، وبعدما وصل بعض الأساقفة تأثرت المداولات الجادة باضطرابات المملكة، لذلك غادروا.

وعندما اجتمع الذين تقاطروا في قوة شديدة، اتهموا الملك بأشياء كثيرة، وبعدما اتهموه أدانوه، وقالوا بأنهم لايجوز أن يبقوه ملكاً، وجمعت أصواتهم قوة، وقامت مؤامرة قوية ضده، وجرى تعيين قادة للجيش، أطلق عليهم اسم قادة (مارشالات) جيش الرب، وبعد مضي وقت قصير زحف حوالي الخمسائة فارس نحو لندن، وكان النهار الأحد، والناس في الكنائس، وفي تلك الأثناء، تقدم بعضهم أمام البقية مع بعض الشركاء من المدينة، وزحفوا خلسة نحو الأسوار، وتسلقوها، ثم فتحوا الباب الأول فالباب الثاني، وسمحوا لرجالهم بالدخول، وقد قيل بأن رجال الملك كانوا وقتذاك مع الجزء الأكبر من سكان المدينة جاهلين بها كان يجدث.

وهل هناك المزيد لقوله؟

وأسروا الذين قاوموهم، وانضم إليهم البقية، فغدت المدينة في أيديهم، وأقاموا دوريات الحراسة فوق الأسوار.

واحتشد في هذا الوقت عدد من الناس، تقودهم الروح نفسها، واجتمعوا مع بعضهم في دوفن، وقاموا أولاً باحتلال المنطقة الخارجية للمدينة ثم اختبأوا إثر هذا في الغابة، لكن عندما علموا أن بعض الناس قد استولوا على عاصمة المملكة، خرجوا من الغابة واندفعوا بقوة لاتقاوم، فاستولوا على بيوت الملك، وبعدما نهبوها وأفسدوها مع حدائقه، انفرجت أسارير الكثير من القلوب، فقتلوا في كلّ مكان واقترفوا أعال نهب وسلب، وانفجر الاضطراب في نورثأمبتون، وتم قتل عدد كبير من رجال الملك الذين كانوا متمركزين هناك على أيدي سكان البلدة، وبعد عدة أيام أكلت النيران الشطر الأكبر من البلدة.

ثم جمع الملك المساعدات حتى يكون قادراً على الحفاظ على ذاته بسلام، وحصن حصونه وقلاعه، وشحنها بالرجال والمؤن، ثم أرسل بعض الرسل سراً إلى الأجزاء الأجنبية لطلب العون من الأمم الأحرى، وأرسل رسلاً آخرين إلى البابا، يشكو بحرقة هؤلاء الذين قاتلوا ضده، ولم يثق البارونات برجال الملك الذين كانوا في لندن، والذين كانوا مايزالون يفكرون بالأمر، ولم يتخذوا قرارهم، لهذا بدأ البارونات بإنشاء آلات الحصار والشروع بحصار الحصن الذي يعرف بقلعة (برج) لندن، وسمع بهذا الذين كانوا مايزالون في الأجزاء الشمالية من البلاد، فشرعوا بالقوة والإطراء يعملون في سبيل الاستيلاء على المواقع هناك، وبعدما حشدوا جيشاً قوياً، احتلوا لنكولن في أسبوع أحد الشعانين، واستعدوا حتى لحصار القلعة، التي ظلت صامدة.

وبعدما رأى الملك أنهم قد حشدوا قواهم، بدأ من خلال بعض الناس، وخاصة من خلال رئيس الأساقفة، الذي احترمه كثيراً، يسألهم إقامة سلام، ووعدهم بصدق، أنه ليس هناك من شيء سوف لن يفعله

لصالحهم، مقابل الحصول على السلام، واتفقوا على مكان يمكن للفرقاء الاجتماع به بشكل موائم، وبعد كثير من المداولات اتفقوا على عقد سلام مع الملك، وقد أعطاهم كل ماأرادوه وأكد هذا في ميثاقه.

كان هذا ميثاق مرسوم اصلاحات، وقد قصد منه، على الرغم من الايهاءات العابرة إلى الطبقات الدنيا، حماية البارونات ضد الطغيان الجشع للملك جون.

واستقبل الذين جاءوا هناك بقبلة سلام، وجددوا يمين التبعية، وأكلوا وشربوا معاً، وحُدد يوم لأتمام السلام، عندما يتوصلون نهائياً ويحققون ماعقدوا عزمهم عليه، وأعاد الملك بشكل مرض العدل إلى كلّ مكان، ورفع الحصارات التي كان قد بدأها، وسلم وتخلى عن البيوت والقلاع التي استحوذ عليها بيديه، أو التي كان أخوه رتشارد قد أخذها وهي قلاع:

ماونتسورل Mountsorrel وروكنغها ماونتسورل Colchester وكولشستر كالفور الإعلان عدد كبير آخر، وجرى على الفور الإعلان عن سلام عام، وتوقف الذين كانوا في لندن، والذين كانوا في لنكولن عن الأعمال العدوانية.

وسويت المسائل واستقرت الأمور، لكن ياللأسف انبعثت مشكلة جديدة أسوأ من الأولى، وسببها العدو الذي يكره السلام ويصنع الاضطرابات، ففي أثناء المحادثات ذهب بعض البارونات من وراء الهمبر Humber وتخلوا عن التسوية، وجددوا الأعمال العدوانية، بحجة أنهم لم يكونوا حضوراً، وخلقوا فوضى، وبدا أنهم يستهدفون الآن المجاد الفرصة لإزالة الصداقة التي دشنت، لأن الملك نفسه لم يثق بهم وهم رفضوا الاقتراب منه.

وجرى استقبال بعض الثوار الآخرين من قبل اللندنيين، وبدأوا بترميم

الدفاعات الفئوية، وحصن آخرون القلاع التي كان الملك للتوقد تخلى عنها، أو التي كانت بحوزتهم وكأنها ملك وراثي لهم منذ زمن طويل، وكان هناك آخرون قاموا حتى ببناء حصون جديدة.

وجرى بالوقت نفسه تداول نسخ من الميثاق في البلدات والقرى، وكلّ من رآه وافق عليه، وكان الملك هو الذي أمر بذلك.

ثم أرسل الملك رسله إلى المقاطعات لينبه العمال بالعمل على حفظ السلام، لأن عملهم هو حفظ السلام في المقاطعات، ومراعاة الشؤون الملكية، لكن عندما وصل الرسل إلى الأجزاء التي كان فيها النبلاء المذكورين أقوياء، بعضهم ألقي القبض عليه، وطرد بعضهم الآخر من دون أذى.

وعندما سمع الملك بهذا توجس أن اليمين الذي توجبت مراعاته لها قصد به جانبه، لأن الميثاق قال ينبغي ارغام الملك على مراعاة شروطه، وبسرعة بعث برسل آخرين إلى البلدان الأجنبية، وأرسل مستشاره رتشارد مارش إلى البابا، الذي عقد اجتهاعاً دائهاً للكرادلة للعناية بمصالحه.

وعرض جون قضيته لأن مجمع اللاتيران كان وشيك الانعقاد، ولأنه عرف أن بعض النبلاء كانوا يتآمرون من أجل خلعه، وحاول بوعود كبيرة أن يربح إلى جانبه الملك الفرنسي، لكنه أحبط، لأن الآخرين الذين أعطاهم الملك الفرنسي وعوداً سرية ومساعدات كانوا قد سبقوه، ولأنه كانت هناك عداوة بينه وبين الملك الانكليزي منذ وقت طويل مضى، باستثناء الأوقات التي كانت تتمتع بالهدوء بسبب الهدن.

ومن جديد كان هناك الكثير من النهب وأعمال السلب، ومكث الملك في أماكن حصينة، بينها تجول البارونات بكل حرية ذهاباً وإياباً عبر المنطقة، لكن حتى الآن لم يقتربوا من الشعب، ولم يتعرضوا له لأنهم رأوا أن وقت الحصاد قد اقترب، وركزوا على نهب جميع المزارع الملكية

بقدر الإمكان، وكذلك البيوت التي كانت بالشال، وأفرغوا الغابات ببيع الأحراش وقتل أعداد هائلة من الحيوانات البرية.

وعندما رأى رئيس الأساقفة وجميع الأساقفة أن البلاد آيلة للدمار، ذكروا الآن الملك، وفي آن آخر البارونات ، لإقامة السلام، ولدى رؤيتهم أن كلّ من الثوار والملك قد أعدوا أنفسهم للسلام، وباتوا جاهزين لذلك، تقرر أن يجتمع الملك ومعه رجاله في اكسفورد، والبارونات ورجالهم في بريكلي، وتحدد موعد ذلك يوم ١٥-آب، وهو عيد رفع مريم العذراء المباركة إلى الساء، وهناك يسير الوسطاء فيا بينهم، وعندما يكملون عملهم سيكون بإمكانهم إماتة خلافاتهم، ودفن عداواتهم.

واجتمع في اليوم المحدد جميع الأساقفة والبارونات قرب اكسفورد، واصطفوا على شكل صفوف معركة، وأرسل الملك معاذير بوساطة رجاله قال فيها إنه عندما جاء إليهم، جاء لالرفض أي شيء، لكن بعد السلام الأول لحق به إيذاء عظيم، وأضرار بالغة، ينبغي تصحيحها، وهاهم جاءوا في هذا اليوم، عندما كان من المؤمل القدرة على بناء سلام، مسلحين، ومعهم حشد هائل، لذلك بات غير أمين أو ينصح بالساح بالوصول إلى الملك.

ثم جرى إعلان قرار الوصاية البابوية، وقد أمرت رئيس الأساقفة وأساقفته أنه يتوجب عليهم حرمان المتمردين على ملك انكلترا وعلى أعدائه، وكذلك عليهم القدوم لحضور مجمع اللاتيران، تحت طائلة الحرمان المؤقت، وجرى تفويض أسقف ونشستر، وراعي دير ردنغ، وباندولف نائب رئيس الشهامسة في الكنيسة الرومانية، الذي كان صديق البابا، بتولي أمر تنفيذ قرار الوصاية هذا، وكان هذا هو راندولف نفسه، الذي تولى قبل عامين مصالحة الملك مع الكنيسة الرومانية، وكان أيضاً قد بذل جهوداً عظيمة على صعيد الجانبين حتى يجدد دفع بنس بطرس، ولكي يعيد الملك إلى الكنيسة الرومانية، وجذا وجد مكاناً بين

الانكليز وجرى انتخابه أسقفاً لنوروك.

ونظراً لانتشار أقاويل بوجوب تخلي الملك عن المملكة، لأنه بدا أنه لاتتوفر ثقة بحكمه، فإن المناقشات بين الأساقفة والبارونات استمرت لمدة ثلاثة أيام، وذلك بهدف تعليق قرار الخلع على الأقل، وجاء الأساقفة بالوقت نفسه إلى الملك وطلبوا منه حضور مفاوضات استسلام في لندن أو في بلدة تدعى ستين Staines واتفقوا أنهم سوف يجتمعون هناك.

وعندها عاد البارونات إلى لندن حيث عاش بعض شركائهم، وعلى كلّ حال لحق الأساقفة بالملك بالسرعة القصوى إلى بورتماوث، وبصعوبة بالغة كانوا قادرين على ارجاعه من السفينة التي ركبها، ولم يتمكنوا من تحقيق أي شيء تجاوز أن عليه ارسال بعض رجاله لمرافقة الأساقفة، لأن الرجال احتجوا أثناء الاستماع لشهادات الأساقفة وأتباعهم، وقالوا إنهم لن يبقوا مع الملك حتى يجري إبرام اتفاق للسلام.

ولهذا اجتمع الأساقفة والبارونات معاً كأنهم رجل واحد في ستين، يوم ٢٨-آب، وبعد كثير من المداولات، وبها أن الخطر هدد الأساقفة صدر قرار الحكم ضد مثيري القلاقل للملك وللمملكة، وذلك تماشياً مع قرار الوصاية البابوية، ومع ذلك قال كثيرون: كان من المتوجب اصدار قرار الحكم ضد الملك نفسه، لأنه هو الذي سبب القلاقل للمملكة، ولذلك ينبغي طرده.

ثم عاد البارونات إلى لندن، ليس بلا فخار، واقتسموا فيها بينهم أنفسهم ذلك الجزء من المملكة الذي بدا الآن أنه تحت سلطانهم، فقد أعطيت اسكس إلى غيوفري دي ماندفيل، ونورثأمبتون إلى روبرت فتز وولتر، ونورفولك وسفولك إلى روجر دي كريسي Crescy وكونتيتي: كمبردج وهنتنغدون إلى ساهر Saher إيرل أوف وينشستر، وكونتيك لنكولن إلى وليم دي ألبيني، وكونتيتي: يورك ونوتنغهام إلى جون مفوض

الجيش في تشستر، ونورثأمبرلاند Northumberland إلى روبرت دي روس Ros وتوجب أن يظهر كلّ واحد منهم نفسه قادراً على توفير العدل والسلام للمنطقة التي عهد بأمر العناية بها إليه.

وأعلن بعد عدة أيام بأن الملك مع الأجانب الكثيرين الذين قدموا لمساعدته، قد جمعوا جيشاً قرب دوفر، حيث بدا له من الموائم أن ينتظر هناك الآخرين الذين أمل بقدومهم.

وبيا أن البارونات خلعوه ورفضوه، بدأوا الآن يبحثون مسألة انتخاب ملك جديد، ولما كان الصحيح المتوجب إتمام هذا بموافقة المملكة كلها، دعوا إلى اجتماع حاسم، وادعوا وجود خطر حقيقي، ورددوا تلاوة الأيمان التي أقسمت، ورسمسوا بوجوب اجتماع جميع النبلاء في مسوعد محدد ومكان عين من قبل، وحدث إثر هذا، أن البارونات الذين لم يعطوا موافقتهم عند البداية، قاموا الآن بعد كثير من التأخير والمباحثات، بالرد بأنهم لم يوافقوا على خلع الملك وطرده، بل تعهدوا أنفسهم أنهم سوف يكونوا جاهزين لخدمته في السلم، ثم انقسم البارونات إلى معسكرين، وتضاعفت الشرور في البلاد.

ومع أن الشوار كانوا كثرة كثيرة، غير أنهم افتقروا إلى الثقة، ولذلك التفتوا نحو الملك فيليب ملك فرنسا، وانتخبوا أكبر أولاده لويس ملكاً عليهم، ورجوه القدوم إلى انكلترا مع قوة كبيرة، بغية تحريرهم من يد الطاغية الذي يتولى حكمهم الآن، وبعدما أكملوا هذه الاتفاقية من خلال وسطاء، ترددوا فيها بينهم، قاموا بحصار قلعة نورثأمبتون بمساعدة ضباط فرنسيين بارعين في انشاء آلات الحصار، وعندما اكتمل هذا العمل، حاصروا الحصن في اكسفورد.

وبدأ الملك جون، الـذي أقام قرب دوفر لبضعة أيـام، الآن برفع رأسه، وإلى هناك وصلت إليه جميع القوات القادرة التي كـان قد وعد بها عندما

طلب العون، فقد جاء إليه الناس بأعداد كبيرة من بواتو، وغسكوني، وبرابانكون وفلاندرز، مع أن عدداً كبيراً منهم عانى من ريح عاصفة أثناء العبور، وغرقت إحدى السفن التي كانت تحمل رسل الملك.

وعندما تضاعف تعداد قواته، بعث الملك ببعضها لتتولى رفع الحصار عن كلّ من اكسفورد ونورشأمبتون، بينها هو نفسه تولى احتلال مدينة روكستر، التي أثارها البارونات ضده، وشرع بحصار قلعتها، وكانت هذه قلعة رئيس الأساقفة وكان فيها عدد كبير من الرجال: أي خمسة وتسعين من خيرة الفرسان وأشدهم، ووعد آخرون الملك بتقديم عون سريع له إذا ماتولى حصارهم، ولم يتراجع الملك أو يتقاعس، بل قام بتدمير الجسور التي أمل الفرسان بالحصول على العون عبرها، وأنشأ آلات للحصار، ومن ثم بدأ يقاتل القلعة من جميع الجوانب، وسبب الرجال الشجعان والأشداء النين كانوا يتولون المقاومة وقوع كثير من القتلى بين صفوف أعدائهم.

وبعدما استدعى البارونات جميع حلفائهم للاجتهاع بهم، غادروا لندن يسوم الاثنين ٢٦-تشرين الأول، مع سبعهائة فرارس، ولكي يمدوا المحاصرين بالعون جاءوا إلى بلدة دارتفورد Dartford ومع ذلك عندما سمعوا بأن الملك عازم على مهاجمتهم، تراجعوا مسرعين إلى لندن، واتفقوا أنهم سيجتمعون في ٣٠-تشرين ثاني مع قوة أشد وأفضل، وكانوا يعتقدون أن المحاصرين سيكونون قادرين على المقاومة حتى ذلك الموقت.

ثم بعثوا ساهر، إيرل ونشستر مع عدد كبير آخر، بغية تعجيل وصول لويس، ولكي لايكون في نفسه أية شكوك أقسموا بشكل سري أيهاناً أنهم لم يتملكوا أراضيهم من الملك جون بشكل سرمدي. وعاد عدد كبير منهم إلى أراضيهم، بينها مكث آخرون في لندن.

وعندما اشتد الضغط كثيراً على المحاصرين داخل روكستر، حشوا الملك على التفاوض معهم، لكنه رفض الاستجابة لهذا المطلب، وقذف بالحجارة ضدهم بدون توقف، في كلّ من الليل والنهار، وكانت الآلات التي تتولى القذف خمس آلات، وكان الآن قد جسرى تدمير جميع الدفاعات، والذي بقي فقط هو القلة، لأنها كانت مبنية منذ زمن قديم، وبشكل متين محكم، ولهذا قاومت الهجات، ثم جرى ارسال اللغامين، لكن عندما تهاوى نصف القلة، تابع المحاصرون الدفاع في النصف الآخر، وكانت عارة قائمة على تقسيمها إلى شطرين يفصل بينها سور حجري قوي، ولم يوجد في أيامنا حصار آخر استمر بالعزم نفسه، أو لاقى مقاومة فعالة مثيلة، ثم إنه بعد مضي أيام عديدة، لم يبق لهم سوى بعض الحجر الضيقة في القلة، بدأوا يعانون من المجاعة، ومن الافتقار لبقية الأشياء، فأكلوا لحوم الخيول وشربوا الماء، وكان هذا قاسياً جداً على الذين نشأوا نشأة ناعمة.

ثم كان أن حلّت النهاية، ففي البداية جرى اخراج الذين بدوا أقل قدرة على القتال من القلعة، فأمر الملك بقطع أيديهم وأرجلهم، ولم يمض وقت طويل حتى وقعوا جميعاً بالأسر، فألقوا في الأغلال، باستثناء الذين برهنوا على أنهم كانوا من رجال الدين، واحتفظ الملك بالفرسان والنبلاء لنفسه، وسلم الأسرى الأدنى مكانة ليحفظوا في أيدي الآخرين، وأمر بشنق واحد فقط، وكان رامياً قد تولى تربيته منذ الطفولة، مع أن الاعتقاد قد راج بأنهم جميعاً سوف يقتلون بسبب الغضب العظيم للملك وحنقه، ولدى سماع بقية البارونات بنتائج الحصار، أصابهم الرعب، ومع تصاعد خوفهم اجتمعوا في لندن أو مكثوا في البيوتات الدينية، وكان بينهم قلة فقط الذين شعروا فعلاً بالأمان خلف التحصينات.

وطلب بارونات انكلترا مشاركتهم في المجمع، وبعثوا ببعض من يتولى

عرض وجهات نظرهم، لكن بحكم أن هؤلاء كانوا موسومين بحكم الحرمان الكنبي، لم يسمح لهم بالحديث، ولم يكونوا وحدهم المحرومين بل أيضاً كلّ المعادين للملك مع مساعديهم ومؤيديهم، ولأن البابا كشف له بأن الملك الفرنسي وابنه قد أبرما معاهدة مع البارونات المتقدمي الذكر، بعث إليها برسائل متوالية، يحذرهما فيها من الإقدام على أي عمل ضد قراره بالحرمان، لكن آماله خابت، إما بسبب بغضها الشديد لجون، أو لأنها كانا متعجرفين فلم يرضيا بالانسحاب، أو لأنها تسلما رهائن من البارونات الانكليز، وهكذا بعث فيليب الثاني بهارشال فرنسا إلى لندن مع قوة قوية من الرجال المسلحين، الذين توجب عليهم الإعداد مع اللندنيين من أجل قدوم ابنه لويس، الذي ساد اعتقاد أنه سيصل في وقت قريب جداً.

واستولى الملك --كما قيل -- على روكستر في بداية كانون الأول، ثم انصرف بوجهه نحو ونكستر، ثم ذهب من خلال وسط انكلترا إلى الشهال، ومتن وجوده قلوب الناس اللين كانوا مترددين، وأكد موقف مؤيديه اللذين مركزهم في القلاع وفي أماكن حصينة أخرى، ثم قصد نوتنغهام، وهناك احتفل بعيد الميلاد، وجميع القلاع التي كانت هناك إما لحقها الدمار أو سلمت إليه.

## سنة ست عشرة ومائتين وألف

ثم تابع الملك جون ترحاله نحو أماكن أبعد، فوصل حتى قلعة بيروك Berwick وبعدما استولى على البلدة وأفرغ المنطقة المحيطة بها من السكان عاد إلى أراضيه، وقام في أثناء ذهابه ثم أثناء إيابه بالعيث فساداً في البلاد، واستولى على الأماكن الحصينة، ولم يوجد أحد تولى مقاومته،

لأن ملك اسكوتلندا الذي كان مايزال صغيراً، هرب إلى أقصى المناطق مع جميع أتباعه.

وغزيت في تلك الآونة جزيرة إيلاي من قبل بعض حلفاء الملك تحت قيادة إيرل سالسبري، وتجمع هناك إما بسبب كون الموقع مكاناً دينياً، أو لأنه كان جيد التحصين، عدد كبير من النساء والأطفال وبعض النبلاء، وقد أغلقوا المداخل، واستعدوا للمقاومة بوضع حرس في أماكن مناسبة، غير أن الإيرل انتهز الفرصة بحدوث صقيع شديد، فعبر المستنقع، وبذلك أسروا بوساطة حشد من القوات، ونجا بعض الفرسان عن طريق الفرار فوق الجليد، وعدد كبير من النساء لنيلهن حماية الإيرل، وعندما سمع بهذا الكثير عمن اتخذ ملاذاً في الأماكن المقدسة، ارتعبوا، وهرب كلّ الذين استطاعوا إلى لندن.

ثم انطلق الملك نحو أسكس، لأنه قيل بأن كثيراً من الأماكن الحصينة كانت تستعد للهفاع، ومع ذلك عندما وصل إلى هناك مامن أحد قاومه فيها عدا قلعة كولشستر Colchester وهذه حاصرها بقوة كبيرة، واستولى عليها في الأسبوع الأول من آذار، ولم يبق هناك سوى لندن، حيث كان الفرنسيون يحتشدون مع أعداء الملك، ومع أنه قيل بأن الملك وجه جيشه إلى هناك، ذهب عوضاً عن ذلك إلى دوفر، شاعراً أنه بهذه الطريقة سيكون قادراً على اعتراض سبيل حملة لويس، أما بالنسبة للبابا، فلم يكتف بارسال رسائل متوالية، لكنه بعث أيضاً كاردينالاً يدعى غوالو Gualo الذي كان سيتولى شخصياً ادارة الأعمال، يدعى غوالو القاصد الرسولي في انكلترا، لكن لا استعدادات الملك، ولارسائل البابا، ولامحاولات الاقناع التي تولاها القاصد الرسولي، نجحت في ثني عزم لويس، لابل حتى الربح التي كانت تهب منذ وقت طويل في ثني عزم لويس، لابل حتى الربح التي كانت تهب منذ وقت طويل في ثني عزم لويس، لابل حتى الربح التي كانت تهب منذ وقت طويل

وفي ١٤ –أيار نزل لـويس ورجاله على جزيـرة ثانت Thanet وقد

رآهم الملك عندما وصلوا، وكان معه كثير من الأجانب والمرتزقة، الذين انضموا إلى جانب القائد الفرنسي، ولم يحاول هو حتى منع نزولهم، كما أنه لم يهاجمهم عندما استولوا على الشاطىء، وكان الآن مضطرباً في عقله باديه على وجهه آشار الحزن، لذلك تراجع إلى ونشستر برفقة القاصد الرسولي غوالو، الذي كان قد نزل في انكلترا.

وبعدما استولى لويس على الشاطىء، ذهب إلى كانتربري، وهناك انتظر رجاله الذين استدعاهم من لندن، حتى إذا جمع قواته هناك، يمكنه أن يتابع زحفه بضهان أكبر، واحتشد فرنسيون وانكليز لتأييده، وبعدما ذاع خبر وصوله، بدأوا في اثارة العاصمة، وخرج الذين انتظروا قدومه منذ وقت طويل من مخابئهم.

ثم بدأ يتخلى عن الملك ويهجره كثير من بين الانكليز الذين وقفوا إلى جانبه، وفي أثناء الزحف جرى الاستيلاء على عدد من القلاع، وقدم لويس إلى لندن يوم الخميس قبل عيد الشعانين، وقد استقبل بكل ابتهاج وسعادة، وقدموا له الولاء، وأقسموا يمين التبعية له هناك، وهكذا خيل إليهم أن جميع الجزيرة سيتم الاستيلاء عليها فوراً، وجرى الإعلان عن هذا في كلّ مكان، وبات من المعتقد أن الملك كان يائساً، لأنه أمر قبل وقت قصير بهدم عدد من القلاع في أرجاء انكلترا.

وجمع القاصد الرسولي إليه شخصياً الأساقفة وزعاء الكنيسة، ودعاهم إلى تقديم العون للملك وللمملكة، وبحضور من الملك أنزل القاصد الرسولي عقوبة الحرمان الكنسي بالأمير لويس الفرنسي اسميا، وبضباطه ومؤيديه، وبناء عليه، وضعت أراضيهم تحت الحرمان في يوم أحد الشعانين في ٢٩-أيار، وشمل الحرمان مدينة لندن أيضاً.

ولم يثن هذا عزم لويس، فقام بمطاردة الملك، فاستولى على ونشستر وعلى الدفاعات المحيطة بها، وأعطى ذلك كله إلى كونت أوف نفر

الدفاع الناس بحصار قلعة دوفر، التي تولى الدفاع عنها كلّ من الطبيعة والدفاعات التي صنعها الانسان، وبعث ببعض البارونات الانكليز مع كونت أوف نفر لحصار قلعة وندسور، وعلى كلّ حال كان البارونات الشهاليين قد لحقت بهم الهزيمة في أثناء محاولاتهم الاستيلاء على لنكولن، وحررت سيدة اسمها نيكولا Nicola وكانت زوجة شحنة القلعة، نفسها من هذا الحصار بوساطة دفع المال، ثم ذهب البارونات الشهاليون مع الملك الاسكوتلندي إلى لويس، وأعطوه الولاء وأدوا مراسم التبعية له.

وفي هذه الآونة تخلى عن الملك العديد من أصدقائه المقربين، نذكر منهم: إيرل أوف وارني Warenne وهو من أقرباء الملك، وإيرل مسالسبري، وهو أخو الملك، وإيرل أوف أروندل arundel والإيرل روبرت دي فير Vere وكذلك عدد كبيرآخر، ولقد اتضح فيها بعد أنهم وقفوا إلى جانب لويس بسبب الخوف وليس بسبب القناعة، وبعدما تفحص جون لوقت طويل ماصنعه لويس، بات على قناعة أن تقدمه الآن بات أقل من الأول، ذلك أنه تعطل لدى حصار دوفر لوقت طويل، وبناء عليه نقل معسكره إلى نورفولك، واحتل المكان الذي كان ملك السكوتلندين قد تركه.

ولدى سماع الذين كانوا معسكرين في وندسور بهذا، لاحقوه، وبناء عليه رفع الحصار عنها، شم ذهب جون إلى قلعة أكسمولم Axholme لندسي الحصار عنها، شم ذهب جون إلى قلعة أكسمولم المنار والسيف حرك قواته خلال لندسي Sey وعبر هولاندا ووصل إلى لنكولن، حيث كان ملك اسكوتلندا قد عسكر قبل أيام قليلة، واستولى خلال رحلاته على أراضي العدو، ونهبهم وأحرقهم، ولهذا لم يأت وقت مثل هذا كانت البلاد فيه مضرمة بالنيران بمثل هذا القدر، ثم عندما فر الذين كانوا مجتمعين في لنكولن من أمام وجهه، تراجع مسرعاً، وقد بات منهكاً من اصابته بمرض الزحار.

وفي أثناء هذه الرحلة حدث أن فقد جون قطار أثقاله في سباخ شاطىء البحر أثناء غمرها بتيار المدّ، وحدثنا رالف أوف كوغشال بأنه «فقد أثناء هذه الرحلات عند ولستريم Wellstream بيعته النقالة مع آثاره المقدسة، وبعضاً من دواب الحمولة لديه، والكثير من مؤن بيته وحاشيته، وعدد كبير من رجال حاشيته حيث غرقوا في مياه البحر، وتلاشوا وسط الرمال المتحركة، لأنهم انطلقوا بحاقة وأسرعوا قبل أن يتراجع تيار المدّ».

وعندما وصل جون إلى قلعة سليفورد، التي كان قد أخذها من أسقف لنكولن في أثناء الحرب، ازداد مرضه سوءاً، وحمل على نقالة إلى نيوارك Newark وهي قلعة أخرى من قلاع أسقف لنكولن، كان الملك قد استولى عليها منذ زمن بعيد.

وتمدد هنا بسبب مرضه، وأنهى أيامه في ١٩-تشرين الأول، بعدما حكم لسبع عشرة سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام.

وكان جون في الحقيقة أميراً عظياً، لكن نادراً ماكان سعيداً، وكان مثله مثل ماريوس Marius قد عانى من الصعود والهبوط مع الحظ، وكان لطيفاً وكريهاً مع الغرباء، وسلاباً نهاباً لشعبه، يثق بالأجانب ويفضلهم على رعيته، ولهذا تخلى عنه بالنهاية رجاله وهجروه، وبقي القليل منهم من حوله، وبها أن جلّ قواته كانت إما مرتزقة مكتراه أو أجانب، فقد تجمعت بسرعة في ذلك المكان، وبدت وكأنها مسلحة استعداداً للحرب، وحملت هذه القوات جسده بعيداً حتى ووركستر استعداداً للحرب، وحملت هذه القوات جسده بعيداً حتى ووركستر ذلك المكان بدا في ذلك الوقت مكاناً آمناً، حيث يمكن لمؤيديه أن خيتمعوا للتباحث حول ماينبغي القيام به بعد وفاته، وبها أنه كان أقرب إلى البدانة فقد دفنت أحشاءه في دير كروكستون (Croxton).

#### خاتمة

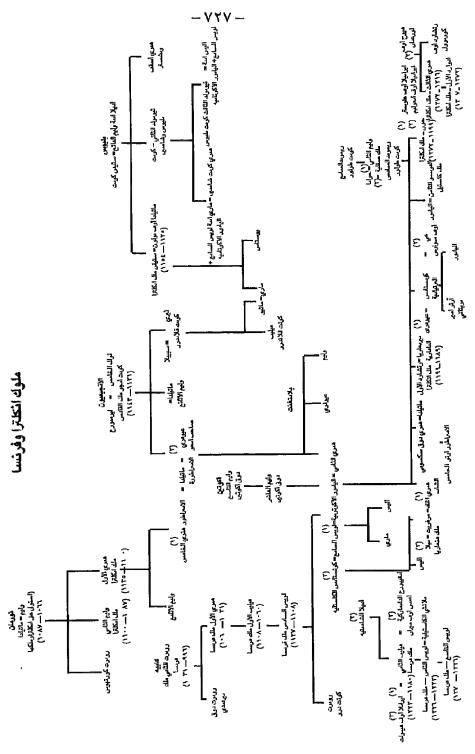
وهكذا مات الملك جون، وكان، حسبها كتب متى الباريسي بعد خسين سنة: «قد تحرر من آلام التفكير، ومن حياة كثيرة الاضطرابات ومن الجهد الضائع»، ولاشك لابل من شبه المؤكد أن موته غير المتوقع قد أبقى انكلترا لأسرة بلانتغنت، لأن وريشه الصغير، هنسري الثالث، الذي كان مجرد طفل في التاسعة من عمره، لم يكن له أعداء شخصيين، وبسرعة نبال الحهاية والمساعدة من قبل أكثر البارونات فروسية، وكان البابا انوسنت الثالث وصياً يقظاً مرعباً، وعظيم الإصرار نحو الملك الجديد، وبدأ التأييد للويس الفرنسي يتلاشى تدريجياً، لأن الثوار الانكليز توصلوا إلى قناعة أنه أنفع لهم أن يكون على العرش طفل ضعيف بدلاً من الملك الفرنسي المنتظر، الذي كان قوياً ويتمتع بالكفاءة.

ونشأ هنري الثالث الذي حكم لمدة ست وخمسين سنة، في وسط ديني، فكان رجلاً لطيفاً، وحامياً للفنون الدينية، وذكياً لكن ليس بارعاً، عاش مع مسؤولية الاهتهام بالمظاهر الملكية، لكن حتى عندما كان راشداً بالغاً، لم يستطع ترجمة هذا الاهتهام إلى واقع مؤثر في العمل السياسي، الذي كان ضرورياً للملكية الناجحة في العصور الوسطى، وكان مثله مثل أبيه قد وجد أنه من الصعب كسب ثقة باروناته والاحتفاظ بها، وكذلك تورط مثل أبيه في صراع حاد معهم، وتعاظمت مشاكله بالاخفاق الإنكليزي في اعادة الاستيلاء على الممتلكات البلانتغنتونية المفقودة، وذلك على الرغم من الانفاق المالي الهائل، واستمرت بعض هذه الحقائق، أو كلها: أي الضعف الملكي، وانعدام الثقة بين التاج والبارونات، وتناقص الواردات الحكومية، والاخفاق في الحرب مع

فرنسا، وتكررت بالوقوع في القرون التالية من وقت إلى آخر، ولهذا إن الملوك الذين كانوا مثل هنري الثاني اداريين أكفاء، وقادة أشداء، وأمراء عسكريين فاعلين، قد عدّهم رعاياهم في غالب الأحيان نموذجيين، وقد كسبوا اعجاب الأجيال اللاحقة.

وجاء في تاريخ وليم المارشال [حوالي١٢٢٦] اللذي كان الوصي والحامي للشاب هنري الثالث قوله شعراً:

بسيف الرب، إذا ماتخلى الجميع عن الملك، هل تعلم ماالذي كنت أنا فاعله؟ كنت سأحمله على كتفي خطوة خطوة، من جزيرة إلى جزيرة ومن منطقة إلى منطقة، ولن أخذله حتى لو عنى ذلك التسول من أجل خبزي



- 357 -





المنصل الرومان نوتيوس الذي كتب بحتاعن الموسيني مال الاعجاب الكبير من قبل مؤرحي العصور الوسطى

# الحواشي والتعليقات

#### ١ --- بيت الشيطان:

«من الشيطان جاءوا والى الشيطان سيع ودون» هذا ما قيل عن كونتات أنجو، ورواه جيرالد أوف ويلز، في إشارة إلى اسطورة تحدثت عن أن كونتات أنجو وملوكها قد انحدروا من ابنة الشيطان، وجاء في حكاية جيرالد أن واحداً من كونتات أنجو القدماء عاد من احدى رحلاته مع امرأة اسمها ميلوسين، وكانت مشهورة لجيالها، وقد تزوج منها، وكان حولها كثيراً من الأمور الغريبة، أعظمها إثارة كان غيابها الدائم عن حضور القداس لدى مباركة الحشود وتعميدها، وكشفت حقيقة أمرها عندما أرغمها زوجها على البقاء ورؤية جسد المسيح، وهو مشهد ما من شيطان يمكنه مواجهته، وهربت ميلوسين من النافذة وهي تولول، ولم تر ثانية، وخلفت وراءها ولدين، منها انحدر كونتات أنجو.

وروج لهذا النوع من الحكايات مؤرخو الأسرة للدعاية ، ولمسايرة روح العصر، ولتغطية الحقبة المبكرة المجهولة من تاريخ الأسرة ، وكان الناس في القرن الثاني عشر يستمتعون بهذه الحكايات ويصدقونهاحتى ليقال بأن رتشارد قلب الأسد عقب وهو يضحك لدى سهاعه قصة أصل أسرته بقوله : « عجباً لو أننا فقدنا طبيعتنا البشرية ، فنحن جئنا من الشيطان ، ووقتها لابد من أن نعود الى الشيطان » .

#### ٢ -- الطاغية التقى:

كان فولك نيرا وحشاً مرعباً وحاجاً تقياً ، ولقد كان من أكثر الشخصيات إثارة في القرن الحادي عشر ، وكان النتاج الأكثر تطرفاً لقرن سيطرت فيه العواطف والانفعالات على سلوك الناس ، وكان الدين سلعة لتبادل المنافع مع الرب ، وهكذا تماشى سلوكه وعنفه مع روح العصر .

ففي سنة ٩٢٢ نال نصراً عظيماً ضد كونت بريتاني ، وتحقق له هذا عندما طار الجيش المتراجع فأحدث دماراً هائلاً بكل ما مربه ، فقتل وسلب ونهب وأحرق ، وإثر هذا النصر الرهيب أحرق زوجته الأولى حين وضعها على سفود وشواها لاتهامها بالكفر.

ومع هذا كله قام فولك بالحج إلى القدس ثلاث مرات ، وذلك في وقت تعذر فيه على كثيرين القيام برحلة واحدة ، كما أنه زار روما ، وبنى ديرين أحدهما قرب تور والثاني قرب أنغر ، ومع تطرفه هذا كان بارعاً في السياسة ، وفعالاً في حملاته العسكرية واستراتيجياً ناجحاً في بناء القلاع ، ولا شك في أنه كان قائداً صاحب قدرات وحشية خارقة .

#### ٣ الشرق ضد الغرب:

كرست الكنيسة في العصور الوسطى جهودها على تحقيق الوحدة المسيحية المنشودة ، لكنها لم تستطع قط الوصول الى ذلك وتحقيقه ، ولم يظهر الاخفاق بشكل مؤسف في خلال العصور الوسطى أكثر منه في سنة ١٠٥٤ ، عندما بعث البابا ليون التاسع ببعثة دبلوماسية الى القسنطنطينية لتتهم البطركية هناك وتوبخها على أنها «عاصية وفاجرة وابنة فاسدة ، تتمتع في دارها بالسلام والراحة والرخاء وترفض الاسهام بدور في القتال المسيحي الذي أثارته الكنيسة الأم المقدسة في روما » ولم يكن مدهشاً المسيحي الذي أثارته الكنيسة الأم المقدسة في روما » ولم يكن مدهشاً

أن « الابنة » تخلت عن اخلاصها وتبعيتها كلياً لروما، وعلى هذا كانت سنة ١٠٥٤ سنة الانفصال الدائم بين الكنيستين: اللاتينية الكاثوليكية في الغرب، والاغريقية الأرثوذكسية في الشرق.

وكان الخلاف قائماً يعتمل بينها منذ زمن قديم ، يرقى حتى إلى أيام الامبراطور المسيحي الأول ، قسطنطين الكبير ، وذلك عندما قرر هذا الامبراطور تدشين المدينة الاغريقية في بيزنطة ، لتكون القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ولتكون روما جديدة ، وصحيح أن روما والقسطنطينية كانتا سنة ٣٣٠ بالأصل متحالفتين ، لكن بابوية روما أحذت بالتدريج تبتعد وتتجه نحو الانفراد، فزادت من سهاتها الغربية ومن انشغالاتها في الغرب، ولم يعد في روما بعد سنة ٢٥٧ ولا بابا أغريقيا، أو يتحدث الاغريقية، وفي تلك الأثناء، الذي كانت الامبراطورية البيزنطية ماتزال فيه قوية ومتقدمة، ربط البطاركة كنيستهم من المكن حتى في القرن الحادي عشر ايجاد حلول للخلافات العقائدية من المكن حتى في القرن الحادي عشر ايجاد حلول للخلافات العقائدية بين الكنيستين، وألحت البابوية الغربية على الانضباط والطاعة والنظام الخاد، ولم تسمح قط لايجاد بدائل دينية ألطف بناء، وعليه بات حتمياً انفصال الغرب اللاتيني عن الشرق الاغريقي، وابتعادهما عن بعضها.

وظلت القسطنطينية حتى سنة فتحها في ١٤٥٣ من قبل العثمانين مركزاً لكنيسة اغريقية عالية المعرفة والثقافة، وكان أعظم انجازات هذه الكنيسة تحويل الشعب الروسي إلى المسيحية الأرثوذكسية، وفي روما وضع البابوات أنفسهم على رأس حركة اصلاح الكنيسة الكبرى في القرنين الحادي عشر والشاني عشر، وشرعت في ظلل غريغوري السابع الحادي عشر والشاني ومن بعده خلفائه على عرش البابوية في فرض إرادتها على جميع أرجاء المسيحية الغربية بشكل لم يكن له نظير من قبل.

وكان البابا بالنسبة لفولك نيرا المتوفي سنة ١٠٤٠، عندما عاد من زيارته الأخيرة للقدس مجرد شبح وشخصية لا أهمية لها، غير أنه بعد قرن عندما حكم حفيده فولك الخامس صاحب أنجو، المملكة اللاتينية في القدس، كان بابوات روما بلا منازع قادة المسيحية، والمسؤولين الروحيين، لا بل القادة الدينين، للحركة الصليبية.

# ٤-- قلاع أنجو:

مايزال من الممكن رؤية بعض قلاع أنجو، التي بنيت في أوائل القرن الحادي عشر، وهذه القلاع بين أقدم الحصون التي بنيت بالحجارة، وبقيت من العصور الوسطى، وهي تبدو قوية حتى اليوم، وتحكمت بعض القلاع بالمناطق التي أحاطت بها، أو بطرق المواصلات، أو كانت بمثابة نقاط دفاعية، أو مواقع استراتيجية للوصول إلى هدف مرسوم مثل القلاع التي بناها غيوفري مارتل حول تور للاستيلاء عليها، وكان ذلك في سنة ١٠٤٤، وعلى كل حال كان فولك نيرا من أكثر الكونتات بناء للقلاع، حتى يمكن القول إنه أول القادة الذين أدركوا قيمة موقع القلعة للأعمال المجومية، مما أعطاه السمعة أنه كان استراتيجياً مبدعاً.

# ه-- أبيلارد وهليوس:

كان أبيلارد استاذاً مشهوراً في باريس، وفقيهاً وخطيباً أصيلا، ووضعته قدراته في قلب الحياة الثقافية في غربي أوربا في القرن الثاني عشر.

وكان قد ولد في بريتاني في سنة ١٠٧٩، وعاش لسنوات باحثاً متجولاً، وذلك كنموذج لعصر لم تكن فيه بعد جامعات مؤسسة أو مراكز

علمية رئيسية فيها علماء متميزين يتبارون فيقدمون فرصاً أمام الطلبة الراغبين بالمعرفة.

وتظهر روايته عن حياته «تاريخ مصائبه» كيف دمر أفكار وسمعة عدد من أساتذته برعونة أكسبته العداوات، وعندما صار في الثلاثينات من عمره، كان المعلم في باريس، حيث جذبت عبقريته إليه حشداً من الطلبة ورسخت القاعدة لإقامة جامعة المدينة العظيمة.

وفي باريس، عندما كان في ذروة شهرته، قابل هليوس، ووقع بحبها، وكانت أصغر منه بنحو عشرين سنة، كما وكانت الحفيدة الجميلة والمتعلمة لفولبرت، كاهن كاتدرائية نوتردام، وكانت العزوبية متوقعة في الكنيسة وإن لم تكن مطلوبة بشكل حتمي، وكان التواصل مؤذياً جداً لحياته وعمله، لكن ليس مأساوياً، غير أن هليوس أنجبت ولداً، ومن ثم أقيم زواج سري لإطفاء غضب فولبرت، ومع ذلك تابع الكاهن معاملتها بسوء، ولهذا أخذها أبيلارد أخيراً إلى دير في أرغنتيل -AR وابقائها راهبة متبتلة الحياة، ولذلك خطط للقيام بانتقام رهيب، فأرسل وابقائها راهبة متبتلة الحياة، ولذلك خطط للقيام بانتقام رهيب، فأرسل خدمه لاقتحام غرفة أبيلارد في الليل وخصيه، وشعر أبيلارد اثر هذا بالرعب والإذلال الشديد فصار راهباً في الدير الملكي الكبير الحامل لاسم سينت دنس وبناء على تعلياته، أدخلت هليوس ـ التي كانت في التاسعة عشرة من عمرها ـ وهي في حالة قنوط، الى الدير الذي أخذها أبلارد إليه.

ورأى فيه معاصروه أنه صاحب تأثير خطر، وقد غادر في ثلاثينات القرن الثاني عشر سينت دنس، ليستأنف التدريس، وجذب اليه المعارضة من المحافظين في الكنيسة الذين قادهم برنارد أوف كليرفو، وهو راعي ديرسسترشياني مرعب، وكانت غلطة أبيلارد أنه تفوه بشكل علني ومقنع أن العقيدة المسيحسة ينبغي إخضاعها للبحث العقلاني،

وكان هدفه كرجل دين مؤمن هو تعميق الفهم ، وليس لغم الايان ، وتبنى أيضاً موقفاً متطرفاً، حيث قال النية هي التي تقرر فيها إذا كان العمل المقترف ذنباً ، وكان هذا كثيراً جداً بالنسبة للكنيسة المتجذرة ، وهكذا أدين بالهرطقة في سنة ١١٤٠، أي قبل عامين من وفاته .

ويتذكر أبيلارد هذه الأيام على أنه محب متفاني ويظهر «التاريخ» والرسائل التي تبادلها مع هليوس، عندما عاش كلاهما داخل الدير، أنه امتلك عاطفة وحباً يائساً لم يكن لا هو ولا هي قادرين على التخلص منه.

وانتشيا بالتواصل الذي كان فيها مضى ، وتألما بسبب متعتهها الجنسية ، ولم يبديا اهتهاماً كبيراً نحو ردات فعل المجتمع تجاه علاقتها أكثر من المقارنة فيها بينهها وبين آدم وحواء ، والنتائج المدمرة للعلاقات الآثمة ، وذلك حسب قدرة أبيلارد على تفسير الكتابات المقدسة .

وحاول أبيلارد أن يقدم النصائح الروحية لهليوس، وأشار عليها أن تحول حبها الى حب للرب، وأخذت أخيراً بهذه النصيحة، فغدت منذ ١١٢٩ رئيسة لراهبات دير أرغنتيل، ثم صارت راعية دير باراكليت paraclete وهو دير ساعد أبيلارد على إنشائه، وحققت لها ثقافتها وعزة نفسها وآلامها وصبرها وقدراتها الادارية الاعجاب والاحترام، وفي القرن التاسع عشر نقل قبر المحبين الى مقبرة بيري ـ لاشي Pere - L achaise في باريس حيث ما تزال الورود توضع عليها إحياء لذكراهما.

# ٦ -- فولك الخامس ملك القدس:

جاء في سنة ١١٢٨ وفد أرسله بلدوين الثاني ملك القدس، إلى فرنسا، لأنه لم يمتلك ولداً ذكراً يخلفه في حماية الضريح المقدس، بل

أربع بنات فقط، وطلب الوفد من لويس السابع اختيار واحد من نبلاء فرنسا مناسب للزواج من ميليساند أسن بنات بلدوين، وليكؤن خليفة لبلدوين بعد وفاته، واختار الملك فولك كونت أنجو ومين، وتورين، وبناء عليه سافر إلى الشرق للزواج سنة ١١٢٩، وكان وقتها في الحادية والأربعين من عمره، وقد سلف له أن حج إلى القدس، وكان أرملاً يمتلك كل المؤهلات ليكون ملكاً للقدس، ثم إنه كان مطمئنا لممتلكاته في فرنسا حيث تركها في يدي ابنه الشاب، لكن المبشر بالكفاءة، أي غيوفري، الذي سيتزوج من ابنة هنري الأول ملك انكلترا، وبذلك مهد الطريق لتملك اسرة بلانتغنت لإنكلترا.

### ٧ - غيوفري بلانتغنت:

تزوج في سنة ١١٢٨ غيوفري بلانتغنت ابن فولك ماتيلدا، الامبراطورة الأرملة، وابنة هنري الأول ملك انكلترا، وقد وعدها هنري الأول بخلافته في انكلترا ونورماندي، لكن عند وفاة هنري الأول سنة ١١٣٥، استولى ستيفن أوف بليوس، وهو ابن أخت لهنري وأثير لديه، على المملكة والدوقية.

وكان كونتات بليوس منذ زمن بعيد منافسين للأنجيفيين الذين كانت أراضيهم محاذية لممتلكاتهم، كما ان ممتلكاتهم كانت تقريباً مطوقة لممتلكات التاج الفرنسي، وتشكلت بليوس من شطرين هما بليوس وشامبين، وقدقسما مراراً بين الورثة، وعندما أصبح هيوج كونت شامبين عضواً في الداوية سنة ١١٢٥، آلت كونتيته إلى ابن أخيه ثيوبولد الثاني صاحب بليوس، وهو حفيد وليم الفاتح، ملك انكلترا ودوق نورماندي.

وكان أخوا ثيوبولد: ستيفن كونت أوف مورتين، وهنري أسقف أوف ونشستر قد كسباثقة خالها هنري الأول ملك انكلترا وولايته لها وحمايته،

وفي سنة ١١٣٥، أحكموا الأمور ودبروها بحيث يتولى ستيفن أراضي هنري وليس ثيوبولد.

وقاد في سنوات ١١٣٦ و ١١٣٧ و ١١٣٨ غيوفري وماتيلدا الحملات ضد نورماندي، وغزت ماتيلدا في سنة ١١٣٩، انكلترا بمساعدة روبرت ايرل غلوستر، وكان من أعيان النبلاء الأنغلو — نورمان، وتركت غيوفري ليتولى السيطرة على الدوقية، وخلال سنوات استطاع الاستيلاء عليها، وفي تلك الأثناء، ظهر ابنه هنري ممثلاً لأمه ماتيلدا، وأخيراً وريثاً لها.

وكانت دوقية أكوتين في القرن العاشر دوقية واسعة موزعة بين عدة كونتيات واقطاعيات أصغر، وكانت تمتد جنوباً حتى جبال البرانس، وكان الدوق وليم الكبير المتوفى سنة ١٠٣٠، قد مارس سلطانه في بواتو، ويمن ويل مارشي، ومناطق أخرى، وفي سنة ١٠٢٦، استولى وليم الثامن على غسكوني، وتزوج ابنه وليم التاسع (١٠٨٦—١١٢٦) من فيلبا أوف طولوز، وكان متميزا بكونه من التربادور وصاحب توجهات فيلبا أوف طولوز، وعلى هذا نشأت إليانور الأكوتونية ابنة وليم العاشر جنوبية كبيرة، وعلى هذا نشأت إليانور الأكوتونية ابنة وليم العاشر لانغدوك.

### ٨- غيوفري وماتيلدا:

كان غيوفري الأشقر، كونت أنجو، الأول في سلالته الذي حمل لقب بلانتغنت، وهو لقب ناله لوضعه قشة مكنسة على قبعته، وقد صار كونتاً لأنجو في سنة ١١٢٩، بعد ذهاب أبيه فولك الخامس إلى القدس.

وكان غيوفري رجالاً بارعاً ، ووصف بالأناقة والجمال من قبل معاصريه ، فقد كان طويلاً ، بهي الطلعة وقوياً وبشعر أشقر أقرب الى الاحمرار ، وبعينين نافذتين ، كما كان عالي الثقافة ، يتفاخر بتذكر أفاعيل

أجداده ، وقد مثل الفروسية المثالية ، ومع ذلك كان هادئاً جداً وعنيفاً الله حد التوحش ، وتركزت جهود حياته على متابعة العمل في سبيل حصول زوجته على ميراثها في نورماندي وانكلترا ، واهتم بشكل رئيسي بالاستيلاء على نورماندي ، التي كانت العدو الرئيسي لأنجو ، ونجح في ذلك وعلى هذا كانت اسهاماته بالنسبة لانكلترا ضعيفة .

وتزوج غيوفري من ماتيلدا سنة ١١٢٨ ، وكان هو وقتها في الخامسة عشرة من عمره في حين كانت هي في السادسة والعشرين ، وكان هذا النزواج مثله مثل كثير من زيجات العصر ، صفقة معدة ، خطط لها هنري الأول والد ماتيلدا ، حتى يحول بين أنجو وبين التحالف مع الشهاليين الفرنسيين المعادين له ، وليساعد ماتيلدا في خلافته في نورماندي وانكلترا .

وكانت قد تزوجت للمرة الأولى من هنري الخامس امبراطور ألمانيا ، الذي توفي سنة ١١٢٥ ، وأرسلت للمرة الأولى إلى ألمانيا عندما كان عمرها في الثانية عشرة ، وأعيدت إلى أبيها بعد اثنتي عشرة سنة ، أي سنة ١١٢٦ ، لتكون وريثته الشرعية الحية الوحيدة .

ومن البداية نظرت بإزدراء ، نحو زوجها الثاني الذي لم يبلغ سن الرجولة بعد والذي كان أدنى منها اجتهاعياً، ويبدو أنها لم تشعر قط نحوه بدفء عاطفي .

ومثل هذا لم يحب غيوفري ماتيلدا ، ومع ذلك حافظاً على تعاونهما ، وعلى استغلال زواجهما المفتقر الى الحب ، من أجل مرابح سياسية مشتركة ، وأنجبا من الأولاد ما هو ضروري لاستمرار سلالتهما ، ثم ذهب كل منهما في طريقه ، إنها دون أن يفترقا أويتباعدا عن المطامح السياسية الشخصية .

وجلبت ماتيلدا لنفسها كراهية اللذين توجب عليها جلبهم ، ففي

أيام حكمها القصيرة لانكلترا ١١٤١ ، بعد الانتصار على ستيفن رفضت الوقوف لتحية اثنين من مؤيديها الرئيسيين ، وهما خالها ، الملك داود ملك اسكوتلندا مع أخيها غير الشقيق ايرل روبرت صاحب غلوستر ، فأغضبتها بذلك غضباً عظياً يضاف الى هذا أنها أصرت على فرض ضرائب ثقيلة على سكان لندن ، وبذلك حولت إخلاصهم لها وتعاونهم معها الى كراهية ومقاومة ، فأرغمت على الفرار من المدينة ، وصحيح أنها امتلكت إرادة حديدية لنيل ما عدته ميراثها ، كانت شخصيتها العائق الرئيسي في وجه نجاح قضيتها .

فقد كانت متكبرة ، لا تعرف الليونة وقد انتقدها معاصروها كثيراً لا فتقارها للسهات الانثوية وكانت صورتها المستمرة صورة الابنة التي كانت تقاتل أبيها هنري الأول عنعدما مات وأنها لم تحاول التصالح معه في ساعاته الأخيرة ، ومع ذلك كانت بهية المنظر ، شجاعة ، وامرأة قوية في عصر تحكم به الرجال وكانت تستطيع أن تنال اخلاص الآخرين ، لكن ليس اخلاص زوجها .

### ٩ - الوزير غير الرسمي:

كان لقرابة ربع قرن الأب سوكر المستشار الرئيسي لكل من لويس السادس (١١٨٠ ـ ١١٣٠) ، أي من سنة وفاته في ١١٥١ .

وكان رجلاً من أصل وضيع ، وقد صعد في خدمة الكنيسة والعرش بفضل قدراته الشخصية، وصحيح أن سوكر لم يكن لديه منصب رسمي في الحكومة الملكية ، لكن النصائح التي أسداها لكل من لويس السادس ولويس السابع ازدادت قيمتها بإلحاحه على الجانب المقدس والطقوسي للملكية ، فقد أعطى ذلك أهمية فاقت الحقيقة .

وقد أعاد بناء دير كنيسة القديس دنس، وهو مكان دفن الملوك الأوائل، وكان البناء وفق الطراز القوطي، مزيناً بشكل كبير وجميلاً، قصد منه أن يكون مكاناً مكرساً لعبادة الرب، وفي الوقت نفسه لتمجيد الملوك الفرنسيين، وشارك سوكر في الاحتفالات الملكية الرسمية التي أظهرت روابطهم بالماضي العظيم، ففي سنة ١١٢٤ حمل لويس السادس ما يفترض أنه راية شارلمان، وكانت موضوعة على مذبح كنيسة القديس دنس، وخاطب الناس بشكل حماسي. ملتهب وحشد جيشاً هائلاً ليحارب به ضد الامراطور هنري الخامس.

وعلى الرغم من هذا المظهر كان الملكان ضعيفان اقترفا الكثير من الأخطاء ، ومع ذلك ساعد سوكر على تطوير شخصية ومكانة الملكية الفرنسية ، وتولى سوكر تعليم الملكين ، ووجها عملياً وساعدهما على ادارة أراضيها .

وكان لويس السادس ملكاً عسكرياً أخضع البارونات اللصوص الذين نهبوا وسلبوا الأراضي الملكية، ووصفه سوكر بأنه كان رجلاً كانت روحه كبيرة مثلها كان جسده هائلاً، فقد كان بديناً يحب الملاذ والطعام والبهجة، حتى صاريعرف باسم الملك البدين وغدا في سنيه الأخيرة لا يستطيع امتطاء الخيول، ومثله برهن ابنه لويس السابع عن تدني الكفاءة والضعف الاداري، وكان الزوج الأول لاليانور الأكوتانية، وقد تصرف على طريقة الزهاد فكان ينام في الغابة بدون حراسه لوحده، ولهذا أحبه شعبه، ومع ذلك كان لويس السابع يصلح لأن يكون ملكاً في عصور مضت حيث يمكنه أن يخفي ضعفه وعجزه خلف واجهة من اللطف والحكمة.

# ١٠ - أول أعمال توسع أسرة بلانتغنت

اكتمل الاستيلاء على نورماندي من قبل غيوفري بلانتغنت، كونت أنجو، سنة ١١٤٤، واحتاج هذا الاستيلاء الى قرابة تسع سنوات من الصراع، استفاد خلالها هو وزوجته الامبراطورة ماتيلدا من ادعائها الحق بحكم انكلترا ونورماندي، وكان في سنة ١١٣٥، بعد وفاة هنري، استولى ستيفن كونت بليوس عليها معاً ،لكن الآن ضمن الأنجيفيون لأنفسهم قاعدة يستولون منها على انكلترا.

وارتبطت نورماندي بانكلترا لأن عدداً من النبلاء امتلكوا أراضي على جانبي القنال، وفي الحقيقة بذل ستيفن قليلاً من الجهد لكسب اخلاص النورماندين، فقد زار الدوقية مرة واحدة، ومع ذلك كره النورمانديون جيرانهم الأنجيفيين وأعدائهم التقليديين، وقاوم وا بعنف حملات غيوفري، لكن وقوع الملك ستيفن بأسرماتيلدا في عام ١١٤١كان له أثره البالغ على معنوياتهم، ففي تلك السنة استسلمت لغيوفري قلعة تلو الأخرى في نورماندي، ثم تابع نشاطه حتى عام ١١٤٤ حيث استولى على روان، ومن ثم نصب دوقاً على نورماندي، وفي عام ١١٤٥ سقطت آخر قلاع نورماندي إليه.

ونتيجة لهذا الاستيلاء، صار الأنجيفيون يحكمون نصف المملكة النورماندية — الانكليزية، يضاف إلى هذا بات من غير الممكن اخراجهم من غربي انكلترا، وأصبحت قضيتهم أقوى وواعدة بالنسبة للمستقبل، فبعد سنة ١١٤٤، ما من واحد من كبار البارونات ذوي الأملاك الواسعة في نورماندي التحق بشكل دائم بستيفن ووقف إلى جانبه.

### ١١ --مللك شجاع ومجنون :

كان الملك ستيفن (١٠٩٧؟ -- ١١٥٤) الولد الثالث لستيفن كونت أوف بليوس وتشارتر الذي كسب سوء سمعة انتشرت في أوروبا كلها،

لأنه هرب من أنطاكية أثناء الحملة الصليبية الأولى، وكانت أم هذا الملك آديلا ابنة وليم الفاتح، وكانت ذات رأي متصلب، لذلك أعادت زوجها إلى ما وراء البحار.

وأرسل ستيفن الشاب إلى بلاط خاله هنري الأول، ولعل ذلك كان سنة ١١١٣، ومنح أراضي. واسعة في كل من نورماندي وانكلترا، مما جعله واحداً من أغنى ملاك الأراضي الأنغلو— نورمان.

وفي سنة ١١٢٦، أقسم ستيفن مع عدد كبير آخر، بقبول خلافة ماتيلدا ابنة هنري لأبيها، والذي حدث على كل حال أنه لدى سياعه بخبر وفاة هنري في ١- كانون أول عام ١١٣٥، تحرك كيا يبدو وفق خطة كانت مرسومة باحكام، وعبر إلى انكلترا، وتم قبوله ملكاً في لندن، واستحوذ على خزائن الأموال في ونشستر، وجرى تتويجه في ٢٢- كانون أول، وتوجه إثر هذا رسول مسرع إلى نورماندي، وهناك قبله البارونات النورمان بعد تردد، دوقاً لنورماندي، وبذلك أعاد ستيفن إحياء عملكة النورمان بعد تردد، دوقاً لنورماندي، وبذلك أعاد ستيفن إحياء عملكة مضموناً، ولدى عقده لبلاطه في عيد الفصح، حضره عدد كبير من كبار ملاك الأراضي، بها فيهم أخو ماتيلدا لأبيها، ايرك روبرت أوف غلوسترى ملاك الأراضي، بها فيهم أخو ماتيلدا لأبيها، ايرك روبرت أوف غلوسترى جنوبي نورماندي، وكانت هناك أعمال عصيان فردية ضد ستيفن في غربي انكلترا قادها بلدويين أوف ردفير Radvers، وأخرى في الشهال غربي انكلترا قادها بلدويين أوف ردفير Radvers، وأخرى في الشهال قادها ملك الاسكوتلندين.

وتبعاً لمؤرخي أيامه، كان ستيفن فارساً جيداً، لكن في المجالات الأخرى كان أحمقاً، اعتاد أن يصدر مراسيم وأوامر كانت زائدة في قسوتها ووحشيتها، وما من أحد شك بشجاعة ستيفن الشخصية، ففي معركة لنكولن في ٢ — شباط سنة ١١٤١، صمد على قدميه وقاتل لمدة طويلة، أولاً ببلطته قبل ان تنكسر ثم بسيفه قبل أن يقع بالأسر.

لقد كان متقلبا، ساعة كريا شجاعاً، وأخرى خسيساً خائناً، ينهب رعاياه، ويصدر أحكاماً خاطئة، وهو لم يتمتع قط بشخصية ومؤهلات رجل الدولة، وهو ما تطلبته الأوضاع السياسية في القرن الثاني عشر، لذلك أخفق.

#### ١٢ -- الاسكوتلنديون المتوحشون:

حكم داود الأول ملكا لاسكوتلندا من ١١٢٤ إلى ١١٥٣، وكان بالوقت نفسه ادارياً جندياً، وحامياً للكنيسة، ونهاباً قاطعاً للطريق، وقد غزا في سنة ١١٣٨ المنطقة الشهالية من انكلترا حتى يوسع أملاك أسرته وليضم المنطقة التي قامت فيها بين نهري التاين وفورث، ولم تكن قد صارت انكليزية تماما، بل كانت آنذاك انكليزية — اسكوتلندية.

وأثار بأعاله القاسية مقاومة شعبية لم تعرفها المنطقة منذ مائتين وخمسين سنة مضت، منذ أيام الفايكنغ، وقد تحالف النبلاء مع العامة للتصدي له، وقاتله الانكليز تحت رايات حماتهم من القديسين، وكانت حربهم ضد الاسكوتلنديين المتوحشين حرباً مقدسة، وكان بعض الرجال الاسكوتلنديين نصف العراة مازالوا وثنيين، وحصل الملك الاسكوتلندي على أسلاب كثيرة، ومد سلطانه نحو الجنوب، لكن لبعض الوقت فقط.

#### ١٣ — الحملة الصليبية المأساوية:

استولى زنكي سنة ١١٤٤ على الرها وأزال الحكم الصليبي منها، وبذلك أسقط أولى الدويلات الصليبية تأسيساً في المشرق، وكان هذا من الأسباب الأساسية لقيام الحملة الصليبية الثانية، التي قادها لويس

السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور ألمانيا، ووصلت جيوش الحملة إلى أنطاكية بعدما كادت أن تصبح أشلاء، وبعد الوصول إلى القدس تقرر مهاجمة دمشق، وفعلا حوصرت المدينة وأخفق الحصار.

وكان مع لويس السابع زوجته اليانور الأكوتونية، ولم يكن من السهل عليه قيادتها وضبطها، ففي أنطاكية حاولت مع عمها ريموند أمير أنطاكية أن تقنع لويس بالبقاء هناك للعمل ضد حلب، لكنه رفض لأنه أراد الوفاء بنذر الحج والوصول إلى القدس، وراجت في أنطاكية أخبار أن العلاقة فيا بين اليانور وعمها تجاوزت الأمر الطبيعي، وصدق لويس ما قيل، لذلك جر زوجته وأبعدها بالقوة، وأدى هذا فيها بعد إلى التخلي عنه سنة ١١٥١، ومن شم الزواج بهنري الثاني، وبذلك خسر لويس السابع زوجته وخسر معها دوقية أكوتين.

#### ١٤ --- بداية ونهاية:

لم يكن الزواج فيا بين اليانور الأكوتونية ولويس السابع ناجحاً لعدة أسباب، منها: كان الملك يرغب بالحصول على وريث ذكر، وهي قد أنجبت له ابنتين فقط، ولدت أولاهما سنة ١١٤٥ وثانيها سنة ١١٤٥، كما وكانت الفوارق بينها عظيمة جداً، فهي عندما تزوجت من لويس، شعرت وكأنها تزوجت من راهب وليس من ملك، وكان لويس من جانبه مسيطر عليه جنسيا من قبل زوجته، ونتيجة لهذا عد ناقص الرجولة في نظر معاصريه.

ونشب خلاف حاد بين الزوجين سنة ١١٤٩، أثناء الحملة الصليبية الثانية عندما اتهمت اليانور بعلاقة زنا مع عمها ريموند أمير أنطاكية، وبعد عودتها، حقق البابا مصالحة رائعة بينها، ففي رحلة العودة فرش لها البابا يوجين الثالث فراشاً أعده بنفسه وزينه بزينة ثمينة جداً، لكن

تبرهن أن هذا بلا محصلات طويلة الأمد.

وحصلت اليانور على الطلاق من لويس، وقرر في ٢١ - آذار سنة الربعة من رؤساء الأساقفة الفرنسيين فصلها على أساس وجود قرابة قريبة بين جديها تحرم الزواج بينها حسب شريعة الكنيسة، وهي حجة كانت رائجة استخدمت دوماً في حالات الزواج المخفق للوصول إلى الطلاق، ومن المؤكد أن اليانور كانت تعرف ما تريده، فها أن حصلت على الطلاق حتى بعثت برسلها إلى هنري كونت أنجو، وقد تزوج منها في ١٨ - أيار ١١٥٢.

وكانت العلاقات نشأت بينهما في آب من السنة المنصرمة عندما تقابلا في باريس، وكان هنري مثله مثل أبيه غيوفري بلانتغنت، حيث أنه تزوج من امرأة أكبر منه بعدة سنوات، ومثله أيضاً حصل من هذا الزواج على دوقية أكوتين التي كانت ميراث اليانور، وكان هنري قد صار دوقا لنورماندي سنة ١١٥٠، ثم كونت أنجو بعد وفاة أبيه سنة ١١٥١، والآن بضربة واحدة غدا أعظم قوة من مولاه الاقطاعي، الملك لويس.

وأثارت أخبار الزواج لويس ودفعته لشن الحرب ضد هنري، وقد انضم إليه غيوفري الأخ الأصغر لهنري، الذي أدرك أن زواج هنري من إليانور كان من معانيه أن هنري لن يتخلى له عن أنجو، كما هو مفترض منه تنفيذاً لوصية أبيهما، وفي انكلترا انضم إلى لويس الملك ستيفن مع ابنه يوستاس.

ولكن هنري نجح بالحرب بسهولة، وباشر سلطانه بقوة على جميع أراضيه الفرنسية، فهو الآن بات يمتلك كتلة واسعة امتدت في الشهال من نورماندي ومرت خلال أنجو إلى أكوتين في الجنوب، وفي الحقيقة حقق الزواج من اليانور نقطة تحول تاريخية عظمى، فهنا بدأ تاريخ أسرة بلانتغنت.

# ١٥ -- الخليلة الملكية، مسألة اجتهاعية منبوذة:

عندما كان هنري الثاني في الأربعين من عمره اعترف للمرة الأولى بأن روزاموند Rosamund هي خليلته، وكانت في الثلاثينات من عمرها، وهي ابنة رجل نبيل اسمه وولتر كلففورد Clifford ولعلها كسسانت المرأة الوحيدة التي أحبها هنري في حياته، وقد عاشت في القصر الملكي في وودستوك في أكسفورد شاير، الذي أعاد الملك تأسيسه خصيصاً لها، وذلك قبل وفاتها في سنة ١١٧٦، بسنتين أو ثلاثة، وقد عد المؤرخون وفاتها على أنه جزاء استحقته لاقترافها الزنا.

ودفنها الملك الحزين في قبر فخم جداً أقيم أمام المذبح العالي في دير راهبات غودستو Godstow ، وقدم فيها بعد هو ووالدها هبات كبيرة للدير من أجل ذكراها، لكن في سنة ١٩١١، بعد وفاة هنري، ارتعب القديس هيوج أسقف لنكولن حين وجد قبر زانية داخل الكنيسة، وقد زين بشكل رائع جداً، ولكي يضع حداً لهذا الاثم العظيم أمر بازالة المزار الذي حوى القبر، وبذلك باتت روزا موند خارج الكنيسة.

وبعد قرن من وفاتها شرع المؤرخون يحيكون بعض الحكايات حولها، فهي قد أخفيت في مخدع سري لايمكن الوصول إليه داخل وودستوك لحمايتها من اليانور صاحبة أكوتين ومن غيرتها، غير أن الملكة عشرت عليها وجعلتها تنزف داخل همام حامية حتى ماتت، وقيل في قرون تالية بأن اليانور استخدمت سكيناً وكأساً مسموماً، وأنها عرفت طريقها ضمن المتاهة باستخدام خيط حريري حتى وصلت إلى مخدعها السري.

ولندع الحكايات الأسطورية جانباً، تبين قصة روزاموند وهنري الثاني بوضوح المصاعب التي توجب على النساء مواجههتها عندما كن يضعن أنفسهن خارج المجتمع، مجتمع كانت توجهاته بيد الرجال فهم الذين تحكموا به، ومع أن أبناء الزنا من الاسرة المالكة مثل غيوفري بلانتغنت،

ووليم صاحب السيف الطويل، وهما من أولاد هنري الثاني من خلال التصالات قديمة، قد نالوا الاعتراف والتشريف، نظر إلى أمهاتهم نظرة سوء وعوملن بازدراء واستهجان لأنهن خرقن شريعة الكنيسة وقوانين المجتمع، وأكثر من هذا نجد حتى النساء المحظوظات وذوات المكانة المحترمة مثل ميليساند المقدسية، والامبراطورة ماتيلدا، واليانور الأكوتانية، استخدمن من قبل آبائهن كأدوات سياسية، وفقط ذوي العزم الشديد منهن هن اللائي استطعن احداث تأثير شخصي على السياسات الرفيعة للقرن الثاني عشر.

### ١٦-رئيس أساقفة ضد ملك:

مع أن الكثير كتب حول رئيس الأساقفة توماس بكت صاحب كانتر بري، وتجاوز هذا ماكتب حول سواه من شخصيات عصر أسرة بلانتغنت في انكلترا،مع هذا كله تبقى الخلافات حادة حول شخصيته،فقد كانت كذلك بين معاصريه، وماتزال على هذه الحالة منذ ذلك الحين،فهو قد ولد في لندن سنة ١١٨٨ من أسرة تجار نورمانديين،وتعلم في دير ميرتون ثم التحق بحاشية ثيوبولدرئيس أساقفة كانتربري،حيث هيأت له مواهبه الادارية السبيل لترقيات سريعة، وعين في سنة ١١٥٤ رئيس شهامسة في كانتربري، وفي أواخر تلك السنة عينه هنري الثاني بناء على توصية رئيس الأساقفة ثيوبولد مستشاراً له لجميع انكلترا،واستغرق بكت نفسه ووقته في السنوات الثمانية التالية كلية في مسائل الدولة،وحظي نفسه ووقته في السنوات الثمانية التالية كلية في مسائل الدولة،وحظي مع الكنيسة،واخلاص بكت هذاجعله المرشح المثالي لهنري الثاني لرئاسة مع الكنيسة،واخلاص بكت هذاجعله المرشح المثالي لهنري الثاني لرئاسة أساقفة كانتربري بعد وفاة ثيوبولد في سنة ١٦١، ولهذا فوجىء الملك وغضب، وعندما أقدم بكت،وهو خادمه الموثوق،على الاستقالة من المستشارية فور انتخابه لرئاسة الأساقفة،ومن ثم غدا أكثر خصومه إرعاباً

وأفضل شرح للتغير الهائل الذي ألم ببكت، ثم للخلاف الذي نشب إثرذلك، هو أن رئيس الأساقفة حول ولاءه من هنري الثاني الى مولى أعظم، هو الرب، فهذا ماعبرعنه بكت في مناقشة حامية جرت بينه وبين الملك في سنة ١١٦٣، حيث قال له: «في يوم الحساب المخيف سنحاكم معاً كعبيد لرب واحد ، وصحيح أن المولى المؤقت تنبغي طاعته، لكن ليس ضد الرب» ، وكان الجواب الوحيد الذي وجده هنري الثاني أمام هذه المناقشة الحادة هو التهديد باستخدام القوة الجسدية، وهو سلاح كان من غير المعقول استخدامه ضد أعظم الشخصيات الدينية مكانة في ملاده.

وتفجر الصراع بين الملك وبين رئيس الأساقفة، وكان القتال بينها حول المسؤولية القضائية، لأسيا وأن هنري الثاني كان قد عقد العزم على الحد من سلطة المحاكم الكنسية، فقد اعتقد أن نشاطات هذه المحاكم قد بدأت تلغم السلطات القانونية التي ورثها من الملوك الانكليز المتقدمين، ففي وستمنستر اقترح هنري الثاني في تشرين الأول لعام ١١٦٣ أن الكتاب (أي الناس في الطرق الكهنوتية، ولهذا هم بطبيعة الحال مرتبطين بالكنيسة) إذا ما وجدوا مجرمين في جرائم عدوانية ينبغي تسليمهم الى السلطات المدنية لانزال العقوبة بهم، وبعد ضغوط جاءت من الملك، وبعد تبدلات عديدة بالرأي، رفض بكت أخيراً الموافقة على مذا الطلب، وعلى مطالب أخرى قدمها هنري مكتوبة في اجتماع عقد في كلارندون Clarendon في كانون الثاني سنة ١١٦٤.

وازداد منذالآن اهتمام الملك بمسألة خضوع رئيس الأساقفة، وبعد اجتماع آخر لمجلس البارونات والأساقفة عقد في نور ثأمبتون في الخريف جرت خلاله مواجهات عاصفة نجا بكت بنفسه الى فرنسا، حيث التمس حماية البابا الاسكندر الثالث، الذي كان هو نفسه يعيش وقتها في المنفى في البلدة الكاتدرائية لسنس، ومكث رئيس الأساقفة السنوات التالية

في الدير السستر شياني في بوتني، ومن هناك أثار حرب كلمات ضد ملكه وضد مستشاريه. وكان موقف غالبية المثقفين من رجال الكنيسة في أوربا الغربية أن بكت كان محقاً في صراعاته مع الملك ، وعلى كل حال كانت نشاطات الكنيسة والدولة من غير الممكن فصلها لتداخلها في ظل حكم أسرة بلانتغنت لانكلترا، وكان الأساقفة الانكليز مجموعة قوية، لكنهم دانو بتعيينهم للحظوة الملكية، وكانوا متورطين بشكل كبير في الأعمال الادارية والقضائية لصالح التاج، ولهذا كانت لهم مصالح كبيرة في الاحتفاظ كوسطاء رئيسيين فيها بين الكنيسة والملك، وكانوا مكرهين على رؤية المواقف العدوانية لبكت ضد الملك.

وعلى هذا توفر القليل من التعاطف نحو رئيس الأساقفة الذي أوصل معارضته للملك الى الحد الأقصى، وبالتدريج أرغم بكت على ادراك أن منفاه التطوعي كان له تأثير لايذكر على سير الأمور في انكلترا، وتبعاً لما قاله الأسقف غلبرت فوليوتFoliotأوف لندن، الذي عرف بكست بشكل جيد: «لقد كان دوماً أحمقاً ، وسيبقى أبداً كذلك » وهذا الحكم على رئيس الأساقفة المنفي لم يكن عادلاً أبداً، ومها يكن الحال كان قوله ملاحظة صحيحة حول كيف عرض بكت بشجاعة مسألة الصراع بين القوتين الدينية والدنيوية، دون أن يستطيع ايجاد حل لذلك، إلا بموته.

### ١٧ -حلف ابنة:

بدأت المباحثات من أجل زواج ماتيلدا كبرى بنات هنري الثاني من هنري الأسد، دوق بافاريا وسكسوني، في سنة ١٦٥، عندما قاد رينالد رئيس أساقفة كولون – الذي كان المستشار القريب للامبراطور فردريك بربروسا – بعثة جاءت الى هنري الثاني وهو في روان، وكان الاقتراح أن تتزوج واحدة من بنات الملك من الابن الأصغر لفردريك، بينها تتزوج ماتيلدا من الدوق، الذي كان أعظم رعايا الملك قوة في تلك المرحلة، وحليف قريب له، وكان فردريك الذي امتد سلطانه بشكل

نظري خلال ألمانيا وشهالي ايطاليا، وحاجة للتأييد في صراعاته مع البابوية، ومع المدن في شهالي ايطاليا، وكان للتوقد أقام بابا مضاد ومعاد للبابا الاسكندر الثالث، وكان هنري الثاني متضايقاً من خلافه مع توماس بكت، الذي ذهب الى المنفى في نهاية عام ١٦٤، والتمس من البابا المساعدة، ولهذا رأى هنري بصداقته مع الامبراطورية وسيلة ضغط على البابا الاسكندر من أجل التأثير عليه ضد بكت.

لكن بها أن هنري الثاني كان قد أغضب بربروسا،عندما رفض أخيراً نقل ولائه الى البابا المضادفكتور الرابع،فالذي تم فقط هو الزواج فيها بين ماتيلدا والدوق هنري،وجرت الاحتفالات في شباط سنة ١١٦٨، في برونسوك Breenswick ،وكان هنري في الثلاثينات من عمره،وقد تزوج من قبل، ولم ينجب الزواج وريثاً ذكراً ،ومن ثم حله على أساس قاعدة القرابة المعروفة،وكانت ماتيلدا التي ولدت في سنة أساس قاعدة القرابة عشرة من عمرها أو في الثانية عشرة،عندما تزوجت،وأنجبت لزوجها ولدين ذكرين،والى تاريخ وفاتها في سنة تزوجت،وأنجبت لزوجها الواسعة أثناء غيابه في حجه الى الأراضي المقدسة في حجه الى الأراضي

وكانت النتائج السياسية للزواج غير متوقعة كلياً، حيث ورطت هنري الثاني وأولاده بعمق في السياسات الألمانية، فقد تخاصم الدوق هنري مع الامبراطور فردريك في أواخر السبعينات من القرن الثاني عشر، وفي خريف سنة ١١٨٢ وصل هنري وأسرته الى بلاط هنري، منفيين، وحاول الملك الحتن أن يضمن عودة صهره الى سكسوني من خلال الضغوط السياسية على فردريك، وأصبح الولدان، لاسيا أوتو وهو الثاني بينها، تحت هاية أسرة بلانتغنت، وقد بقيا في بلاطها عندما عاد هنري وماتيلدا الى ألمانيا سنة ١١٨٥.

١٨- الملكة السجينة السياسية:

كانت اليانور في السنين الأولى من زواجها من هنري الثاني نشطة منشغلة في الحياة السياسية لممتلكاتها، وقد سافرت كثيراً جداً ، ومارست كثيراً المسؤوليات الادارية، وظلت حتى سنة ١١٦١ تقريباً النائبة للملك في انكلترا أثناء غيابات هنري، ويمكن القول أنها منذ هذه الآونة الصاعد رفضها لهنري، ومع أن هنري أعطاها حرية كاملة للاشراف على دوقية أكوتين ١٦٨ أ،لعله فعل ذلك لتتركه يتابع مغامراته السياسية الخاصة والنسائية بدون عوائق مع أمور أخرى، ولم يتوقف نشاط اليانور التآمري ضده، وبعد سنة عندمًا تمت تسمية رتشارد ولياً لعهدها على الدوقية ،غدا رتشارد رفيقها الدائم وتابعها في التامر ضد أبيه، وأعطى تتويج هنري الشاب ملكاً لانكلترا في سنة ١١٧٠،اليانور فرصة نافعة لتحقيق خططها ضد زوجها، ووصل عملها التآمري في سنة ١١٧٣ الى درجة الإثمار، وذلك عندما ثار أولادها: الملك الشاب، ورتشارد وغيوفرى ضد أبيهم وهربوا الى عند لويس السابع، وألقى القبض على اليانور عندما حاولت اللحاق بهم وهي متخفية على شكل رجل، وقد سجنت من قبل زوجها الغاضب وعرف هنري أنه سيقترف خطيئة سياسية كبيرة إذا ماطلق اليانور، كما أنه لم يكن قادراً على إرغامها على أن تصبح راهبة في دير فونتغرولت، وادراكاً منه لما مثلته من خطر على الاستقرار في بلاده،أبقاها في سجن مضيق عليها، وأوكل الاشراف على ذلك السجن الى أكثر رجاله ثقة، وقد تحملت هذه المعاملة بصبر وشجاعة، وسمح لها مع مستشاريها الروحيين بالترحال الى مسافات قصيرة، فيها بين ونكستر وسالسبري ولدغرشال Ludgershallلومساكن ملكية أخرى في جنوبي انكلترا.

وبعد وفاة الملك الشاب في سنة ١١٨٣ ،أطلق سراحها لوقت قصير كي تذهب الى أكوتين لتتصدى لادعاء فرنسي بالدوقية ،وسمح لها في السنة التالية بالقدوم الى البلاط لرؤية ابنتها ماتيلدا المنفية من سكسوني

مع زوجها هنري الأسد، ثم ذهبت سنة ١١٨٥ في ظل الحراسة الى نورماندي لتتسلم أكوتين من رتشارد، الذي اقتنع بالتخلي عن دوقيته المحبوبة، تحت تهديد والده أن اليانور سوف تعيث فساداً في المنطقة مع جيش بصحبتها.

ومن جديد بدأت اليانور في السنوات الثلاث الأخيرة من حياة هنري بالتآمر ضده،ومنحها موته في ١١٨٩ الحرية وسمح لها بمارسة السلطة بشكل أعظم مما تمتعت به من قبل.

# ١٩ -قضية قتل:

كان الفصل النهائي في الصراع الذي استمر ست سنوات فيا بين هنري الثاني وتوماس بكت حاسماً لأن صراع الإرادة نفسه استمر طويلاً دون نتيجة، وأمكن في سنة ١١٧٠ الوصول الى تسوية بين الملك ورئيس الأساقفة، بموجبها بات بإمكان بكت العودة الى انكلترا، كما أن ممتلكات رئاسة الأسقفية المصادرة سوف تعاد، ولسوف يعيد بكت تتويج الملك الشاب، ومامن شيء قيل حول الاجتماع الذي جرى في كليروندون، وفي الشاب، ومامن شيء قيل حول الاجتماع الذي جرى في كليروندون، وفي المائول سنة ١١٠٠، عاد بناء عليه رئيس الأساقفة الى انكلترا بعد سني نفيه، شم مالبث أن قام بحركة عدوانية وغير تصالحية فحرم رئيس أساقفة يورك مع اثنين من الأساقفة كانا قد ساعداه لدى تتويجه للملك هنري، وعندما وصلت هذه الأحبار الى هنري في نورماندي اشتعل غضباً، فما كان من أربعة من فرسانه إلا أن سافروا الى كانتري بري ليتولوا تنفيذ انتقام رهيب من الصعب جداً أن نصدق أن الملك كان ليتولوا تنفيذ انتقام رهيب من الصعب جداً أن نصدق أن الملك كان بلادور فيه.

وفي عشية ٢٩-كانون الأول كان رئيس الأساقفة قد اغتيل في كاتدرائيته،،وبذلك ثار السخط وعم جميع أرجاء أوربا.

وبات بكت الميت أقوى بلا حدود من بكت الحي، وفي خلال عدة

أشهر تلت وفاته حكي عن عدة أعمال إعجازية حدثت عند ضريحه، وخلال أقل من ثلاث سنوات مضت على مقتله جرى تطويبه قديساً من قبل البابا الاسكندر الثالث، وكان ذلك في شباط سنة ١١٧٣.

وفي السنة التالية أعلن الملك أمام الناس عن توبته أمام مزار عدوه القديم، وغدا هذا المزار بسرعة ثم بقي واحداً من المزارات الرئيسية لمسيحية العصور الوسطى، ومقصداً للحجاج، ولم يكن توماس بكت بطبيعته قديساً، لكنه عدّ شهيداً، وعلى هذا الأساس أصبح أعظم الشهداء تأثيراً في تاريخ الكنيسة الانكليزية.

# ٢٠ -فراخ النسر:

تبعاً لمارواه جيرالدأوف ويلز،ترك هنري الثاني مساحة صورة بيضاء في خدعه المصور بشكل رائع في قلعة ونكستر،وفي سنوات الملك الأخيرة جرى الرسم فوق المساحة وفق ماصممه الملك شخصياً،وحوت الصورة شكل نسر له أربعة فراخ،وكان هناك أنثى نسر واحدة جلست على ظهر النسر،وكان هناك نسرين على جناحيه يمزقان جسده،ووقف النسر الرابع فوق رأسه ينتظر ليقوم باقتلاع عينيه،وقال هنري إن الصورة مثلته مع أولاده الذين لم يتوقفوا عن تعذيبه حتى مات،وقال بأن الصغير بينهم، وهو الأثير لديه سوف يؤذيه بوحشية أكثر من البقية.

ولد أكبر أولاد هنري من إليانور الذين عاشوا،سنة ١٥٥، ١٥٥ وهو هنري الملك الشاب،وكان الثاني هورتشارد،وقد ولد سنة ١١٥٧،أماالثالث فهو غيوفري وقد ولد سنة ١١٥٨،وكان الأخيره وجون وقد ولد سنة ١١٦٧،وقد حذا هنري حذو سواه من أمراء فرنساالكبار،الذين غالباً ماقسموا أراضيهم بين أبنائهم وهكذا تسلم الولد الأكبر الممتلكات التي عادت الى الأب،وتسلم الأولادالأصغر بعض الممتلكات وبناء عليه توقع الأولاد الأربعة تسلم بعض الحصص من ممتلكات أبيهم الواسعة لكن غير المريحة، وفي سنة ١١٦٩ قام هنري ببعض الترتيبات في هذا المنحى غير المريحة، وفي سنة ١١٦٩ قام هنري ببعض الترتيبات في هذا المنحى

فنال الملك الشاب نورماندي وانكلترا وأنجو، وتقرر أن يأخذ رتشارد دوقية أكوتين مع أراضي أمه، وأن يأخذ غيوفري بريتاني ، لكن بمثابة تابع للملك الشاب، الذي توج ملكاً لانكلترا سنة ١١٧٠، وحرم جون من علك أية أراض، ولهذا نال لقب «بلا أرض».

وكان هنري الملك الشاب عابثاً وكسولاً ،وشاباً يجب الحرب، لذلك ثار ضد أبيه لأنه لم يسمح له بمارسة سلطانه والتصرف بأراضيه، وكان ميراث جون أبعد صلة وصل مع العائلة فقد أراد هنري الشاني أن ينال ابنه الأصغر الحصون الأنجيفية في شينون ولاندون، وميربو، لكن الملك الشاب عارض هذه الخطة، وبمساعدة من اليانور جرى تدبير مؤامرة ضد هنري الثاني أسهم فيها لويس السابع ملك فرنسا الذي إليه فرالأخوة الثلاثة الكبار ، واستهلك هنري الثاني جميع براعاته السياسية، والدبلوماسية والعسكرية حتى استطاع هزيمة هذا التحالف الخطر في سنة ١١٧٤.

#### ٢١ - مذبحة اليهود:

في السنوات التي أعقبت استيلاء النورمان على انكلترا، شجع الملوك الانكليز اليهود على عبور القنال من نورماندي الى لندن، ومع منتصف القرن الثاني عشر كان هناك مجموعات صغيرة انتشرت في مدن البلاد، عملت على اقراض الأموال الى جيرانهم المسيحيين، وأثارت اعدادات رتشارد للحملة الصليبية الثالثة ضد المسلمين العداوة الشعبية الواسعة نحو اليهود، الذين مثلوا أهم مجموعة دينية وعرقية متميزة كأقلية في انكلترا، وبدأت أعمال العنف والصخب ضد اليهود مع أعمال تتويج رتشارد في وستمنستريوم ٣-ايلول سنة ١١٨٩، وامتدت أعمال العنف هذه الى جميع أرجاء البلاد، وتجلت على شكل هجمات، أو سلسلة حملات ضد مناطق اليهود في المناطق الريفية ودامت خلال الشتاء والربيع، ووصلت الذروة في المناطق الريفية ودامت خلال الشتاء والربيع، ووصلت الذروة في المناطق الريفية ودامت خلال الشتاء والربيع، ووصلت الذروة

داخل القلعة الملكية في يـورك يوم سبت الآغادول GODOL ليلة ١٦ آذار سنة ١٩٠، واتخذ رتشارد نفسـه خطوات مباشرة لتجنب تكـرار مثل هذا الصخب وأعمال عنف الرعاع.

وفى العقد الأخير من القرن الثاني تحول اليهود الانكليز الذين كانوا يقرصون الأموال ويتمتعون بالحهاية الملكية ،الى أقنان للخزينة الملكية، وبذلك انتظموا أكثر من ذي قبل، وجاء هذ الإجراء لضهان خضوعهم للضرائب الملكية الثقيلة، ويبدو أن الملك جون كان يزدريهم، لكنه أصر، أنهم ماداموا مصدراً نافعاً للهال، ينبغي حمايتهم، وقال: «إذا ما أعطيت السلم حتى إلى كلب ينبغي حماية هذا السلم وعدم خرقه »، وفرض جون عرامات قاسية جداً على اليهود، مماسبب هرب كثير منهم من انكلترا للنجاة من جشعه، وفي سنة ١٢٩١ جرى سحب الحماية الملكية المتقلبة بشكل كامل من قبل ادوارد الأول، وطرد اليهود من انكلترا حيث مكثوا خارجها طوال بقية العصور الوسطى، لابل أكثر من ذلك.

#### ٢٢-فيليب أغسطس:

عندما التقى رتشارد وفيليب الثاني ملك فرنسا في فيزلي، كان الملك الفرنسي الأدنى كثيرا والأقل في اعطاء انطباع العظمة بين الرجلين، فقد كان قصيراً، وبدينا، ونادراً ماكان بصحة جيدة، وقد فقد شعره أثناء الحملة الصليبية الثالثة، زد على هذا كان يميل لأن يكون مرائيا، وفي القتال كان النظير الأسوأ للملك الانكليزي، غالباً ماأرغم على الفرار، وقد خسر آلات قذفه في فيرنول، وقطار عرباته في فرتفال، وسقط في الماء في غيسور، حتى في نصره العظيم ضد جون وحلفائه في بوفين سنة غيسور، حتى في بوفين سنة حصانه.

ومع هذا كله، لئن لم يكن فيليب قد بني ليكون بطلاً محارباً، كان حاكماً قادراً، وعندما كان شاباً، وجد يحلم تحت شجرة ويتساءل هل

سيكون عظيماً مثل شارلمان، ووصفه المؤرخ الفرنسي فوتيير: "إنه كان أعظم ملوك أسرة كابيه "وفي الوقت نفسه قال المؤرخون: "لقد وسع الى درجة كبيرة حقوق وسلطة مملكة فرنسا، وأغنى الخزانة الملكية "، فلقد ضاعف متلكات الملكية أربع مرات، وهزم أوتو الرابع امبراطور الامبراطورية السرومانية المقدسة، الذي كان حليفاً لجون، في بوفين -Bou السرومانية المقدسة، الدويلات البلانتغنتيه في القارة، وحكمت فرنسا بشكل فعال من قبل موظفين محليين، وغدت باريس عاصمة عظيمة،

وكان فيليب قد تزوج ثلاث مرات، وقد وجد زوجته الثانية وهي دانهاركية اسمها إينبورغIngeborg غير مرضية بعد ليلة واحسدة من الزواج، وأدى انفصاله عنها ثم، ما أعقب ذلك من ارتباطه مع أغنس أوف ميران الى عداء كبير وخصام مع البابوية ثم الى حرمانه كنسيا، وفي سنة ١٢١٣ بعد ولادة حفيده،أعاد إينبورغ زوجة له للمرة الثانية.

# ٢٣ - الذراع الطويلة للملكية:

كان نجاح الحملة الصليبية الثالثة من ١١٨٩ الى ١١٩٢ عدوداً، وتبرهن أنه من غير الممكن استردادالقدس،

لكن صلاح الدين أجبر على عدم التوسع، وتمكنت المملكة الصليبية التي بدت في عام ١١٨٧ على حافة الزوال، من اعادة التأسيس على الشريط الساحلي، وتمكنت من العيش بعد ذلك لقرن من الزمان، زد على هذا استولى رتشارد على جزيرة قبرص الاستراتيجية في سنة ١١٩١، أثناء قدومه الى الأراضى المقدسة، فصارت قاعدة ساحلية للامداد.

وعادت معظم نجاحات الحملة الى رتشارد،الذي كانت قد عادلت قدراته التنظيمية والسياسية براعاته العسكرية المعروفة، وكانت الترتيبات التي أعدها للحكم في الممتلكات البلانتغنتية أثناء غيابه عملية ناجعة ،وكانت رعيته معتادة على غياب الحكام، لأن والده هنري أمضى مدة وجيزة في

كل واحدة من مقاطعاته،وفي مناسبة رتشارد يرجح أن الصلات بينه وبين موظفيه بقيت عن طريق المراسلات،ومع هذا كان بامكان الملك التجاوب مع أي قضية أو حادثة بعد مالايقل عن شهرين على وقوعها.

وكان قد عين في انكلترا، ونورماندي، وأنجو، وبواتو، وغسكوني رجالاً خلصين له وأصحاب خبرة، وقد مثلوه بشكل جيد ، ومن أجل حماية دوقية أكوتين المضطربة تزوج من بيرنغاريا، وبذلك ضمن مساندة أبيها سانشو السادس صاحب نافار ليقف ضد الكونت ريموند صاحب طولوز، وكانت اليانور مع المسؤولين الآخرين متحفزين لحاية السلطات الملكية .

وكانت الترتيبات التي أعدها ناجحة بشكل عام ،على الرغم من بعض المصاعب التي كان من غير الممكن تجنبها في عصر كان غياب الملك أو مرضه يمكن أن يفرض مشاكل حادة جداً ،وجاء التهديد الأساسي من أعداء رتشارد وهم: فيليب الثاني ملك فرنسا،وريموند صاحب طولوز، وطبعاً من أخيه جون أثناء السنة التي تقدمت على عودته، ولو أنه عاد الى انكلترا،عندما كان متوقعاً، ولم يمض سنة في السجن الألماني، لتبرهن أن ترتيباته لحكم بلاده أثناء غيابه مع الحملة الصليبية، كانت ناجحة الى أبعد الحدود.

#### ٢٤-الملكة المديلة:

في ١٢-أيار عام ١٩٩١ تزوج رتشارد قلب الأسد من بيرنغاريا ابنة سانشو السادس صاحب نافار ،وقد جرى تتويجها ملكة على انكلترا ،والمعلومات المعروفة حولها قليلة، لكن هناك اتفاق على أنها كانت حكيمة أكثر من كونها جميلة،وأن الزواج أعد لأسباب سياسية،وكان لدى رتشارد ثلاثة دوافع لاختياره بيرنغاريا:لقد كانت بديلة لخطيبته أليس الفرنسية التي رفضها في سنة ١٩٩٠،وليتحالف مع نافار،وليحصل على ولد ذكر، ولم

يفلح فقط في النقطة الأخيرة .

وجملت اليانور أم رتشارد بيرنغاريا اليه عندما كان في طريقه الى الأراضي المقدسة ،وتركتها معه في صقلية في شباط ١٩١، وكان ذلك قبل أن يحلل فيليب الثاني رتشارد ويحرره من تعهده الذي كان عمره آنذاك عشرين سنة، بالزواج من أليس،وكان الموسم آنذاك هو أيام الصيام،حيث من غير الممكن تنفيذ الزواج، وقرر رتشارد الابحار نحو الأراضي المقدسة،لكن السفينة التي كانت تحمل بيرنغاريا انفصلت عن بقية سفن الاسطول أثناء عاصفة من العواصف، وقد تمكنت من اللجوءالى مكان قرب لياسول في قبرص ودفعت المحنة التي تعرضت بيرنغاريا إليها لتعرضها لتهديد اسحق كومنوس،حاكم الجزيرة،رتشارد بيرنغاريا إلى محاربة كومنوس واحتلال قبرص، وتم عرس رتشارد وبيرنغاريا في الياسول.

وكان الزواج نجاحاً سياسياً ، فقد ساعد سانشوا لجرى ، أخو بيرنغاريا في الدفاع عن أكوتين ضد الفرنسيين أثناء وجود رتشارد بالسجن، ومع ذلك لم يكن الزواج سعيداً ، فقد أمضى رتشارد وقتاً قليلاً مع زوجته ، ولم يرزقا بالأولاد ، ولم تسهم بيرنغاريا بدور سياسي كبير، وعاشت بعد وفاة رتشارد في لامانس حيث حظيت بالشهرة والاحترام لكرمها في تقديم المساعدات .

#### ٢٥-متاهة السياسات الألمانية:

كان الامبراطور هنري السادس ،حاكم ألمانيا،عندما سجن رتشارد هناك ١١٩٣-١١٩٤، وكان فردريك بربروساً والد هنري، واحداً من أعظم أباطرة العصور الوسطى ، وقد مدّ اهتماماته الى ايطاليا،وزوج ابنه من كونستانس وريثة صقلية النورماندية،وكان هذا واحداً من أسباب الصراع فيها بين هنري السادس وبين رتشارد، فجوانا أخت رتشارد كانت

قد تزوجت من وليم الثاني، ملك صقلية، الذي توفي سنة ١١٨٩، ووقتها كان رتشارد في طريقه نحو الأراضي المقدسة،فساند تانكرد أوف ليسي Lecceعلى خلافة وليم ضد هنري السادس.

وتوفر سبب آخر للعداوة في ألمانيا، تمشل بزواج هنري الأسد، دوق سكسوني وبافاريا، الذي كان خصماً لأسرة هنري، من أخت أخرى لرتشارد، هي ماتيلدا، وتمكن بربروسا مع أمراء آخرين من هزيمة الدوق، الكن وضع هنري السادس كان بعيداً عن الضهان والأمن ، ففي الشهال الشرقي كانت هناك أسرة الولفيين Welf القوية، وكانت معادية وعلى خلاف حول الرابطة الأسقفية، وقد دخلت في صراع مع الأمراء في الشهال الشرقي كنذلك كان هنري السادس بحاجة ماسة الى الفرصة التي تهيأت له بأسر رتشارد قلب الأسد،

ومع أنه لم يكن من السهل اختيار طريق العودة للوطن، يبدو أن قرار رتشارد النهائي بالعودة عبر النمساء التي يحكمها ليوبولد، عدوه القديم أثناء الحملة الصليبية الثالثة، اتخذ بلا مبالاة، ووقع رتشارد بالأسرسنة الثاء الحملة الصليبية الثالثة، اتخذ مطبخ يتولى تحريك سفود في حانة خارج فينا، وقد سلمه ليوبولد الى هنري السادس ، حيث سجن في ألمانيا في دور نستين ثم نقل الى تريفل، وأطلق سراحه في ١١٩٤ عندما دفع في دور نستين ثم نقل الى تريفل، وأطلق سراحه في ١١٩٤ عندما دفع فدية كبيرة قدرها مائة ألف مارك (مع خمسين ألف اخرى ستتبعها، إلا إذا أقنع هنري الأسد في إقامه سلام مع الامبراطور)، كما أنه وافق على الاعتراف بهنري المعطوم مع الاعتراف بهنري المعطوم مع الاعتراف الكلترا.

وكان نصر هنري قصير العمر، ذلك أنه توفي بعد ثلاث سنوات في ١٩٧ وانتقلل حكم الامبراطورية الى حليف رتشارد: أوتو أوف برنسوك Brunswick، ابن هنري الأسد.

٢٦-فدية ملك:

أطلق سراح رتشارد من السجن الألماني مقابل فدية كبيرة جداً قدرها ٢٦,٠٠٠ جنيه جمعت من أراضيه، ويعود الفضل في هذا الى المستشار وليم لو نغشامب، وإلى أمه إليانور، وإلى النظام الذي طوره رتشارد وأسلافه، والذي كان من الممكن أن يكون فعالاً ما فيه الكفاية حتى أثناء غياب الملك.

وعندما ذهب رتشارد في الحملة الصليبية سنة ١٩٠، كان ملكاً عظيماً وثرياً ،ومع أنه أمضى عدة أشهر فقط في انكلترا،لقد أحسن استخدامهم، فقد ذكر أحد المؤرخين المعاصريين له أنه «عرض كل شيء لديه للبيع:الوظائف،اللوردية، والايرليه، والعمالة والقلاع، والبلدات والأراضي، وكل ماتوفر »وصرح رتشارد نفسه فائلاً: «سوف أبيع لندن نفسها إذا وجدت مشتري »حتى لونغشام بتوجب عليه دفع ٠٠٠، ٣ جنيه مقابل وظيفة المستشار، ونتيجة لهذا تمكن رتشارد من الضغط أكثر على المسلمين مما استطاع فيليب أن يفعل ، فقد كان لديه سفناً أكثر، وأدوات حصار، ورجال، وأعطى أعطيات آنمن.

وحكمت أراضيه أثناء غيابه بشكل جيد من قبل وزراء خلصين،وذلك على الرغم من المتاعب التي آثارها أخوه الطموح جون،ففي انكلترا أثقل وليم لونغشامب «كاهل الشعب وظلمه باستخراج مكوس ثقيلة»ليمول حملات مولاه، وبذلك جعل نفسه لايتمتع بالشعبية،وحاول جون استغلال هذا

وعلى الرغم من دفع رتشارد للفدية،بدون مساعدة لونغشامب البارعة، تمكن من جمع مايكفي من مال بين ١١٩٤ و١١٩٩ لاسترداد مااستولى عليه فيليب في نورماندي، ولبناء قلعة شاتو غيلاردالرائعة، وليحفظ ممالكه سليمة.

٢٧-حصاد أسرة بلانتغنت:

كان رتشارد برأي معاصريه أثرى وأقوى وأشجع من الملك الفرنسي، وصحيح أن الملك الفرنسي كان أعلى مرتبة من رتشارد، لكن ممتلكات رتشارد كانت أوسع وأكثر خصباً، كان فيها عدد من البلدات المزدهرة والمراكز التجارية الناشطة بحكم وجود بحر الشهال، والقنال، وطرق الأطلسي مع مجاري ثلاثة أنهار عظيمة هي: السين واللوار، وغارون.

وصحيح أن موارد جون كانت نظرياً أعظم من موارد عدوه الفرنسي، لكنه كان أدنى كفاءة، فضلاً عن أنه ورث بلاداً أفقرتها المكوس التي فرضها رتشارد وحصلها وأنفقها ، ومع الأيام صار فيليب أعظم ثروة، لكن جون عجز عن الضغط على الفرنسيين وجعلهم ينفقون ماتوفر لديهم من مال ، وهو قد طلب دوما جمع المال ، لكنه لم ينفقه في مقاصد نافعة كما فعل رتشارد.

### ۲۸-الزواج من ایزابیلا:

تزوج جون لمدة عشر سنوات من ابنة عمه ايزابيلا أوف غلو ستر،عندما وصل الى العرش في سنة ١١٩٩، وكان مخطوباً لها منذ أن كان في العاشرة، ولم ينجبا أولاداً مع أن جميع أولاد جون من خليلاته ولدوا أثناء زواجها، ولم يتوجها جون ملكة معه، ووافقه وهو ملك أن يكون حراً لعقد زواج آخر لأسباب سياسية، وكان زواجه من ايزابيلا قد واجه معارضة كبيرة من الكنيسة بسبب القرابة بينها ، لهذا لم يجد الآن صعوبة في الحصول على الطلاق منها.

وفي سنة ١٢٠٠،أثناء زيارة له لأكوتين، تزوج بشكل غير متوقع من روجة جديدة ،اسمهاايزابيلا أيضاً، وراجت أقاويل أنه أسكرها وضاجعها، ولاشك أن هذا يوضح سبب السرعة، وقد كانت في حوالي الثانية عشر من عمرها، وهي ابنة أودمار Audemar، كونت أوف أنغوليم، الذي كان من أعلى نبلاء الدوقية مكانة، وكان من قبل قد

سبب بعض المشاكل بتقديمه الولاء لفيليب الثاني ملك فرنسا، كطريقة لتأكيد استقلاله عن الملك رتشارد، وقد قيل الكثير حول هذا الزواج، فهو قد ضمن ولاء الكونت مع المكانة الاستراتيجية لممتلكاته، وكانت ايزابيلا مخطوبة من قبل لهيوج البني صاحب لوزغنان المجاورة ، وكان صليبيا شجاعاً ،من أسرة متعبة وناجحة، وكان صديقاً لرتشارد، وعلى خلاف مع أبي ايزابيلا حول كونتيه لامارشي، ولم يكتف جون بأخذ خطيبة هيوج، بل اغتصب في سنة ١٠٢١ كونتيته وأعطاها الى أودمار ختنه الجديد، ولكي يزيد الأمور سوءاً استولى على الأراضي النورماندية التي كانت بحوذة الف أخي هيوج الأصغر.

والتمس الأخوان اللوزغنانيان المساعدة القضائية من فيليب الثاني ملك فرنسا واستدعى فيليب جون للحضور أمام محكمة البلاط الملكي الفرنسي، ولم يحضر جون، وكان هذا مسوغاً لأن يعلن فيليب عن مصادرة جميع اقطاعيات جون الفرنسية في نيسان سنة ٢٠٢ (تقبل فيليب فيها بعد ولاء وتبعية آرثر تجاه جميع هذه الاقطاعيات ،ورتب الأمور لكونت بريتاني الشاب ليتزوج من ابنته ماري) وأعطى هذا القرار القضائي الصبغة الشرعية لأعمال الاستيلاء التالية التي قام بها فيليب ،لقد حمل آرثر مع الآخرين من أسرة لوزغنان السلاح ضد جون و، في المتن المزيد من التفاصيل حول ماحدث .

# جريدة المصادر والمراجع

# Bibliography

This is not intended as a comprehensive bibliography of all relevant works, but is a selection of books relating to the topics discussed in the notes and the chronicles. Articles have not been included because they are more difficult for the general reader to obtain, most of the works cited here contain bibliographics which are a good starting point for more detailed reading on individual subjects.

## – Politics, Law and Finance $\scriptstyle -$

- Appleby, J. T., England without Richard, London, 1965
- Appleby, J. T., Henry II, the Vanquished King, London, 1962
- Baker, J. H., An Introduction to English Legal Flistory, 2nd edn., London, 1979
- Barber, R., Henry Plantagenet, a Biography, London, 1964
- Barlow, F., The Feudal Kingdom of England, 1042-1216, 3rd edn., London, 1972
- Barraclough, Cr., ed. and trans., Medieval Germany, 911–1250, 2 vols., Oxford, 1938
- Barrow, G. W. S., Feudal Britain: The Completion of the Medieval Kingdoms, 1066-1314, London, 1956.
- Barrow, G. W. S., The Kingdom of the Scots: government, church and society from the eleventh to the fourteenth century, London, 1973
- Barrow, G. W. S., Kingship and Unity: Scotland 1000– 1306, London, 1981
- Bates, D., Normandy before 1066, London, 1982
- Bautier, R. H., ed., La France de Philippe Auguste: le temps des mutations, Paris, 1982
- Brékilien, Y. Histoire de la Bretagne, Paris, 1979
- Brooke, C. N. L., Europe in the Central Middle Ages, 962-1154, London, 1964

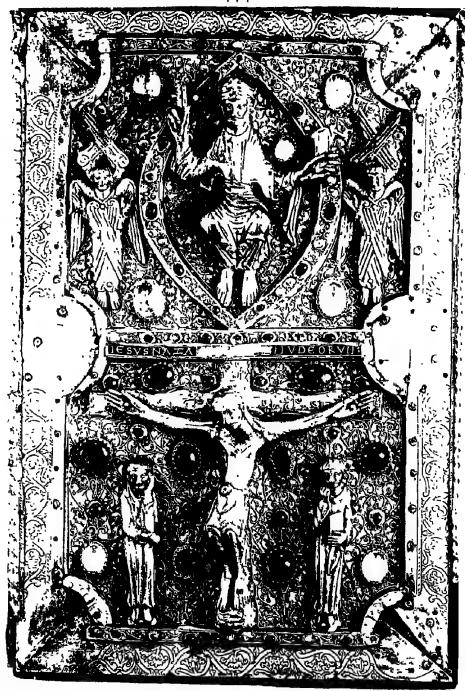
- Brooke, C. N. L., From Alfred to Henry III, 871-1272 London, 1961
- Brooke, Z. N., A History of Europe, 911-1198, London, 1938
- Brooks, F. W., The English Naval Forces, 1199-1272, London, 1933
- Brown, R. A., The Normans and the Norman Conquest, London, 1969
- Brundage, J., Richard Lion Heart, New York, 1973
- Boussard, J. Le gouvernement d'Henn II Plantagenêt, Paris, 1956
- Boussard, J., Le comté d'Anjou sous Henri Plantagenêt et ses fils, 1151-1204, Paris, 1938
- Bur, M., La formation du comté de Champagne, v 950v.1150, Nancy, 1977
- Cartellieri, A., Philipp August König von Frankreich, 4 vols, Leipzig, 1899–1922
- Chartrou, J., L'Anjou de 1109 à 1151, Paris, 1928
- Chrimes, S. B., An Introduction to the Administrative History of Medieval England, 2nd edn., Oxford, 1959
- Clanchy, M. T., England and its Rulers, 1966-1272, London, 1983
- Clanchy, M. T., From Memory to Written Record, England, 1066–1307, London, 1979
- Cox, J C, The Royal Forests of Medieval England, London, 1905
- Cronne, H. A., The Reign of Stephen, Anarchy in England, 1135-54, London, 1970

- Davis, R. H. C. A History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis, London, 1957
- Davis, R. H. C., King Stephen, London, 1977
- Davis, R. H. C., The Nonnans and their Myth, London, 1976
- Duby, G., Le dimanche de Bouinnes, Paris, 1973
- Duggan, A. Deni's Brood The Angern Family, London, 1957
- Dunbahin, J., France in the Making, 843–1100, Oxford, 1985
- Duncan, A. M., Scotland. the Making of the Nation, Edinburgh, 1975
- Eyton, R. W., The Court, Household and Itinerary of Henry II, London, 1878
- Fawtier, R. The Capetian Kings of France, Monarchy and Nation, 987-1328, trans Butler, L., and Adam, R. J., London, 1966
- Galbraith, V. H., Studies in the Public Records, London, 1948
- Gillingham, J., The Angeum Empire, London, 1984
- Gillingham, J. Richard the Lumheart, London, 1978
- Gillingham, J., and Holt, J. C., eds., War and Government in the Middle Ages, Woodbridge, 1984.
- Gonzalez, J., El Remo de Castilla en la epoca de Alfonso VIII, Madrid, 1960
- Guillot, O., Le comte d'Anjou et son entourage au XI stècle, 2 vols, Paris, 1972
- Hall, H., Court Life under the Plantageness, London, 1890
- Hallam, E. M., Capetian France, 987–1328, London, 1980
- Hallam, E. M., Domesday Book through Nine Centurnes, London, 1986
- Halphen, L., Le comté d'Anjou au XI<sup>\*</sup> siècle, Paris, 1906
- Harding, A., Th. Law Courts of Medieval England, London, 1973
- Hardy, T. D, The Itinerary of John, King of England, London, 1829

- Harvey, J. H., The Plantagenets, London, 1948
- Haskins, C. H., Norman Institutions, Cambridge, Mass., 1918
- Heer, F., The Holy Roman Empire, trans. Sondheimer, J., London, 1968.
- Hodgson, C E., Jung Heinrich, Konig von England, Sohn König Heinrichs II, 1155–83, Jena, 1906
- Holdsworth, W. A History of English Law, 7th edn, London, 1956
- Holt, J. C., King John, London, 1963
- Holt, J. C., Magna Carta, Cambridge, 1965
- Holt, J. C., The Northerners, Oxford, 1961
- Hoyt, R. S., The Royal Demeste in English Constitutional History, 1066-1272, New York, 1950
- Johffe, J. E. A., Angewn Kingship, 2nd ed., London, 1963
- Kibler, W. W., ed , Eleanor of Aquitaine, Patron and Politician, Austin, 1977
- Knowles, M. D., The Historian and Character and Other Essays, Cambridge, 1963
- Landon, L., The Innerary of Richard I, Pipe Roll Society, 1935
- Lemarignier, J F, La France médiévale, institutions et sociétés, Paris, 1970
- Lemangnier, J F, Le gouvernement royal aux premiers temps capétiens, Paris, 1965
- Lloyd, J. E., A History of Wales, from the earliest times to the Edwardian Conquest, 3rd edn., London, 1939
- Luchaire, A., Louis VI le Gros, annales de sa vie et de son règne, 1081-1137, Paris, 1890
- Madox, T., The History and Antiquities of the Exchequer of England, London, 1769
- Malden, H. E., ed., Magna Carta Commemoration Essays, London, 1917
- Marsh, F. B., English Rule in Gascony, 1199–1259, Ann Arbor, 1912
- Mitchell, S. K, Studies in Taxation under John and Henry III, New Haven, 1914
- Mitchell, S. K., Taxation in Medieval England, ed. Painter, S., New Haven, 1951

- Moore, O. H., The Young King Henry Plantagenet, 1155-83, Columbus, Ohio, 1925
- Morris, W. A., The Medieval English Sheriff to 1300, Manchester, 1927
- Munz, P., Frederick Barbarossa, London, 1969
- McKitterick, R., The Frankish Kingdoms under the Carolingians, 751–987, London, 1983
- Norgate, K., England under the Angerin Kings, 2 vols, London, 1887
- Norgate, K., John Lackland, London, 1902
- Norgate, K., Richard the Lionheurt, London, 1924
- Oman, C. W. C., The Connage of England, Oxford, 1931
- Otway-Ruthven, A. J. A History of Medieval heland, 2nd edn., London, 1980
- Pacaut, M., Louis VII et son royaume, Paris, 1967
- Painter, S., The Reign of King John, Baltimore, 1949
- Painter, S., William Marshall, Baltimore, 1933
- Patourel, J. le, The Norman Empire, Oxford, 1970.
- Pernoud, R., Eleanor of Aquitaine, London, 1967
- Petit-Dutaillis, C., Le déshéritement de Jean-sans-terre et le meurtre d'Arthur de Bretagne, Paris, 1925
- Petit-Dutaillis, C, The Feudal Monarchy in France and England from the Tenth to the Thirteenth Century, trans Hunt, E D, London, 1935
- Pollock, F., and Matland, F W. The History of English Law befine the Time of Edward 1, 2 vols, 2nd edn., Cambridge, 1898
- Poole, A L. From Domesday Book to Magna Carta, 2nd edn., Oxford, 1955
- Poole, R. L., The Exchequer in the Twelfth Century, Oxford, 1912
- Powicke, F. M., The Loss of Normandy, 2nd edn., Manchester, 1961
- Ramsay, J. H., The Angeum Empire, 1154-1216, London, 1903
- Ramsay, J. H., The Revenues of the Kings of England, 2 yels, Oxford, 1925.
- Richard, A., Histoire des comtes de Poitou, 778-1204, 2 vols, Paris, 1903

- Richardson, H. G., and Sayles, G. O., The Governance of Medieval England from the Conquest to Magna Carta, Edinburgh, 1963
- Rössler, O., Kaiserin Mathilde, Berlin, 1897
- Round, J. H., Geoffrey de Mandeville, London, 1892
- Sanders, I. J., English Baromes: A Study of their Origin and Descent, 1086-1327, Oxford, 1960
- Saul, N., The Batsfind Companion to Medieval England, London, 1983
- Sayles, G. O., The Governance of Medieval England, Edinburgh, 1963
- Schramm, P. E., A History of the English Coronation, trans. Wickham Legg, G., Oxford, 1937
- Smith, L. M., ed., The Making of Britain, the Middle Ages, London, 1985
- Southern, R. W., The Making of the Middle Ages, London, 1953
- Stenton, D. M. F. Francis the Norman Conquest and the Polymer London, 1965
- Stenton, F. M., The First Century of Lug wh Leadalism, 2nd edn., Oxford, 1961
- Trautz, F., Die Komge von England und das Reich, Heidelberg, 1961
- Ullmann, W., Principles of Government and Politics in the Middle Ages, London, 1961
- Valm, R., Le duc de Normandie et si cour. 912–1204, Paris, 1909
- Waquet, H., Histoire de Bretagne, 3rd cdn., Paris, 1958
- Warren, W. L., Henry II., London, 1973
- Warren, W. L., King John, London, 1961
- Warren Hollister, C., The Military Organisation of Norman England, Oxford, 1965
- West, F J, The Justinarship in England, 1066-1232, Cambridge, 1936
- Wightman, W E, The Lacy Family in England and Normandy, 1066–1194, Oxford, 1966
- Young, C. R, The Royal Forests of Medieval England,



عطا، كناب ديبي يعكس التقاليد المتطورة للعمل الجميل بالمعادن المرصعة بالجواهر

## Ecclesiastical

- Aubert, M., Suger, Saint Wandrille, 1950
- Barlow, F., The English Church, 1066–1154, London, 1979
- Blair, P. H., ed and trans, The Rule of St Benedict, 5th edn., Fort Augustus, 1948
- Bolton, B. The Metheval Reformation, London, 1983
- Brooke, C. N. L., and Swaan, W., The Monastic World, 1000-1300, London, 1979
- Brooke, Z. N., The English Church and the Papacy from the Conquest to the Reign of John, Cambridge, 1931
- Cheney, C. R., From Becket to Langton English Church Government, 1170–1213, Manchester, 1956
- Cheney, C. R., Hubert Walter, London, 1967
- Colvin, H. M., The White Canons in England, London, 1951
- Cowdrey, H E J, The Chinacs and The Gregorian Reform, Oxford, 1970
- Dickinson, J. C., The Origins of the Austin Canons and their introduction into England, London, 1950
- Douie, D. L., Archbishop Geoffrey Plantagenet, York, 1960
- Finucane, R. C., Miracles and Pilgrims: Popular Beliefs in Medieval England, London, 1977
- Foreville, R, L'église et la royauté en Angleterre sous Henri II Plantagenêt, Paris, 1943
- Formigé, J., L'Abbaye Royale de Saint-Denis, Paris,
- Gibson, M., Lanfranc of Bec, Oxford, 1978
- Graham, R, St Gilbert of Sempringham and the Gilbertines, London, 1901
- Hell, V. and H., The Road to Compostella, London, 1966

- Hill, B. D., English Castercian Monasteries and their Patrons in the Twelfth Century, Chicago, 1968
- Kemp, E. W., Canonisation and Authority in the Western Church, Oxford, 1948
- Knowles, M. D., Christian Menasticism, London, 1969
- Knowles, M. D., The Episcopal Colleagues of Archbishop Thomas Becket, Cambridge, 1951
- Knowles, M. D., The Monasta Order in England, 940– 1216, 2nd edn., Cambridge, 1966
- Knowles, D., Thomas Becket, London, 1970
- Krehbiel, E. B., The Intendict, its Flistory and Operation, Washington, 1909
- Lambert, M., Medieval Heresy, London, 1977
- Lawrence, C. H., Medieval Monasticism, London, 1984
- Lekai, D. J., Les Moines Blancs, Paris, 1957
- Moore, R. I., The Origins of European Dissent, London, 1977
- Morey, A., and Brooke, C. N. L., The Letters and Charters of Gilbert Foliot, Cambridge, 1967
- Power, E, Medieval English Nunnenes, Cambridge, 1922
- Robertston, J. C., Becket, Archbishop of Canterbury. A Biography, London, 1859
- Saltman, A., Theobald Archbishop of Canterbury, London, 1956
- Scott James, B, ed and trans., St Bernard of Clairwaux seen through ins Selected Letters, Chicago, 1953
- Southern, R. W., St Anselm and Ins Biographer, Cambridge, 1963
- Southern, R. W., Western Society and the Church in the Middle Ages, Harmondsworth, 1970
- Tierney, B, The Crists of Church and State, 1050-1300, New York, 1964
- Vielliard, J., Ginde du pélerin de Saint-Jacques-de-Compostelle, c. 1163

- Voss, L., Heinrich von Bloss, Bischof von Winchester, Berlin, 1932
- Webb, C. C J, John of Salisbury, London, 1932
- Williams, W, St Bernard of Clarvaux, Manchester, 1935
- Zarnecki, G., The Monastic Achievement, London, 1972

## – Social and Economic –

- Baker, D, ed, Medieval Women, Oxford, 1978
- Bautier, R. H, The Economic Development of Medieval Europe, London, 1971
- Bennet, H. S., Life on the English Manor, 2nd edn., Cambridge, 1965
- Beresford, M. W., and St Joseph, J. K. S., Medieval England: an Aenal Survey, Cambridge, 1958
- Bloch, M., Feudal Society, trans Manyon, L. A., 2nd edn., London, 1962
- Boussard, J., Nouvelle Histoire de Pans, I., Pans de la fin du siège de 885–886 à la mort de Philippe Auguste, Pans, 1970
- Brooke, C. N. L., and Keir, G., London, 800-1216 the Shaping of a City, London, 1975
- Cazel, F. A, ed, Feudalism and Liberty: the Articles and Addresses of Sydney Painter, Baltimore, 1961
- Chapin, E., Les villes de foires de Champagne, Geneva, 1937, reprinted, 1976
- Dhondt, J., Etudes sur la naissance des principautés territoriales en France, IX:-X' siècle, Bruges, 1948
- Dion, R., Histoire de la vigne et du vin en France des origines au XIX siècle, Paris, 1959
- Duby, G., The Churalous Society, ed., and trans Postan, C., London 1977
- Duby, G., Medieval Marriage: two models from twelfthcentury France, trans Forster, E. Baltimore, London, 1978
- Duby, G., Rural Economy and Country Life in the Medieval West, trans. Postan, C., London, 1968
- Evans, J., Life in Medieval France, London, 1957
- Fourquin, G., Lordship and Feudalism in the Middle Ages, trans. Lytton-Sells, I and A., London, 1976

- Ganshof, F., Feudalism, trans. Grierson, P., 3rd edn., London, 1964
- Hinde, T, ed, The Domesday Book, London and Markham, Ont, 1985
- Lemarignier, J. F., Recherches sur l'hommage en marche et les frontières féodales, Lille, 1945
- Lot, F., Fidèles ou vassaux? Essai sur la nature juridique du lien qui unissait les grands vassaux à la royauté depuis le milieu du IXº jusqu'à la fin du XIIº siècle, Paris, 1904
- Mollat, M., Histoire de l'Île-de-France et de Paris, Toulouse, 1971
- Pirenne, H., Les villes du moyen age, Paris, 1971
- Platt, C., The English Medieval Town, London, 1976
- Poole, A. L., The Obligations of Society in the Twelfth and Thirteenth Centuries, Oxford, 1946
- Postan, M. M., The Metheval Economy and Society, London, 1972
- Power, E., Medieval Women, Cambridge, 1975
- Pullar, P., Consuming Passions, 2nd edn., London, 1972
- Reuter, T., ed. and trans, The Medieval Nobility, Amsterdam, New York, London, 1979
- Richardson, H. G., The English Jewry under the Angevin Kings, London, 1960
- Stenton, D. M., English Society in the Early Middle Ages, London, 1951
- Taut, J., The Medieval English Borough, Manchester, 1936
- White, L. T., Medieval Technology and Social Change, Oxford, 1962
- Wilson, A., Food and Drink in Britain, 3rd edn., London, 1984

## Art, Music and Literature

- Anderson, M. D., The Medieval Carver, Cambridge, 1935
- Arts Council of Great Britain, English Romanesque Art 1066-1200, London, 1984
- Barber, R. W., The Knight and Chwalry, London, 1970
- Boase, T S. R, Death in the Middle Ages, London, 1972
- Boase, T. S. R., English Art, 1100-1216, Oxford, 1953
- Bony, J., French Gothic Architecture, Berkeley, 1983
- Borenius, T., St Thomas of Canterbury in Art, London, 1932
- Bottineau, Y., Les chemins de Saint-Jacques, Paris, 1964
- Bradford, C. A., Heart Burials, London, 1933
- Brooke, C N L., The Twelfth Century Renaissance, London, 1969
- Broughton, B. B., The Legends of Ruhard I, The Hague, 1966
- Catto, J. I, ed., The History of the University of Oxford, I, The Early Oxford Schools, Oxford, 1984
- Chailley, J., Histoire musicale du Moyen Age, Paris, 1969
- Chaytor, H., From Script to Print. an introduction to medieval literature, London, 1966
- Clapham, A. W., English Romanesque Architecture after the Conquest, Oxford, 1934
- Crosland, J., Medieval French Literature, Oxford, 1956
- Davis, R. H. C., and Waliace Hadrill, J. M., ed., The Writing of History in the Middle Ages ... Essays to R. W. Southern, Oxford, 1981
- Delaborde, H. F., ed. and trans., Ocurres de Rigord et de Guillaume le Breton, 2 vois, Paris, 1882-5
- Dodwell, C. R., Painting in Europe, 800-1200, Harmondsworth, 1971

- Erlande-Brandenburg, A, Le roi est mort, Geneva, 1975
- Evans, G, The Mind of St Bernard of Clairvaux, Oxford, 1983
- Evans, J., Art in Medieval France, Oxford, 1948
- Evans, J. ed., The Flowering of the Middle Ages, London, 1966
- Fino, F. F., Fortresses de la France Médiévale, Paris, 1967
- Grabar, A., and Nordenfalk, C., Romanesque Painting from the Eleventh to the Thirteenth Century, Lausanne, 1958
- Gransden, A., Historical Writing in England c 550 to c 1307, London, 1974
- Harvey, J. H., Cathedrals of England and Wales, London, 1974
- Harvey, J H., The Medieval Architect, Gloucester, 1972
- Haskins, C. H., The Renaissance of the 12th Century, New York, 1927
- Heltzel, V B., Fair Rosamund: a Study of the Development of a Literary Theme, Evanstown, 1947
- Holt, J. C., Robin Hood, London, 1982
- James, M. R., ed. and trans, De Nugis Curtalium by Walter Map, Oxford, 1914
- Kelly, A, Eleanor of Aquitaine and her Courts of Love, London, 1952
- Kidson, P., Murray, P and Honour, H, A History of English Architecture, London, 1962
- Kidson, P., The Medieval World, London, 1967
- Lasko, P., Ars Sacra, 800-1200, Flarmondsworth, 1972
- Leff, G., Medieval Thought: St Augustine to Ockham, Harmondsworth, 1958
- Legge, M. D., Anglo-Norman Literature and its Background, Oxford, 1963

- Mâle, E, Religious Art in France: The Twelfth Century, Princeton, 1978
- Meras, Abbayes et Pélermages de France, Paris, 1964
- Meyer, P., ed and trans, Histoire de Guillaume le Maréchal, 3 vols, Paris, 1891-1901
- Morris, C. The Discovery of the Individual, 1050-1200, London, 1972
- Musset, L., Angleterre romane, I, le sud de l'Angleterre, Paris, 1983
- O'Meara, J. J. ed., The History and Topography of Ireland by Gerald of Wales, Harmondsworth, 1982
- Panofsky, E., Abbot Suger and the Abbey Church of Saint-Denis, Princeton, 1946
- Press, A. R., An Anthology of Troubadour Lync Poetry, Edinburgh, 1971
- Radice, B, ed., The Letters of Abelard and Heloise, Harmondsworth, 1974
- Rashdall, H., The Universities of Europe in the Middle Ages, ed Powicke, F. M., and Emden, A. B., 3 vols, Oxford, 1936
- Richter, M., Giraldus Cambrensis, Aberystwyth, 1972
- Sauerlander, W., Gothic Sculpture in France, London,

- Savage, A, ed. and trans, The Anglo-Saxon Chronicles. London, 1983
- Sayers, D. L., ed. and trans., The Song of Roland, Harmondsworth, 1957
- Simpson, O von, The Gothic Cathedral, London, 1956
- Southern, R W, Medieval Humanism and Other Studies, Oxford, 1970
- Thospe, L., ed., The History of the Kings of Britain by Geofficy of Monmouth, Harmondsworth, 1966
- Topsfield, L. T. Troubadours and Love, Cambridge, London, New York, 1975
- Van der Werf, H., The Chansons of the Troubadours and Trouwres: a study of their melidies and their relation to the poems, Utterht, 1972
- Webb, G., Architecture in England the Middle Ages, Harmondsworth, 1954
- Whitelock, D and others, eds., The Anglo-Saxon Chron, rev. edn., London, 1961
- Zarnecki, G., English Romanesque Sculpture, 1066-1140, London, 1951
- Zarnecki, G., Later English Romanesque Sculpture, 1140-1210, London, 1953
- Zarnecki, G., Romanesque Art, London, 1971

### Crusades and Warfare -

- Benevenisti, M., The Crusaders in the Holy Land, Jerusalem, 1970
- Brown, R. A., English Castles, 4th edn., London, 1976
- Ehrenkreutz, A. S., Saladın, New York, 1972
- Godfrey, J., 1204. the Unholy Crusade, London, 1980
- Hill, G., A History of Cyprus, 2 vols, Cambridge, 1940
- Koch, H. W., Medieval Warfure, London, 1978
- Lewis, B, The Assassins, London, 1967
- Mayer, H. E., The Crusades trans. Gillingham, J., Oxford, 1972
- Norwich, J. J., The Kingdom in the Sun, London, 1970

- Oman, C., A History of the Art of War in the Middle Ages, 378-1485, 2 vols, 2nd edn., London, 1924
- Prawer, J., The Latin Kingdom of Jerusalem, London,
- Riley-Smith, J., The Knights of St John in Jerusalem and Cyprus, c. 1050–1310, London, 1967
- Runciman, S., A History of the Crusides, 3 vols, Cambridge, 1951-4
- Setton, K. M. and others, A History of the Crusades, vols I-II, Madison, 1962

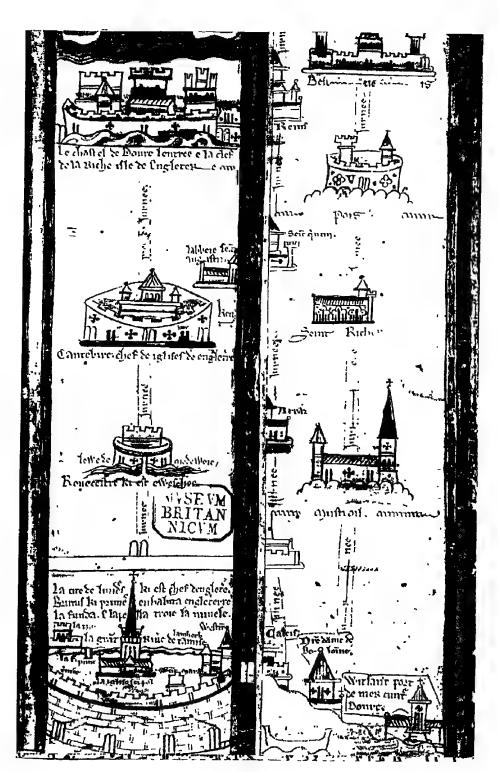
Smail, R. C, Crusading Warfare, 1097-1193, Cambridge, 1956

Verbruggen, J. F., The Art of Warfare in Western Europe during the Middle Ages, Oxford, 1977

Sumption, J., The Albigensian Crusade, London, 1978

## Bibliographies, Atlases and Reference Works -

- Centre National de la Recherche Scientifique, Bibliographie Annuelle de l'histoire de France, Paris, 1953-
- Douglas, D. C., and Greenaway, G. W., eds., English Historical Documents II, 1042-1189, London, 1953
- Falkus, M., and Gillingham, J., Historical Atlas of Britain, London, 1981
- Gross, C., and Graves, E. B., A Bibliography of English History to 1485, Oxford, 1975
- Longnon, A., Atlas Historique de la France, 2 vols, Paris, 1885-9.
- Rothwell, H, ed., English Historical Documents III, 1189-1327, London, 1965
- Royal Historical Society, Annual Bibliography of British and Irish History, London, 1976-



رحلة من لندن إلى القدس

## Chronicles

### Part I

John of Marmoutier, The Chromites of the counts of Anjou, ed L. Halphen & R. Poupardin in Chromiques des cumtes d'Anjou et des seigneurs d'Ambrise, Collection des Testes, Paris 1913, pp 29–31, 37–44, 143–51, 161–2 Extracts

### Part II

lohn of Marmoutier, The History of Duke Geoffrey, in The Chronicles of the counts of Anjou, and , pp 176–231 Extracts

Henry of Huntingdon, The History of the English, ed T. Amold in Rolls Series 1879, pp 259–92. Extracts

The Deeds of Stephen, (anon ), trans and ed Thomas Forester in Henry of Huntingdon, Henry G Bohn, London 1853 Extracts

### Part III

Ralph of Diceto, Images of History, ed W Stubbs in The Historical Works of Master Ralph of Diceto, Rolls Series 1876, I, 291–439, II, 3–66 Extracts.

William of Newburgh The History of English Affars, ed D.C. Douglas and G.W. Greenaway in English Historical Documents 1042–1189, London 1953; pp 322–3, 325, 329–30 Extracts

The Deeds of King Henry II, in English Historical Documents, op cit, pp 377–9 Extracis

William FitzStephen, The Life of St Thomas Becket, ed and trans. G W Greenaway in The life and Death of Thomas Becket, Chancellor of England and Archbishop of Canterbury, The Folio Society, London 1961, pp 35–44, 55–8, 156–7. Extracts.

Wilham FitzStephen, Description of the city of London (1170–1183), given as a preamble to his Lafe of St Thomas Bechet, ibid Extracts.

Adam of Eynsham, The Life of St Hugh of Lincoln, ed the

late Decuma L. Douie & David Hugh Farmer in Magna Vita Sancta Hugons, Oxford University Press, 2nd edin 1985, I, 60–3, 85–6, 115–9, II, 93–4, 104–9, 125–30, 169–70 Extracts

Jordan Fanto-me, Chromele of the War between the English and the Scots, in English Historical Documents, op-est

#### Part IV

Ralph of Diceto, op cit, II, 66-166 Extracts

Rigord, The Deeds of Philip Augustus, ed. H-F Delaborde in Ocumes de Rigord et de Guillaume le Bieton, Soxiété de l'Histoire de France 1882-5, pp 106-9. Extracts

Richard, canon of Holy Trinity, Aldgate, The Itmerary of the Pilgrims, ed. W. Stubbs in Rolls Series 1864, pp 259– 78 Extracts. Also The Deeds of King Richard, ed. W. Stubbs in Rolls Series 1867; II, 80–4, 151–5, 158–61. Extracts.

Adam of Eyrsham, The Life of St Hugh of Lincoln, op-cit, II, 98–105, 134–7 Extracts

Gerald of Wales, The Description of Wales, trans Lewis Thorpe in Journey through Wales/Description of Wales, Penguin, London 1978 (copyright the Estate of Lewis Thorpe 1978) Extracts.

### Part V

Ralph of Direto, op cit., II, 166-75. Extracts

Ralph of Coggeshall, The English Chronicle, ed J Stevenson in Chronicon Anglicanum, Rolls Series 1875, pp 101– 62 Extracis

The Banucll'Annals (anon), ed W. Stubbs in The Historical collections of Walter of Coventry, Rolls Scries 1873, Il, 201–32 Extracts

Gervase of Canterbury, The Deeds of Kings, ed. W. Stubbs in The Historical Works of Gervase of Canterbury, Rolls Series 1880; II, 96–106. Extracts

المحتوى

## - $\vee$ $\wedge$ $\wedge$ -

## رقم الصفحة الموضوع توطئة ٤ مرخل ٧ المؤرخون ١. القسم الأول \_ أصول الأسرة الأنجيفية 10 سنة ٢٠٩ 17 سنة٧٨٧ 14 سنة ١٠٤٠ 7 8 سنة٢٤٠١ 47 سنة ١٠٦٠ ٣. سنة١٠٦٦ 41 سنة١١٠٧ 34 سنة ٩٠١١ 40 سنة١١١٠ 47 سنة۱۱۲۸ 37 سنة١١٢٩ 44 سنة١١٣١ 3 القسم الثانى \_غيوفري بلانتغنت ٤١ سنة١١٢٨ 24 سنة١١٣٢ ٦. سنة١١٣٥ 7. سنة١١٣٦ 70 سنة١١٣٧ 77

```
سنة١١٣٨
                           77
             سنة١١٣٩
                           77
             سنة ١١٤٠
                           ٧٤
             سنة١١٤١
                           ٧٥
             سنة٢٤١١
                           ٧٨
             سنة١١٤٣
                           V9
             سنة٤٤١١
                           ۸٠
             سنة١١٤٥
                           ۸١
             سنة١١٤
                           ۸۱
             سنة١١٤٧
                           ۸۲
             سنة١١٤٨
                           ۸۲
             سنة ١١٤٩
                           ۸٣
             سنة١١٥٠
                           ٨٤
             سنة١٥١١
                           ٨٤
             سنة١١٥٢
                           ٨٦
             سنة١١٥٣
                           ۸۷
             سنة١١٥٤
                           94
القسم الثالث ـ هنري الثاني
                           90
             سنة٥٥١١
                           99
             سنة١١٥٦
                          1.9
             سنة١١٥٧
                         11.
            سنة ۱۱۵۸
سنة ۱۱۴۹
                          11.
                          111
            السفة ١١٦
                          111
             سنة١١٦١
                          114
```

سنة٢٢١١	114
سنة١١٦٣	117
سنة١١٦٤	119
سنة ١١٦٥	14.
سنة١١٦٦	171
سنة١١٦٧	177
سنة١١٦٩	174
سنة١١٧٠	178
سنة١١٧١	141
سنة١١٧٢	144
سنة١١٧٢	147
سنة١١٧٤	131
سنة ١١٧٥	17.
سنة١١٧٦	171
سنة١١٧٧	177
سنة۱۱۷۸	179
سنة١١٧٩	14.
سنة١١٨٠	115
سنة١٨١١	١٨٧
سنة١١٨٢	19.
سنة١١٨٣	191
سنة١١٨٤	190
سنة١١٨٥	197
سنة١١٨٦	197
سنة١١٨٧	4.0
سنة١١٨٨	7.7

سنة ۱۱۸۹	1 7.9
لقسم الرابع ـ رتشارد الأول	
سنة ١١٩٠	
سنة١١٩١	
سنة١١٩٢	1 40.
سنة١١٩٣	107
سنة ١١٩٤	707
سنة١١٩٥	707
سنة١١٩٦	. 777
سنة١١٩٧	
سنة١١٩٨	477
سنة١١٩٩	1 173
لقسم الخامس ـ جون	1 114
سنة ١٢٠٠	
سنة١٢٠١	. ۲۹7
سنة٢٠٢	497
سنة١٢٠٣	4.8
سنة ٤ ٢٠٤	
	4.0
ىىنةە١٢٠	
سنةه۱۲۰ سنة۱۲۰	41.
سنة٢٠٦١	. W17
۱۲۰۶منس ۱۲۰۷منس	#1. #17 #1V
۱۲۰۶منه ۱۲۰۷منه ۱۲۰۸منه	#1. #17 #1V
۱۲۰۶منس ۱۲۰۷منس	#17 #17 #17 #17 #17

سنة١٢١١	474
سنة١٢١٢	448
سنة١٢١٢	۳۳.
سنة١٢١٤	447
سنة١٢١٥	۲۳۸
سنة١٢١٦	40.
خاتمة	400